ماريا بِيا بيداني



البندقية
بوّابة الشرق

ترجمة

د. حسين محمود

نبذة عن المؤلّفة

ماريـا بِيا بيداني، أسـتاذة جامعيـة تخرجت في كليـة اللغـات والآداب الأجنبيـة بجامعـة «كا فوسـكاري» الإيطاليـة، ودرّسـت الإنسـانيات بجامعـة «تريسـته»، ثـم حصلـت علـى درجـة الدكتوراه في التاريخ من جامعة «سجد» بالمجر. عملـت في أرشـيفات الدولـة لمدة عشـرين عاماً عيّنـت بعدهـا أسـتاذاً مشـاركاً لتاريـخ الـدول الإسـلامية، وتحاضـر على نحو خاص في تاريخ الدولـة العثمانية، وهـو التخصص الذي دارت حوله العديد من مؤلفاتها المنشورة.

ماريا بِيا بيداني

البندقية بوابة الشرق

ترجمة: د. حسين محمود

مراجعة: د. عزالدين عناية

بيانات الفهرسة أثناء النشر

DG676.97.T9 P43125 2017

Pedani, Maria Pia

البندقية بوّابة الشرق / تأليف ماريا بيا بيداني ؛ ترجمة حسين محمود ؛ مراجعة عزالدين عناية. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2017.

508 ص. ؛ 14 × 21 سم.

ترجمة كتاب: Venezia porta d'Oriente

تدمك: 978-9948-23-419-7

1- البندقية- العلاقات الخارجية- تركيا. 2- تركيا- العلاقات الخارجية- البندقية.

3- البندقية (إيطاليا)- تاريخ.

أ- محمود، حسين. ب- عناية، عزالدين. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي:

Maria Pia Pedani

Venezia porta d'Oriente



www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 971+



البندقية بوابة الشرق

الفهرست

الفصل الأول
أسد جاء من بعيد

الفصل الثاني
الاتصالات الأولى

الفصل الثالث
بين الحرب والسلام

الفصل الرابع
نظام البندقية الدبلوماسي والقنصلي

الفصل الخامس
الدبلوماسيون والمبعوثون الشرقيون

الفصل السادس
البنادقة في الشرق

الفصل السابع
بين هويتين

الفصل الثامن
مسلمون في البندقية

الفصل التاسع
معرفة الآخر

الفصل الأول

أسد جاء من بعيد

1. أساطير وبقايا

اتفق المؤرخون على تأكيد ضياع أصول البندقية في ضباب العصور الوسطى، حيث التاريخ الأسطوري لتأسيس المدينة وهو 25 مارس عام 421م، والتاريخ الآخر الرائع هو 8 يناير عام 429، عندما تم تدشين كنيستها الأولى في جزيرة ريالتو، والتي حملت اسم القديس جاكومو. إذ تقول الأسطورة إن السكان الأُوَل وصلوا من البر إلى البحيرات الداخلية فارين من جحافل «أتيلا» الحاكم العظيم للهُون. وبعيداً عن الأسطورة فمن المحتمل جداً أن تكون البندقية وليدة بيزنطية، وتجاذبها مدار هذه الحضارة لعدة قرون.

وقد ظهر الدوكس (كلمة اشتق منها مصطلح الدوجي والتي أصبحت تطلق على رؤساء دولة البندقية) أول ما ظهر وفقاً للممارسة المعمول بها في الإمبراطورية البيزنطية، أي الحاكم الذي يحكم نيابة عن بطريرك رافينا. ووفقاً للمؤرخين القدماء كان اسم الدوكس الأول باولوتشو أنافيستو وتم تعيينه عام 697؛ وخلفه عام 717 مارتشيللو ثم أورسو عام 727، وفي عام 742، عندما تم نقل الحكومة من إيراكليا إلى

مالاموكو، كانت البحيرة لا تزال تحت الولاية القضائية لبيزنطة. ومع ذلك، ففي أوائل القرن التاسع، كان وجود الكارولنجية محسوساً بغلظة وشدة، حيث كانوا يسعون من البر للتوسع في بحيرات البندقية. وفي عام 810م انتقل مقر الدوقية نهائياً إلى ريالتو، وبعد عامين عادت تماماً لتخضع للنفوذ البيزنطي[1].

هذا إذاً كان وضع البندقية السياسي في العقد الثالث من القرن التاسع، عندما كانت سفنها التجارية تندفع بالفعل إلى الجنوب في منطقة البحر الأبيض المتوسط حتى لامست موانئ المسلمين في شمال إفريقيا. فقد كانت الدوقية في واقع الأمر مستقلة، ولكنها رسمياً كانت مقاطعة تابعة للإمبراطورية الشرقية البعيدة. وفي هذه المدة دفع توسيع الحكم الذاتي البنادقة إلى زيادة الاعتماد على مدينة جرادو ومحاولة الهرب من تأثير مقر أكويليا، من الناحية الدينية. كانت المدينتان بالفعل تتفاخران كلتاهما بلقب البطريرك وكلتاهما كانتا تستمدان حقوقهما من الزيارة الأسطورية للإنجيلي مرقس، الذي من المفترض أنه وصل من الإسكندرية البعيدة، إلى داخل مقاطعة فينيسيا الرومانية. وكان النقل المؤقت لمدينة أكويليا إلى جرادو الذي تم عام 568 قد أدى في الواقع، بعد عام 605م، إلى تشكيل مقرين متمايزين يتفاخران كلاهما بالأصل نفسه والحقوق نفسها. وفي عام 827 بدا أن مجمع مانتوفا قد قبِل مطالب أكويليا ووضع حداً لمطالب جرادو[2].

(1) G. Ravegnani, *Bisanzio e Venezia*, Bologna, Il Mulino, 2006, pp. 11-46.

(2) S. Tramontin, *Origini e sviluppi della leggenda marciana*, in F. Tonon (a cura di), *Le origini della Chiesa di Venezia*, Venezia, Studium Cattolico Veneziano, 1987, pp. 167-186.

وهذا هو السياق الذي علينا أن نقرأ فيه نقل الجسم الإنجيلي المصري الإسكندري إلى البندقية، والذي أنجزه اثنان، أحدهما أطربون والآخر تاجر، بونو دا مالاموكو وروستيكو دا تورتشيللو، اللذان عادا، وِفقاً للتراث، إلى الوطن مع الرفات الثمينة في يوم 31 يناير من عام 828م. ونظر بعض المحليين إلى هذه الحادثة على أنها أول شهادة تؤكد العلاقة بين المدينة البحرية وبلد إسلامي، على الرغم من أنه ثبت وجود اتصالات أقدم بكثير منها على أية حال. ففي عام 1343 وصف الدوجي أندريا دندولو الحادث في كتابه «**الحوادث**» كما يلي:

«في العام الثاني [من دوقية] الدوجي [جوستيانو بارتشيباتسيو] تم نقل جسم المبارك مرقس الإنجيلي من الإسكندرية [مصر] إلى البندقية [...] وجرى النقل بهذه الطريقة. عندما أراد خليفة المسلمين بناء قصر في القاهرة، أمر رجال الكنائس المسيحية وأصحاب الأماكن الأخرى من المواطنين العاديين من رعاياه أن يزيلوا حجارتها لتجميل قصره. وحين دخل كنيسة ماري مرقس، الأطربون بونو دا مالاموكو وروستيكو دا تورتشيللو، حسب العادة، ورغم أنهما من رعايا البندقية، فقد دخلا ميناء الإسكندرية، مدفوعين من الرياح، ومعهما عشر سفن محمّلة بالبضائع، وشاهدا الراهب ستاوراتيسيو والقس والكاهن تيودور، وكلاهما يوناني، وهما حارسا المعبد، وكانا في حالة يرثى لها. فسألاهما عن سبب قلقهما فعرفا أنهما يخشيان تدمير الكنيسة بسبب مرسوم الخليفة القاسي. فرجواهما [البندقيان] أن يسلما إليهما الجسد المقدس، لنقله إلى البندقية، مع وعد منهما بأنهما سوف يتلقيان عظيم التشريف من دوجي البندقية

[...] عندئذٍ قرر الحارسان وهما يريان الدمار يحيق بالمعبد والخطر الذي يلوح في الأفق على شخصيهما، الإذعان لطلبهما وحددا يوم تسليم الجسد المقدس. [هذا الجسد] كان ملفوفاً في عباءة من الحرير، مغلقاً عند الرأس والقدمين بالعديد من الأختام. وهكذا حملا جسد القديسة كلاوديا [...] ثم نزعا جسد القديس مرقس، ووضعا جسد القديسة كلاوديا، مع الحفاظ على الأختام. وفجأة انتشرت رائحة طيبة تملأ المدينة كلها، فاندهش الناس من المعجزة، واشتبهوا في أن جثة الإنجيلي قد أزيلت. فهرع الناس إلى الكنيسة، وفتحوا النعش، فوجدوا العباءة لا تزال مختومة، فعادوا إلى منازلهم بخيبة أمل. وبينما كانا يحملان [الجسد] على متن السفن، غطوه بالأعشاب ولحم الخنزير، ولما سألوهما [رجال الجمارك] ماذا يحملان أظهرا لهم هذا، فأصيب المسلمون بالهلع وهم يهتفون: «خنزير، خنزير». وهكذا أمكن لهما نقل [بقايا الجسد] إلى البندقية [...] دخلا ميناء أوليفولو. تزاحم الدوجي، ورجال الدين والناس ووضعوا الرفات مصحوبة بالتراتيل والأغاني، في كنيسة الدوقية[1].

وتقول الأسطورة، إذاً، إن الأطربونين لم يذهبا إلى مصر للتجارة وحسب، في انتهاك لقرارات الإمبراطور البيزنطي التي كانت تحظر هذه الممارسة، ولكنهما أيضاً كانا معتادين على عادات المسلمين، بحيث استطاعا تضليل رجال الجمارك بالإسكندرية، عندما خبآ الجثة تحت لحم الخنزير وكانا يعرفان أن المسلمين يمقتونه، وقد تم تصوير هذه الحادثة

(1) A. Dandolo, *Andreae Danduli ducis Venetiarum Chronica per extensum descripta: aa. 46-1280 d.C.*, a cura di E. Pastorello, *Rerum Italicarum Scriptores*, t. I, parte III, fasc. 1, Bologna, Zanichelli, 1938, p. 251.

عدة مرات في أعمال فسيفساء تنتمي إلى النصف الأول من القرن الثاني عشر تُزيّن كنيستي سان كليمنتي، وسان ماركو، حيث لا يزال من الممكن أن نرى الكلمة المنطوقة من قبل موظفي الجمارك العرب (وصفٌ صوتي بحروف لاتينية لكلمة «خنزير» العربية)، وتكررت عدة مرات إلى جانب سفينة بونو وروستيكو.

وكانت اللحظة المختارة لإنجاز هذه المغامرة مواتية إلى أقصى حد، ليس بالنسبة إلى البندقية فحسب ولكن أيضاً بالنسبة إلى الإسكندرية. وقد كانت مصر تمرّ بأزمة اقتصادية شديدة، بلغت ذروتها في انتفاضة شعبية عام 829، وقد وحّدت هذه الأزمة المسلمين والمسيحيين احتجاجاً على ابتزاز الخليفة الذي كان في بغداد. وكان اسم القاهرة المعروف في الغرب هو بابليون (Babiliona)، وقد استخدمه من قبل دندولو لهذه المدينة، في العصور الوسطى اللاتينية حيث كانت هناك مدينتان أُخريان معروفتان بهذا الاسم نفسه، هما بابل التوراتية والقاهرة، ولكن القاهرة تأسست بعد أكثر من قرن من نقل رفات القديس الإنجيلي في عام 969، في ظل الدولة الفاطمية. وقد كان الخليفة العباسي الذي يحكم في بغداد عام 828 هو المأمون (813-833م)، والذي كان قد استعاد الحكم قبل بضع سنوات، وتحديداً عام 819، بعد صراع بين الأشقاء.

وكان قد تم توسيع قصر الخليفة نفسه، إضافة إلى بناء أكاديمية للعلوم، وميدان سباق للخيل، وحديقة للحيوان وعدة أحياء، وكان هناك بحثٌ حثيث أيضاً عن الرخام النفيس والمال، ووصل البحث إلى أقصى حدود الخلافة، وقد أثّر ذلك تأثيراً محسوساً بشدة في الأقاليم المصرية. ولذلك

بدا موقف حارسي الكنيسة اليونانيين مفهوماً في استعدادهما للتنازل عن رفات القديس ومساعدة البندقيين على إخفاء هذه «السرقة المقدسة» عن باقي المؤمنين في الإسكندرية. وربما كان الأمر متعلقاً بعملية بيع وشراء، على الرغم من أن الكنيسة حرّمت مثل هذه الممارسات، التي استمرت رغم هذا لعدة قرون وخاصة عندما انتشرت في أوروبا صرعة الهوس بشراء البقايا والرفات المقدسة، وزادت من حدتها الاتصالات التي تكثّفت بالأماكن المقدسة: ففي عام 1485 اشترى البنادقة في فوجيرا رفات القديس روكو، والتي لا يزال مخصصاً لها حتى اليوم أكبر مقر علماني في المدينة لإحدى الأخويات (وتسمى المدارس البندقية).

كان نقل جسد القديس مرقس لفتة لها قيمة رمزية كبيرة أدّت إلى الطعن في شرعية العاصمة السياسية أكويليا وسلطتها، وتقديم الحُجج الدامغة لمصلحة جرادو: وهكذا حَظِيَ بطريرك جرادو، الذي أصبح رفات القديس في اختصاص ولايته القانونية الآن، بأهمية وكاريزما أكبر. وفي الوقت نفسه، كان لمبادرة بونو وروستيكو فائدة إضافية لمدينة البندقية: فإذا كانت من وجهة النظر الدينية قد أخرجتها من سلطة الأسقف البعيد، فهي من وجهة النظر السياسية رفعت سَقف المطالبات بالاستقلال عن بيزنطة، وقد حلت محل طقوس العبادات المحلية لتيودورو، وهو قديس حربي من أصل بيزنطي، طقوسُ القديس مرقس، في البداية باعتباره حامياً للدوجي وللكنيس الدوقي، وفيما بعد للدولة نفسها. وفي الواقع، بعد مرور عام على المغامرة الإسكندرية، في عام 829، تخلى الدوجي عن لقب «حاكم مقاطعة البندقية» إلى «حاكم

البندقية»، لكي يقدم نفسه بذلك ليس كَوْنهُ موظفاً بيزنطياً مسؤولاً عن إحدى مقاطعات الدولة البيزنطية وإنما بكونه حاكماً لشعب أصبح الآن مستقلاً. ولذا فإن عظمة البندقية منذ البداية نشأ أصلها من صِلاتها الموجودة مع الشعوب الإسلامية وديار الإسلام.

2. البندقية: إسكندرية جديدة

ساهم نقل رفات القديس مرقس أيضاً في التحديد التدريجي لهوية البندقية بأنها «الإسكندرية الجديدة». وفي كاتدرائية القديس مرقس العديد من العناصر التي تشير إلى مثل هذه الفكرة. على سبيل المثال، في جناح الكنيسة الشمالي، نجد لوحة فسيفسائية تعود إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، تروي قصة العودة من مصر، وعنصرين معماريين أحدهما يحيل إلى مسلّة، مثل تلك التي كانت موجودة حتى عام 1879 بالإسكندرية، وهي الآن في سنترال بارك بنيويورك، فيما يحيل العنصر الآخر إلى باب يعلوه عمود من الجرانيت، ربما كان على غرار عمود دقلديانوس (المعروف باسم «بومبي») الذي لا يزال موجوداً في القلعة القديمة للمدينة المصرية، وهناك إحالات أخرى نستطيع أن نتلمسها في تصاوير قصص القديس مرقس يمكن العثور عليها في مصليات القديس كليمنتي والقديس بطرس، التي يعود تاريخها إلى النصف الأول من القرن الثاني عشر، وقد جرت وقائع حياة هذا القديس بين فلسطين وروما والإسكندرية حيث كتب إنجيله، وكان أول أسقف للإسكندرية، ووفقاً للتقاليد استشهد فيها، وتم أيضاً تصوير الإسكندية

الشهيرة بالفسيفساء، وهي واحدة من عجائب الدنيا السبع في العالم القديم، والتي انهار آخر ما تبقى منها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر: القبة المضاءة في الوسط، وفي المقدمة نرى القديس مسحوباً بحبل من عنقه أولاً ثم مقطوع الرأس، ثم مدفوناً في النهاية[1].

ويمكننا خارج الجناح الشمالي من بهو الكنيسة أن نرى نقشاً بارزاً يمثل «رحلة الإسكندر الأكبر» مؤسس المدينة التي سميت باسمه. يتعلق الأمر بنقش بيزنطي يعود إلى القرن الثاني عشر، ولكنه لم يعلق في مثل هذا الموضع إلا في بداية القرن التالي، عندما تخيَّل الدوجي إنريكو داندولو (1192–1205م) أن الأيقونة الجديدة للكنيسة الدوقية لابد أن ترمز إلى انتصار الملوك والسلطة الزمنية. وأخيراً، تم اكتشاف أثر في أساس المحراب الرئيس يحمل نجمة ثمانية بحجم الدرع، مشابه لشعار إمبراطورية ألساندرو وإلى جانبه رمح، يفترض أنه «ساريسا» مقدونية. وثمة روابط أخرى، أسطورية وأدبية، مثل تلك الواردة في «قصة الإسكندر»، وهو عمل أدبي كان منتشراً على نطاق واسع في العصور الوسطى في كل من أوروبا المسيحية والشرق الأدنى الإسلامي، ربطت البندقية وقديسها بالمدينة المصرية ومؤسسها. فمثلاً يؤكد التراث العربي أن الزعيم المقدوني قد دفن فعلاً في الإسكندرية في مكان ليس بعيداً عن كنيسة القديس مرقس القبطية، بل كان هناك افتراض أيضاً أن الغرفة الرخامية التي اكتشفت في المقبرة اللاتينية ربما تكون الضريح الحقيقي

(1) D. Howard, *Venice and the East. The Impact of the Islamic World on Venetian Architecture 1100-1500*, New Haven (Conn.) - London, Yale University Press, 2000, pp. 71-80.

للإسكندر الأكبر.

لذلك هناك بالفعل أوجه شبه بين أسطورة القديس مرقس ورفاته، والقائد المقدوني، ولكن بعض الدارسين والأدباء، ذهبوا بقدر كبير من الخيال إلى افتراض أنه خلال الاضطرابات التي شهدها القرن الرابع الميلادي، عندما اختفت آثار جثة الزعيم المقدوني، قد تكون استخرجت من القبر الإمبراطوري وتم إخفاؤها في كنيسة القديس مرقس القريبة، حيث وضع في التابوت نفسه الذي وضعت فيه رفات القديس الإنجيلي لحمايته من الهجمات المحتملة من جانب المتطرفين المسيحيين. وعلاوة على ذلك، يعتقد الباحثون أن الكهنة اليونانيين في الكنيسة لم يكونوا ليسلموا طواعية قديسهم للبنادقة، وإنما اقتصروا على التخلص من رفات الميت العظيم الآخر (الإسكندر)، وهو في الحقيقة الذي تم دفنه بمراسم احتفالية في البندقية.

هذه الفكرة، رغم غرابتها، تستند إلى بعض الأدلة الحقيقية: ليس فقط القرب المكاني بين القبر والكنيسة (حوالي تسعمائة متر)، ولكن أيضاً حقيقة أن الجسم الذي تم تسليمه لبونو وروستيكو كان محنطاً، في حين أن الحكايات التى تُروى في التراث تفيد بأن القديس مرقس تم قطع رأسه ثم أضرمت النيران في جثته، وإضافة إلى ذلك، فإن الرأس المقطوع من الجسد، ربما بقي في مصر، كما قالت مصادر لا تعد ولا تحصى، وقد حاول أحد المسيحيين (كان قد أخرج الرأس من كنيسة ماري جرجس عام 1419) بيع الرأس، إلا أن البيع لم يتم، ربما مخافة التحايل. وعلى العكس من ذلك، فإنه أثناء عملية التعرف على رفات مرقس، التي تمت في البندقية من قِبل

نابوليون يوم 6 مايو عام 1811، تم العثور بجانب صفيحة من الرصاص بتاريخ 8 أكتوبر 1094 على «رأس كامل الأسنان والعظام الرئيسة التي تكون الهيكل العظمي لرجل حقيقي ورفات بلا أنسجة وجافة، إضافة إلى العديد من القطع المسحوقة بالفعل والكثير من الرماد». وقد يكون هذا دليلاً على أن الرفات المحفوظة في البندقية ليست في الواقع رفات القديس مرقس، والتي كانت قد فُقدت ثم تم العثور عليها بأعجوبة عام 1094، ولكن لا شيء يشير إلى أنها تحديداً رفات الفاتح المقدوني الكبير(1).

3. رمز الدولة

لقد همش انتقال رفات القديس مرقس مكانة الراعي القديم للمدينة، وهو القديس تيودور الذي كان الجيش البيزنطي يجلّه. وفي البداية كان تبجيل مرقس في البندقية في هيئته البشرية، وبعد عدة قرون استبدل بها رمز أسد على شاكلة إنسان، ولم تكتمل العملية إلا في نهاية القرن الثاني عشر، وإلى النصف الثاني من ذلك القرن تعود الصور الأقدم لأسد مرقس التي تحتفظ بها البندقية، على بوابة سانت البيبو كما في قبة الجوقة بالكنيسة، وكان رمزاً يقتصر في ذلك الوقت على المدلول الديني دون المدني(2)، وفي أقدم الأختام الدوقية، التي كانت تستخدم ذات يوم لختم

(1) A.M. Chugg, *The Lost Tomb of Alexander the Great*, London, Periplus Publishing, 2004, p. 275; G. Vianello, *Marco Evangelista. L'enigma delle reliquie*, Napoli, M. D'Auria, 2006, pp. 28-30, 100-106.

(2) G. Aldrighetti e M. De Biasi, *Il gonfalone di San Marco. Analisi storicoaraldica dello stemma, gonfalone, sigillo e bandiera della Città di Venezia*, Venezia, Filippi, 1998, pp. 31-37; A. Rizzi, *I leoni di San Marco. Il simbolo della Repubblica Veneta nella scultura e nella pittura*, 2 voll., Venezia, Arsenale, 2001, vol. I, p. 17.

وثائق الدولة المرقسية، كانت تظهر صورة القديس في هيئته البشرية يسلم للدوجي راية نُقش عليها شكل الصليب. إلا أن هذه الصورة خضعت في عام 1261 لتغيير كبير: وبدلاً من الصليب نرى أسداً صغيراً في وضع يسمى «*in moleca*» أي بأجنحة تفعل فعل التاج مثل ذيل الطاووس أو مخالب سرطان البحر (*moleca*» في البندقية هو سرطان البحر في مرحلة تغيير الجلد). وفي عام 1261 نفسه حدث سقوط الإمبراطورية اللاتينية، التي تأسست عام 1204 مع الحملة الصليبية الرابعة التي ساهمت فيها السفن البندقية. عندئذٍ عاد الجنود البيزنطيون إلى القسطنطينية منتصرين: وهكذا بدأت أزمة الانفلات الأمني وأزمة في الأوضاع التي كانت قبلها تُعدُ مكتسبة، وعملت جنوة، المنتصرُ الجديد، على أن تحرم البندقية من القيام بأي نشاط تجاري في الإمبراطورية اليونانية المعاد تشكيلها. وفّرت سلطات البندقية هرباً من المدينة الإمبريالية، إلى نيغروبونتي. وقد قرر بطريرك اللاتين بانطاليون جوستينيان التوقف في الجزيرة حيث أمر ببناء الكاتدرائية الجديدة باسم القديسة باراشيف. وهناك على واحدة من الدعامات التي تدعم عوارض السقف، نستطيع أن نرى صورة أسد مؤطر بطريقة شعارات العائلات النبيلة، مجنح، خارج من موجات ويرافقه إنجيل مختوم: وهكذا جعلت دولة البندقية من الأسد المرقسي رمزاً خاصاً بها.

وفي عام 1261م وقعت أحداث كثيرة ومهمة أثرت في صورة السلطة التي كانت موجودة في البندقية. ومثّل سقوط الإمبراطورية اللاتينية لحظة الأزمة السياسية والتجارية واهتزاز الصورة. وتعرض ازدهار

حركة التجارة لتوقف مفاجئ: ففي غضون أشهر قليلة أغلقت الدولة البيزنطية البلاد أمام البنادقة الذين كانوا حتى ذلك الحين السادة الحقيقيين عليها. ولم يكن من المعروف ما إذا كان سيتم استئناف العلاقات مع القسطنطينية في وقت قصير أم لا. وكان من الضروري في أقرب وقت إعادة وضع تصور لاستراتيجية تجارية واسعة المدى، من شأنها أن تعيد الربحية لرأس المال، وتوفر أيضاً مكاناً لمنتجات المدينة المرقسية. ومن ثم كان اختيار مصر بوصفها سوقاً متميزاً اختياراً لا غنى عنه. فكان تجار البندقية يزورون بانتظام ميناء الإسكندرية منذ بداية القرن التاسع على الأقل، يصدرون إليها الأخشاب والعبيد، على الرغم من أن الأباطرة البيزنطيين كانوا يعارضون منذ مدة طويلة مثل هذه التجارة. وإضافة إلى ذلك، تلقَّوا منذ بداية القرن امتيازات وعهد أمان من الحكام الأيوبيين، الذين كانوا يحكمون تلك المنطقة آنذاك، وفي عام 1238 كان هناك فندقان في الإسكندرية، وكنيسة مكرسة لسان ميشيل وحمام للاستخدام لم يكن مسموحاً لغيرهم من المسيحيين بدخوله[1].

وقد كان منتصف القرن كثيف التغيرات أيضاً، فيما يخص الأراضي المصرية. فقد خرج منها السلاطين الأيوبيون، أحفاد صلاح الدين العظيم، بسبب المكائد والاقتتال الداخلي، وجاءت طائفة جديدة إلى السلطة، قوامها من المماليك، وهم جنود يطالبون بأحقيتهم في اختيار الحاكم من بين صفوفهم. وفي عام 1260 صعد إلى العرش قائد كبير من

(1) M.P. Pedani, *Bahrî Mamlûk-Venetian Commercial Agreements*, in H.C. Güzel, C.C. Oğuz e O. Karatay (a cura di), *The Turks*, 6 voll., Ankara, Yeni Türkiye, 2002, vol. II, pp. 298-305.

أصل تركي، هو الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي البندقداري (1260-1277م)، والمعروف باسم بيبرس، وهو القائد الوحيد الذي تمكن، عندما كان قائداً للجيش، من هزيمة جيوش المغول بقيادة هولاكو في معركة ضارية (عين جالوت في 3 سبتمبر 1260)، والتي أنقذ فيها العالم كله، وليس فقط الدول العربية، من الغزو المغولي بما في ذلك أوروبا أيضاً. وقد أعاد هذا الحاكم تنظيم الدولة، ووضع الأساس لعظمتها في المستقبل، وجعل النظام النقدي أكثر استقراراً، بدءاً من سك عملة الدرهم بمحتوى عال من الفضة، وهكذا بدأت العاصمة، القاهرة، تصبح واحدة من أكثر المدن اكتظاظاً بالسكان في منطقة البحر الأبيض المتوسط، ففي بداية القرن التالي بلغ عدد سكانها ستمائة ألف نسمة، في مقابل مائة وعشرة أو مائة وعشرين ألفاً في البندقية التي كانت تُعد من أكثر المدن الأوروبية ازدحاماً. وازدهرت الزراعة وتوسع إنتاج القمح، في حين تحسنت الظروف الصحية العامة، وكانت هناك هجرة قوية من الحرفيين والأطباء والتجار والعلماء والجنود من المناطق الإسلامية الأخرى، وجنى التجار المسيحيون، الوافدون من قطالونيا ومرسيليا وجنوة وبيزا وميسينا وأنكونا، وبالطبع من البندقية، فائدةً عظيمةً من هذا الوضع المواتي. كانوا يشترون المنتجات المصرية مثل التوابل والسلع الشرقية الأخرى، لا سيما المنسوجات التي كانت تنتجها مصانع الدولة، وفي المقابل يبيعون السلع الأوروبية والمعادن الثمينة.

وعام 1261م، عندما كان البنادقة يهمّون بمغادرة سوق القسطنطينية بحثاً عن أسواق أكثر راحة، كان أيضاً العام الذي ارتبط فيه الأسد المرقسي

أخيراً بالدولة البندقية وظهر على أعلام «بلدية البندقية». وفي المدة نفسها شاع أيضاً استخدام شعار آخر يحتوي الأسد في البحر الأبيض المتوسط، وكان ذلك هو شعار بيبرس المملوكي، وكانت صورةُ ترسم على المباني والمقتنيات والعملات النقدية رمزاً للسلطة والسلطان.

ولا يزال مثاراً للنقاش والجدل، حتى اليوم، ما إذا كان هذا الشعار الذي ظهر أول ما ظهر في وقت الحروب الصليبية، قد ظهر أولاً في الأوساط الأوروبية أم في الأوساط التركية المنغولية العربية. ويبدو أن أول من وضعه على السلاح في أوروبا كان جوفريدو، كونت أنجو، حوالي عام 1127. هذا الرأي، لأن الدارسين تعرفوا في تصميمات الدروع الأوروبية الموجودة في قطع النسيج المشهورة باسم منسوجات بايو، والتي تعود إلى السنوات ما بين (1070–1080) وتصوِّرُ غزو إنجلترا في عام 1066، على شعارات نبالة حقيقية، في الوقت الذي فشلوا فيه في تفسير السبب الذي من أجله خلع وليام الفاتح خوذته للاعتراف به، ولو كان شعار النبالة على درعه بالفعل لما احتاج إلى مثل هذا الإجراء. وتعود الشهادة الشرقية الأولى إلى عام 1087، عندما تم بناء بوابة واحدة من البوابات الرئيسة الثلاث لمدينة القاهرة فجاءت مزيَّنة بصفٍ طويلٍ من الدروع، بعضها مستدير وبعضها أقرب إلى الاستدارة في الجزء العلوي وأكثر حدة في الجزء السفلي[1].

لكن، لا بد من الإشارة إلى أن رموزاً هندسية كانت تُستخدم فعلاً

(1) M. Meinecke, *Zur Mamlukischen Heraldik*, in «Mitteilungen des Deuschen Archäologischen Instituts, Abteilung Kairo», 28, 2, 1972, pp. 213-287, in part. tavole LII-LXVII; W. Leaf e S. Purcell, *Heraldic Symbols, Islamic Insignia and Western Heraldry*, London, Victoria and Albert Museum, 1986, pp. 41-42.

في المجتمع التركي القديم وفي المجتمع البدوي، تُسمى «تمغة» للإشارة إلى ملكية الحيوانات والأشياء، واستخدمها الأتراك بتوسع في الخلافة العثمانية لقدراتها التنظيمية منذ الأيام الأولى للإسلام، وجرى استخدامها كإدارات مختارة، بل إن البعض منهم نجح في قليل من الوقت في إنشاء ممالك حقيقية، مثل السلاجقة، الذين اشتبكوا في ملاذكرد عام 1071 مع الإمبراطور البيزنطي فهزموه وأوقعوه في الأسر. وكان الخلفاء العباسيون يستخدمون المماليك، وخاصةً من ذوي الأصل التركي أو القوقازي، ومن بعدهم من جانب الدول الإسلامية الأخرى مثل الدولة الأيوبية، حتى تمكّنوا من انتزاع السلطة منها في مصر. خلال عهودهم، والتي استمرت حتى عام 1517 كان يستخدم عادة كثير من الشعارات وعلامات النبالة: وكثير منها كان يشير إلى المهنة الأولى لمن يرتديها، وبعضهم الآخر كانوا يحملون تمغة حقيقة، وقليل آخرون كانوا يستخدمون حيوانات في الشعارات مثل النسر، سواء ذو الرأسين أو العادي، والحصان حاملاً للسروج الاحتفالية، وأخيراً الأسد السائر. وعادة ما يتم تمثيل ذلك الأسد بمخلب مرفوع (الأيمن إذا كان يسير نحو هذا الجانب، أو الأيسر إذا سار إلى الجانب الآخر) والذيل مطوي على ظهره. يلعب أحياناً مع حيوان آخر، أو بالكرة، أو يكون إلى جوار صورة بشرية. كان يتم تمثيل الأسد في شعارات النبالة الإسلامية بحرية كبيرة. فقد كان، على سبيل المثال، يوضع مع تاجه أو دونه، حتى إنه كان يتم أحياناً الحديث عن نمر ويأتي التصوير بأسد على سبيل الاستسهال. ونجد الحرية نفسها في أسد القديّس مرقس الذي استخدمه البنادقة، والذي أفلت غير مرة من

قواعد شعارات النبالة الأوروبية، فيأتي تصويره على أكثر من طريقة، بما في ذلك تصويره هائجاً، أو يأتي على نحو أكثر شيوعاً سائراً إلى اليمين أو إلى اليسار، ومعه كتاب، أو معه سيف العدالة[1].

وقد وُجدت علامة بيبرس أيضاً على القطع النقدية، رمزاً دائماً للسلطة السيادية، كما هو الحال في الدينار الذهبي الذي سكه وسكه أيضاً من بعده ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قان الذي حكم بين عامي 1277 و1280م.

ولا يمكننا إعطاء إجابات محددة، ولكن يبدو غريباً ظهور الأسد بوصفه رمزاً ملكياً في مصر والبندقية في الوقت نفسه، وسواء أكانت مصادفة أم لا، فإن رفع هذا الشعار على سارية العلم لسفينة يمكن أن يكون مفيداً لأولئك الذين يرغبون في تقديم أنفسهم باعتبارهم شركاء تجاريين يمكن الاعتماد عليهم: فالمصريون والبنادقة خاضعون بالتساوي للأسد؛ وإذا كان حقاً خياراً واعياً واستراتيجية تجارية متبناة، فيمكننا بالتأكيد أن نقول إنها المبادرة التجارية الأكثر نجاحاً في التسويق التي تم تحضيرها على الإطلاق[2].

وبعد عام 1261 تضاعفت الأسود في الأيقونة البندقية لتمثيل مسيرة الدولة المرقسية. وأقدمها هي تلك التي كانت تحمل بلا تمييز كتاباً مغلقاً

(1) L.A. Mayer, *Saracenic Heraldry*, Oxford, Clarendon Press, 1933; Meinecke, *Zur Mamlukischen Heraldik*, cit., pp. 217-221.

(2) M.P. Pedani, *Convergenze mediterranee. La rotta del leone*, in E. Cingano, A. Ghersetti e L. Milano (a cura di), *Animali tra zoologia, mito e letteratura nella cultura classica e orientale*, Padova, Sargon, 2005, pp. 365-372; M.P. Pedani, *Mamluk Lions and Venetian Lions 1260-1261*, in «Electronic Journal for Oriental Studies», 7, 21, 2004, pp. 1-17.

بين ساقيها، وأما الإنجيل المفتوح على عبارة «السلام عليك يا مرقس، يا مبشري» فقد ظهر في وقت لاحق، في النصف الأول من القرن الرابع عشر، تحت سلطة الدوجي أندريا داندولو (1342-1354)، وهو الدوجي الذي كتب رواية كبيرة عن نقل الرفات من الإسكندرية بمصر، وحاول استرداد مركزية السلطة الدوقية ووحدة جميع مكونات الدولة. وفي تلك الحقبة الزمنية تم سك عملة القرش التي طبع عليها الأسد الهائج الذي يحمل الراية. فلم يعد المبشر الإنجيلي، صاحب السلطة السيادية، ممثلاً في هيئة الإنسان، لكنه يبدو الآن حقاً «القديس مرقس في شكل أسد»، كما جاء في الصياغة المستخدمة من قبل البنادقة القدامى. فإلى هذا الحيوان الذي لم يُعدُ بعد ممثلاً للقديس، ولكنه يجسده، تنتمي السلطة السيادية، ومن ثمّ ينتمي إليه الكتاب المفتوح، والذي كان ممنوحاً، حتى ذلك الوقت، للقديس بشخصه فقط، واستمر التصويران، بالكتاب المفتوح والكتاب المغلق، مستخدميْن على التوالي للإشارة إلى مظهريْن من المظاهر التي يمكن أن تتخذها السلطة: ويشير الأسد بالكتاب المفتوح إلى فكرة الدولة التي تسود، ويُشير الأسد بالكتاب المغلق إلى الدولة التي تُدير[1].

---

(1) M.P. Pedani, *Il leone di san Marco o san Marco in forma di leone?*, in «Archivio Veneto», s. V, 166, 2006, pp. 185-190.

الفصل الثاني

الاتصالات الأولى

1. قبل عام ألف

في تلك القرون التي ظهرت فيها البندقية في سجل التاريخ، بوصفها إقليماً من إمبراطورية بعيدة، كانت الحضارة العربية الإسلامية ممتدة من رمال الجزيرة العربية إلى الشمال والشرق والغرب. خرج والي الشام معاوية في عام 649م (والذي سوف يصبح الخليفة بعد ذلك من عام 661 إلى عام 680)، لغزو جزيرة قبرص، وأخذ معه، وفقاً للتقاليد، زوجاته وزوجات قواده لكي يهدئ من شكوك الخليفة عمر بن الخطاب (634-644) ويطمئنه على سهولة المغامرة العسكرية وسلامتها. وفي عام 652 وقعت أولى غارات المسلمين على صقلية، التي كانت لا تزال تابعة للبيزنطيين، وقد كانت العاصمة الجميلة لإمبراطورية بيزنطة نفسها قد حوصرت سبع مرات من جانب العرب، وكانت أول مرة بين عامي 674 و678، ولكن بعد ذلك أمكن إنقاذ المدينة بعد استخدام ماكينة حربية جديدة تقذف بنيران تسمى النيران اليونانية، لا تستطيع حتى المياه أن تطفئها. كما سمح الاختراع نفسه للإمبراطور ليون الثالث الإيساوري (717-741) بأن يصمد أمام حصار طويل آخر في عامي (717-718).

وفي الوقت نفسه كانت قوات الخلفاء الأمويين تتقدم غرباً، فوضعت قدما لها في الجزيرة الإيبيرية في عام 711، والتي تقرر لها بعد ذلك بوقت قصير الاسم العربي «بلاد الأندلس». وبعد عامين تجاوزوا بالفعل جبال البرانس (Pirenei)، فوصلوا إلى ناربون. وكانت الطرق البحرية في ذاك الوقت تقطعها حملات خطرة، مثل الحملات التي حدثت في السنوات (728-733). وعند منتصف القرن الثامن، عندما وصلت الدولة العباسية الجديدة (750-1258) إلى السلطة، كان الجزء الجنوبي من شواطئ البحر الأبيض المتوسط قد أصبح كله من ديار الإسلام[1].

ولكن، يمكننا أن نقول مع بعض التحفظات، إن الخلفاء الأمويين (661-750) دعموا الأسطول وتقدُّم الحشود العسكرية في البحر، فيما فقَدَ العباسيون من بعدهم هذا الاهتمام بالبحرية، وتركوا شؤونها لأهل البلاد التي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، في إفريقية، وهو الاسم العربي لإحدى المقاطعات الرومانية القديمة، والتي تضم تقريباً ليبيا وتونس والجزائر اليوم. غير أن التوسع لم ينقطع، ولكن تم تحويله: فلم يعد تنظيم الحملات وتسييرها بأمر السلطة المركزية، ولكن الحكام المحليين هم الذين أصبحوا ينظمونها ويسيّرونها، ولذا فقد انطبعت في الغالب بطابع القرصنة. ثم ساد هدوء دائم على مياه البحر الأبيض المتوسط من عام 750 حتى عام 812 عندما قرر الأغالبة (800-909م)، الذين استولوا وقتها على السلطة في إفريقية، ضم صقلية. استغل التجار هذا الهدوء: وبالفعل نجد أن الأدلة الأولى على وجود تجار البندقية في

(1) X. de Planhol, *L'Islam et la mer. La mosquée et le matelot VIIe-XXe siècle*, Paris, Perrin, 2000, pp. 21-30.

الطرق التي تربط أوروبا بالدول الإسلامية تعود إلى المرحلة الانتقالية بين الدولتين.

ويذكر «**الكتاب البابوي**» الذي يحكي حياة الباباوات القدامى وأحداثهم، حدثاً وقع عام 750، في عهد البابا زكريا (741–752)[1]. ففي تلك السنة اشترى بعض البنادقة في روما الكثير من العبيد بقصد بيعهم في وقت لاحق لمسلمي شمال إفريقيا. ولمّا حصرته فكرة بيع المسيحيين للكفرة، لم يتردد البابا لحظة في تحريم هذا البيع، وردّ الأموال للتجار وحرر العبيد. الخبر الذي أورد هذه الوقائع القديمة لا يسمح لنا وحسب بتقديم تاريخ الاتصالات بين البنادقة والمسلمين نحو سبعين عاماً، وهي التي ارتبطت في التراث التاريخي بنقل جسد القديس مرقس، ولكن أيضاً بأن نشرح كيف كانت البندقية قادرة على الاستفادة فوراً من مناخ الانفراج الدولي الذي صاحب تغيير الدولة في الشرق.

وتعود شهادات أخرى إلى بداية القرن التالي، حيث ذكر نوتكير بالبولوس، وهو راهب من دير سان جاللو، وهو يسرد مآثر شارلمان (768–814) في كتابه «**أفعال شارلمان**»، أن تجار البندقية كانوا يبيعون في بافيا «اللون الأرجواني» الوارد من المدينة السورية صور. بعدها بمدة وجيزة حرّم الإمبراطور البيزنطي، باسيليوس ليو الخامس الأرمني (813–820) في أقاليم إمبراطوريته، ومن ثم في البندقية أيضاً، التجارة مع بلاد المسلمين في سوريا ومصر. ثم أصدر الدوجي أنييللو بارتشيباتسيو (810–827) على الفور مرسوماً لتأكيد ما تقرر ونهى رعاياه عن السفر إلى

(1) L. Duchesne, *Le Liber Pontificalis: texte, introduction et commentaire*, t. I, Paris, De Boccard, 1981, p. 433.

تلك المناطق. ولم يكن البنادقة يتاجرون في ذلك الوقت مع بلاد الشام فقط، ولكن أيضاً مع بلاد المغرب. فعلى سبيل المثال، يقال إنه في عام 813 رافقت سفينة من البندقية قادمة من إسبانيا إلى صقلية سفيراً أرسله ملك الأسرة الإدريسية المغربية (788–985) إلى البطريرك اليوناني جريجوريو الثالث[1].

كانت صقلية في ذلك الوقت لا تزال مسيحية، ولكن بعد مدة وجيزة سيجتاحها الأغالبة من شمال إفريقيا. سقطت مازارا في عام 827، وباليرمو في عام 831، وأخيراً في عام 878 أكمل سقوط سيراكوزا فتح صقلية. وفي وقت لاحق، حوالي عام 909 أو 910، غزا الفاطميون إفريقية. لكنهم انتقلوا سريعاً إلى مصر (973)، وترك الحكام الجدد مساحة واسعة من الحكم للمحليين، من سلالة الكلبيين (948–1040م). وآخر أسرة مسلمة حكمت في صقلية هي الأسرة الزيرية (1040–1148)، التي انهزمت عند تقدُّم الأوروبيين: ففي عام 1061 قام نورمان ألتافيلا بغزو ميسّينا وفي عام 1072 غزوا باليرمو، وأخيراً في عام 1090 وقعت أيضاً مالطا القريبة في أيديهم. وقد ظلت الجزيرة طوال وقوعها تحت الحكم البيزنطي، ما بين القرن السادس حتى القرن التاسع، تسمح للتجار المسيحيين بعبور المضيق الذي يفصلها عن الساحل الإفريقي بسهولة، ولكن الغزو الإسلامي جعل تلك الرحلة أصعب كثيراً. وفقاً للمؤرخ التونسي ابن

(1) P. Molmenti, *La storia di Venezia nella vita privata*, 3 voll., Bergamo, Istituto Italiano d'Arti Grafiche, 1927, vol. I, p. 92; M. Nallino, *Il mondo arabo a Venezia fino alle Crociate*, in La Venezia del Mille, Firenze, Sansoni, 1965, pp. 163-181; G. Jehel, *L'Italie et le Maghreb au Moyen Âge. Conflits et échanges du VIIe au XVe siècle*, Paris, Puf, 2001, pp. 105-107.

خُلدون (1332–1406) انسحبت الأمم المسيحية، في أيام الحكام الكلبيين، بأساطيلها إلى الجزء الشمالي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، عند المناطق الساحلية، التي كان يسكنها المسيحيون الأوروبيون والسلافيون، وجزر بحر إيجة ولم يتقدموا بعيداً عن ذلك. وانقضّت أساطيل المسلمين عليهم بشراسة انقضاض الأسود على فرائسها. وكانت تلك الأساطيل تغطي معظم سطح البحر الأبيض المتوسط بأسلحتها وعدتها وعتادها سواء من أجل السلم أو من أجل الحرب. ولم تكن تطفو على سطحه ولا سفينة مسيحية واحدة[1].

هكذا شهد القرن التاسع استئناف التوسع الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط ، وعندما اقترب السراسنة من بوليا ودخلوا حيز البحر الأدرياتيكي، بدأت البندقية تخاف، ليس فقط على تجارتها، ولكن على حريتها. وأصبحت مصالحهم الآن تتقارب بشكل متزايد مع مصالح الإمبراطورية البيزنطية. وفي عام 827، وبعدها مرة أخرى عام 829، طلب باسيليوس المساعدة من البندقية للدفاع عن صقلية. وفي المرتين أرسل الدوجي أنييللو بارتشيباتسيو الأسطول، ولكن دون جدوى: فلم يحدث الاشتباك المرغوب ولم يبلغ ذلك المسلمين. وبعدها بعدة سنوات اندفع الأغالبة في جنوب إيطاليا وغزوا بريندیزي (عام 838) وتارانتو (839). وفي ربيع عام 841 أرسل البنادقة ستين سفينة، تلبية لمطالب بيزنطة، للحرب ضد العدو المشترك. في هذه المرة لحقت الهزيمة بالبندقية: حيث

(1) Ibn Khaldūn, *The Muqaddimah. An Introduction to History*, trad. ingl. di F. Rosenthal, a cura di N.J. Dawood, Princeton (N.J.), Princeton University Press, 1967, p. 210.

تم تدمير الأسطول بالقرب من تارانتو بوساطة ستّ وثلاثين سفينة إسلامية بقيادة خلفون، وهو زعيم البربر، المتحالف مع الأغالبة.

وهكذا انتهى أول صدام بحري بين البندقية والمسلمين إلى هزيمة المدينة البحرية. وقد تحدث المؤرخ العربي ابن الأثير (1160–1233) فقط عن الجيش اليوناني الذي سرعان ما عاد إلى بيزنطة، لكن سجلات البندقية توفر مزيداً من التفاصيل حول تورط أسطول البندقية. وهكذا انفتح البحر الأدرياتيكي أمام التقدم الإسلامي. فوقع الهجوم على أوسيرو وأنكونا، ولكن المستنقعات الموجودة بالقرب من أدريا أعاقت السفن المنتصرة، والتي سيطرت على بعض سفن الشحن البندقية التي كانت عائدة إلى وطنها محملة بالبضائع. وفي العام التالي (842) توغل مسلمون آخرون في خليج كوانارو. حيث هاجمهم أسطول البندقية مرة أخرى هناك، كما هاجمهم أيضاً في سوساك، ولكنه تكبّد هزيمة مزدوجة في الهجومين. هذه المقاومة اليائسة جعلت المسلمين يدركون أن فتح هذه الشواطئ فتحاً مبيناً دائماً لم يكن بالأمر الهيّن، وأن ذلك منعهم من إقامة قلاع حصينة في أقصى الشمال، كما فعلوا في البحر التيراني في فرانكيتسوم بين عامي 889 و975 [1].

لكن ذلك لم يمنع خلفون (847–852) من الاستيلاء في خريف عام 847 على باري، التي قدر لها أن تبقى في أيدي المسلمين حتى عام (870/ 871). وقد سعى الحاكم الجديد بعد الفتح مباشرة إلى تعزيز العلاقات مع الوطن

(1) R. Cessi, *Politica, economia, religione*, in Storia di Venezia. II: *Dalle Origini del Ducato alla Quarta Crociata*, Venezia, Centro Internazionale delle Arti e del Costume, 1958, pp. 153-155; G. Musca, *L'emirato di Bari*, Bari, Dedalo, 1978, pp. 20-22.

الأم، ولكنهم في بغداد أدركوا مندهشين أن لديهم منفذاً على البحر الأدرياتيكي فقط عندما أرسل مفرج بن سلام (852-857) الذي خلف خلفون تنصيباً رسمياً من الخليفة في بغداد على سلطته الفعلية، وقد وصل اللقب إلى بوليا فقط في عام 864 عندما استولى أمير جديد على السلطة هو سودان (857-871). ولأنها تقع في مفتتح البحر الأدرياتيكي، مثلت باري خطراً جدياً على التجارة والملاحة البحرية للبندقية. وفي الواقع، عندما أرسل الإمبراطور لودوفيك الثاني (855-875) حملة ضد مسلمي جنوب إيطاليا أعانه الدوجي أورسو الأول بارتشيباتسيو بأسطول التقى بأسطول المسلمين في موقعة انتصر فيها فوق مياه البحر الأيوني. وأخيراً، في عام (870/ 871)، استعاد البيزنطيون المدينة، على الرغم من أن البحر الأدرياتيكي استمر لسنوات تحت سيطرة سفن المسلمين القادمة من الجزر اليونانية، وأهمها جزيرة كريت (التي سماها البنادقة بعد ذلك باسم كانديا، التي فتحها المسلمون عام 827 ولم يفرطوا فيها قبل عام 961. ولا تزال السجلات القديمة تشير إلى المعارك البحرية الضارية التي خاضها البنادقة لحماية التجارة والمدن الساحلية. ففي عام 875، على سبيل المثال، حاصر المسلمون جرادو، وحين أفلتوا من الأسطول الذي أرسلته البندقية لإنقاذ المدينة الأسقفية، دهموا كوماكيو[1].

وبعد سقوط معقل باري ضعفت الحملات الإسلامية شيئاً فشيئاً حتى أصبح سكان البندقية يخافون أكثر من القراصنة الآخرين الذين كانوا يتمركزون في مصب نهر نارنتا أو على جزيرة لاجوستا على طول

(1) Cessi, *Politica, economia, religione*, cit., pp. 176-178; Musca, *L'emirato di Bari*, cit., *passim*.

ساحل دلماسيا. لكن حركة التجارة لم تعانِ من التباطؤ، فكانت سفن البندقية لا تزال تنقل القمح والعبيد والأخشاب والخامات الأخرى التي كانت ذات أهمية كبرى للأغراض العسكرية، وقد ازداد الطلب على هذه السلع، من جانب المسلمين في الشرق الأوسط خاصة الخشب الذي بدأ يشح: فقد كانت الغابات المصرية تنقرض بسرعة شديدة حتى تم تدمير آخرها في العصور الوسطى، في عصر المماليك[1].

أما الإمبراطور البيزنطي فلم يستطع مع ذلك أن يقبل بوجود تجارة مزدهرة بين ألد أعدائه وسكان إقليم ما كان يُعدهُ حتى ذلك الوقت إقليماً من أقاليمه. ونحو عام 970 أمر البنادقة بإيقاف مبيعات الخشب والخامات العسكرية الأخرى للمسلمين، كما هدد بحرق كل سفينة يتم ضبطها وهي تنقل هذه البضائع، وهكذا واجه الدوجي المعضلة، فهو يريد أن يتجنب مطاردة الإمبراطور، وفي الوقت نفسه، لا يريد قطع حركة التجارة ويريد حماية مصالح التجار، وكأن رد الدوجي بيترو كانديانو الرابع (959–976) هو الأمر بوقف جميع صادرات الأسلحة والأخشاب التي يمكن أن تُستخدم في بناء آلات الحرب أو السفن، ولكن في الوقت نفسه سمح للسفينة التي تم إعدادها وعلى استعداد للرحيل متجهةً إلى طرابلس الشام وإلى المهدية عاصمة إفريقية، بشحنة من الأشياء الخشبية الصغيرة[2].

(1) M. Lombard, *Arsenaux et Bois de Marine dans la Méditerranée musulmane (VIIe-XIe siècles)*, in M. Mollat, *Le Navire et l'Économie Maritime du Moyen Âge au XVIIIe siècle principalement en Méditerranée*, Paris, Sevpen, 1958, pp. 53-99.

(2) R. Cessi, *Documenti relativi alla storia di Venezia anteriori al Mille*, Padova, Gregoriana, 1942, pp. 86-91.

ومع حلول عام 1000م كان الدوجي بيترو أورسيولو الثاني (991–1008) قد عزز نفوذ البندقية في البحر الأدرياتيكي بحملة ناجحة ضد القراصنة السلافيين، تبعها تدخل في بوليا، وذلك دعماً للبيزنطيين المتحصنين في باري تحت تهديد غزو إسلامي جديد (1002–1003). ولم تكن هذه الحملة مصممة فقط لمساعدة حكومة بيزنطة، ولكن أيضاً لتنفيذ سياسة بعيدة النظر للتدخل المباشر في جنوب البحر الأدرياتيكي. وقد وصف المؤرخون ظهور أسطول البندقية، المدجج بالرجال المسلحين والعتاد، على أنه معجزة، لم تُفاجئ المحاصرين وحدهم بل فاجأت أيضاً حاكم باري جريجوريو وقواته اليونانية التي تدافع عن المدينة، وهكذا لم تكتف البندقية بالدفاع عن حركتها التجارية فحسب، لكنها كانت أيضاً حارسة لتلك المياه. وبعد ثلاثة أيام من القتال والالتحام الجسدي المباشر اضطرت قوات الحصار في النهاية إلى الانسحاب، وقد أدت الهزيمة إلى انهيار نظام دفاع المسلمين بكامله في المنطقة. وعقب هذه المغامرة ولأكثر من أربعة قرون، لم يعد لدى سفن البندقية أي شيء تخافه من المسلمين في البحر الأدرياتيكي، وقد بدأت موجة طويلة من انحسار المسلمين بدءاً من أوروبا وفي اتجاه الشرق والجنوب.

هكذا عمل الدوجي أورسيولو الثاني بحماس لحماية مصالح البنادقة في البحر المتوسط كله. وتحكي أحداث تلك الأيام أيضاً أنه أرسل البعثات الدبلوماسية إلى الأمراء المسلمين لتعزيز الروابط التجارية مع بلاد الشام وشمال إفريقيا. وبذلك يمكن أن نتخيل أن سفراء البندقية قد وصلوا إلى المدن الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت، مثل القاهرة والقيروان وباليرمو.

وطوال عدة قرون، سواء أثناء العصور الوسطى، أو في العصر الحديث، ظلت سفن البندقية تجتاز طرق البحر الأبيض المتوسط، مما جعلها جسراً للتواصل بين أولئك الذين يعيشون على ضفافه. فمن البحر الأدرياتيكي إلى الشرق، ومن هناك إلى شمال إفريقيا، كانت المراكب والطوافات لا تقتصر فيها الرحلات على نقل السلع المخصصة للتجارة فحسب، وإنما كانت تنقل البشر أيضاً. هؤلاء البشر كانوا من التجار، سواء التجار المسيحيين أو المسلمين الذين كانوا يستخدمون السفن التجارية الصغيرة الخاصة بالبندقية؛ من أجل الوصول بسرعة وأمان إلى الموانئ المجاورة. لذلك يتساءل المرء ما إذا كانت السفينة «الإفرنجية» التي غرقت بين الصخور التي تفصل مصر عن إفريقيا، في ربيع عام 1081، بندقية الأصل؟! فبين الناجين تم العثور على محرض سياسي محكوم عليه بالترحيل إلى منطقة نائية من شمال إفريقيا: إنه حسن الصباح، المؤسس المقبل لطائفة الحشاشين الرهيبة، والذي كان له ثقل كبير في تاريخ الممالك المسلمة المقبلة والصليبيين[1].

2. العبيد

انتهت المرحلة الأولى المكثفة من الاتصالات بين البندقية وبلاد الإسلام بلفتة رمزية. ففي عام 999 قام بعض البنادقة، الذين كانوا عبيداً للمسلمين لكنهم تمكّنوا من العودة إلى ديارهم، ببناء برج أجراس لكنيسة

(1) B. Lewis, *Gli assassini. Una setta radicale islamica, i primi terroristi della storia*, Milano, Mondadori, 1992, p. 56.

سان باترنيانو كانوا قد نذروه. كان البرج الخماسي الجميل لا يزال ماثلاً بعد ثمانية قرون عندما تم هدمه أثناء فورة البناء قصيرة النظر في أواخر القرن التاسع عشر، لإفساح المجال أمام المباني الجديدة مجهولة الهوية. ولم تتبق منه اليوم إلا صورة فوتوغرافية قديمة صفراء الورق، تصور خريطة على شاهدة قبر رخامي مدرج في ساحة مانين وبه صليب بسيط من الحديد يزيّن قمته، وهي محفوظة الآن في أرشيف الدولة في البندقية شهادة على اللقاءات القديمة المنسية مع الدولة الإسلامية[1].

ومع العصور الوسطى، وبعد ذلك أيضاً في العصر الحديث، كانت تجارة العبيد واستغلالهم لا تنتمي فقط إلى العالم الإسلامي، كما جعلونا نعتقد. فقد انتقل البنادقة إلى روما عام 750 وعملوا في تجارة العبيد واستمر خلفاؤهم في هذا النشاط لعدة قرون. وكنا لا نزال في نهاية القرن الثامن عشر عندما صادفتنا حالة مثيرة في إحدى المدن الأوروبية، وهي حالة عثمان آغا من تيميشوارا، الذي كان عبداً في الإمبراطورية، وقد تركت هذه الحالة كتاباً مثيراً للاهتمام يحتوي مذكراته: بعد عشر سنوات قضاها بين المجر والنمسا، إذ تمكن في النهاية من العودة إلى إسطنبول، حيث أفاده تعلم اللغات في أرض الكفار في الحصول على وظيفة مترجم[2].

وقد كانت التجارة في الرجال والنساء، وخاصة الموريسكيين

(1) F. Corner, *Notizie storiche delle chiese e monasteri di Venezia e Torcello*, Bologna, Arnaldo Forni, 1990, p. 215.

(2) *Osmân Agha de Temechvar, Prisonnier des infidèles. Un soldat ottoman dans l'Empire des Habsbourg*, trad. fr. di F. Hitzel, Arles, Sindbad Actes Sud, 1998, pp. 66, 89.

والمسلمين والتتار والسلافيين، تجارة مشهودة في البندقية طوال العصور الوسطى. حتى إن الدوجي جوستينيانو بارتشيباتسيو (827–829) نفسه أوصى بعتق عبيده في الوصية التي تركها، وبعده بثلاثين عاماً، عام 850، أرسل أهل فيرونا مجموعة من العبيد إلى الدوجي بيترو ترادونيكو (836–864م) فخصصهم لخدمة القصر الدوكالي. وفي هذه السنوات نفسها، بدأ إصدار المراسيم التي تحظر مثل هذه التجارة، كتلك التي أصدرها خليفة ترادونيكو، وهو الدوجي أورسو بارتشيباتسيو، أو التي أصدرها بعد ذلك بحوالي القرن، أي في عام 960، الدوجي بيترو كانديانو الرابع. وعلى أي حال فإن الحاجة إلى البحث عن هذه المراسيم وتتبع مسارها تعني أنها لم تكن مراسيم متوقعة في الغالب. وفي الواقع فإننا نجد في سجلات الموثق بالبندقية، خاصة من القرن الثالث عشر وما يليه، الكثير من العبيد معظمهم في عمر الشباب رجالاً ونساءً من التتار والبلغار والروس والمغاربة والمسلمين والمغول والشركس والبوسنيين وحتى اليونانيين، يباعون ويشترون بعد أن يتم تقييمهم بعناية من حيث العمر والصحة والطبع. والكثير منهم جاء من إفريقيا السوداء وشمال وسط آسيا، وكان من بينهم أتباع ديانات روحية أو يتبعون ديانات شامانية، وكان من بينهم أيضاً مسيحيون أرثوذكس أو مسلمون. وفي هذه الحالة الأخيرة، لم يتعلق الأمر بالعبيد الذين يتم شراؤهم من أسواق الشرق الأوسط، وإنما أسرى حرب أو نتيجة للغارات التي نفذت على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط. وفي الواقع، لا يمكن في بلاد الإسلام أن يُباع رسمياً العبيد المسلمون للمسيحيين، وكذلك الأمر في أوروبا، لم يكن ممكناً، على الأقل

من الناحية النظرية، تصدير العبيد المسيحيين إلى ديار الإسلام[1].

ووفقاً للإسلام فإن حالة العبودية مسموح بها في الشريعة، وفي الوقت نفسه، وبالتحديد لأنها مشروعة، فقد نظمتها قواعد مفصّلة. ويجوز عدم تطبيقها، كما هو الحال الآن في كل مكان تقريباً، ولكن لا يمكن أن تُلغى، من حيث إنها مسموح بها صراحة في الشريعة. ولذلك فإن العبد يصبح عبداً إما بالولادة (وتشمل هذه الفئة العبيد المسلمين) أو بالأسر (كما في حالة الكفار من غير الذمّيين)؛ ومن يقع في هذه الحالة هو إنسان وشيء في الوقت نفسه، ولكن من واجب السلطات التأكد من أن السيد يفي بواجباته، ولا يتجاوز وضعه، وإلا أجبرته على بيع العبد الذي تُساء معاملته إلى آخرين. فالعبد في الإسلام لا يعتمد بتاتاً على سلطة من يملكه حيث إنه محمي بقواعد وقوانين الأحوال الشخصية أكثر من خضوعه لقانون تنظيم الملكية[2].

وفي أوروبا وتحديداً في القرون الوسطى، لم يكن هذا الأمر منظّماً سواء من وجهة النظر الدينية أو القانونية، على هذا النحو من الوضوح والتنظيم الذي كان عليه في الشرق الأوسط. وقد أدى هذا إلى التقليل من شأن اتساع هذه الظاهرة حتى وقت حديث، حيث تم اعتباره أحد منتجات الاكتشافات الجغرافية الجديدة. لقد أعدَّ الأوروبيون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر السكان الأصليين في الأراضي الجديدة أشباه آدميين، على الرغم من أن الكنيسة كانت تحاول معارضة العبودية

(1) Molmenti, *La storia di Venezia nella vita privata*, cit., vol. I, pp. 92-93, 126.

(2) J. Schacht, *Introduzione al diritto musulmano*, Torino, Fondazione Giovanni Agnelli, 1995, pp. 136-139.

المتفشية. وفي الفترة السابقة، لم تكن القيادات الكنسية مهتمة بقمع ظاهرة تعني أشخاصاً قادمين من أوراسيا. وبصفة عامة ساد اعتقاد بأن بيع الكفار وشراءهم بحرية أمر مشروع، على اعتبار أن الدين وليست الطبيعة الإنسانية هي التي تميز الإنسان عن الحيوان. فبعض علماء اللاهوت، مثل أسقف القرن الخامس عشر أنطونيو الفلورنسي، والذي تم ترسيمه قديساً بعد ذلك، اعترفوا بأن الرق مباح أيضاً بالنسبة إلى الكفار الذين وقعوا في الأسر، وإن هم اعتنقوا بعد ذلك المسيحية[1].

لقد كانت تجارة الرقيق تمارس على مدى قرون طويلة، وعلى نحو خاص في المدن التجارية الإيطالية مثل: أمالفي وجنوة وبيزا والبندقية. وحصلت جنوة، على وجه الخصوص، بما لها من مستودعات ومراكز تجارية على البحر الأسود، من الإمبراطور البيزنطي على امتياز نقل العبيد على متن سفنها العابرة للبوسفور دون أن تدفع رسومات جمركية. وسرعان ما تبع البنادقة هذا المثال مجتازين البحر بسفنهم مع السلع نفسها وفي المسارات ذاتها. وكانت قاعدتهم في تانا، إلى الشمال من البحر الأسود، والتي كانت مركزاً تجارياً هاماً على الأقل حتى بداية القرن الخامس عشر. وهناك استمروا في بيع الجورجيين والأرمن والتتار والأتراك والشركس من شبه جزيرة القرم والمناطق المجاورة، يبيعون منهم لمصر أكثر مما يبيعون لأوروبا[2].

---

(1) A. Zanelli, *Le schiave orientali a Firenze nei secoli XIV e XV*, Bologna, Arnaldo Forni, 1976, pp. 22-23.

(2) F. Bauden, *L'achat d'esclaves et la rédemption des captifs à Alexandrie d'après deux documents arabes d'époque mamelouke conservés aux Archives de l'État à Venise (ASVe)*, in «Mélanges de l'Université Saint-Joseph», 68, 2005, pp. 269-328.

وقد قامت دولة المماليك هناك والتي سادت بين عامي 1250 و1517، واستمرت معتمدة على العبودية العسكرية، حتى إن اسمها الذي يدل عليها يعني «الشخص الذي يملكه شخص آخر». فمنذ عصور التوسع الإسلامي الأولى والخلفاء يشترون العبيد لتحويلهم إلى جنود يؤلفون منها كتائب مخلصة لهم. وقد دفع المماليك هذا النظام إلى أقصى حدوده، حتى إن السلطان نفسه صار اختياره من العبيد الذين اشتراهم السلطان الراحل وألحقهم بخدمته الخاصة، وليس من أبنائه أو أقاربه. وكل كتيبة، ينشئها أمير، هو أيضاً من العبيد السابقين، تشكّل بعد ذلك ما يشبه الأسرة الموسعة، رئيسها هو أيضاً قائدها. وفي الأيام الأولى كان الملوك في الغالب من العرقية التركية ويطلق عليهم «مماليك البحرية» على اسم جزيرة في النيل. وعقب الاضطرابات التي وقعت بين عامي 1370 و1380، استولى المماليك الشراكسة على السلطة ليبدأوا دولة المماليك البرجية نسبة إلى سكنهم ببرج القلعة. وبعد نهاية سلطانهم، غزا الحاكم العثماني سليم الأول (1512–1520م) عام 1517، مصر فحافظ على وجود المماليك بصفتهم طبقة حاكمة، لحماية السكان المحليين، وفي الوقت نفسه باعتبارهم ثقلاً موازناً لمنع أي والٍ يتم إرساله من إسطنبول من السيطرة على السلطة والاستئثار بموارد هذا الإقليم، الذي كان من أغنى أقاليم الدولة العثمانية، ومنَع استخدام هذه الموارد للتمرد على الدولة العثمانية والاستقلال عنها. ولم ينته وجود المماليك في مصر إلا مع الاضطرابات التي وقعت بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وواكبت وصول جيوش نابوليون إلى مصر، ثم استيلاء الألباني محمد علي (1805–1848) على الحكم، ولكنهم

لعدة قرون، ظلوا محافظين على رفعة الصف والبقاء من خلال الاستزادة الدائمة بالعبيد، وكان الإيطاليون تحديداً هم مَنْ يمدونهم بهم.

أما في البندقية فقد مارس العبيد أكثر الأعمال مشقة، وتحديداً في البيوت الخاصة، وهو ما كان يحدث أيضاً في باقي أنحاء إيطاليا. ولكن هذه العمالة تكررت الاستعانة بها في بعض الأعمال الكبيرة العامة: مثل بناء الجدر البحرية الأولى، وهي الدفاعات البحرية التي أقيمت بجزيرة الليدو في القرن الرابع عشر بواسطة العبيد الأتراك، والذين ميزتهم أختام وعلامات وضعت على جباههم ووجناتهم حتى يمكن التعرف إليهم إذا حاولوا الهروب[1].

وإضافة إلى استخدامهم في المدن، تم بيع العبيد في الأسواق الإيطالية الأخرى، التي لم تكن تتوافر فيها هذه السلعة الثمينة. وحتى تتمكن البندقية من تصدير عبد كان عليها دفع ضريبة للدولة بلغت دوقية واحدة عام 1384. وقد نجح البنادقة في كثير من الأحيان في عقد صفقات رابحة من هذا النوع، مثل الصفقات التي عقدوها على سبيل المثال مع فلورنسا، وخصوصاً بعد وباء الطاعون الكبير الذي ضربها عام 1348، والذي تسبب في انخفاض حاد في عدد السكان إلى جانب الانحلال العام على المستوى الأخلاقي. وتشير العديد من العقود الموثقة التي لا تزال محفوظة في مدينة فلورنسا إلى فتيات شرقيات متواضعات الجمال أو بعيوب خلقية مثل الندبات والشامات، كان يتم شراؤهن وبيعهن. على عكس المشتريات التي كانت تتم في البندقية والتي تتحدث عن أشخاص

(1) Archivio di Stato di Venezia (in seguito ASVe), *Senato, Misti*, reg. 40, c. 134, 24 ottobre 1388.

في ريعان الشباب، لا عيب فيهم وربما كانوا على قدر من الوسامة، بدليل السعر العالي الذي بيعوا به. وكان نبلاء البندقية على وجه خاص هم الذين يمارسون غالباً هذه التجارة بما تتطلبه من إمكانيات مالية عالية، ويشهد على ذلك العديد من الوصايا التي توجد بها شروط تقر بعتق رقاب عبيدهم بعد عدد معين من السنوات التي يقضونها في خدمة من يؤولون إليهم. وقد فعل ذلك على سبيل المثال الدوجي بيترو موتشينيجو (1474-1476م) لجاريتيه التركيتين أنييزي ولينا، واللتين كان يعاشرهما برغم كونه في سنّ السبعين[1].

وفي تلك الأيام كان هناك عدد قليل نسبياً من العبيد الذين يستخدمون في التجديف على المراكب. والسر في ذلك أن البنادقة كانوا يفضلون البحارة الأحرار، والذين يسمون بالعزاب أو المتطوعين، الذين يقبلون حياة البحر الصعبة مجبرين بسبب الحاجة أو للبحث عن بعض المال الذي يُمكِنُهم أن يكسبوه من الصفقات الصغيرة التي بوسعهم القيام بها أثناء عملهم، واعتادت بعض الأسر متوسطة الحال إعطاء بعض المال، الذي كسبته بشق الأنفس، أو إعطاء بعض السلع التي تم شراؤها في البندقية لصديق أو جار ذاهب إلى التجديف على مركب متوجه للمشرق أو للمغرب؛ على أمل تضاعف رأس المال المستثمَر، وهو ما كان يتحقق في أغلب الأحيان.

وقد كان الوضع مختلفاً في حالات الحروب، عندما تتوارى الحركة

(1) ASVe, *Senato, Misti*, reg. 39, c. 41, 3 febbraio 1384 m.v.; Zanelli, *Le schiave orientali a Firenze nei secoli XIV e XV*, cit., pp. 34-44; A. Da Mosto, *I dogi di Venezia nella vita pubblica e privata*, Firenze, Giunti Martello, 1983, p. 196.

التجارية ويصبح البحر خطراً، فيبدأ استخدام العبيد في البحر. وعندئذٍ يتم استخدام المسلمين أيضاً على سفن البندقية، ولكن عندما يتوقف القتال يتم تسريحهم وعتقهم. ومع القرن الخامس عشر وما بعده، أقرت اتفاقات السلام التي وقعتها البندقية مع الباب العالي العثماني، تسويةً دائمةً لتبادل أسرى الحرب من الجانبين وعودة جميع العبيد للدين الإسلامي.

لكن هذا لم يمنع بعض قباطنة المراكب من إخفاء بعض الأشخاص للاستفادة منهم في التجديف من دون مقابل. وحدث في بعض الأحيان أن سافر سفير من دالماتسيا العثمانية إلى البندقية على متن سفينة ترفع علم سان ماركو، وكان هذا السفر سبباً في تحرير بعض هؤلاء التعساء، كما حدث في عام 1594، على سبيل المثال، مع المبعوث جعفر الذي دعاه أحد البحارة بتهور لتفقد السفينة التي كان اسمها براجادينا، وأثناء هذه الزيارة عثر على بعض إخوانه في الدين مجبرين على التجديف فاجتهد أن يحصل لهم على حريتهم. وفي أحيان أخرى كان البنادقة أنفسهم هم الذين يسلمون بعفوية لمبعوث من «السلطان العثماني» بعضاً ممن ضلوا عن طريق الخط في البندقية، كما حدث على سبيل المثال في عام 1555 مع المترجم إبراهيم الذي تسلم أربعة أتراك ومغربياً من البربر. ثم كان هناك العبيد الهاربون من السفن الإسبانية أو من الأراضي المسيحية الذين سعوا إلى النجاة بأنفسهم في البندقية. فعلى سبيل المثال، كان هناك رجل تركي على متن سفينة إسبانية في عام 1567، وقد استمر يعمل بالتجديف على السفينة لمدة خمسة عشر عاماً حتى عثر عليه المبعوث التركي قوباد، الذي ضمه إلى مرافقيه وأعاده إلى إسطنبول معه. ومرة أخرى في عام 1622،

كانت هناك امرأة تركية، اعتنقت المسيحية في وقت سابق، قبل اثني عشر عاماً، واختبأت في أحد فنادق الأتراك الذي لم يمض على بنائه سوى القليل، واستفادت من وجود المبعوث مصطفى في المدينة، لتطلب العودة إلى دين آبائها[1].

لقد ظل العبيد في البندقية يمثلون سلعة ثمينة، وخاصة في العصر الحديث، عندما أدى تراجع عددهم إلى جعلهم من دلائل الفخامة، التي يتم عرضها في بيوت الأغنياء. وفي القرن الرابع عشر، تراوح سعرهم ما بين 15 و16 دوقية ذهب ومن 80 إلى 90 للعبيد المميَّزين، وفي الفترة التالية زاد السعر أكثر وأكثر، مع تضاؤل العرض، حتى تحول الرقيق إلى مجرد رمز يستخدمه أولئك الذين يريدون أن يظهروا بمظهر الثراء والبذخ. وتقدم اللوحات الفنية التي تعود إلى عصر النهضة في البندقية شهادة بليغة عن انتشار هذه الموضة. مثلما هو الحال في لوحة «معجزة البقايا» (دورة تاريخ الصليب الحقيقي) التي رسمها فيتوري كارباتشو، حوالي عام 1494، حيث نرى مجذفين سمر البشرة يرتدون ملابس من أرقى البيوت البندقية. وأيضاً في لوحة «معجزة للصليب الذي سقط في قناة سان لورنزو»، التي رسمها جنتيلي بيلليني بين عامي 1496 و1500، ويمثل إفريقيّاً أسمر يقفز إلى الماء. ولكن في العديد من اللوحات التي رسمها فيرونيزي، من «العشاء الشهير في بيت ليفي» إلى «زواج قانا»، يمكنك

---

(1) M.P. Pedani, *In nome del Gran Signore. Inviati ottomani a Venezia dalla caduta di Costantinopoli alla guerra di Candia*, Venezia, Deputazione Editrice, 1994, pp. 56, 84, 89; S. Bono, *Schiavi musulmani nell'Italia moderna. Galeotti, vu' cumprà, domestici*, Napoli, Esi, 1999, pp. 450-460.

أن ترى الخدام السود الذين يخدمون الجالسين إلى موائد الطعام. كذلك الشأن في التماثيل المنحوتة من الخشب التي لا تزال موجودة حتى الآن، وهي غالباً بالحجم الطبيعي، مع غلمان أفارقة بكسوة النبلاء يمسكون مشاعل الأضواء أو أواني الطعام، وهي تشهد على هذه العادة القديمة، وكذلك الدبابيس التي تجسد رأساً لشخص أسمر اللون بعمامة تزينها الأحجار الكريمة، وقد كانت عندئذٍ مألوفة في البندقية.

3. الحجيج

يمكن اعتبار نقل رفات القديس مرقس لفتة رمزية يعلن بها الدوجي جوستينيانو بارتشيباتسيو استقلاله عن بيزنطة. فمنذ تلك اللحظة والمدينة الإمبراطورية البعيدة أصبحت أقرب إلى أن تكون حليفاً من أن تكون سلطة سيادية ينبغي الخضوع لها، وبالنسبة إلى البندقية فإنها لم تكن بحاجة إلى ثورة حتى تصبح دولة مستقلة: المسافة البعيدة من البلد الأم، وانهياره البطيء، وفي الوقت نفسه، الصعود الاقتصادي للمدينة المائية، كانت هي العوامل التي فككت الروابط مع بيزنطة. وقد مثّل وجود رفات القديس الإنجيلي ميزة إضافية للبنادقة. فقد ساد في ذلك العصر تقديس الأضرحة الدينية، إذ يتم تبجيل رفات القديسين، باعتبارها أماكن يكون فيها العنصر الإلهامي ملموساً أكثر من أي مكان آخر. ولهذا تحولت كنيسة الدوقية، وتحديداً بسبب الرفات الثمينة الشهيرة التي تحتويها، إلى قبلة يُحج إليها. وهكذا أخذت البندقية دوراً مزدوجاً: فمن جانب كانت الميناء الذي تغادر منه السفن التي تحمل الحجاج إلى القدس على ندرتهم، ومن ناحية

أخرى أصبحت هي نفسها مكاناً مشرفاً ومبجلاً للعبادة[1].

وقد بدأت ممارسة الحج في فجر المسيحية، ولكن القديسة هيلانة، والدة الإمبراطور قسطنطين (324-337م) كانت هي من أعطت إشارة البدء لهذا الطقس الديني الذي لم يدفع حتى ذلك الوقت إلا الرحالة الأثرياء إلى الشرق. وقد زعمت تلك الحاجة المبجلة أنها عثرت في الجلجثة على بقايا من الصليب الحقيقي الذي صُلب عليه المسيح، ومن هنا نشأ أصل هذه العبادة. وبعدها، في القرن الرابع، وصفت إيجيريا رحلتها إلى الأراضي المقدسة في العمل الأدبي «**طريق رحلة إيجيريا**» (*l'Itinerarium Egeriae*). واتبع الطريق نفسه القديس جيرولامو (347-420)، وقلدته على الفور النساء الأرستقراطيات اللواتي كن يتحلقن حوله. ولم تكن السفن التي تسلك مسارات البحر المتوسط تحمل البضائع فقط، ولكنها كانت أيضاً تحمل البشر، الذين يملأ قلوبهم الإيمان ويتشوقون لأداء الصلاة في الأماكن المقدسة عند المسيحيين.

وممارسة شعائر الحج يمكن أن تتخذ قيماً مختلفة تبعاً لاختلاف الثقافات. فعلى سبيل المثال في العالم الإسلامي هو أحد الطقوس التي تسمح بعبادة الله، وتتحقق من وجود العهد بين الإنسان وربّه، ومن ثم معرفة وجوده في الزمن التاريخي. أما في أوروبا فعلى العكس يعني الوصول إلى الأماكن المقدسة والآثار لإنسان العصور الوسطى الذي يتغذى على الإيمان بالمسيح، ولكنه متأثر أيضاً بتراثه الوثني، حيث

(1) D. Howard, *Venice and the East. The Impact of the Islamic World on Venetian Architecture 1100-1500*, New Haven (Conn.) - London, Yale University Press, 2000, pp. 186-215.

يلامس السر المقدس، ويُسمع صوته للإله، ويرجو محو الذنب أو العفو، ويتلقى في مقابل ذلك المعجزة التي ذهب طامعاً فيها. وكان الناس في أوروبا يسافرون بصعوبة ولم يكونوا يتركون قراهم إلا للانتقال إلى مزار قريب لتبجيل أحد الأولياء في مولده. في مثل هذه المناسبات كانت تقام الأسواق والمعارض الكبرى التي يمكن فيها عقد الصفقات وبيع السلع الثمينة وشراء السلع القادمة من بعيد، وإلى جانب ذلك الترفيه والمتعة وتنظيم الأفراح، فضلاً عن الصلاة والدعاء وطلب العفو والمعجزات. ثم إن الحج يسمح لأولئك الذين لم يعودوا يتحملون الحياة الرتيبة الروتينية الخاضعة لرقابة الجيران الذين ليسوا دائماً أسوياء، أو رقابة قس القرية، بلحظات من الانفراج ومن الحرية ولهذا فإن مثل هذه الممارسة حققت نجاحاً كبيراً.

وبعد مدة انقطاع، سواء بسبب التدهور الاقتصادي في أوروبا أو انعدام الأمن في البحار، تم استئناف الحج إلى الأراضي المقدسة في القرن الثامن، ولكن اعتباراً من القرن العاشر وما بعده، بتوقف زحف المسلمين نحو الشمال أو خفوت حدته وقوته، وتحول الهنغاريين إلى المسيحية، بدأ ما يمكن اعتباره العصر الذهبي لهذه الممارسة الدينية. حيث كانت قوافل الحجيج تنطلق براً من أية دولة أوروبية حتى تصل إلى أحد الموانئ مثل البندقية أو باري، ومنها صوب الشرق. وفي المدة ذاتها أصبحت سانتياغو دي كومبوستيلا في إسبانيا وسان ميكيلي في جبل جارجانو في إيطاليا، جنباً إلى جنب مع روما من الأراضي المقدسة بوساطة عمل الرب وبسبب وجود رفات القديسين فيها.

وحول العام ألف من الميلاد تولت البندقية تدريجياً، وقد صارت من أهم مرافئ التبادل التجاري العالمي، دور كعبة الحجيج، لكي تكمل بهذا صورتها وتعطيها الكثير من البهاء بعد أن وُلدت في الأصل مدينة اقتصادية، وواصل البنادقة السياسة نفسها عبر العصور. وكان وجود الرفات في الواقع مثالاً على عنصر هام لجذب الجماهير. وتمتعت المدينة، المثبتة في أعماق الأدرياتيكي، بموقع متميز بين الطرق التي تربط شمال أوروبا مع جنوب البحر الأبيض المتوسط. وكان بوسع حجاج بيت الله الحرام الوصول إلى هناك ثم ركوب السفينة إلى الأرض المقدسة، تفادياً لمتاعب السير مسافة أخرى عن طريق البر. وبعد أن مر عام ألف، وعندما أصبحت التجارة أكثر حرية وأقل خطورة، صار هذا الطريق مفضلاً على أي طريق آخر، فقد كان بعد الوصول إلى سان ميكيلي بجبل جارجانو، يصل إلى ميناء باري. وأول أخبار وصلتنا عن قيام رحلة حج من البندقية إلى الأراضي المقدسة تتعلق بأسقف البندقية نفسه، ففي عام 920 رحل إلى الشرق يوحنا الثاني، أسقف أوليفولو، التي وصلت إليها الأسقفية من اسم المدينة البحرية، حيث كانت هناك قلعة الحكم وكنيسة الدين[1].

وفي القرن نفسه جاء أول ظهور للحجاج في البندقية، ولإيوائهم شرع البنادقة في بناء فنادق مخصوصة[2]. وأول فندق تم بناؤه كان في عام 936م (أو في عام 969 حسب بعض المؤرخين) بوساطة شيزاري دي جولي الملقب بِأندرياردي في كاناريجو في ضواحي الدير الحالي

(1) S. Runciman, *Storia delle Crociate*, Torino, Einaudi, 1966, p. 41.

(2) F. Semi, *Gli «Ospizi» di Venezia*, Venezia, Helvetia, 1983.

ميزريكورديا. حتى الدوجي القديس بيترو أورسيولو الأول، الذي تخلى عن التاج الدوقي واعتزل في دير سان ميكيلي دو كويخا في جبال البرانس، كان قد أسس تكية الحق بالقرب من برج الأجراس في ساحة سان ماركو؛ لاستيعاب أولئك الذين جاؤوا لزيارة ضريح القديس مرقس، وقد اختفت هذه التكية من الوجود منذ زمن، ولكن يمكن تلمُّسها في إحدى اللوحات التي رسمها جنتيلي بيلليني بعنوان «موكب الصليب المقدس في ساحة سان ماركو»، والتي رسمها في أواخر القرن الخامس عشر. وطبقاً لبعض المصادر هناك مستشفى بني للحجاج اسمه مستشفى سان بيادجو، تم بناؤه في جزيرة جوديكا، في الموقع نفسه الذي أقيم فيه الآن فندق هيلتون مولينو ستاكي.

كما بُنيت فنادق أخرى خاصة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، عندما جعل وجود الممالك الصليبية رحلات العبادة المتجهة إلى الأراضي المقدسة أكثر كثافة. ففندق القديسة هيلانة يعود إلى عام 1175، ويقع في أقصى حدود البندقية ناحية الليدو، ويرجع فندق بيترو وباولو إلى عام 1181 وهو ليس بعيداً عن الكاتدرائية، وفي عام 1187 أقيم فندق سانتا كاترينا، وربما كان في الأصل مخصصاً لفرسان الهيكل، وعلى أنقاضه أقيم بعد ذلك المقر الحالي لمنظمة فرسان مالطة. وكان هناك مستشفى مجهول الاسم مخصص للحجاج (في القرن الثاني عشر) في أبرشية سان جوزيبي دي كاستيللو، بينما انعكس على صفحة مياه حوض سان ماركو، ولا يزال، بيت الله، الذي تم بناؤه في عام 1272، ومنذ ذلك الحين تولى دون انقطاع وظيفة الاستقبال والاستشفاء، في البداية للحجاج، ثم للنساء المعوزات

ربيبات الأسر الطيبة، وأصبح الآن مخصصاً لكبار السن. ومع بداية القرن الثالث عشر، جهزت سبيرونيللا، أم جاكوبو دا سانت أندريا، وكان في الأصل من مقاطعة بادوفا، (التي وضعها دانتي بين الضالين في جحيمه)، بسخاء مستشفى سان ليوني، الذي يقع في أبرشية أنجيلو رافاييل، على الحافة القصوى من المدينة، حيث يهبط عادة القادمون إلى الجزر من البر. وليس بعيداً منه، أنشأت أسرة أكوتانتو في عام 1207 فندقاً آخر للحجيج من المعوزين، تحول لاحقاً إلى ملجأ لرهبان الفرنسيسكان العلمانيين.

وتبيّن مواقع تكايا أين كانت فنادق الحجاج والأماكن التي يرتادونها، وهي جزيرة جوديكا أو أبرشية أنجيلو رافاييل من جانب أولئك الذين يأتون من المناطق البرية، ومنطقة كاستيللو لمن يستعدون للإبحار. وقد بنيت آخر تكية مخصصة للحجاج في منطقة ثكنات كورنولدي، بناء على طلب من السيدة النبيلة إيلينا تشلسي، لاستضافة النساء اللواتي يُردن الذهاب إلى الضريح المقدس. ومنذ أن توقفت رحلات الحج الدينية إلى المشرق تحول المبنى إلى دير، إحياء لذكرى وظيفته الأولى، بعد أن جُعلت فيه حفرة تقلد بناء الضريح المقدس.

وإذا كان موسم الحج قد طال حتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر، فإن ذلك يعزى بصفة خاصة إلى نشاط البندقية التجاري. وغالباً ما كانت المساحة على ظهور السفن تنقسم بين البضائع والأشخاص، الذين كانوا يدفعون لأسباب دينية، حتى تصحبهم السفن إلى الأراضي المقدسة. ولم تكن الرحلة عبر البحر تجربة يمكن اعتبارها ممتعة، فالناس متراصون إلى جوار بعضهم بعضاً، والسفن ملأى بالحشرات والفئران، وحصص

الطعام لم تكن تزيد على قطعة خبز مع بعض الماء والملح، والبرد والحر، والرائحة الآسنة. فإذا ابتغى المرء ألا ينام على الخشب كان عليه أن يحمل معه مرتبة القش الخاصة به، وأن يحمل كذلك لنفسه الطعام والماء. ولم يكن له غنى عن حمل المال، خاصة الدوقيات البندقية، وهي الوحيدة التي كانت تستخدم في البلاد الإسلامية. فالعملة الذهبية البندقية، التي تم سكها لأول مرة في عام 1284، ثبت على الفور أنها عملة موثوق بها للغاية، وبالتالي يتم البحث عنها في جميع الأسواق، خاصة أن سعر الذهب ظل دون تغيير حتى 1797. لذلك، في كثير من الأحيان، كانت الدوقية تتفوق على الذهب، بحكم أنه كان يتم سكها بقيمة أكبر من وزن الذهب فيها.

ومنذ أن يغادر الحجاج ميناء سان ماركو تكون المخاطر الكثيرة في انتظارهم طوال الرحلة. فقد يواجهون العواصف التي تهدد السفن دائماً بالخطر، خاصة مع حمولاتها الكبيرة جداً، وعدم تأمينها ملاحياً. وقد يواجهون القراصنة الذين كانوا يختبئون بسهولة بين السواحل الصخرية الوعرة في دلماسيا. ومن ثم كان على الحجاج استخدام السلاح للدفاع عن أنفسهم وعن زملائهم. كانت كل سفينة في مدينة البندقية في القرن الخامس عشر تحتفظ على متنها باحتياطي كاف من الأقواس والسهام والرماح، ليتم تسليمها إلى البحارة والركاب وقت الخطر، وكانت السفن التي تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط قد اعتادت محاذاة الساحل لكي تحتمي كل ليلة بخليج أو ميناء. وكانت القوارب هي الأكثر استخداماً، فلم تكن فيها أعماق أو جسور على خلاف السفن الكبيرة التي كانت تبحر في المحيطات بعد ذلك لعدة شهور دون ملامسة الأرض. وكان البحارة

والمجذفون ينامون في العراء أو تحت القماش المشمع، يرتبون البضائع في قاع المركب جنباً إلى جنب مع الحجاج، حتى وإن كانت الروائح المقززة تجبر هؤلاء الحجاج على أن يختاروا النوم أيضاً على سطح السفينة. وفي هذا الصدد يمكن أن نتذكر مقولة شاعت في البندقية عن السفينة التي «يشمها الأنف قبل أن تراها العين». كما أن الماء والإمدادات على متن السفينة لا يمكن أن تكون كافية للسفن الكبيرة التي يمكن أن تنقل ما يصل إلى مائتي أو ثلاثمائة شخص، لذلك كان يلزم التزود بالإمدادات. وهكذا كانوا يتحركون على طول الساحل الدلماسي - حيث ليس من المستغرب أن تجد حتى اليوم أن الموانئ الساحلية الكبيرة لا تبعد عن بعضها بعضاً أكثر من يوم إبحار واحد قبل الخوض في الأرخبيل اليوناني، ثم المضي قدما نحو قبرص والساحل الفلسطيني.

ومع ذلك كان السفر البحري في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولا سيما على السفن البندقية، أكثر أماناً من السفر البري عبر البلقان، الذي كان قد أصبح شديد الخطورة بسبب وجود العصابات. وإضافة إلى ذلك، فإن قباطنة السفن البندقية كانوا بالتأكيد أكثر تكلفة، ولكنهم كانوا أكثر أماناً من غيرهم. كان المعتاد من أقوال ذاك الزمان أن من يعهد بنفسه في سفره إلى صقلي أو قطالوني إنما يتعرض لخطر الاستمتاع بالراحة الأبدية في قاع البحر، بينما البحارة من جنوة وبيزا كانوا يبيعون المسافرين للعرب. أما القوافل البحرية البندقية، فيتم تنظيمها تحت إشراف الدولة، ولذا كانت تمضي بأمان أكثر، سواء للبحارة أو للحجيج. وعادة ما كان يتم تنظيمها مرتين في السنة بخط السير نفسه، فتغادر السفن الأولى

البندقية أوائل الربيع لتصل إلى الأراضي المقدسة قبل عيد الفصح، بحيث يكون من المتوقع العودة يوم 8 مايو، وتغادر القافلة التالية بعد ذلك بقليل، وتترك يافا، أهم موانئ الوصول قبل يوم 8 نوفمبر. في ذلك الميناء كانت تتم المغادرة وتنطلق تحت حماية البنادقة حتى القدس، ونهر الأردن، ومزارات الحجيج الأخرى.

ويمكن باطمئنان اعتبار البحارة البنادقة القدامى مرشدين سياحيين بالمعنى الحرفي، حيث كانوا يرافقون ضيوفهم حتى الوجهة التي يقصدونها ثم يعيدونهم إلى بلادهم، ويتم ضمان الأمان بعقود موثقة تحدد الحقوق والواجبات سواء للحاج أو للبحار؛ والأوراق الموقعة تحفظ لدى سلطات القصر، وكانت نوعاً من النيابة العامة يمكن التوجه إليها طلباً للحكم إذا نشب خلاف بين الطرفين. ومع ذلك، فإن الصورة لم تكن دائماً وردية. ففي بداية القرن الخامس عشر، على سبيل المثال، تعددت الشكاوى حتى أدت إلى إيقاف رحلات الحج البحرية لبضع سنوات، بين عامي 1437 و1440. وبعد استئنافها قررت دولة البندقية أن تعهد بها إلى كارتل (تجمع) أصحاب السفن القادرين على تقديم ضمانات مؤكدة. وظلت الرحلات مقصورة لمدة على عائلة لوريدان، وبحلول منتصف القرن الخامس عشر، استبدل بها الإخوة كونتاريني. وقد أدارت هذه العائلة رحلات الأراضي المقدسة بطريقة احترافية حقيقية، واعتمدت على مجموعة واسعة من الوكلاء ووسطاء الأعمال، المنتشرين في المدن الأوروبية المختلفة. وتزامن تراجع شركة كونتاريني مع الحرب البندقية التركية (1499-1503م)، وقد كانت مواسم الحج

المنظمة الضخمة قد ولّت.

وفي الغالب تكون قصص رحلات الحجاج متكررة ومملة للقارئ، وتعكس في هذا الصدد التنظيم الجيد للبندقية المتكرر والثابت دائماً لا يتغير عاماً بعد عام. فمن يبحر من البندقية يعتاد على دفع مبلغ مقدم لمختلف الواجبات والرسوم التي من المفروض دفعها مرة واحدة في بلاد المسلمين: وكان البحارة هم من يتولون أمر التفاوض على المرور مع السلطات المحلية، وربما ينجحون في الحصول على خصم في الرسوم إذا كانت المجموعة التي ينقلونها كبيرة جداً. وفي مرات أخرى، خاصة في أوقات عدم الاستقرار، مثلما حدث في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، كان طمع الحكام أو رجال الجمارك يرفع من النفقات. ففي عام 1479 اضطر أجوستينو كونتاريني إلى دفع مبلغ مستحق على البحار البندقي الذي كان قد سبقه في العام السابق. وفي العام التالي رفض كونتاريني نفسه مرافقة الحجاج إلى نهر الأردن؛ لأن ذلك لم يكن مدرجاً صراحة في العقد الذي تم إبرامه قبل الرحيل، حتى وإن اضطر بعد ذلك أن ينفق أكثر بكثير مما هو منصوص عليه لتأجير السفينة. كان عدم اليقين فيما يتعلق بالتكاليف يضر بتنظيم الرحلات في البندقية، والذي كان يعرض سعراً شاملاً. طمع المسؤولين المحليين كان قد تحول إلى خسائر اقتصادية لكل من البندقية والعرب أنفسهم، الذين شهدوا نهاية ما يمكن أن نسميه «طفرة سياحية». وقد حسب الكاتب والمبشر الدومنيكاني غيلوم آدم، وكان ذلك عام 1317، أن سلطان مصر كان يتسلم 35 من عملة التورنيزه الكبيرة عن كل حاج، ونصح البابا بوضع حد لهذه الممارسة من حيث إن

«الحجاج هم الأشخاص الوحيدون الذين يمكن أن يساعدهم المسلمون دون خوف من التعرض للطرد من رعاية الكنيسة»[1].

وفي العصور الوسطى جلب الحج إلى البندقية أناساً قادمين من جميع أنحاء أوروبا، لدرجة أنه في 1398 عبّر مجلس القادة (مجلس الشيوخ) عن قلقه العميق من أن قدوم الكثير من الأجانب، الذين يتكلمون لغات مختلفة، قد يؤدي إلى سوء الفهم والأخطاء. أما في بلاد المشرق، فقد نجح تجار البندقية وبحارتها، المعتادون على السفر عبر البحار البعيدة، في التواصل والتجارة وعقد الاتفاقات مع الطرف الآخر الذي يتحدث إما اللغة العربية أو اللغة الحرة، التي هي لغة التواصل التي اخترعها البحارة الذين يترددون على موانئ البحر الأبيض المتوسط. وفي وثائق العصور الوسطى كان هناك سادة من العائلات الأرستقراطية الكبرى يعرفون اللغات التي يتحدث بها أهل المشرق لدرجة تجعلهم يعملون مترجمين للمحررات الرسمية. على سبيل المثال، في الترجمة اللاتينية للامتياز الممنوح في عام 1422 من قبل سلطان مصر إلى البنادقة، إلى جانب مترجمين اثنين، بندقي ومصري، ونذكر أيضاً السفير لورينزو كابيللو الذي كان «ملمّاً وخبيراً للغاية باللغة العربية». وفي عام 1400 قام القنصل البندقي في ملقة برناردو كونتاريني، المكلف بعقد اتفاق مع ملك غرناطة، بأداء دور المترجم. كما كان هناك العديد من أبناء النبلاء البنادقة العارفين باللغات الأجنبية من بين التجار والرحالة. ومنهم مارينو دولفين، على سبيل المثال، الذي حضر إلى مصر في النصف الأول من القرن الخامس عشر،

(1) J. Sumption, *Monaci, santuari, pellegrini. La religione nel Medioevo*, Roma, Editori Riuniti, 1981, pp. 232-238.

وكان يعرف اللغة العربية؛ لدرجة أنه كتب بها ملاحظات على ظهور المستندات في أرشيفه الخاص[1].

وعلى العكس كانت قصة التاجر والدبلوماسي البندقي يواصفات باربارو، الذي ذهب إلى شبه جزيرة القرم وبلاد فارس، قصةً مؤثرة، وقد حكاها في مستهل تقرير رحلته. ففي عام 1455م وهو يمر بريالتو أغاث رجلين مقيدين بالحديد، وفهم من كلامهما أنهما من التتار، وقد نجح في تحريرهما واصطحبهما إلى بيته وهو يتبادل معهما أثناء سيرهم أطراف الحديث بلغتهما. وخلال هذا الحديث قفز إلى الحوار اسم يوسف، وهو الاسم الذي كان معروفاً به في تانايس، وانتفض له أحد العبدين الذي تعرف إليه وقال له: «لقد أنقذت حياتي مرتين. هذه واحدة، لأنني كنت أضع نفسي في عداد الأموات (كوني عبداً). والمرة الأخرى عندما دخلت تانايس، وصنعت ثقباً في جدارها، خرج منه العديد من الناس، ومن بينهم كان سيدي وأنا». وإذ يشير إلى حادث آخر من هذا القبيل وقع له، ينصح باربارو القارئ أن يعامل الأجانب دائماً معاملة حسنة؛ لأنك لا تعرف أبداً أنك قد تقابلهم من جديد ذات يوم: «من كان يتصور أنه بعد 35 عاماً ورغم هذه المسافة الكبيرة، سوف يلتقي تتري مع بندقي؟»[2].

(1) *Diplomatarium veneto-levantinum*, a cura di G.M. Thomas e R. Predelli, 2 voll., Venetiis, Deputazione, 1880-1899, vol. II, p. 327; F. Bauden, *The Mamluk Documents of the Venetian State Archives. Handlist*, in «Quaderni di Studi Arabi», 20-21, 2002-2003, pp. 147-156.

(2) *I viaggi in Persia degli ambasciatori veneti Barbaro e Contarini*, a cura di L. Lockhart, R. Morozzo della Rocca e M.F. Tiepolo, Roma, Istituto Poligrafico dello Stato, 1973, pp. 88-89.

في مجتمع مثل المجتمع الأوروبي في القرون الوسطى، والذي كان ثلاثي الطبقات، مقسّماً بين أولئك الذين يزرعون الأرض، والمقاتلين العسكريين، ورجال الدين، كان هذا التاجر البندقي استثناء: فهو رحالة نبيل يمارس التجارة، ولكنه ليس عسكرياً، متذوق للّغات الأخرى ومتفهّم للشعوب الأخرى وغيور في الوقت نفسه على الخصوصية الثقافية والدينية الخاصة به.

4. الصليبيون

بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر بدأ في الوصول إلى البندقية العديد من أولئك الذين قرروا ترك بيوتهم وأسرهم وأصدقائهم للانتقال إلى الشرق ليحققوا حلم تحرير الأرض المقدسة من نير المسلمين. ووفقاً لسجلات الأحداث في ذلك العصر لم يكن يطلق على هؤلاء المسافرين مصطلح «الصليبيين»، والذي شاع بعد ذلك وأصبحت له شعبية كبيرة حتى عصرنا الحالي. أما في ذلك الوقت فقد كان يطلق عليهم مصطلح الحجاج. كانت رحلتهم تُعدّ في الواقع «حجّاً مسلحاً»، وكذلك كانت الطريق التي يسلكونها إلى الشرق طلباً للعفو الإلهي والتماساً باليد لشواهد الظهور الإلهي بين البشر. هكذا كانت طقوس التنصيب التي خضع لها مقاتلو «الصليب» قبل المغادرة لم تكن نفسها طقوس الفارس المسلح، وإنما طقوس من ينوي القيام برحلة التوبة والتكفير عن الخطايا. وكما قال البابا أوربانوس الثاني (1088–1099) يوم 27 نوفمبر 1095،

خلال انعقاد المجمع في كليرمون، في خطابه الشهير الذي دشن به الحملة الصليبية الأولى: «لماذا محاربة أتباع المسيح في حروب خاصة؟ من كان سارقاً فليتطوع في الجندية، ومن خالف إخوته يجب أن يحارب الهمج، ومن كان من المرتزقة الذين يبيعون أنفسهم بثمن بخس فسوف يكسب المكافأة الخالدة، ومن يذهب للعبادة إلى القدس سوف يخوض رحلة تعادل قيمتها التوبة»[1].

وقد تأخر البنادقة في الاستجابة لهذا الإغواء، ولم يستجيبوا استجابة كاملة في أي وقت من الأوقات لفكرة الحملات الصليبية. بينما استجاب لها البحارة الآخرون، من جنوة أو من بيزا، الذين اعتادوا التحرك بناء على مبادراتهم الفردية. بينما كانت الدولة في البندقية هي التي تتحكم في تحركات السفن والتجار، وكان أي مشروع جديد يقبع لمدة طويلة في قصر الدوق قبل السماح به. فأمن الدولة يجب أن يكون مكفولاً بأي ثمن، وكذلك سمعتها وموثوقيتها في مجال النقل. وقد حاولت الدولة بكل السبل تحاشي وقوع شخص واحد في خطأ يمكنه أن يؤثر سلباً على حركة التجارة في المستقبل أو يهدد العلاقات الحميدة مع الدولة البيزنطية أو مع الأسواق الإسلامية. لم تتحرك دولة البندقية لمساندة الصليبيين إلا عندما أصبح واضحاً أن فرص الربح تتجاوز التأثير السلبي المحتمل على التجارة الدولية، فوفرت لهم وسائل النقل للوصول إلى الأراضي المقدسة.

لكن الخطوات الحذرة الأولى في هذا الاتجاه قُدِّمَت عام 1100. فمن البندقية غادر أسطول كبير متجهاً إلى بلاد الشام، بقصد دراسة الحالة

(1) Runciman, *Storia delle Crociate*, cit., pp. 93-103; G. Zaganelli (a cura di), *Crociate, testi storici e poetici*, Milano, Mondadori, 2004, pp. 736-737.

السياسية في تلك المنطقة والتصرف بمقتضاها. لكن الهدف المعلن كان مختلفاً: فقد أرسلت السفن إلى الشرق لاستعادة رفات شهيرة، رفات شفيع البحارة، القديس نيقولا، أسقف ميرا (القديس الذي كان سبباً في ظهور الأسطورة الأمريكية سانتا كلوز في القرن التاسع عشر، والمعروف خارج أمريكا باسم بابا نويل). وليس مهماً أن قبله بأعوام، في عام 1087، قام بعض البحارة من بوليا بنقل عظام القديس إلى إيطاليا، وتم بناء كنيسة ضخمة في باري لحفظ هذه العظام وعرضها على المصلين لإجلالها. وكانت ميرا مركزاً مهماً على الشاطئ الشرقي وكان يلزم الاهتمام بعمرانها الذي أصبح مدمراً، وتحسين الدفاعات المحلية فيها، ومراقبة الوجود الإسلامي الفعلي في تلك المنطقة. وقد قنع البنادقة بالقليل من الرفات التي تبقت من أعمال السلب والنهب السابقة، ورووا أنهم استعادوا رفات اثنين من القديسين المهمين: سان تيودور وأحد أعمام الأسقف، كان هو الآخر يحمل اسم نيقولا. وظل أهل البندقية ينازعون أهل باري لعدة قرون، على امتلاك جسد شفيع البحارة. حتى وصل الأمر إلى اتهام البنادقة بأنهم جلبوا رفاتاً زائفة، والأبحاث وحدها، التي جرت على هذه الرفات المحفوظة بكنيسة سان نيقولا بالليدو، عامي 1953 و1992، هي التي أظهرت أن الجثة هي نفسها: والأجزاء الكبرى هي الموجودة في باري، في حين أن بعض بقايا العظام الصغيرة هي المحفوظة في البندقية[1].

وبعد أن غادر الأسطول ميرا توجه إلى يافا حيث التقى مع «المدافع عن القبر المقدّس،» جودفري دي بوليوني (1099–1100)، الذي كان بحاجة

(1) L.G. Paludet, *Ricognizione delle reliquie di san Nicolò*, Vicenza, Lief, 1994, pp. 36-38.

ماسة إلى السفن والمساعدات لمحاربة أعدائه، المسيحيين والمسلمين على حد سواء. فساعده البنادقة لأقل من شهرين، من 24 يونيو حتى 15 أغسطس، وفي المقابل حصلوا على بعض الامتيازات، من بينها الامتياز الأهم بالنسبة إليهم، وهو حرية التجارة في مملكة بيت المقدس. وبعد وفاة جودفري المفاجئة، قدّم أسطول البندقية المساعدات إلى شقيقه بالدوين (1100-1118) للاستيلاء على حيفا وحصلوا في مقابل هذا التدخل، على نصف المدينة المحتلة. وعلى أي حال كانت جنوة هي من دعمت ملك بيت المقدس الجديد في السنوات التالية، رغم أن أسطولاً من البندقية، أثناء غزو جبل صهيون عام 1110، حارب ضد الفاطميين الذين كانوا يحكمون تلك المنطقة من مركزهم في مصر. وفي هذه المرة حصل البنادقة في المقابل على حيازة قضاء عكا، حيث كانوا قد استقروا بالفعل.

وفي عام 1120 تم إطلاق دعوة جديدة للحرب من قبل بطريرك القدس، وملكها. فقرر الدوجي دومينيكو ميكيل (1117-1130) التدخل وأمر البحارة والتجار البنادقة بإلغاء التوقف في تلك السنة بميناء القسطنطينية واللحاق بالأسطول الذي أبحر في أغسطس عام 1122. وبهذه الطريقة لم تكتف حكومة البندقية بالانخراط في هذه المغامرة التي قد تجلب بسهولة امتيازات تجارية جديدة في الأراضي التي يستولي عليها الصليبيون، مثل تلك التي حصلوا عليها قبل عشرين عاماً، ولكنها استعرضت أيضاً قوتها واستقلال المدينة عن الإمبراطورية البيزنطية، كان الإمبراطور البيزنطي الجديد يوحنا الثاني كومنينوس (1118-1143) في الواقع معادياً لتجّار البندقية الذين يقصدون القسطنطينية للتجارة ورفض الاعتراف

بالامتيازات الممنوحة لهم من سلفه. وهكذا تدخل البنادقة عام 1123 بقيادة شخصية من الدوجي، لمساعدة فارموندو، الذي اعتلى العرش باسم الملك بالدوين الثاني (1118-1131)، الذي كان في ذلك الوقت أسيراً لدى المسلمين. وحرروا يافا من حصار المسلمين ودمروا الأسطول القادم من مصر. وبعد مدة وجيزة اتفقوا مع الصليبيين على تحرير صور وعسقلان. ولذا تقرر تركيز الجهود الحربية ضد المدينة الأولى التي سقطت في أيدي الصليبيين عام 1124. ووفقاً للأسطورة، غَنِمَ دومينيكو ميكيل غنيمة كبيرة من مدينة صور، احتوت على جرتين مملوءتين بالنقود الذهبية، تم اكتشافها عام 1592 في دير سان لورينسو. ثم طلب البنادقة التقيد بشروط ما يسمى بمعاهدة فارموندو (*Pactum Warmundi*)، وهي أن يكون لهم حي في كل مدينة من المملكة، ومختلف الامتيازات الأخرى، بما في ذلك الإعفاء من الرسوم الجمركية وحقوق الاختصاص: هكذا تم إنشاء محاكم لأول مرة في الممالك المسيحية، محاكم مستقلة تحكم بقوانينها الخاصة، وتتألف من أجانب (المقصود البنادقة في الخارج) بما يضمن لهم الاحتكام فيما بينهم طالما لم يتدخل في القضايا سكان محليون[1].

وأخيراً في عام 1125م، وبعد قضاء آخر شتاء في خيوس، عاد الأسطول البندقي إلى الوطن محملاً بالغنائم. ولمدة ثلاث سنوات واصلت سفن البندقية هجر ميناء القسطنطينية مما أضرَّ بالمصالح اليونانية أيضاً. وبعد اختبار القوة هذا، قرر الإمبراطور إعادة الاتصال مع الدوجي وأكد الامتيازات الممنوحة من قبل سلفه. وهكذا كانت مشاركة الحروب

(1) Runciman, *Storia delle Crociate*, cit., pp. 421-423; Da Mosto, I *dogi di Venezia nella vita pubblica e privata*, cit., pp. 56, 65.

البندقية في حروب الصليبيين في السنوات الأخيرة منطلقة من اعتبارات اقتصادية محددة وليس من مُثل دينية عليا؛ وذلك لأن إمبراطور القسطنطينية بدا غير موثوق به، فقررت الحكومة إبعاد تجارها عن مينائِهِ حتى يفهم اليونانيون أهمية حركة التجارة معهم. وفي الوقت نفسه يتم البحث عن المكاسب في أماكن أخرى، بالتدخل الفعال في الخلافات القائمة بين الصليبيين والمسلمين.

ولمدة ما يقرب من ثمانين عاماً، لم يتداخل البنادقة مع سياسات الممالك الصليبية. ونشأت مشكلات أخرى لهم في الإمبراطورية البيزنطية التي مالت أكثر لمصلحة منافستيهما الأبديتين، بيزا وجنوة. واندلعت أزمة خطيرة حوالي عامي (1169–1170) عندما اعترف الإمبراطور البيزنطي لبيزا وجنوة بما لم يعترف به أبداً لسفن البندقية، وهو تصريح بالتجارة في البحر الأسود. وعلاوة على هذا أمر الإمبراطور البيزنطي في 12 مارس من عام 1171، عقب بعض المصادمات بين البنادقة والجنويين، باعتقال جميع رعايا البندقية في إمبراطوريته وإيداعهم السجون. واستغرق الأمر أكثر من عشر سنوات لحل الأزمة، ولم تعد بعدها العلاقات بين الدولتين كما كانت من قبل أبداً. وفي هذه الأثناء، ورغم الموقف الدولي غير المستقر، اختارت البندقية ألا تساعد الصليبيين في حروبهم، رغم أن هذا قد يبدو الطريق السهل والأكثر بديهية. بل على العكس، قررت حكومة البندقية أن تركز أكثر على أسواق المسلمين، رغم استمرار توافدهم على مدينة عكا، التي كانت في تلك الأيام في أيدي المسيحيين، والتي أصبحت بديلاً لأسواق بيزنطة. وفي عام 1174 على سبيل المثال، كان تاجر بندقيٌّ ذائع

الصيت، هو رومانو مايرانو في مصر، لبيع الأخشاب الواردة من جبال البندقية ولشراء الفلفل والشبّ باستخدام الأموال التي عهدت بها إليه أسرة زياني شديدة الثراء.

وكذلك توجد وثائق تعود إلى النصف الثاني من القرن تشهد على أن الدوجي القادم، إنريكو داندولو، وشقيقه أندريا، تفرغا للتجارة مع الإسكندرية. وهكذا كان سلوك العديد من البنادقة الآخرين الذين تصرفوا على نحو مماثل، نذكر من بينهم ما ذكرته ماريا بازيجو، زوجة الدوجي المقبل بيترو زياني، والتي تشهد بمشاركة النساء أيضاً في التجارة الخارجية طويلة المسافات. وهناك اتفاق مع الملك النورماندي جوليلمو الثاني (1166–1189)، وقّع في عام 1175، وفتح أمام البندقية موانئ صقلية ومن ثَمَّ الطريق إلى شمال إفريقيا حيث قاد سفنهم أعظم تجار العالم بدءاً من رومانو مايرانو، إلى الدوجي سيباستيانو زياني (1172–1178)، وابنه وخليفته أيضاً بيترو زياني. في تلك المدة وصلت سفن البندقية إلى مدينة بجاية، وهي المدينة التي تأسست في عام 1067 وانجذبت منذ عام 1152 إلى فلك الدولة الموحدية (1147–1269) التي حكمت تجاه الغرب، وتوسعت حتى سبتة، وكانت من مراكز الموحدين الهامة حيث بنت بين عامي 1176 و1177 ترسانات جديدة ضخمة[1].

وفي الوقت نفسه، فإن الصراع مع بيزنطة كانت تتم تسويته ببطء

(1) I. Fees, *Ricchezza e potenza nella Venezia medioevale: la famiglia Ziani*, Roma, Il Veltro, 2005, pp. 90-91; D. Valèrien, *Bougie, port Maghrébin, 1067- 1510*, Rome, École Française de Rome, 2006, pp. 31-53; A. Unali, *Ceuta 1415. Alle origini dell'espansione europea in Africa*, Roma, Bulzoni, 2000, p. 70; Da Mosto, *I dogi di Venezia nella vita pubblica e privata*, cit., pp. 75, 81.

شديد. ففي عام 1179 تم الإفراج عمن تم سجنهم قبلها بسبع سنوات، ولكن الحي البندقي لم يُعَدْ تعميره كما لم تتم إعادة تكوين الجالية. وكان في ذلك ميزة لتجار البندقية إذ أنهم بهذا الوضع لم يشاركوا في مذابح اللاتين التي جرى الإعداد لها عام 1182 من جانب السكان اليونانيين بتحريض من عملاء الإمبراطور. وفي تلك السنة، علمت بهذا بعض السفن التي كانت متجهة إلى العاصمة الإمبراطورية، عندما وصلت إلى رأس ماليا، قبل وقت قصير من الرسو بجزيرة ايبويا، وهي البندقية نيغروبونتي، ولهذا غيرت مسارها وأبحرت إلى الإسكندرية. وقد ظهرت الأسواق الإسلامية في عيون تجار البندقية أكثر موثوقية من الأسواق اليونانية. وفي السنوات التالية دفعت التغييرات في الأسرة الحاكمة والتهديدات الخارجية، والضعف الداخلي الأباطرة إلى التصديق على أوامر إمبراطورية، سميت بالفقاعات الذهبية، حيث أعادت فتح العاصمة البيزنطية أمام البنادقة، رغم أن الموقف كان لا يزال غير مستقر، وكان في هذا المناخ انعدام الأمن بالنسبة إلى التجارة أو الضعف الواضح في الحكومة البيزنطية إذ وقعت واحدة من أكثر الحوادث مأساوية في تلك السنوات: الحملة الصليبية الرابعة، والتي أدت إلى تكوين إمبراطورية لاتينية جديدة في الشرق[1].

وفي أحد أيام الآحاد من عام 1202، وبعد أن واجه الدوجي الكفيف إنريكو داندولو، البالغ من العمر خمسة وتسعين عاماً، تجمع الناس في مصلى الدوقية بسان ماركو، حيث «نزل من المنبر وذهب أمام المذبح

(1) G. Ravegnani, *Bisanzio e Venezia*, Bologna, Il Mulino, 2006, pp. 90-102.

وركع أسفله وأجهش بالبكاء؛ خاطوا له الصليب على قبعة قطنية كبيرة، لأنه أراد أن يرى الناس ذلك. وبدأ البنادقة يتحولون إلى صليبيين بحشود غفيرة وبأعداد كبيرة...»[1]. ولذلك سمي إنريكو داندولو بالدوجي الصليبي. ولا يبدو أن مثل هذا الاختيار قد أملته قناعة دينية عميقة ولكن بسبب الوضع السياسي والاقتصادي في تلك السنوات.

وقد بدأت الدعوة لحملة صليبية جديدة في فرنسا من أجل تحرير بيت المقدس، والتي تمت استعادتها من قِبل صلاح الدين الأيوبي عام 1187. وكان الميناء المختار لإبحار الفرسان نحو الأرض المقدسة هو ميناء البندقية. وفي أبريل 1201 تمت صياغة اتفاق وقعه الطرفان، وبموجبه قام الصليبيون بدفع 85000 مارك فضي من كولونيا مقابل نقل القوارب المسلحة لأربعة آلاف وخمسمائة حصان، وتسعة آلاف حامل دروع، وعشرين ألفاً من المشاة والتموين الذي يكفي لمدة عام، على متن خمسمائة سفينة مسلحة. لكن انشقاق بعض البارونات، والنقص الحاد في الأموال، منعا الفرسان من الوفاء بالالتزام الذي قطعوه على أنفسهم، بينما نجح دوجي البندقية في إعداد الأسطول الذي وعد به. وتم الاتفاق على حلّ يقضي بتوجيه الجيش في البداية إلى مدينة زارا، التي ثارت على البندقية، وذلك قبل الإبحار إلى بلاد الشام. وبعد تمام غزو المدينة وصل سفراء الملك فيليب دي زفيفيا، ملك الرومان (1198–1208) وعديله الأمير البيزنطي أليكسيوس. وهؤلاء طلبوا من الصليبيين مساعدة الأمير الشاب على الانتصار على الغاصب الذي جلس آنذاك على عرش بيزنطة.

(1) Zaganelli (a cura di), *Crociate, testi storici e poetici*, cit., p. 1548.

وفي المقابل تعهد أن يتكفل لمدة عام بالجيش والحملة المسلحة وأن يدفع مائتي ألف فرنك فضي، وأن يرسل عشرة آلاف من رجاله معهم إلى مصر. ولم يتم رفض هذا العرض الجذاب من قِبل أهم البارونات، مدفوعين إلى ذلك من الدوجي، الذي أظهر ترحيبه فوراً بهذه المبادرة. وأقنع وصول أليكسيوس بنفسه هؤلاء الذين كانوا لا يزالون متشككين، وأبحرت السفن إلى عاصمة البوسفور[1].

يمكن تفسير حماسة البنادقة من جوانب متعددة، حيث ضعْف الحالة الأمنية التي عاشوا فيها في السنوات الأخيرة في الإمبراطورية، مع وجود الرغبة لديهم في أن يحلوا محل بيزا التي كانت مفضلة من جانب البيزنطيين، وأخيراً الرغبة في تقديم أنفسهم في البوسفور بالأسطول الجديد في صورة المنتصرين. وعلى أي حال فإن بعض مؤرخي الأحداث في ذلك العصر، بدءاً من إرنول، عزوا ذلك إلى اتفاق سري مع العادل شقيق صلاح الدين وسلطان مصر، وانحراف الحملة الصليبية عن هدفها الرئيس. وحول «الخيانة المحتملة» للبندقية هناك كتابات تؤيدها وأخرى تنفيها. والحقيقة أنه لا توجد وثائق تشهد على هذه الفرضية، على أساس أنه يمكن بسهولة إثبات أن اتفاقات السلام التي تدعم هذا الافتراض قد تم توقيعها بعد ذلك الوقت، ربما في عام 1208، عندما كان الموقف السياسي الدولي قد تغير، ومع ذلك يبدو غير قابل للتصديق ادعاء بعض المؤرخين الذين يؤكدون أن مصر، كونها وجهةً لحرب صليبية، كانت في ذلك الوقت أكثر إثارة للاهتمام من بيزنطة بالنسبة إلى البنادقة. ومع قدوم الدولة الأيوبية

(1) S. Romanin, *Storia documentata di Venezia*, 10 voll., III ed. Venezia, Filippi, 1973, vol. II, pp. 115-119.

(1174-1250) كان الوضع السياسي في الشرق المسلم قد أصبح أكثر وضوحاً، على الرغم من أنه لم يصبح بعد هادئاً، علاوة على أن البنادقة كانوا يتصرفون وفقاً لمنطق تجاري، لا وفقاً لمنطق توسعي إقليمي. ومن وجهة النظر الاقتصادية، فإن المخاطرة بتعديل التوازن الدولي بحرب، مبشرة بمزيد من إمكانيات السيطرة المباشرة والامتيازات التجارية، ولكن أيضاً بمزيد من عدم الاستقرار، الذي قد يكون إيجابياً لو كان الموقف المبدئي سلبياً أو غير مؤكد، ولكنها ليست كذلك إذا كان الموقف المبدئي مستقراً، ومورداً للمكاسب، وصماماً للتنفيس، إذا خرجت أسواق أخرى معرضة أكثر للخطر. ولذلك فليست هناك حاجة إلى أن يحضر سفير مصري إلى الدوجي بهدايا نفيسة كما يؤكد «إرنول»، لكي يدفع البندقية إلى دعم حملة بيزنطة بدلاً من حملة الأراضي المقدسة أو مصر[1].

(1) G. Hanotaux, *Les Vénitiens ont-ils trahi la Chrétienté en 1202?*, in «Revue Historique», 5, 1877, pp. 74-102; W. Maleczek, *Innocenzo III e la quarta crociata. Da forte ispiratore a spettatore senza potere*, in G. Ortalli, G. Ravegnani e P. Schreiner (a cura di), *Quarta Crociata. Venezia, Bisanzio, Impero Latino*, Venezia, Istituto Veneto, 2006, pp. 389-422.

الفصل الثالث

بين الحرب والسلام

1. سلام الشرق

بعد فتح القسطنطينية عام 1204م رفض الدوجي إنريكو داندولو السلطة العليا في الدولة التي كانت تتأسس عندئذٍ، ولكنه قَبِلَ لقب «المسيطر على الجزء الرابع ونصف إمبراطورية رومانيا كلها». وعند وفاته، في عاصمة «الإمبراطورية اللاتينية» الجديدة، انتخب البنادقة رئيساً للحكومة (*podestà*)، مهمته ضمان مصالح المستعمرة ومدينة البندقية. ولم تَشتعل حرب بداية القرن الكبرى إلا في عهد خلفه بيترو زياني، الذي عمل جاهداً للدفاع عن الدولة والسلام والتجارة. وقد وقَّعَ الدوجي الجديد كثيراً من المعاهدات مع حكام الغرب والشرق: فاتفق مع الإمبراطور أوتوني الرابع (1209)، وملك المجر (1216)، وبطريرك أكويليا (1206، 1218، 1222)، ومدينة بيزا (1218)، وبادوفا (1209، 1216، 1222)،و بولونيا (1227)، وأوزيمو، وريكانتي، وأُمالا (1228)، وكونت بيبلوس (1217) وبيروت (1221)، وحاكم إبيروس (1208)، والإمبراطور اليوناني في نيقية (1219)، وأيضاً مع مختلف القوى الإسلامية كسلطان حلب (1207/ 1208، 1225)، ومصر الأيوبية

(1208)، وسلاجقة الروم (1220) حكّام قونية. وانعكست سياسة زياني في الانفتاح نحو الشرق على الاقتراح الذي قدمه عام 1214 لنقل مقر الدوقية إلى القسطنطينية، نظراً للجو غير الصحي للبندقية والزلازل المتكررة والأعمال الحربية في المناطق الداخلية في إيطاليا. وتم رفض المشروع من قِبل المجلس الأعلى للبندقية، وهكذا تحاشت المدينة البحرية العودة إلى كونها مجرد قرية صغيرة لصيد الأسماك.

وفي عام 1231م، وفور تولّي الدوجي المنتخب حديثاً جاكوبو تيبولو، وقّع السفير البندقي بيترو دولفين اتفاقاً تجارياً مع أبو زكريا (1228-1249) مؤسس الدولة الحفصية التي انتزعت تونس العاصمة والمنطقة المحيطة بها من دولة الموحدين التي كانت قد توسعت من المغرب الأقصى حتى تلك المناطق. وتمكن الأمير الجديد من تحويل المدينة إلى مركز إسلامي في الغرب، فدعا العلماء من الأندلس، وبنى القصور والحمامات، وفتح ميناءها أمام التجارة الدولية. وبدأ أبو زكريا عهده بتوقيع اتفاقيات مع القوى التجارية الأوروبية، وإضافة إلى البندقية ومرسيليا (1231)، وقّع أيضاً اتفاقيات مع بيزا بين 1229 و1234 وجنوة 1230 و1236 [1].

وقد حكم الحفصيون تونس لأكثر من ثلاثة قرون، مستقلين بالحكم حتى عام 1534، ثم تحت الحماية الإسبانية حتى عام 1574، عندما حدث الغزو العثماني النهائي لها. وفي الوقت نفسه كانت معظم الدول التي

---

(1) L. de Mas Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Âge. Introduction historique; Documents; Supplément*, 3 voll., Paris, Henri Plon-J. Baur et Détaille, 1866-1872, vol. *Introduction*, pp. 82-83.

تم إنشاؤها من قبل الصليبيين في بلاد الشام قد انهارت خلال القرن الثالث عشر. وانتهت الإمبراطورية اللاتينية نفسها في القسطنطينية عام 1261، عندما هزم ميكيل الثامن باليولوجوس (1261–1282)، بمساعدة من جنوة، بالدوين الثاني وطرد البنادقة الذين دعموه. واختفت الممالك الصليبية فيما وراء البحار نهائياً عام 1291، بسقوط عكا. وبدلاً من ذلك واصلت شبكة الاتفاقيات المتنوعة مع الدول الإسلامية التي عقدتها البندقية فعلها وتأثيرها. كما تجددت المعاهدات أيضاً في القرن التالي وتوسعت لتشمل الممالك الأخرى. حتى ظهور العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط، وقد كان بوسع البندقية أن تتمتع بمدة طويلة من السلام والتجارة المزدهرة في الشرق، التي لم تضطرب إلا في الأوقات التي فرض فيها البابا عقبات أمام تحرير تجارة المسيحيين في تلك الأراضي. وفي بداية القرن الرابع عشر تكررت المراسيم البابوية التي تحظر التجارة مع الكفار، ولكن كانت البندقية قادرة على الحصول بسهولة تامة على إعفاءات بفضل قوة دوقيتها.

أما من وجهة نظر الشريعة الإسلامية فقد كانت هناك طريقتان للتوافق مع الكفار للسماح بإنشاء علاقات سلمية وتجارية. النوع الأول هو اتفاق الهدنة، أي الهدنة التي يوقعها ملكان ويتعاهدان عليها علناً ويقسمان على احترامها، وتنتهي الهدنة بعد مدة زمنية متفق عليها مسبقاً. ويرى الشافعية صحة مدة الهدنة لعشر سنوات، اقتداء بصلح الحديبية الذي وقعه النبي مع قريش في العام السادس للهجرة (628م). واختار المذهب المالكي، المنتشر على نطاق واسع في شمال إفريقيا، أن يترك المزيد

من الحرية، وبالفعل اختار بعض حكام شمال إفريقيا فترات صلاحية أطول في اتفاقاتهم مع الكفار. على سبيل المثال، منحت تونس في ظل الحفصيين البندقية، عام 1231، هدنة لمدة أربعين عاماً، ومنحت جنوة، عام 1433،اتفاقاً يدوم عشرين عاماً. غير أن العادة جرت على أن تفقد وثيقة الهدنة صلاحيتها بوفاة من أصدرها، كما هو منصوص عليه في الشريعة الإسلامية، وهذا ما يفسر دواعي تجدد العديد من معاهدات السلام قبل انتهاء صلاحيتها الطبيعية[1].

وفي بعض الحالات النادرة تم التوصل إلى معاهدة سلام دائم. ففي عام 1400 على سبيل المثال، منح محمد السابع ملك غرناطة (1392–1408) مثل هذه المعاهدة، ولا يسمح لنا وجود الترجمة البندقية فقط بالتحقق من تطابقها مع ما هو مكتوب في الوثيقة الصادرة من الكتّاب العرب. ففي الواقع ليس دائماً ما يتطابق الأصل مع الترجمة: ففي اتفاق عام 1397 بين حاكم تونس أبي فارس عبد العزيز الثاني (1394–1434) وبيزا، جاء الاتفاق على السلام الدائم في الوثيقة باللغة العامية وليس فيما عداها من نسخ. والمثال الأكثر تأكيداً لذلك هو ما جاء في اتفاق عام 1421 بين أبي فارس نفسه وبيزا وفلورنسا وبيومبينو: فقد كُتب في النص اللاتيني «وهذه وسيلة للسلام الدائم»، أما في النسخة العربية «صلح مستمر

(1) Mas Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Âge*, cit., vol. *Documents*, pp. 134-142; F. Girardi (a cura di), *Venezia e il regno di Tunisi. Gli accordi diplomatici conclusi fra il 1231 e il 1456*, Roma, Viella, 2006, pp. 14-17; M.P. Pedani Fabris, *La dimora della pace. Considerazioni sulle capitolazioni tra i paesi islamici e l'Europa*, Venezia, Cafoscarina, 1996, pp. 13-21.

على الدوام». وتسبق هذه المعاهدة بثلاثة قرون أول معاهدة سلام دائم يمنحها حاكم عثماني للروس عام 1720، تليها معاهدة أخرى، منحتها الدولة العثمانية هذه المرة للبنادقة عام 1773: وبعدها لم يتم إبرام أي معاهدات بين الدوجي والسلاطين[1].

وعلاوة على عهود الهدنة أمكن اللجوء أيضاً إلى عهود «الأمان» لتنظيم وجود التجار المسيحيين في ديار المسلمين، وهي النوع الثاني من العهود، وهو عهد سلوك آمن يمكن أن يمنحه أي مسلم فرد لأي كافر فرد. وفي حالة الاتفاقات الدولية يتخذ عهد الأمان صفة العموم (أمان عام) حيث لا تحمي الاتفاقات الفرد وحده، وإنما جماعة متجانسة أيضاً، ويمكن أن يصدره الحاكم أو نائبه. ويُعد عهد الأمان امتيازاً أحادي الجانب، ولا يحتاج إلى القسم عليه حتى تبدأ صلاحيته. ويدخل ضمن هذه الفئة كافة العهود الصادرة لحماية تجارة البندقية بواسطة سلاطين مصر.

وتقع جميع اتفاقات السلام بين الدول الإسلامية والدول الأوروبية، سواء في العصور الوسطى، أو في العصر الحديث، وحتى ظهور القانون الدولي الجديد، ضمن أحد هذين النوعين، أي أنها إما هدنة وإما عهد

(1) G.M. Thomas (a cura di), *Handelsvertrag zwischen der Republik Venedig und dem Königreich Granada vom Jahre 1400*, in «Abhandlungen der K. Bayer. Akademie der Wiss.», cl. I, vol. XVII, fasc. 3, 1885, pp. 609-638; M. Amari, *I diplomi arabi del R. Archivio fiorentino*, Firenze, Le Monnier, 1863-1867, pp. 123-136, 169-180, 424-430; Mas Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Âge*, cit., vol. *Documents*, pp. 70-87, 355- 360; Pedani Fabris, *La dimora della pace*, cit., pp. 16, 40-41.

أمان. وفي العادة، عندما تكون هناك حدود مشتركة، فإن الهدنة هي الشكل المفضل؛ أما إذا تعلق الأمر بمجموعة من التجار الذين يعملون على الأراضي الإسلامية فتُفضَّل عهود الأمان، رغم أن هذا المبدأ، المصلحة على سبيل المثال بالنسبة إلى العثمانيين، لم يُحترم دائماً. ومن وجهة النظر الأوروبية كانت كل هذه الوثائق التي تتضمن معاهدات سلام مع الدول الإسلامية تسمى بلا تمييز «امتيازاً»، من الفعل الإيطالي السائد في العصور الوسطى (*capitolare*) ويعني التعاهد على مجموعة من شروط الإذعان (*capitula*). وقد تم استخدام المصطلح نفسه لعدة قرون دون الالتفات إلى الطابع القانوني للوثيقة. ثم أصبح يحيل إلى المعاهدات الحقيقية التي تتفق عليها دولتان صاحبتا سيادة، أو المراسيم أحادية الجانب التي كانت تصدر من إحدى الدول لمصلحة رعايا دولة أخرى. ثم ساد المصطلح الأخير على الصعيد العالمي: مع ظهور الاستعمار والإمبريالية، فقد فرضت القوى الغربية الامتيازات الأجنبية ليس فقط على الدول الإسلامية في الشرق الأدنى، ولكن أيضاً على البلدان غير الإسلامية في شرق آسيا.

وفيما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر توسعت كثيراً شبكة الأسواق المفتوحة أمام البنادقة. وأُجريت اتصالات جديدة مع بعض الممالك الصغيرة التي احتلت المساحة التي انسحبت منها دول السلاجقة والبيزنطيين التي بدأت تضمحل. فاتفقت البندقية مع إمارة منتشا التركية (بلاط الآن) وإيدين (سلجوق الآن) على ساحل الأناضول. وأبرمت اتفاقية أخرى مع خاقانية قفجاك بالقرم والتي حكمها أحفاد

جنكيز خان، ولكنها تتألف من مغول القبيلة الذهبية الذين اندمجوا مع العنصر التركي المحلي[1]. كما حصلت البندقية من الغرب الأقصى على امتيازات تجارية من ملك غرناطة آخر حاكم مسلم في شبه الجزيرة الإيبيرية. ويبدو أنها لم تبرم اتفاقاً مع حاكم مراكش، وهو الاتفاق الذي عهد بإبرامه عام 1357 إلى لورنسو براجادين[2]. ولا نعرف إلا القليل عن اتفاق آخر، في العام التالي، الذي تفاوض عليه كل من برنابا جيراردو والموثق بونيفاتشو دي كاربو مع حاكم البربر في طرابلس، وكانت المدينة لا تزال خارجة من نزاع بين الأسرة الحفصية في تونس والمرينيين الذين يحكمون المغرب[3]. وعلى الجانب الآخر، أي في الشرق، وصل سفراء البندقية إلى شمال غرب بلاد فارس، لدى ملوك الإيلخانية وحصلوا منهم على امتيازات عام 1306 وأخرى عام 1320، ولاحقاً حصلوا على امتيازات من الآغ قويونلو، المعروفين باسم الخرفان البيض، (1469-1502م)، وهي إحدى القبائل التركية التي استقرت في أودية أعالي دجلة والفرات بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وكانت جميع هذه الدول بصدد الزوال بسرعة شديدة، على أعتاب العصر الحديث، الذي طغت عليه أساطين كيانات الدولة القوية شديدة البأس مثل ملوك قشتالة وأراغون في إسبانيا، والعثمانيين في حوض البحر الأبيض المتوسط

(1) N. Di Cosmo, *Circostanze e limiti dell'espansione veneziana in Oriente nel Trecento*, in S. Winter (a cura di), *Venezia, l'altro, l'altrove*, Roma-Venezia, Edizioni di Storia e Letteratura, 2006, pp. 1-22; L. Pubblici, *Venezia e il mar d'Azov: alcune considerazioni sulla Tana nel XIV secolo*, in «Archivio Storico Italiano», 163, 3, 2005, pp. 435-484.

(2) ASVe, *Senato, Misti*, reg. 28, c. 8.

(3) ASVe, *Senato, Misti*, copia reg. 28, cc. 179-179v, 8 feb. 1358.

والدولة الصفوية في إيران[1].

أما الامتيازات التي تم التفاوض عليها مع الحكام المسلمين، سواء كانت اتفاقيات ثنائية أو مجرد مراسيم وعهود أمان، فقد ظلت تحمي التجار البنادقة في أسفارهم البعيدة. وتحتوي هذه الوثائق في العادة على الرسوم والضرائب التي يجب أن يدفعها التجار، وأماكن السكن التي سوف يقيمون فيها، والتسهيلات التي يتمتعون بها، وماذا يمكن أن يحدث لأملاك تاجر توفي على أرض أجنبية، أو غرقاً، أو في أية حوادث أخرى، وأخيراً الواجبات التي تقع على عاتق ممثليهم والذين أُطلق عليهم اسم «قناصل»، أو في بعض الأحيان اسم «الوكلاء». وخلافاً لسائر التجار الإيطاليين، كان البنادقة يسافرون في جماعات، ويحظون برعاية الدولة، سواء أثناء السفر البحري أو في مختلف الساحات والأسواق. وقد منعهم هذا جزئياً وفي بعض الأحيان، من اقتناص الفرص المواتية للانخراط في عمليات تجارية سريعة تدر مكاسب طائلة، ومن ناحية أخرى سمح لهم بالحماية الفضلى، وفي حالات الاضطرار إلى مواجهة تعنت السلطات المحلية أمكنهم بسهولة اللجوء إلى سلاح المقاطعة حتى يحصلوا على ما يريدون.

---

(1) *Diplomatarium veneto-levantinum*, a cura di G.M. Thomas e R. Predelli, 2 voll., Venetiis, Deputazione, 1880-1899, vol. II, *passim; L. de Mas Latrie, Privilèges commerciaux accordés à la république de Venise par les princes de Crimée et les empereurs mongols du Kiptchak*, in «Bibliothèque de l'École des chartes», 29, 1868, pp. 580-595; M. Pozza (a cura di), *I trattati con Aleppo. 1207-1254*, Venezia, Il Cardo, 1990; E. Zachariadou, *Trade and Crusade. Venetian Crete and the Emirates of Menteshe and Aydin (1300-1415)*, Venice, Istituto Ellenico, 1983, pp. 187-239.

2. حكام البوابة

ومن القرن الحادي عشر وحتى القرن الثالث عشر وصلت قبائل تركية مختلفة من آسيا الوسطى إلى شبه جزيرة الأناضول. ومن أوائل هذه القبائل وأقواها وأفضلها حظاً السلاجقة (1037–1187) الذين وضعوا أساساً لسلطنة واسعة استطاعت هزيمة البيزنطيين (موقعة ملاذكرد، 1071). ومع مرور الوقت بدأت هذه الإمبراطورية بالتفكك خلال الفترة نفسها بواسطة جحافل جنكيز خان «المغول» التي جاءت من أعماق آسيا. في ذلك الوقت استطاعت القبائل التركية الأخرى، التي استقرت في الأناضول، إنشاء عدد من الإمارات المستقلة. وفي نهاية القرن الثالث عشر جاءت المجموعة الأخيرة من الفرسان البدوية بقيادة أرطغرل، والد عثمان (حوالي 1295–1324)، وهو البطل الذي سميت الإمبرطورية العثمانية باسمه[1].

وأثناء ملك ابنه أورخان (1324–1362) وضع العثمانيون أقدامهم لأول مرة في أوروبا، بصفتهم حلفاء لأحد المتنازعين على العرش البيزنطي، والذين كانوا عندئذٍ يتقاتلون ويشاركون في قتالهم أيضاً المدن/ الممالك الإيطالية مثل البندقية وبيزا. وربما كانت سفن جنوة هي التي كانت تنقل القوات التركية في عام 1352. وفي الواقع اقتصرت الاتصالات التجارية

---

(1) حول الإمبراطورية العثمانية بشكل عام وحول علاقتها مع البندقية، انظر:
M.P. Pedani, *Breve storia dell'Impero Ottomano*, Roma, Aracne, 2006; D. Quataert, *L'Impero Ottomano (1700-1922)*, Roma, Salerno, 2008; M.F. Viallon, *Venise et la Porte Ottomane (1453-1566). Un siècle de relations vénéto-ottomanes de la prise de Constantinople à la mort de Soliman*, Paris, Economica, 1995.

الأولى بين العثمانيين والإيطاليين على أهل جنوة، التي كانت عندئذٍ حليفاً للبيزنطيين. وفي مقابل هذه المساعدة منح الإمبراطور يوحنا كانتاكوزينو السادس (1347-1354) لأورخان قلعة في شبه جزيرة غاليبولي، وكانت ابنته ثيودورا زوجة له: ووجود أميرة ملكية حمراء بين حريمه هو بمثابة صعود اجتماعي لا شك فيه للأمير العثماني. وفي العام التالي حدث انقلاب في التحالفات وأرسل أورخان، بعد أن أغراه ذهب جنوة، بقواته إلى مضيق البوسفور للقتال ضد يوحنا كونتاكازينوس السادس نفسه وحلفائه البنادقة. وفي عام 1354 دخل الأمير سليمان منتصراً إلى غاليبولي، بعدما ضربها أحد الزلازل مباشرة، وزعم أنه لم يرتكب أي فعل يتعارض مع السلام ولم يقم بغزو المدينة بالمدافع، ولم يفعل سوى أن شغل منطقة مهجورة خالية من السكان.

ومع وصول القوات العثمانية إلى تراقيا بدأ البنادقة يتطلعون باهتمام شديد إلى الإمارة الجديدة، التي كانت حتى ذلك الحين تلقى منهم اهتماماً قليلاً، وهو ما كان يثير سخط أورخان، الذي تصور أن هذا الإهمال ينطوي على استخفاف بقدره. فقد كان يلعب دوراً رائداً في المنطقة، فيما كان نجم الإمبراطورية البيزنطية يأفل بفعل الضعف والاقتتال الداخلي. وبعد ذلك بمدة وجيزة أصبح يوحنا السادس كونتاكازينوس راهباً وترك الساحة خالية لمنافسه يوحنا باليولوجوس الخامس (1341-1376، 1379-1391). وبهدوء، وبعد تأمل لمدة طويلة كالعادة، قرر البنادقة التحركات السياسية التالية، ورأوا أن الوقت قد حان للاقتراب من العثمانيين وإقامة علاقات سلام معهم.

وقد بدأت العلاقات بتبادل رسائل وعبارات المجاملة فقط. وتخبرنا مخطوطة من أواخر القرن الثامن عشر، تحتوي على قوائم بالممثلين الدبلوماسيين البنادقة، بأن اثنين من النبلاء، ليوناردو كونتاريني وأنطونيو فينير، قد تم اختيارهما في شهر مارس من عام 1360 سفيرين لدى الملك الجديد مراد الأول حوالي (1362-1389) لتهنئته بالاستيلاء على مدينة أدرنة. ولكن لو كان التاريخ الذي سجله المؤلف للمخطوطة سليماً، وهو الذي كان يعتمد على مصادر لم تعد متاحة اليوم، فإنه يكون قد استبق التاريخ الذي سقطت فيه المدينة واعتلاء مراد الأول العرش، حيث إن والده كان لا يزال على قيد الحياة في ذلك التاريخ. والحقيقة أن التخلي الطوعي عن العرش كان من الممارسات الشائعة منذ الأمراء العثمانيين الأوائل، ومن ثَم لم يكن خياراً مستحيلاً.

وهكذا بدأت الدولتان إقامة علاقات دبلوماسية. ووصل سفير عثماني إلى البندقية عام 1384، لكي يطلب دون جدوى تحالفاً ضد جنوة التي كانت في ذلك الوقت من ألدّ أعداء البنادقة. وفي عام 1389 وفور وصول أنباء الانتصار العثماني في وادي كوسوفو ضد الصرب والبوسنيين وقتل مراد الأول غيلة، سارع الدوجي إلى كتابة رسالة لتهنئة الملك الجديد. لكن لعدم معرفته أياً من الأميرين، بايزيد أو يعقوب الذي اعتلى العرش، كتب خطابين بعنوانين مختلفين، وكلف المبعوث بواجب تسليم الخطاب الصحيح الملائم[1].

(1) A. Fabris, *From Adrianople to Constantinople. Venetian-Ottoman Diplomatic Missions, 1360-1453*, in «Mediterranean Historical Review», 7, 2, dicembre 1992, pp. 154-200.

ومع ذلك انقطعت الاتصالات عام 1392، عندما صار ضغط العثمانيين على بيزنطة أشد وطأة. حيث حاصر بايزيد الأول (1389-1402) العاصمة وبنى قلعة الأناضول؛ لكي يهدد عن قرب جدرانها، والتي كانت حتى ذلك الوقت عصية. وعندئذٍ فر العديد من المدينة الإمبراطورية إلى إيطاليا. وكان من بينهم ديمتريوس كيدونيس وغيره من الكتّاب الراسخين في الثقافة اليونانية القديمة؛ فكان لهم تأثير كبير في نشوء النزعة الإنسانية. ويمكن القول بعد ذلك إن وجود الأتراك العثمانيين في الشرق في نهاية القرن الرابع عشر أسْهمَ على نحو ما في تطور إيطاليا في عصر النهضة.

وقد استمر حصار العاصمة الإمبراطورية حوالي سبع سنوات، ثم انتهى بفضل الدعم المقدم أيضاً من البنادقة. ومنذ بداية القرن الرابع عشر فكك الإمبراطور الأسطول الذي أصبح مرهِقاً لمالية الدولة المنهكة، ولهذا كانت سفن البندقية هي التي تدعم المواقف البيزنطية. لكن البنادقة لم يشاركوا في الحملة الصليبية ضد تركيا، التي نظّمها الحكام الأوروبيون، وانتهت بهزيمة نيكوبوليس (1396). وكان الدعم مقتصراً على توفير النقل للمشاركين ودفع مبالغ كبيرة من المال لفرسان البورغنديين، الذين أسَرَهم بايزيد الأول في ساحة المعركة، حتى اضطروا إلى دفع فدية كبيرة. ثم استغرقوا عدة سنوات لتحصيل ما قدموا من قروض.

وبالنسبة إلى مانويل الثاني باليولوجوس (1391-1425م) فإن المساعدة الحقيقية لم تصل إليه من إيطاليا أو من الغرب، كما كان يأمل ويرجو خلال زياراته الشخصية لمختلف قصور الحكم الأوروبية، ولكنها جاءته

من الشرق، من سمرقند البعيدة، مما مهد للقائد العظيم الذي اجتاز ساحات القتال بمنطقة أوراسيا كالشهاب: الأمير العظيم تيمورلنك (الحديد، الأعرج)، المعروف في إيطاليا تحت اسم تمرلانو (Tamerlano) (1369-1405م).

وبينما كانت جيوش الفاتح العظيم تتقدم والموقف السياسي يتأزم، حاول بايزيد التقرب من أباطرة بيزنطة والغرب. وكان ممثلو البندقية وجنوة والبيزنطيين يجتمعون في بورصة لمناقشة السلام مع والدة أحد أبناء السلطان سليمان. لقد كانت الحالة خطيرة بيْد أن هذه الحقيقة وحدها لا تفسر وجود امرأة على رأس الوفد العثماني. ولكن لابد من التذكير بأن الأتراك على الرغم من قبولهم الإسلام ديناً لحكامهم، ومن ثم ديناً للدولة، فإنهم كانوا لا يزالون متعلقين بشدة بتراثهم القديم في المنطقة التي جاءوا منها في آسيا الوسطى. وقد كان وضع المرأة عند تلك الشعوب البدوية، من أصول تركية أو منغولية، يختلف تماماً عن وضعها في المنطقة العربية الإسلامية في مدة الخلافة، والتي عادة ما نحيل إليها عند التفكير في المرأة المسلمة. فرحالة القرن الرابع عشر الكبير ابن بطوطة يحكي تعبيراً عن دهشته عندما رأى التتري أوزبك ينهض على قدميه عندما تدخل النساء إلى خيمته، بل وصل الأمر إلى أنه كان يتقدم إلى مدخل الخيمة ليستقبل الخاتون الرئيسة. كما يذكر الراوي نفسه أن زوجة الحاكم العثماني أورخان تمارس السلطة جنباً إلى جنب إلى جوار زوجها. لقد كان البنادقة بالفعل على اتصال بالملوك المسلمين في الماضي، وسوف يحافظون على هذا الاتصال في القرون التالية. فعلى سبيل المثال في

اليوم التاسع من الشهر الخامس من عام الخنزير حسب التقويم القمري الصيني (29 مايو، 1359م) كتبت تايديلو خاتون، زوجة كيبجاك خان حاكم القرم، إلى دوجي البندقية تبلغه أنها دفعت مقدماً المال للقنصل والتجار البنادقة المقيمين في تانايس وتطلب منه تسديده[1].

انهزم بايزيد الأول في 1402 أمام تيمورلنك في اشتباك وقع بسهلٍ أقيم فيه اليوم مطار أنقرة الدولي. وأوقف هذا الاشتباك التقدم العثماني لعدة سنوات من ناحية، ومن الناحية الأخرى مدّ نصفَ قرن في عمر الإمبراطورية الرومانية المحتضرة. حيث تم أسر هذا الحاكم الذي كان أول من ترك لقب الأمير واتخذ لنفسه لقب السلطان، وبعد أسْره تم حبسه حبساً مريعاً في قفص من حديد، حيث أصبح جزءاً من خيال الشعراء والفنانين أكثر منه حقيقة، لقد أصبح «قصة» جاء ذكرها في الأعمال الأدبية كعمل المسرحي الإنجليزي كريستوفر مارلوي «**تيمورلنك العظيم 1587-1588**»، ولدى رسامين مثل البنادقة الإخوة جواردي (**بايزيد في القفص**، القرن الثامن عشر)[2].

ومع هزيمة أنقرة كانت الإمبراطورية العثمانية على وشك الانقراض: فالسلطان سجين، والجيش تفرق، والأمراء فروا. ومع ذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية، وفرسان رودس وجمهوريات البندقية وجنوة لم يستغلوا هذا الموقف. بل على العكس فضلوا بيع «سلام» جديد للأمير

(1) ASVe, *Notai di Candia*, Francesco Avonal, reg. 1, c. 13v; ibn Battûta, *I viaggi*, a cura di C.M. Tesso, Torino, Einaudi, 2006, pp. 340, 364; Diplomatarium veneto-*levantinum*, cit., vol. II, pp. 53-54.

(2) A. Bettagno (a cura di), *Guardi. Quadri turcheschi*, Milano, Electa, 1993, pp. 78-79.

سليمان، الذي كان قد فرّ من ميدان المعركة بخزانة الدولة وعرف كيف يقتطع لنفسه مساحة من نفوذ آبائه في الغرب. وقد ظلت البندقية على عهدها وفية للأمير، حتى إنها فاوضته من جديد في الأعوام التالية لعقد اتفاق جديد (1408).

ولكن عندما هزم الأمير العثماني موسى شقيقه، قصد سفراء البندقية الجدد بلاطه يطلبون من جديد معاهدة سلام (1411). وكان الفائز الحقيقي في النزاع القائم بين أبناء بايزيد هو محمد الفاتح الأول (1413-1421) الذي اتخذ بعد أن هزم موسى لقب السلطان، واستأنف سياسة أسلافه التوسعية.

وخلال هذه السنوات بدأت اهتمامات الحكام العثمانيين بما يحدث في مياه بحر إيجة أيضاً. ولابد لهذه السياسة التوسعية أن تتضارب مع مصالح البنادقة الذين صارت لهم السيادة على تلك المياه، إما مباشرة من خلال المستعمرات التي تشكل دولة البندقية البحرية، أو بشكل غير مباشر، من خلال إبرام اتفاقات مع صغار حكام الجزر، من ناكسوس إلى أندروس كيكلادس. وهكذا، ما بين مصادمات القرصنة ومحاولات الدفاع التي خاضها جميع المتنافسين على بحر إيجة التقى الأسطولان العثماني والبندقي عام 1416 بالقرب من غاليبولي. ولم يتم إعلان الحرب، ولكن سوء الفهم والسلوك المتهور للكثيرين أدى إلى الصدام. حيث قاد الأدميرال جالس بيك أسطولاً من اثنتين وأربعين سفينة من جانب، وقاد بيترو لوريدان أسطولاً من خمس عشرة سفينة. وفي الواقع كان لوريدان قد تلقى أمراً بالتفاوض من أجل وضع حد للغارات البحرية المستمرة في

المنطقة، ولكن العثمانيين اقتنصوا سفينة من جنوة كان لوريدان يطاردها، ولهذا بدأ على الفور إطلاق السهام، ورد عليهم بإطلاق النار من المدفعية. وكان البنادقة أقل عدداً ولكن أفضل تسليحاً، فسدّدوا ضربتهم إلى سويداء قلب العدو. وجاء الاشتباك البحري الأول بين الأتراك ورعايا سان ماركو (البنادقة) في نفس اليوم (29 مايو)، وهو اليوم نفسه الذي فتحت فيه القسطنطينية، وأسفر هذا عن هزيمة كاملة لأول أسطول عثماني حارب على متنه علاوة على الأتراك، بحارة جنوة، وقطالونيا، وصقلية، وفرنسيون ويونانيون من جزيرة كانديا (كريت)[1].

ولما اتضح للجميع أن الصدام لم يكن مقصوداً، بدأ الحديث فوراً عن السلام. فذهب مبعوث عثماني إلى البندقية لتأمين الإفراج عن الأسرى. وتم التوقيع على المعاهدة بعد مناقشات طويلة في عام 1419. وبعد أقل من عامين مات محمد الأول، وترك العرش لابنه مراد الثاني (1421-1444 و1446-1451م) الذي كان على البندقية التفاوض معه، كما هو المعتاد، على اتفاق جديد. وفي تلك السنوات كان التوسع العثماني يهدد مباشرة مدينة سالونيك، التي كانت تسمى تسالونيكا (Tessalonica) وقد أيقن سكانها أنه لم يعد لهم أمل في الحصول على أية مساعدة من الإمبراطورية البيزنطية، فحرروا صك استسلام للبندقية. وأدى ذلك إلى نزاع جديد (1423-1430) انتهى بهزيمة البندقية والتخلي عن المدينة اليونانية المستسلمة لها. عندها فقط، في عام 1430، كان من الممكن التوقيع على اتفاق السلام الجديد.

وبين يونيو وسبتمبر من عام 1422 حاصر مراد الثاني بيزنطة، وكان قد

(1) Ş. Turan, *Türkiye-İtalya İlişkileri. I: Selçuklar'dan Bizans'ın Sona Erişine*, Ankara, T.C. Kültür Bakanlığı, 2000, pp. 390-413.

اعتلى العرش لتوّه. وعلى الرغم من أنه اضطر لفك حصاره في غضون بضعة أشهر فإن من الواضح أن سقوط المدينة كان قد أصبح مسألة وقت. لهذا غادرها الإمبراطور يوحنا الثامن باليولوجوس عام 1439 للذهاب إلى إيطاليا لطلب المساعدة وقبول الوحدة بين كنيسته وكنيسة روما، وساعياً أيضاً للحصول عليها. وخلال رحلته مر بالبندقية، حيث تمت استضافته بقصر بالميري دسته الواقع على القناة الكبرى بالمدينة، وهو القصر نفسه الذي تم منحه بعدها بقرن ونصف القرن لرعايا السلطان المقيمين بالمدينة الذين اتخذوه سكناً لهم، فيما عرف باسم «فندق الأتراك».

وقد حدد الاتفاق مع الإمبراطور البيزنطي تنظيم تحالف جديد معاد للعثمانيين تنضم إليه البندقية رسمياً، ويقتصر دورها على إمداد البابا بالدعم اللوجستي مثل تأجير السفن. وعلى الرغم من أن الحملة الصليبية قد تم الاتفاق عليها بالفعل وتم أداء القسم الخاص بها، فإن الملك البولندي لاديسلاف جاجيللون وأمير ترانسلفانيا يانوش هونيادي والملك الصربي جورج برانكوفيتش وقّعوا رسمياً اتفاق سلام مع العثمانيين في 15 أغسطس عام 1444. وفي الوقت نفسه، فكر مراد الثاني، المتأثر بفقد ابنه علاء الدين في سن مبكرة، في الاعتزال والتخلي عن العرش لولي العهد الشاب محمد الفاتح، الذي فتح القسطنطينية بعد ذلك. لكنه عندما بلغته الاستعدادات للحرب قرر أن يتولى قيادة القوات، عابراً إلى أوروبا عبر المضيق على سفن من جنوة، حيث ظهر في ساحة المعركة يوم 10 نوفمبر، رافعاً فوق رمحه وثيقة السلام التي تنكّر لها المسيحيون بسرعة كبيرة جداً. ولقي ملك بولندا والمجر لاديسلاف

مصرعه في الحرب وتم إرسال رأسه في موكب النصر إلى بورصة، ومات في المعركة كذلك ممثل للبابا، هو الكردينال تشيزاريني، والذي كان مؤيداً متحمساً للحملة الصليبية.

وعقِب النصر تخلى مراد الثاني عن العرش أو ربما ترك الجزء الغربي من مملكته لابنه محمد الثاني البالغ من العمر 13 عاماً (1444-1446، 1451-1480)، والذي عرفه الغرب باسم ماو (Mao)، ومن ثم وجد سبيلاً لتوقيع اتفاقية جديدة مع البنادقة. وأقدم وثيقة تحمل توقيعه محفوظة حالياً في دار المحفوظات بالبندقية بين الوثائق ثمينة القيمة. ومع ذلك فبعد سنتين، تسبب افتقار الأمير الشاب للخبرة في استعادة الملك لزمام الدولة في يده. وكان أول محرر صدق عليه هو الاتفاق الذي وقعه الابن مع البنادقة، وبالتالي ضمن حياد البندقية، قبل توجيه جيوشه إلى منطقة البلقان.

وفي عام 1451 اعتلى محمد الثاني العرش مرة أخرى. وكان حلمه الكبير هو غزو المدينة الإمبراطورية، والتي سبق أن صمدت أمام جده الأكبر بايزيد وأمام أبيه مراد أيضاً. وقد تم تجهيز الحصار بعناية، حيث تم بناء قلعة جديدة على البوسفور، وهي قلعة روملي حصار. كما تم استدعاء أوربان وهو خبير مجري متخصص في صبّ المدافع؛ لكي يصنع مدفعاً لا يضاهيه في الكبر أي مدفع آخر سبقه، حتى يستطيع أن يدك به الأسوار التي صمدت من قَبْل في كثير من المعارك. وفي النهاية جاء موعد الحصار يوم 6 أبريل عام 1453، ويوم 29 مايو بدأ الهجوم النهائي، وقاتل البنادقة إلى جانب البيزنطيين. وكانت سفنهم هي آخر ما ترك المدينة، حاملةً

الناجين الذين لجأوا إليها. ونجح القبطان ديدو ألفيز في فكّ الحصار، إذ جعل اثنين من رجال طاقمه يصعدان إلى العمود الذي علقت منه الجنازير التي كانت تغلق المضيق ونجحا بمطرقة ضخمة في تحطيمها. وحتى اليوم لا تزال المطرقة محفوظة في قسمين أحدهما بالمتحف البحري والآخر بالمتحف الحربي في إسطنبول. وهكذا أبحر البنادقة، بينما تم القبض على الوكيل البندقي جيرولامو مينوتو، الذي مكث ليقاتل مع البيزنطيين، وقطع رأسه بأمر من السلطان في وقت لاحق، ليوضع جنباً إلى جنب مع رأس ابنه.

وقد شاع الخبر بسرعة في أوروبا، مما تسبب في حالة من الفزع والقلق، ولكن أحداً لم تكن لديه الإرادة أو القوة للتصدي لما وقع بعد أن جرى اعتباره أمراً ميؤوساً منه. ووقّع رعايا مدينة جنوة الساكنين ضاحية بيرا اتفاقاً فورياً مع القائد الجديد للمدينة، التي كانت تسمى باللغة الشعبية باسم إسطنبول. هذا الاسم المستمد من كلمتين يونانيتين تعنيان «في المدينة» (أو ربما بتعبير أدق «في وسط البلد»)، وكان اليونانيون الذين يسكنون في ضواحيها يشيرون إليها بهذه الكلمات عندما يتنقلون من الضواحي إلى وسط المدينة، وشاعت هذه التسمية للمدينة، واكتسبت شعبيتها أكثر من الاسم الحقيقي الذي هو القسطنطينية. في العام التالي قرر البنادقة إقرار عهود جديدة مع محمد الثاني الذي أصبح يتزين الآن بلقب «الفاتح». وتم تعيين وكيل جديد، وعادت حركة التجارة إليها مرة أخرى.

ولم يوقف الاستيلاء على المدينة الإمبراطورية العثمانيين عن التوسع إلى الشرق نحو السهول الإيرانية، وإلى الغرب أيضاً، نحو منطقة البلقان.

وكان الحكم قد دان إلى باديشاه الإمبراطور، وريث عظمة روما القديمة. ومع ذلك فإن جنوده ما زالوا يحلمون بقيزل إلما (*Kızıl Elma*)، «التفاحة الحمراء» أو «التفاحة الذهبية»، وهو الاسم الذي اشتهر به ذلك البلد الرائع الذي لابد من غزوه ذات يوم، وفقاً للأسطورة التركية-البيزنطية. وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان لا يزال المكان معروفاً باسم القسطنطينية، ربما بسبب القبة الذهبية لإحدى كنائسها، أو بسبب الكرة الذهبية التي تقبض عليها كف القديس جوستينيانو، حيث تم تعليق رأس الإمبراطور الأخير يوم هزيمته على سبيل الرمز. وبعد عام 1453 خضعت الأسطورة لتغيير كبير، فقد شاع القول بأن الجمرة التي كانت بيد تمثال العذراء في كنيسة سانتا صوفيا قد انتقلت بأعجوبة، ليلة المولد النبوي، إلى روما. وهكذا أصبحت الأنظار تتجه لجيوش السلطان صَوْبَ إيطاليا، على الرغم من أن الفكرة التي سادت بعد ذلك أن «قيزل إلما» قد تكون مدينة فيينا، عاصمة الإمبراطورية الجديدة، التي تحطمت تحت جدرانها القوة العثمانية تحطماً قاتلاً. «إلى اللقاء في التفاحة الحمراء» كانت هذه هي العبارة التي ظل السلاطين يحيّون بها الحشود الذاهبة للحرب لعدة قرون.

وفي تلك الأثناء أعلنت البندقية الحرب على الإمبراطور، ربما بسبب عجزها عن تقدير قوته الحقيقية. ففي عام 1463، ومرة أخرى بسبب حادثة بسيطة على حدود أرغوس، في بيلوبونيس (أو موريا، حسب التسمية البندقية). لينشب صراع استمر حتى عام 1479، لم يقتصر على الحرب البحرية؛ لأنه امتد إلى شبه جزيرة البلقان، وإلى مقاطعة فريولي

بشمال إيطاليا؛ ومن أجل حصار العدو في «كماشة» وقّع البنادقة سلسلة من التحالفات المعادية للعثمانيين مع ملك المجر والبابا ودوق بورغونيا، وأيضاً مع حاكم «الآغ قويونلو» أو «الخرفان البيض». وقد كان حاكم هذه القبيلة آنذاك حسن قوصون (1453-1478م)، ونظراً إلى دفعه إلى دعم البنادقة تم اختيار السفير كاترينو زين، الذي كان يفخر بارتباطه بصلة قرابة مع إحدى زوجات الحاكم، وهي ديسبينا خاتون، والتي تنتمي إلى السلالة الإمبراطورية الكومونيونية في طرابزون. ولا يزال القصر الذي بناه آل زين في البندقية، في كاناريجو في بداية القرن السادس عشر يحمل نقوشاً تحتوي على صور للإبل أسفل إفريز المبنى، علامة على ذكرى الروابط الأسرية مع الشرق. لكن التحالف البندقي/ الإسلامي لم يسفر عن النتيجة المرجوة. فقد استعرض محمد الثاني تفوق نيران الأسلحة العثمانية في ساحة المعركة واضطر حسن قوصون إلى السلام (عام 1473)، وعلى الرغم من أن الدوجي قد دعا إلى إقامة صلوات عامة دعماً لجيشه، وإرسال البندقية أسلحة نارية معها جنود قادرون على استخدامها، فإنهم لم يصلوا إلى إيران[1].

وفي تلك الأثناء انسحب المتحالفون مع البندقية واحداً تلو الآخر. وهوجمت جزيرة نيغروبونتي في البندقية، وتم تقطيع قائد قلعتها باولو إريزو نصفين بالمنشار بأمر من السلطان عام 1470. بينما يدخل في عداد

(1) G. Berchet, *La Repubblica di Venezia e la Persia*, Torino, Paravia, 1865, pp. 9-10, 73, 185, 252-254; Id., *La Repubblica di Venezia e la Persia, nuovi documenti e regesti*, in «Raccolta Veneta. Collezione di documenti relativi alla storia, all'archeologia, alla numismatica», s. I, t. I, 1866, p. 43; I viaggi in *Persia degli ambasciatori veneti Barbaro e Contarini*, a cura di L. Lockhart, R. Morozzo della Rocca e M.F. Tiepolo, Roma, Istituto Poligrafico dello Stato, 1973, p. 117.

الأساطير التي رواها أيضاً بعض الكتّاب، حكاية ابنة قائد القلعة إريزو واسمها آنّا، التي انتحرت هرباً من ضغط السلطان عليها، بعد أن عشقها بجنون. ثم توفي «حسن قوصون» بعد بضع سنوات، وتحديداً عام 1478، وانقرضت ذريته بسرعة، فقد هلك جميع أولاده السبعة بالموت العنيف، منهم أربعة في معركة، وواحد بحكم من شقيق له، والأخيران قتلتهما أمهما بالسم. والحقيقة أنها كانت تنوي قتل من يعارضها فقط، ولكن الأخوين تجرعا الكأس نفسها، وبعد موتهما انتحرت الملكة بتجرع ما تبقى من الكأس.

وقد شهدت حرب (1463–1479) لأول مرة الجيوش العثمانية وهي تصل إلى فريولي. ولم يكن الجيش في الواقع ضخماً، وإنما كانت قوات غير نظامية، عرفوا باسم «الأقنجي»، وهي قوات خفيفة تُغير على الحدود، وتُستخدم في الاستطلاع أو التمويه لصرف انتباه العدو. كان الجنود فلاحين من البلقان، عليهم واجب خدمة أسيادهم الإقطاعيين في الحرب (هؤلاء الإقطاعيون يسمون «*uc-beyi*»، أو سادة الحدود، أو حراس الحدود)؛ ولم تكن لهم رواتب مالية منتظمة، وإنما يكافأون من خلال الغنائم التي كان بمقدورهم الحصول عليها، ولهذا كان كل واحد منهم يخرج للحرب ومعه حصانان أو ثلاثة؛ حتى يستطيع أن يحمل عليها المتاع والأسرى الذين كان يتم بيعهم بعد ذلك عبيداً. ولا تزال بعض القوائم التي تعود إلى القرن الخامس عشر محفوظة حتى الآن، وبها أسماء المجندين، وهي تفصح عن أن من بينهم مسيحيين أيضاً. وبالتالي فإن ما يسمى بـ«غزوات الأتراك» في فريولي، بالتأكيد قام بتنفيذها رعايا الدولة

العثمانية، ولكنهم لم يكونوا كلهم من المسلمين.

وبين عامي 1469 و1478 وقعت الغارات مرة أخرى، وخلال الحرب البندقية العثمانية التالية عام 1499. ففي يونيو من عام 1469 وصل المغيرون إلى حدود غوريتسيا، ثم في 1 نوفمبر 1473، عادوا مرة أخرى إلى المنطقة؛ لكنهم لم يتجاوزوا المدينة، ومن ثم ظلوا خارج الدولة البندقية. أما في خريف عام 1472، فقد عبروا نهر الإيزونسو واقتربوا من تشيرفينيانو، وكارنيا، وضواحي أوديني، وتشفيدالي، بينما وصلوا يوم 22 يونيو من عام 1474 إلى ضواحي مونفالكوني. وفي نوفمبر من عام 1477 عَبَرت قوات الأقنجي بقيادة عمر بيك تورهان أوغلو نهر الإيزونسو وتاليامنتو، حتى وصلت إلى سان دانيال وكورينونوس وبورتوغراورو وساتشيلي. وما بين 3 و8 أبريل من السنة التالية وصل عمر بيك مرة أخرى إلى الإيزونسو، في غوريتسيا ومونفالكوني، ولكنه اضطر إلى العودة بسبب فيضان النهر وهجمات قوات مرتزقة جندها البنادقة. ومع ذلك كانت الغارات تنفذ دائماً في بضعة أيام قليلة، وبحد أدنى أربعة أيام (يوليو 1478) إلى مدة أقصاها ثلاثة عشر يوماً (نوفمبر 1477).

وفي يوم 22 يوليو عام 1478 شوهد الأتراك في كورمونس، وبعد ذلك في مديا، في قرية لا تزال تسمى تشامب داي توركي، حيث حاولوا الإيقاع بالقوات البندقية. لكن القائد البندقي لم يقع في الفخ وتحصَّن مع رجاله في غراديسكا، ولو أنه غادر الحصن لوجد نفسه في مواجهة القوات المعسكرة بقيادة إسكندر سنجق البوسنة، وجيشين آخرين بإمرة علي بيك ميخالوغو وبالي بيك مالكوش أوغلو سنجق صربيا،

وبعد أن أدرك الأتراك فشلهم توجهوا ناحية الشمال حتى وصلوا إلى تولمينو وكابوريتو وبليتسو؛ ليصلوا بعد ذلك عبر ممر برديل، إلى كوكاو وفايسنفلس وفيلاخ. غير أنهم لم يكونوا على علم كافٍ بالدروب الجبلية في جبال الآلب، فاختاروا مسالك عصية، واضطروا إلى لجم الخيول حتى يجبروها على النزول من الجبال. وعندما رآهم سكان هذه الوديان قادمين من حيث لا يتوقعون هجوماً، هربوا متخبطين من أمامهم. وانفصل حشد تركي عن الباقين في تارفيزو، وسار إلى فال كاناله حتى بونتيبا، ولكنه وجدها مغلقة (وتسمى الآن «الحصن المغلق» 'Chiusaforte') جيدة الإحكام، فواصل السير إلى تولميتسو؛ ثم توجه نحو غارينتسيا، وهنا لحق بالرفاق وعاد الجميع عبر الطريق الذي اعتادوا على قطعه من قبل، والذي كان يمر بـ«سلوفينج غرادتس وتسيلي».

وقد كان الخوف من هجمات أخرى من قِبل قوات الأقنجي المتمركزة في فال كاناله هو ما دفع البندقية إلى عدم التدخل، بعد سنة واحدة من اتفاق السلام الذي طال انتظاره حول المنازعات الإيطالية مع محمد الثاني. وفي مايو من عام 1480، أي بعد أقل من شهر من هجوم العثمانيين العنيف على سواحل الجنوب الإيطالي، وصل سنان بيك إلى البندقية، وكان رجل الصدر الأعظم أحمد باشا جديك، محملاً بمهمة اقتراح تحالف ضد فرديناند الأراغوني ملك نابولي (1458–1494). لكن الدوجي رفض العرض، وحرص على عدم إبلاغ ذلك الحاكم بالتهديد، وهو ما تم بالفعل بالاستيلاء على أوترانتو. ومن ناحية أخرى، وقبل ذلك ببضع سنوات، أي بين عامي 1477 و1478، كان هذا الحاكم قد عرض على

الأتراك موانئه لاستخدامها قاعدةً لوجستية للأسطول الذي يشارك في أعمال حربية ضد البندقية. وظلت أوترانتو في أيدي العثمانيين لنحو سنة، ثمّ أدت وفاة محمد الثاني إلى إبعاد إيطاليا بعض الوقت عن طموحات السلاطين غزواً. وعندئذٍ تُركت المدينة لمصيرها، واضطر الأتراك القليلون الذين مكثوا فيها إلى مغادرتها عائدين إلى ديارهم[1].

مات محمد الثاني يوم 3 مايو عام 1481، بسبب آلام قاتلة في البطن، ربما كان ذلك بسبب قرحة، ولكن كما يحدث غالباً في حالة المشاهير، سَرتْ إشاعة بأنه مات بالسم، وأشارت تلك الإشاعة إلى أن بايزيد ابن السلطان هو من دبّر الاغتيال. واندلعت على الفور الحرب بين المطالبين بالعرش، لأن المتوفى كان قد قرر أن من يصل إلى الجلوس على العرش لابد أن يقتل إخوته، حتى يمنع الحرب بين الأشقاء. ولم يقبل الأمير «جم» أن يصل بايزيد الأخ الأصغر أولاً إلى القسطنطينية ويتمنطق بسيف مؤسس المملكة ويعلن نفسه سلطاناً. وعلى أي حال اندلعت الحرب، وبعد بضع نكسات عسكرية لجأ «جم» إلى «فرسان رودس»، ربما بتأثير من حكايات الفروسية التي كان يحبها كثيراً، والتي كانت تروى عن محاربين مسلمين تمت إغاثتهم وإنقاذهم من جانب أعدائهم التقليديين. وعندئذٍ بدأ الأمير التعس سلسلة من الجولات في فرنسا وإيطاليا يُباع ويشترى من الباباوات والملوك، وكان شقيقه يدفع أموالاً بانتظام حتى يظل أسيراً. لقد كان أسراً ذهبياً: فقد كانت السيدات الفرنسيات يتسابقن لزيارته. ويقال إن بينتوريكيو رسم له صورة شخصية معممة في لوحة البابا

(1) F. Babinger, *Maometto il Conquistatore e il suo tempo*, Torino, Einaudi, 1977, pp. 388-389; G. Ricci, *I turchi alle porte*, Bologna, Il Mulino 2008, pp. 19-63.

بيوس الثاني الذي وصل إلى أنكونا لدعم الحملة الصليبية (سيينا، مكتبة بيكولوميني)، وإن لم يتفق جميع المؤرخين على نسبة الصورة له.

وبينما كان في القصر البابوي عام 1494، اضطر «جم» لمتابعة جيوش شارل الثامن الذي مرّ من إيطاليا متخيلاً أنه يمكنه الوصول إلى القسطنطينية، لكي يضع على العرش تعيس الحظ الذي يطالب به. ومن جديد كانت الاتصالات الوثيقة بين البابا وبايزيد هي التي كلفت «جم» حياته، حيث وصل إليه سم بورجا (1495) في نابولي، كما قيل في ذلك الآن. وعلى أي حال فقد أنقذت قصة الأمير التعيس هذه إيطاليا من التوسع العثماني لمدة عشرين عاماً على الأقل. فقد أصبح بايزيد الثاني (1481–1512) حذراً جداً من الهجوم الذي يمكن أن يشنه عليه أخوه، بل إنه أنفق بسخاء حتى لا يتعرض لأية مشكلات. وقد جاب السفراء الأوروبيون والعثمانيون الطرق كلها التي تربط القسطنيطينية بالغرب، محمَّلين بالرسائل والمال والهدايا. وبدأت على وجه الخصوص معرفة متبادلة بين الأمراء الإيطاليين والنخبة العثمانية، والتي لم تحدث من قبل قط.

لم تتدخل البندقية في قضية الأمير «جم»، واقتصرت على السماح بعبور الرسل في ولاياتها أو الرد بلطف، دون أن تُلزِم نفسها، على أم الأمير جيجك خاتون التي كانت تطلب العون، ومع ذلك شنّ بايزيد الثاني حرباً ضد أرضها في عام 1499، فما أن رأى الجثة المحنطة لشقيقه حتى دفنه في بورصة، ثم قاد جيوشه. ومع خوفهم من اندلاع القتال من جديد؛ أرسل البنادقة سفيراً إلى القسطنطينية، هو أندريا زنكاني، ولكن الحرب اندلعت على أي حال، وكانت سريعة تتخللُها بعض الهزائم مثل الهزيمة

في مياه زونكيو 1499.

وفي سبتمبر وأكتوبر من ذلك العام وقعت آخر الغارات التركية وأكثرها كارثية على إقليم فريولي. ففي منتصف يوم 28 سبتمبر عَبَرت قوات الأقنجي بقيادة الإسكندر العجوز، والتي كانت تعرف الطريق خير معرفة، عابرةً نهر الإيزونسو. وبعد قضاء الليل في تشامب داي توركي وصلوا إلى ريفولتو، وفي يوم 30 وصلوا إلى مشارف مدينة تاليامنتو، وامتدوا بين سان جوفاني دي كازارسا وفيومي فنيتو وبورتو بوفوليه. وفي ذلك اليوم حطّت القوات مواقع مورتيليانو، وسبيلبمرجو، وأفيانو، وبوردينوني، وروراي الصغيرة، وفيللادوت، وبورشا، وطماي، ومارون، وسان كاسيانو دي ليفنزا، وفونتانفريدا، وسان جوفاني دي ليفنزا، وبعد عبور ذلك النهر وصلت الحشود التركية حتى كونجيليانو.

وقد كان البر الرئيس لأنحاء البندقية مشتعلاً بالحرائق التي أمكن رؤيتها من فوق برج أجراس سان ماركو، وفرّ السكان باحثين، كما حدث قبلها بقرون، عن ملجأ لهم في جزر البندقية الصغيرة. لكن حشد الفرسان الأتراك تراجع مرة أخرى إلى الخلف على الفور. ففي 1 أكتوبر كانوا في روفيريدو انبيانو، ويومي 3 و4 أكتوبر عبروا تاليامنتو، وفي يوم 5 تركوا وراء ظهورهم أسوار جراديسكا العصية، وعبروا نهر إسونزو. وكان أندريا زانكاني متحصناً بالقلعة، بعد أن عين بتهور مراقباً لفريولي، وقد رد على مطالب رجاله بعمل أي شيء من أجل الدفاع عن سكان المدينة قائلاً بالحرف الواحد كما تسجل أحداث تلك الحقبة الزمنية: «لا أريد الانتحار». ولهذا تمت محاكمته فيما بعد بتهمة التخاذل لكي تنتهي

حياته السياسية التعيسة.

وخلال الغارات التركية، سواء تلك التي وقعت في العقد بين 1470 و1480، وتلك التي وقعت عام 1499، وجدت البندقية نفسها مضطرة إلى التعامل بمنهج حربي مختلف، ولأنهم كانوا معتادين على المعارك، فقد تعلموا في إيطاليا خوض الحملات الحربية البرية في وقت لم تكن في أوروبا في الغالب إلا جيوش المرتزقة، التي كانت مدججة بالسلاح وتتقاضى أجوراً خيالية. فالأتراك الذين وصلوا إلى فريولي كانوا منظمين على العكس، وفقاً للنظام القديم لجنكيز خان: مجموعة تتكون من عشرة رجال على ظهور الخيل، مسلحين تسليحاً خفيفاً بالسيوف والأقواس المقلوبة، وهي قاتلة ودقيقة وقابلة للاستخدام من الظهر، بينما يتقدم الفارس إلى الأمام. وكل مجموعة يقودها أمباشي (قائد العشرة). وما أن تجتمع هذه الوحدات الصغيرة في المكان المحدد حتى تنتشر في المنطقة على موعد بالتلاقي مرة أخرى في المساء، ولأنهم لم يكونوا يتقاضون أجراً، فقد كان هدفهم الرئيس هو نهب الناس وسلبهم أشياءهم. لذلك لم تكن تمثل لهم القوانين السارية بين جيوش المرتزقة، التي تعودت أن تحارب لحساب أي طرف، أية قيمة، فقد يحاربون اليوم أصدقاء الأمس، وربما أصدقاء الغد أيضاً، وقد كان المرتزقة يحاولون أسر جنود العدو؛ لكي يحصلوا من ورائهم على فدية وليس لقتلهم؛ لأنهم كانوا في نهاية الأمر إما رفاق السلاح وإما رفاق تجارة. أمّا البنادقة فقد اضطروا إلى تغيير سريع في التكتيك وفي تسليح الجنود، بعد أن اتضح أنه لا يناسبهم، فجندوا الرماة في الدولة، والذين أبلوا بلاء حسناً ضد الأتراك، ونظّموا فصائل جديدة من بين السكان، والذين كان عليهم

أن يحاربوا ليس من أجل المال وإنما دفاعاً عن بيوتهم وذويهم.

وفي عام 1499 هوجمت مائة وثلاثون قرية. وفي الوقت المناسب تحصن الكونت جاكومو دي بورشا، الذي كان قد التقى بالفعل قوات الأقنجي قبلها بعشرين عاماً، في قلعته مع الفلاحين، منقذاً حياتهم. وعلى العكس استسلمت أفيانو، ومن بين الأسرى كان هناك جاكومو دا مالنيزيو، الذي استطاع بعد تجربة العبودية في مصر، العودة إلى وطنه ليصبح جندياً باسلاً، حتى إنه لقّب في التاريخ بلقب المملوك، واتفق المواطنون في بوردنوني مع القائد إسكندر على ألا ينهب المدينة في مقابل ألف دوقية. ونجت سبيلبمرجو بفضل دفاع جيد من قبل فرانكو دال بورجو ورماة السهام، الذين أوقعوا مذبحة بالأتراك أثناء الليل. أما في مورتيليانو فقد كان قسّ الكنيسة هو الذي قاد أتباعه المؤمنين لإنقاذ البلدة. وكانت الأعمال الوحيدة ذات البأس التي أدتها ميليشات البندقية النظامية في تلك الحملة التعيسة هي حملة الإستراديوتي (*stradioti*) (المرتزقة المسلحين القادمين من اليونان ودلماسيا وألبانيا)، والتي تشابهت تكتيكاتها بتلك التي تبناها العثمانيون، وبها أغاروا في أودينه غارات سريعة بين خطوط العدو، ونجحوا في إعادة نحو ألف من رؤوس الجنود العثمانيين إلى المدينة، ولم تعد هذه الرؤوس إلى أهالي أصحابها إلا مقابل دوقية ذهبية عن كل رأس.

وبعد عام 1499 لم تعد قوات الأقنجي مرة أخرى إلى فريولي. وقرب نهاية الحرب، عام 1501، شاركوا في إسقاط دوراتسو في ألبانيا التي كانت تتبع البندقية، ومع ذلك فقد تركت هذه القوات ذكريات مخيفة دخلت

في التراث الشعبي بمنطقة فريولي، وحتى القرن العشرين كتب بيار باولو بازوليني مسرحية «**الأتراك في فريولي**، 1976»، ذكر فيها هذه الأحداث. ولم ينس العثمانيون من جانبهم، تلك المنطقة، فقد كانت آخر نقطة لابد أن يجتازوها للعبور إلى الجمهورية، ومرة أخرى عام 1517 دُعي السفير علي بيك إلى زيارة ساحة سان ماركو وتناول وجبة خفيفة فوق برج الأجراس، فسأل وهو ممتلئ بالإعجاب بالمناظر من حوله، دون حرص، ما بين التقام قطعة حلوى وأخرى، وكأس نبيذ وآخر، من أين تؤتى البندقية لاحتلالها، وأين تقع فريولي؟

وخلال حرب (1499–1502) لم تركن الدبلوماسية البندقية إلى الخمول، ولم تقف مكتوفة الأيدي، وتمكنت من الاتصال بكل من البابا وملك المجر، اللذين قررا مهاجمة ملك صربيا، ومع ذلك استولى السلطان على بعض المعاقل التي تهمه، بينما استطاعت كل من ناوبليا (Nauplia) ومالافيزا المقاومة فقط. وقد تمكَّنَ الأسطول العثماني من الصمود مقارنة بأسطول جمهورية البندقية، في حين كانت المدفعية التركية قادرة على تقليد أحدث الاكتشافات التقنية الأوروبية، التي تم تجريبها على أرض المعركة، وساعد تدخل فرنسا وإسبانيا البندقية على استعادة قوة جأشها، على الرغم من تكاليف الصراع الباهظة. وفي نهاية عام 1502 قرر بايزيد الثاني قبول السلام، وتم التصديق على ذلك بداية العام التالي، فحصل على المعاقل التي أرادها، وكان قلقاً للغاية حول ما كان يحدث على الحدود الشرقية، حيث كان إسماعيل، الزعيم الشاب لطائفة صوفية، في سبيله لإنشاء إمبراطورية جديدة، هي دولة الصفويين (1501–1736م).

3. قرن الازدهار

في بداية القرن السادس عشر كانت رياح الحرب تقترب مهددة البندقية، لكن -هذه المرة- ليس من الشرق بل من الغرب. وقد أدى ثراؤها البالغ وتوسعها المتزايد حتى على البَر، إلى تولد بعض القلق لدى الحكّام الآخرين في شبه الجزيرة الإيطالية. فتشكلت ضد البندقية رابطة كامبراي (Cambrai)، التي دعا إليها البابا (الحربي) يوليوس الثاني (1503 -1513). ودفعت الهزيمة الرهيبة في أنياديللو، والتي وقعت يوم 14 مايو 1509، أعضاء مجلس الشيوخ في البندقية إلى النظر في اتخاذ خطوات غير اعتيادية؛ من أجل التغلّب على الأزمة، أولاها على الإطلاق التحالف مع عدو المسيحية «السلطان العثماني». وفي الواقع دائماً ما كان الحكام المسلمون والمسيحيون، بمن في ذلك البابا نفسه، يثبتون أن المال وخفايا السياسة في العلاقات الدولية يحتلان مكاناً أكثر أهمية من الاعتبارات الدينية. فرايات الدين ترفع، سواء من هذا الجانب أو ذاك، كلما كان ذلك ضرورياً لدفع الجماهير إلى التحرك، ولكن سرعان ما تنزل هذه الرايات حينما يصبح الوضع الدولي دافعاً نحو التعقل والاتفاق.

وهكذا كان في القصر الدوكالي من فكر في طلب المساعدة من السلطان. فقبل شهر من معركة أنياديللو اقترح حكيم المجلس ليوناردو جريماني إرسال سفيرين إلى القسطنطينية، ولكن في ذلك الوقت اعترض الدوجي ومعظم أعضاء المجلس، وعندما رأى جريماني أن فكرته، التي كان يعتقد أنها الحل الوحيد لإنقاذ البندقية، تم رفضها، تأثر بشدة إلى درجة أنه مات بعد إصابته بنوبة قلبية. وبعد أيام قليلة من الهزيمة،

وتحديداً في 18 مايو، صوَّت أغلب أعضاء مجلس الشيوخ لمصلحة اقتراح إرسال النبيل جيرولامو تزورتسي إلى صديقه فارس بيك سنجق البوسنة، لتجنيد خمسة أو ستة آلاف من المرتزقة الأتراك. ومع ذلك فإن المعارضة وعلى رأسها حكيم المجلس والنائب العام أنطونيو ترون استطاعت منع تنفيذ الاتفاق. في تلك الأثناء كان خبر هزيمة القوات البندقية قد طار إلى القسطنطينية، ودعا بايزيد الثاني السفير إلى قصره لإبلاغه بأنهم على استعداد لمساعدة الجمهورية.

مرت شهور دون أن تتمكن البندقية من اتخاذ قرار في هذا الصدد. وفقط في ديسمبر تم السماح لزورتسي بمغادرة المدينة للذهاب إلى البوسنة، حيث استقبله فارس بيك بحفاوة، وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يلتزم له بشيء عن جنوده دون أمر صريح من السلطان؛ فإنه سمح له بتجنيد مائة رجل بقيادة الكونت جوفاني نيناديتش من بوليتسا. أما في إسطنبول، فكان الوضع قد بدأ يزيد تعقيداً. وفيما كان النقاش يجري في البندقية، كان الابن البكر لبايزيد الثاني، قورقود يركب البحر متوجهاً نحو مصر، بحجة رسمية هي أداء مناسك الحج، لكن الحقيقة أنه ذهب يحاول الاتفاق مع سلطان المماليك بهدف انتزاع عرش أبيه، ولما لم يحصل الأمير على مبتغاه عاد أدراجه.

وفي الوقت نفسه بدأت الأرض تهتز في القسطنطينية، ففي 14 سبتمبر من عام 1509 ضرب زلزال رهيب العاصمة، ودمر العديد من المباني. واستمرت الهزات المتتابعة لمدة خمسة وأربعين يوماً، حتى إن السلطان أمر بنصب خيمة خفيفة في حدائق قصر طوب قابو، حتى يتجنب المخاطر.

وابتلعت الأرض المنشقة ثلثي أهالي بلدة كورلو غير البعيدة عن الضفة الأوروبية لبحر مرمرة، وبعد مدة وجيزة غمر طوفان البحر المدينة حتى رأس غلاطة، وسقط الملاط الذي كان يغطي الفسيفساء اليونانية في سانتا صوفيا وقت الفتح، ليكشف عن الصور الضخمة لكَتَبة الأناجيل، وظن السلطان المسن الضعيف الخائف أنه قد أيقظ بطريقة أو بأخرى غضب الله. وفي العام التالي عهد إلى أبنائه الثلاثة الباقين والأحفاد بحكم بعض الولايات. لكن هذا لم يكن كافياً، فقد اشتعلت الحرب على العرش بين قورقود وأحمد وسليم. وفاز الأخير وهو الأصغر سناً بين الإخوة، والذي كان قد بلغ بالفعل عامه الأربعين، وفي عام 1512 اضطر بايزيد الثاني إلى التنازل عن العرش وتسليمه للحاكم الجديد «سليم الأول».

وقد منعت هذه الأحداث الجسيمة في تلك السنوات العثمانيين من الاستجابة بشكل عملي لطلب المساعدة الذي قدمه سفير البندقية. وفي هذه الأثناء كان رجال جوفاني نيناديتش، رغم فشلهم في الحصول على القبول من جانب سكان البندقية المتوجسين، يُظهرون شجاعة في ساحة الحرب حتى حازوا إعجاب واحترام من يقاتلون معهم. وفي منتصف عام 1510 قرر ما يقرب من نصف الكتيبة أن يعودوا إلى أوطانهم، بينما بقي الآخرون مع قائدهم يحاربون من أجل البندقية حتى أبريل من العام التالي. وقد علّق كتّاب متعددون في ذلك العصر تعليقات هادرة على التجاوزات التي ارتكبها هؤلاء الرجال الذين عادوا إلى أوطانهم، متهمين إياهم بأنهم حملوا معهم بعض الصبية المسيحيين، ولكن مارينو سانودو وحده، وكان مخلصاً للمهمة التي كُلِّف بها، وهي سرد وقائع

تلك السنوات، هو الذي روى القصة التعيسة لأول 56 فارساً في طريق العودة حيث يقول: وصلوا محمَّلين بالغنائم إلى الميسا، ولكن رعايا البندقية هاجموهم للاستيلاء على ثرواتهم، فقتلوا بعضاً منهم وأسروا آخرين، حتى إن الجمهورية اضطرت إلى إيفاد ممثل لها لإطلاق سراحهم.

وفي الوقت نفسه، أي في العام 1510، توجهت إيزابيلا ديسته، زوجة فرانشيسكو دي جونزاجا ماركيز مانتوفا (1484-1519)، وكان أسيراً لدى البنادقة، إلى فارس بيك سنجق البوسنة للتوسط لدى الجمهورية للإفراج عن زوجها. وحصلت على هذا الإفراج بفضل تدخل البابا يوليوس الثاني أيضاً، والذي كان في تلك الأثناء قد غيّر الجانب الذي يناصره.

وقد تذكّر الحاكم العثماني الجديد سليم الأول، وهو يوقّع تجديد اتفاق السلام مع البندقية عام 1513 طلبات المساعدة، فأرسل سفيراً له إلى البندقية وهو مترجمه الإمبراطوري «علي بك» بمهمة رسمية، هي حضور مراسم القَسَم على معاهدة السلام، ولكن في الواقع كان الهدف السري هو عرض خدماته، فقد عرض السلطان جنوده الشجعان المنضبطين بامتياز، وليس قوات الأقنجي الذين يغيرون على الحدود، والمتعودين على البحث فقط عن الغنائم. وشرح علي بيك كيف أن تنظيم الجيش العثماني يسمح في ذلك الوقت باستخدام أفضل قدرات فصائله المختلفة. وقد كان هناك بالتحديد جنود غير نظاميين، يُستخدَمون لتخويف العدو أو لاستكشاف الطرق، إلى جانب القوات المنظمة تنظيماً شديداً، والذين تُدفَع لهم رواتب منتظمة، وقد تعودوا على الانضباط الصارم والسير في صفوف وفي صمت

تام وهم يعبرون أراضي الإمبراطورية. وعند الوصول إلى أرض العدو كان يمكن إعطاؤهم مزيداً من الحرية فقط، ولكن الخروج من الصف في وقت مبكر كان يعني عقوبة الإعدام دون رأفة.

وقد أعلن مجلس الحكماء موافقته على العرض الذي قدمه علي بك، واقترح أن يمر الفرسان أيضاً على فريولي، التي كانوا يعرفونها من قبل. وتم تسليم السفير ألفي دوقية مع وعد بمعاش تقاعدي سنوي قدره مائتان أخريان، إذا لم يوفق في العملية. وقد كان السلطان على العكس يفكر في مرتبات تتراوح بين ثمانية وعشرة آلاف دوقية، في حين أن الصدر الأعظم أحمد باشا البوسني لم يدفع ثمن الأحجار الكريمة التي أرسل لشرائها من البندقية، فقد أُهدي إليه خاتم من الماس قيمته ألف دوقية. وأرسل خاتماً آخر، قيمته ألفا دوقية، إلى القسطنطينية ليتم بيعه هناك لتوفير سيولة نقدية مع السفير. وعلى نحو ما تسرَّب أمر الاتفاق على الرغم من سريته. وهذا يفسر الوفاة المفاجئة، التي أرجعها بعض المؤرخين إلى سكتة دماغية، لحليف ليو العاشر بيترو دي بيبينا، التي اشتهرت بأنها كانت مرتبطة بحضور علي بيك إلى البندقية.

وعلى كل حال لم يتحقق التحالف العسكري في الواقع. فالرابطة التي تكونت ضد البندقية سرعان ما انحلت لإفساح الطريق أمام شن هجوم مشترك على فرنسا. وفي الوقت نفسه تحولت الطموحات التوسعية لسليم الأول في الشرق إلى الإمبراطورية الصفوية (1514)، وبعدها إلى أراضي سلاطين المماليك. وقد انهزم أمراء مصر المستقلون وأصبحت مملكتهم جزءاً من الإمبراطورية العثمانية (1517).

وعلى إثرِ وفاة سليم الأول، جلس ابنه الوحيد الذي ظل على قيد الحياة، سليمان (المعروف في الغرب باسم سليمان العظيم)، على العرش دون معارضة، مدشناً أكثر عهود الإمبرطوارية تألقاً. وشهدت السنوات الأولى صعود إبراهيم باشا (توفي عام 1536)، وهو مواطن من مدينة برجا (Parga) من أعمال البندقية، وتخضع لحكمها. وكان هذا الصدر الأعظم القوي صهر السلطان «داماد» وقائد قواته (سر عسكره)، في صف البندقية وخاصة ألفيز جريتي (المتوفى عام 1534) الابن غير الشرعي للدوجي أندريا (1523-1538). وبعد موت الوزير فسدت العلاقات بين السلطان والبندقية، وبالتالي قلَّت حمايتها الفعلية، بينما لمع نجم خيرالدين (سيد الجزر والجزائر) المعروف في الغرب باسم «باربا روسا» أو (اللحية الحمراء)، والذي كان متشوقاً للمواجهة البحرية مع البنادقة. لذا اضطرت الجمهورية لتفضيل هابسبورغ، وانخرطت في حرب جديدة مع العثمانيين، على الرغم من أن أندريا جريتي العجوز كان يحاول بكل الوسائل تجنب ذلك.

وبينما كانت العمليات الحربية تسير في غير مصلحة الجمهورية، مات الدوجي، الذي كان شهيراً بأنه محب للأكل، عن عمر يناهز ثلاثة وثمانين عاماً في 28 ديسمبر 1538، وعلى ما يبدو أن وفاته كانت بسبب عسر الهضم بعد وجبة عشاء دسمة من أسماك الثعابين. وقبلها بثلاثة أشهر فقط، أي يوم 28 سبتمبر، كان الأسطول العثماني بقيادة خيرالدين قد هزم أسطول الرابطة المقدسة التي تشكلت من البندقية وإسبانيا والدولة البابوية ومالطا. وكان القائد العام للسفن المسيحية الأدميرال أندريا

دوريا من جنوة، والذي كان يعمل في ذلك الوقت في خدمة الإمبراطور شارل الخامس (1520-1558) الذي تصرف خلال المعركة من دون حسم واضح، وتجنب الانخراط الجاد في المعارك؛ ربما بسبب الحقد الذي كان يكنه تجاه البنادقة.

وعندما أدركت الجمهورية البندقية أنها لا تستطيع أن تدعم الحرب طويلاً في مثل هذه الظروف؛ سعت إلى توقيع اتفاق سلام مع السلطان بأسرع وقت ممكن. وتم توقيع هذا الاتفاق عام 1540، لكن السفير ألفيز بادوير اضطر إلى الوصول إلى أقصى حد من التنازلات المحتملة التي وردت في أمر تكليفه من مجلس العشرة، بالتخلي حتى عن ناوبليا وملفازيا اللتين كانتا لا تزالان ضمن أملاك الجمهورية. وبعدها بمدة وجيزة، وتحديداً عام 1544، اعتزل خيرالدين الذي يُعدُ المؤسس الحقيقي للقوة البحرية العثمانية، وتفرغ لحياته الخاصة، بمساعدة زوجته الشابة فلافيا (أو ماريا) جايتاني، ابنة حاكم ريجيو التي كان قد خطفها في العام السابق خلال غارة على الساحل الإيطالي ثم عشقها بجنون. ثم بدأ يكرس كل وقته لفن تنسيق الحدائق في بيته على البوسفور، حتى أصبح خبيراً زراعياً شديد المهارة، حتى إنه لا تزال تُذكر إلى اليوم ثمرة القرنبيط الضخمة التي أنتجها من بستانه.

وفي عهد سليمان الأول كانت هناك صراعات أخرى بين البندقية والعثمانيين، وبعد وفاته خلفه سليم الثاني (1566-1574م) الذي جدد اتفاق السلام مع الجمهورية، ولكن هذا السلام لم يكن ليدوم طويلاً، فقد اتجهت مطامع السلطان سريعاً إلى جزيرة قبرص التابعة للبندقية، ووفقاً

للروايات التاريخية الغربية اندفع السلطان إلى حرب جديدة، ليس فقط بسبب الرغبة في تقليد الحملات العسكرية لوالده، ولكن أيضاً بناءً على اقتراحات اليهودي جوزيبي ناسي، الذي كان مقرّباً لدى السلطان بسبب مهاراته في طهي الطعام. وكان عدواً للبندقية، التي كان قد اضطر للهروب منها سلفاً، ويقال أيضاً إنه كان يتخيل في حال انتهت الحرب بالنجاح أن يقيم في قبرص مستوطنة يهودية يجمع فيها بني ملّته المتفرقين في أنحاء العالم كله. ووفقاً لهذا الاتجاه في كتابة التاريخ فإن ناسي لابد أن يكون أيضاً رئيساً لتنظيم جاسوسي عثماني في أوروبا، ولابد أن تكون له يد حقيقية في حريق ترسانة البندقية الذي اندلع قبل قليل من اندلاع الحرب عام 1569.

إلا أنه توجد روايات أخرى مختلفة قدَّمها مؤرخون آخرون. فقد تم التفكير في الحرب لأسباب جيوسياسية من قِبل بعض الشخصيات الهامة في الدولة العثمانية، والذين كانوا يسعون إلى الوصول إلى قمة السلطة من خلال الحرب. وكانت جزيرة قبرص تبدو في الواقع جيباً مسيحياً في جزء من البحر أصبح العثمانيون واقعياً يسيطرون عليه، ومن ثم تصلح قاعدة محتملة للقراصنة الذين يودون مهاجمة السفن التي تمر في الطريق الداخلي شديد الأهمية الذي يربط القاهرة بالقسطنطينية، وقد كان هذا الطريق هو المفضَّل للحجاج من عاصمة الإمبراطورية والأقاليم المجاورة لها، والمتجهين نحو مكة المكرمة، فلو كان هذا الطريق غير آمن، فسوف ينعكس هذا على الصورة العامة للحاكم أمام شعبه، كونه ضامناً وحامياً وحائزاً لقب «خادم الحرمين الشريفين، مكة والمدينة». ومن بين أعيان الدولة، كان الوحيد الذي يعترض بشدة على هذه الحرب، هو ذلك

الذي يمسك بأكبر سلطة فيها بعد السلطان. ولم يكن الصدر الأعظم محمد الصقلي يخفي معارضته مؤكداً مخاوفه من تكوين رابطة مسيحية كبيرة ضد الحرب، وقد تحققت بالفعل مخاوفه؛ فالهجوم الذي قام به بعض القراصنة المسيحيين عام 1569 ضد سفينة يستقلها وزير الخزانة (الدفتردار) من مصر، أدى إلى تفاقم الغضب في القسطنطينية، إضافة إلى الاستيلاء على سفن عثمانية أخرى في البحر الأدرياتيكي من قِبل القراصنة الأوسكوكس، وكان ذلك كافياً لإقناع سليم الثاني بضرورة الحرب.

ونظراً لأن اتفاق السلام تم توقيعه، فقد تصرَّف «سليم الثاني» وفقاً لما يقرّه الشرع الإسلامي في حال كون كسر الهدنة ضرورياً، وبالتالي فقد أرسل سفيراً إلى البندقية، طالباً تسليمه جزيرة قبرص، وانقسم أعضاء مجلس الشيوخ البنادقة حيال الأمر، فكان من بينهم دعاة الحرب الفورية، وآخرون يتوقعون نتائج سلبية للأعمال الحربية، فاقترحوا بيع الأرض للسلطان الذي كان يرغب بشدة في ضمها؛ وذلك لتجنب إنفاق المال على الأسلحة، وكذلك عدم فقْد أسواق للتجارة، وأخيراً كسب بعض المال، ورغم انتصار رأي مناصري الحرب فإن المتأخرين كان من رأيهم أن المقترح الثاني أكثر فائدة بكثير، والحقيقة أن البندقية كان عليها أن تواجه صراعاً مكلفاً للغاية، بما يؤدي إلى الابتعاد عن الأسواق الشرقية لعدة سنوات، وحتى يواصل تُجّارها نشاطهم كان عليهم العمل تحت العلم الفرنسي؛ ولذا حصل رعايا ملك فرنسا من هذا الوضع على ميزة مؤكدة، وذلك أنه بعد انتهاء الأعمال العدائية، لم يتخلوا عن معظم الأسواق التي

استقروا فيها، وفي غضون سنوات قليلة فقدت البندقية ليس فقط قبرص، ولكن أيضاً تعرض موقفها المميّز في أسواق العثمانيين لآثار سلبية.

وهكذا حضر السفير العثماني الجاويش قوباد في 29 مارس 1570، ووقف في القصر الدوكالي شاحباً مرتجفاً ومعه الإنذار الأخير من السلطان، وتم رفض هذا الإنذار فاندلعت الحرب، وهاجمت القوات العثمانية بشراسة معاقل الجزيرة ولم تفد في شيء جهود الدفاع المضنية من جانب البندقية. وفي أغسطس من العام التالي استسلمت أيضاً فاماغوستا وكان مصير المدافعين عنها مريعاً، حيث تم تحميلهم على السفن واقتيادهم مكبّلين بالسلاسل إلى القسطنطينية، ووفقاً لإحدى الأساطير، أضرمت امرأة اسمها بيليساريا ميرافيجا زوجة الحاكم بيترو ألبينو، النار في السفينة التي أقلتها مفضلة الموت على العبودية، أما أعيان الحصن الذين وقعوا وثيقة الاستسلام مقابل حياتهم، فقد تم استدعاؤهم إلى خيمة القائد العثماني «لالا مصطفى»، والذي تراجع عن الوعد الذي قطعه على نفسه، فقطع رؤوسهم، ودفعه إلى ذلك الرغبة في الإبقاء على شاب من النبلاء عنده. واضطر القائد البندقي مارك أنطونيو براجادين إلى حضور المذبحة عاجزاً عن فعل شيء. ثم تم سلخه حياً، وأرسل جلده إلى القسطنطينية، وعرض كدرع انتصار في ترسانة المدينة.

ويقدم المؤرخون العثمانيون رواية مختلفة قليلاً لهذه الأحداث، ولكنهم لا ينكرون الحقائق، وعلى وجه الخصوص اتفاقية الاستسلام التي وقعت بالفعل واستشهاد البنادقة. ويتحدثون عن وجود خمسين حاجاً في الحصن، كان القراصنة المسيحيون قد قاموا بخطفهم وهم في طريقهم

إلى مكة المكرمة. وتنص الوثيقة الموقعة على استعدادتهم وكذلك إمكانية إبعاد البنادقة عن الجزيرة على متن سفينتين عثمانيتين. أما طلب احتجاز الشاب أنطونيو كوريني فأمْلته الرغبة في احتجاز رهينة لحماية السفن والبحارة الذين ينقلون البنادقة خارج أراضي السلطان. أما كون كوريني أصغر النبلاء عمراً فيتوافق مع العرف السائد آنذاك في اختيار الرهينة من بين الذين لديهم أمل أطول في الحياة. وفي خيمة «لالا مصطفى» اضطر براجادين للاعتراف بأن الحجاج، الذين وعد بتحريرهم تم قتلهم بعد صياغة الاتفاق. ومن ثم فإن عدم احترام العهود جاء من الجانب البندقي ودفع القائد العثماني إلى التراجع عن قراراته.

وفي هذه الأثناء استطاع البابا بيوس الخامس (1566-1587) إنشاء تحالف مسيحي لإغاثة البندقية، وفي يوم 7 أكتوبر 1571 اشتبك أسطول العصبة المقدسة مع الأسطول العثماني في مياه جزر كورتسولاري، محققاً فوزاً مثيراً سجّله التاريخ باسم معركة ليبانتو (Lepanto). وقد تم تدمير جيش السلطان تدميراً تاماً، وقتل قائد الأسطول (قبودان باشا)، والقائد العام (سردار) أفلت بالسباحة، ولم ينجُ سوى القائد الكالابري الذي اعتنق الإسلام، العلج علي باشا، على رأس الكتيبة المغربية بعد أن نجح في الالتفاف حول سفن أندريا دوريا التي قطعت عليه الطريق، واقتنص سفينتين من مالطة وعاد سالماً إلى القسطنطينية. واستحق على إنجازاته الفوز بلقب قبودان بحري الأسطول العثماني، واسماً جديداً، «السيف علي» بدلاً من «علي المرتد»[1].

(1) N. Capponi, *Lepanto 1571. La Lega Santa contro l'Impero Ottomano*, Milano, il Saggiatore, 2008.

وقد طار خبر النصر إلى البندقية وشاع شيوع المعجزات في جميع العواصم الأوروبية: الجيش التركي الذي لا يهزم هزمه جيش العصبة المقدسة!، ودُبِّجت القصائد والمدائح للإشادة بالحدث، وتم تكليف الرسامين والنحاتين بإنجاز أعمال فنية للاحتفال به، وأُعدَ يوم الموقعة يوم عيد في سانتا جوستينا، وتم إهداؤه إلى عذراء روزاريو، ومع ذلك فإن معركة ليبانتو على قدر الاحتفال بها وذكرها، لم تكن سوى ألعاب نارية سرعان ما خبا بريقها، فقد كانت قبرص قد ضاعت بالفعل من البندقية، وكما قال الصدر الأعظم الصقلي لسفير البندقية، لم تكن الهزيمة في ليبانتو إلا زَغَبةً صغيرة في الذقن التركي الذي نما بعد ذلك أكثر قوة وغزارة، أما البندقية فقد قطعت لها ذراع، وهذه الذراع لن تنمو ثانية أبداً، وقد فقدت البندقية في الواقع مملكتها وما يستحق هذا اللقب من كرامة. أما الأسطول العثماني فقد أعيد بناؤه خلال شهور قليلة، حيث عَمِلتْ ترسانات الإمبراطورية كلها بكامل طاقتها وبجهد ضخم لم يكن ممكناً دون توافر المال والأخشاب التي تم جلبها كلها من غابات البحر الأسود. وعلى نحو استثنائي تم استخدام خشب ليّن لم يجف، ومن ثم كان عرضة للتشقق في غضون بضع سنوات، ولكن في الربيع التالي كانت البحار كلها مراقبة من جديد بقوافل سفن السلطان.

ربما كان الفائز الحقيقي في معركة ليبانتو ليست العصبة المقدسة، التي انهارت في غضون شهور قليلة، وإنما كان الصدر الأعظم الصقلي هو المنتصر الوحيد من كبار مسؤولي الإمبراطورية المناوئين منذ بداية الصراع الحربي، وهو الوحيد الذي ظل حتى النهاية راسخاً في موقعه.

بينما اختفى جميع دعاة الحرب، أو كانوا على وشك الاختفاء. واتُّهم «لالا مصطفى» بالإهمال لفقدان السفن التي تم تفجيرها في فاماغوستا فتم عزله من سلطته. وقتل القبودان باشا مؤذن زادة في المعركة. أما السردار بيرتف فقد خسر موقعه لكنه كسب حياته بفضل المساعي الحميدة للسلطانة زوجته، وبعدها بعام أصيب بمرض أودى بحياته، أي في ذكرى الهزيمة. وقد مات السلطان سليم الثاني بعده بقليل، وذلك بعد أن انزلق على أرضية الحمام المبللة، وكان حماماً انتهى للتو من تشييده، فيما تم نسيان جوزيبي ناسي بسرعة. وقد وصل بعض المؤرخين الأتراك إلى تأكيد أن محمد الصقلي هو من قام بتهيئة الظروف للصدام، وربما حتى للهزيمة البحرية العثمانية، من خلال سلسلة من التدابير الرامية إلى محاربة خصومه السياسيين، وليس من أجل حماية الدولة. على كل حال لم تعش القسطنطينية الحدث على أنه حدث جلل، فقد وصلت السفينة التي تحمل الخبر في وقت واحد تقريباً مع بعض السفن التي كانت تحمل الغنائم التي تم الاستيلاء عليها في قبرص. وكان لا يزال هناك نصر في الحرب.

وتدريجياً تم نسيان معركة ليبانتو والحرب القبرصية حتى في أوروبا. وفي بداية القرن التاسع عشر أضافت جوستينا رينييه ميشيل تفاصيل حارة وهي تروي أصل الأعياد في البندقية، وكأنها تحكي أساطير وخرافات. ووفقاً لهذه المؤلفة فإن غضب «لالا مصطفى» ربما قد انفجر عندما رفض براجادين وهو على وشك ركوب السفينة -كما هو متفق عليه- أن يترك شاباً نبيلاً، هو أنطونيو كوريني، حيث كان القائد العثماني مغرماً به. فالحكاية إذاً كانت تثير الإعجاب، حتى وإن كان من الممكن إثارة

الكثير من الشكوك حول صحتها. والحقيقة أن عمل رينييه ميشيل مشبع بالتحيّز ضد العثمانيين، وربما يرجع ذلك إلى وجود خلافات لها مع زوجة عمها الدوجي باولو رينييه (1779-1789). التي تنتمي لطبقة دنيا. وقد كانت جوفانا مرجريتا دالمير قد التقته عندما كان سفيراً في القسطنطينية ما بين عامي 1769 و1773، حيث كانت -وفقاً لتوصيف أعدائه- راقصة على الحبل وعاهرة. كانت امرأة غاية في الجمال؛ فتزوجها رينييه وأخذها معه إلى البندقية. وعندما أصبح زوجها هو الدوجي كان من غير الممكن أن يعهد إليها بإدارة شؤون القصر بسبب أصولها غير الأرستقراطية، فعهد بهذا إلى ابنة أخيه جوستينا رينييه ميشيل. وهكذا نشأت بين المسؤول الرسمي عن قصر الحكم والمسؤول غير الرسمي كراهية حقيقية حملت الكاتبة على مقت كل ما يمكن أن يكون له صلة بزوجة عمها، بمن في ذلك العثمانيون القدامى[1].

وفي نهاية القرن التاسع عشر، عندما أصبحت البندقية جزءاً من مملكة إيطاليا، أعاد الوطنيون البنادقة اكتشاف أحداث الحرب القبرصية، فنشروا سيرتها على نطاق واسع بهدف إثبات قيمة أجدادهم للجمهور الإيطالي. وبين عامي (1911-1912)، عندما اندلعت بين إيطاليا والإمبراطورية العثمانية الحرب في ليبيا، أعيد استخدام انتصار ليبانتو مرة أخرى لأسباب سياسية، لدعم حتمية الحرب ضد عدو تقليدي، ويمكن قول الشيء نفسه في مناسبات أخرى لا تزال قريبة منا.

(1) G. Renier Michiel, *Origine delle feste veneziane*, III ed. Venezia, Filippi, 1994, pp. 187-196.

4. اتصالات ومصادمات

كان العدو الأكبر للسلام بين البندقية والإمبراطورية العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر قراصنة الأوسكوكس، الذين كانوا يزعجون من مخبئهم في سِينِيا السفنَ التي تبحر على طول البحر الأدرياتيكي. ويعني اسمهم «المتسربين».. والحقيقة أنهم كانوا لاجئين من الأراضي التي استولى عليها العثمانيون ووجدوا ملاذاً لهم في أراضي الإمبراطورية في كرواتيا. وسينيا هي بلدة ساحلية تقع بين الجبال العالية، وحمايتها من قِبل العديد من الجزر تمثل حصناً لا يُقهر لهؤلاء الرجال الذين ازداد عددهم بسرعة مع وصول اللصوص وقطاع الطرق القادمين ليس فقط من المناطق النائية، ولكن أيضاً من دلماسيا التابعة للبندقية، وحتى من الأراضي البابوية في رومانيا ولاتسيو. وقد استند مجتمع القراصنة إلى السرقة والسلب وقانون الصمت، تحت رعاية آل هابسبورغ الذين رحبوا بأنشطة هؤلاء القراصنة في البحر الأدرياتيكي الذي كانت الجمهورية تفاخر بالسيادة عليه. وقد بدأ نشاط الأوسكوكس في منتصف القرن السادس عشر، ولكن هجماتهم في نهاية القرن أصبحت أشد وأكثر عدداً. وكان الهدف أيضاً هو تعكير صفو العلاقات الطيبة بين البندقية والباب العالي، بتخريب التجارة ونهب البضائع العثمانية التي تمر من البحر الأدرياتيكي، باسم الدين.

وفي البداية كان رعايا السلطان هم من يدفعون الثمن، ثم ما لبث القراصنة أن هاجموا السفن المسيحية أيضاً. وفي النهاية لم يسلم أحد من عنفهم. وها هنا بدأ السلطان في الاحتجاج، فإذا كانت البندقية تزعم

أنها سيدة هذا الخليج فيجب عليها ضمان الأمن لكل من يمر فيه، وإلا فإن العثمانيين سوف يرسلون الأسطول الإمبراطوري لحماية التجار من رعاياهم. بل بلغ الأمر ببعض المتابعين أن ارتاب في وجود تفاهم سري بين البنادقة والأوسكوكس واتهم الجمهورية صراحة. وقد تكرر هذا مرات عديدة في وثائق تسجيل الأحداث العثمانية، وامتد هذا إلى اليوم، حيث تجد في بعض كتب التاريخ تأكيداً لذلك. والعكس هو الصحيح؛ لأن البنادقة بذلوا قصارى جهدهم للحد من أنشطة هؤلاء القراصنة واضطروا في نهاية المطاف إلى الحرب، وذلك في موقعة غراديسكا (1615-1617م)، لإقناع آل هابسبورغ بإبعاد رعاياهم الخطرين عن الساحل وحصرهم داخل البلد.

وقد صبّ هذا التباين بين مواقف البندقية والإمبراطور في مصلحة صراع آخر في البر الرئيس، حيث تسبب في الاستيلاء على فالتيلينا مرة أخرى، مثلما كان الأمر في الزمن الماضي، إذ ظن أعضاء مجلس الشيوخ أنه يمكن أن يكون الأتراك حلفاء لهم، وفي هذه المرة كان التردد طفيفاً نظراً لأن العلاقات بين البلدين كانت جيدة، وقد كان السلطان، بمناسبة خروج الأسطول في حملته الصيفية، قد سأل الجمهورية ما إذا كانت بحاجة إلى مساعدة؟ وفي إطار بنود اتفاق السلام، أمر الأدميرال قائد الأسطول بحماية مستوطنات البندقية وسفنها، وفي البداية أمر السلطان أحمد الأول (1603-1617) إسكندر حاكم البوسنة بمنع تجنيد الجنود في أراضيه، وهو أمر محظور صراحة في الاتفاقات المعقودة مع هابسبورغ. وبعد وفاته مباشرة بدأت مراسلات كثيفة بين البندقية والقسطنطينية

والسلطات العثمانية في البوسنة لتجنيد جنود أتراك ليتم إرسالهم إلى فالتيلينا. وفي الوقت نفسه تم قبول عرض أوجراس آغا من زيمونيكو الذي كان جده «دودا»، وهو ربما ينتمي إلى العائلة الأميرية التي تحمل الاسم نفسه، قد خدم الجمهورية من قبل. لقد أفادت صورة التركي حليفاً، وكانت بمثابة رادع للعدو، ووسيلة لدعم معنويات الجنود. ومنذ عام 1624 وحتى عام 1630 أصدر السلطان سلسلة من الأوامر التي تسمح بالتجنيد المماثل ليس فقط في البوسنة، وإنما أيضاً في المورة واليونان وألبانيا. وانتقل المترجم البندقي مارك أنطونيو فيللوتيللو إلى أراضي الدولة العثمانية خصيصاً وشرع في اختيار القوات.

ولم يعرف نوع هؤلاء الجنود ولا عددهم الفعلي. لكن أخبار وجودهم تظهر بشكل متقطع في مصادر مختلفة، كما لو أن هناك تردداً في الحديث عنها، وفي واقع الأمر يعتبر هذا الأمر فصلاً في العلاقات بين البندقية والدولة العثمانية لم يوف حقه من الدراسة من جانب المؤرخين. فنحن نعرف، على سبيل المثال، أنه حتى عام 1644 عند اندلاع الحرب العثمانية البندقية من أجل كانديا، كان هناك جنود من المسلمين في صفوف الجيش البندقي. وفي واقع الحال كان الراهب الكابوتشي بارتولوميو دا ترنيانو يفخر بأنه استطاع تنصير ثلاثمائة تركي بلا إكراه وبقوة الإقناع وحدها. ومع ذلك ولمنعهم من العودة لدينهم أقنع السلطات بتجنيدهم مدة غير محدودة. وبعدها بحوالي عشر سنوات كان بعضهم لا يزال يقاتل من أجل الجمهورية، وفي عام 1654، على سبيل المثال، تم رفع رواتب أنجيلو كالاندرينو (محمد سابقاً)، وبيتر (خليل سابقاً)، ومارك أنطونيو (محمد سابقاً).

وفي النصف الأول من القرن السابع عشر لم يظهر في موقف الجمهورية تجاه الإمبراطورية العثمانية أي احتجاز لأشخاص لأسباب دينية، وفي تلك السنوات تعرضت الإمبراطورية لأزمات عميقة، حيث تناوبت لحظات الانتعاش مع اللحظات الصعبة بسبب اعتلاء العرش من قِبل مجانين أو من هم أصغر سناً من أن يحكموا، وكانت هذه المدة هي التي وصفها قلم أحمد رفيق (1879–1935)[1] وكان عدواً للنساء بأنها «سلطنة الحريم»، نظراً إلى القوة الكبرى التي اكتسبتها دسائس الحريم، وقد حدد رفيق بداية تلك المدة بوفاة سليمان الأول عام 1566 ونهايتها عام 1651، عندما بدأ ما يسمى بـ«سلطنة الآغوات» (1651–1656م)، وهو موسم قصير جداً عندما كان خصيان الحريم الإمبراطوري هم الذين يوجهون السياسة العثمانية. ومع ذلك لم يمثل تدخل نساء الدولة، وخصوصاً الوالدة باشا، أي والدة السلطان الحاكم، في إدارة الشأن العام، حدثاً استثنائياً للإمبراطورية العثمانية، فقد كان لهن في المجتمع العثماني وضع محترم، نظراً لقربهن من السلطان، وتمتعهن بنوع من النبل المكتسب، وتحديداً من كانت تحمل لقب الوالدة باشا باعتبارها «حامية الإمبراطورية»، وكان عليها التدخل في لحظات الأزمات، عندما كان من يجلس على العرش ظلاً للسلطة فقط، وليس صاحب سلطة فعلية، ولم يكن تدخل نساء الإمبراطورية في سياسة الدولة مجرد رغبة منهن في ممارسة الرئاسة، ولكنهن كن يتصرفن وفقاً لأحكام القانون العثماني الذي يجبرهن على ممارسة السلطة من وراء الكواليس، على أن تكون ممارسة

---

(1) Ahmed Refik Altınay, *Kadınlar saltanatı*, 4 voll., II ed. Istanbul, Türkiye Ekonomik ve Toplumsal Tarih Vakfı, 2002.

الرجال لسلطة علنية فقط، على الرغم من وهميتها.

وطوال فترة ما يسمى بـ«سلطنة الحريم» ظلت البندقية بمعزل عن الصراع في بلاد الشرق، فقد كانت سحب كثيفة تهدد أنحاء أوروبا، إذ اندلعت حرب الثلاثين عاماً (1618-1648) التي شهدت صداماً بين الكاثوليك والبروتستانت في ساحة المعركة، وقد كانت الأوبئة والمجاعات والانكماش الاقتصادي الثمن المدفوع للابتكارات والأسلحة التكتيكية التي حملها معه مثل هذا الصراع الممتد طويلاً، وخلال هذه السنوات بالتحديد حدث تفوق الجيوش الأوروبية على العثمانيين، سواء في المجالات التكنولوجية أو الاستراتيجية.

وفي عام 1640، اعتلى العرش إبراهيم الأول (1640-1648م)، وهو شخصية فريدة ومجنونة من سلالة عثمان. وأصبح الوضع أكثر حساسية، وكانت والدة السلطان الوالدة باشا «كوسم»، عجوزاً حازمة في عدم قبول مشاركة أحد لها في السلطة التي مارستها لأعوام عديدة، وفي عام 1605 توفيت الوالدة باشا «هاندان» فأصبحت كوسم أهم امرأة في القسطنطينية؛ لأنها كانت المفضلة لدى أحمد الأول (1603-1617)، وفي عام 1623 اعتلى ابنها البكر مراد الرابع (1623-1640) العرش تحت وصايتها؛ لأنه كان لا يزال صغير السن. وفي غضون سنوات قليلة أدت حماقات إبراهيم الأول إلى تقويض مالية الدولة، في حين تتابعت مجموعة من رؤساء الوزراء الفاسدين أو غير المناسبين على إدارة شؤون الدولة. ومن أجل تجنب ثورة شعبية تقرر خوض حرب من أجل تفريغ شحنة التوتر داخل الدولة، وقد تم اختيار الفريسة التي سوف تُشنّ الحرب

عليها، وهي جزيرة «كانديا» التابعة للبندقية، وكانت الجزيرة الوحيدة التي ظلت مسيحية في شرق البحر المتوسط الذي تحول بالفعل إلى بحر عثماني. وفي عام 1644 وقع هجوم من قِبل القوارب المالطية على بعض السفن التي لجأت إلى ميناء الجزيرة بسبب العاصفة، وعلى متنها كانت هناك بعض النساء من الحريم الإمبراطوري عائدات من الحج في مكة المكرمة، وكانت هذه هي الذريعة المناسبة لإعلان الحرب.

وفي عام 1648 أطاح انقلاب إبراهيم الأول الذي قُتل على الفور، واعتلى الشاب اليافع محمد الرابع (1648–1687) العرش، تحت وصاية جدته، وفي أخطر لحظة خرجت الوالدة باشا العجوز وهي تضع حجاباً بنفسجياً من الباب الثالث للقصر الإمبراطوري وفي يدها حفيدها، وتوقفت لكي تتحدث مباشرة إلى الميليشيات الثائرة، وهو أمر غير معتاد في البلاط العثماني. فقد كان يجب أن تستسلم «كوسم» أو على الأقل تتقاسم السلطة مع زوجة ابنها تورهان هاتيس (خديجة طرخان)، ولكن هذا لم يحدث، وقيل إن هذه كانت فتاة لم تتجاوز عامها الثالث والعشرين، ومن ثم فهي صغيرة جداً على إدارة السلطة الإمبراطورية. وفي هذه الأثناء اتجهت الحرب إلى نهاية سيئة، بينما لم يكن بوسع رؤساء الوزراء الذين اختارتهم كوسم مواجهة الوضع الذي كان يزداد كل يوم سوءاً، كانت آمال أولئك الذين يحلمون بالتغيير معلقة على «تورهان» فاحتشد الآغوات الأقوياء في القصر الإمبراطوري. وفي عام 1651 قرر المتآمرون البدء في التحرك، ففتشوا غرف الحريم بحثاً عن «كوسم»، التي اختبأت في خزانة ملابس هرباً من المهاجمين، وتم شنق الوالدة باشا العجوز، وأخيراً استطاعت

الشابة تولي المنصب والسلطة التي تستحقها.

وقد سعت تورهان إلى الحكم بالاعتماد أساساً على رئيس الآغوات السود، إلا أن الوضع لم يتحسن. وأصبح تقدم البندقية أكثر تهديداً، حتى أغلق أسطولها مضيق الدردنيل، ومرَّ الوقت دون أن يتحسن الوضع، وفي يوم 26 يونيو عام 1656 نزلت بالعثمانيين هزيمة كارثية جديدة أجبرتهم على ترك جزر لمنوس، وساموثراكي وخيوس، وسادت حالة من الذعر في القسطنطينية، وقررت «تورهان» في هذا الوضع المشوش يوم 15 سبتمبر من ذلك العام، أن تستدعي رجلاً عجوزاً أميناً أثبت قدرته على إدارة الأمور بحزم، وذلك حتى يرأس الوزارة، وهو محمد باشا الكوبريللي، هذا الرجل الذي بلغ الستينيات من عمره، وقد كان أحد الموظفين القدامى الذين وصلوا إلى الحياة السياسية من خلال تجربة الدوشيرمة (devşirme) التعيسة للتعبئة العامة للشبان الصغار في جميع أقاليم البلقان، وقد قبل تولي المنصب بشرط أن يتمتع بكل السلطات والصلاحيات التي تخص السلطان. وقد قبلت تورهان نيابة عن ابنها، وبدأ الكوبريللي يدير البلاد بقبضة من حديد. وكان الخوف من البندقية هو الذي تسبب في الانقلاب التاريخي للإمبراطورية، التي انتقلت من الوزارة التي تنفذ أوامر السلطان، كما كان الحال في عهد محمد الثاني وسليمان الأول، إلى الوزارة المفوضة، حيث السلطان يملك ولا يحكم. وفي الواقع لم يتول محمد الرابع مطلقاً أمور الإمبراطورية، حتى بعد أن بلغ الرشد، فقد تفرغ لرحلات الصيد الضخمة التي كان ينظمها، حتى إنه اشتهر في التاريخ باسم «عوجي» أي «الصياد».

وفي عام 1657 بدا أن الحصار المفروض على مضيق الدردنيل سوف يؤدي إلى هبوط البنادقة الوشيك إلى القسطنطينية نفسها، إلا أن بعض العناصر اشتدت في مقاومة أسطول سان ماركو: حيث التيارات المعاكسة، والرياح التي تتغير فجأة، والهجمات من الشواطئ. وعلى أي حال فقد كان الأدميرال الشاب لاتزارو موتشينيجو متلهفاً للصدام. وفي يوم 16 يوليو بدأت المعركة، في وقت كانت الرياح فيه تهب بقوة وكانت الأمطار تهطل بغزارة. وأدى تفوق السفن البندقية إلى هروب المدافعين القلائل بسرعة. واستعد موتشينيجو للإبحار في اليوم التالي، في حين أن المطر لم يتوقف عن السقوط، ولكن فجأة أطلقت من الشاطئ طلقتا مدفعية استهدفتا سفينة الأدميرال، وأصابت الطلقة الأولى الشراع الذي سقط فوق الأدميرال وقتله. وفجرت الطلقة الثانية مخازن السلاح، فتوقف الهجوم وتراجعت السفن. وفي اليوم التالي قرر القائد الجديد لورينزو رينييه، وكان عجوزاً لكنه عديم الخبرة، عدم الإصرار على استكمال المعركة، ووجّه الأشرعة الوجهة الأخرى. وهكذا أنقذ «مدفعجي» مجهول العاصمة والإمبراطورية، وهو ما حدث مرة أخرى بعدها بقرون، وتحديداً يوم 18 مارس عام 1915، عندما نجح الأمباشي سيد في حمل قنبلة وزنها 275 كيلوجراماً ليغرق السفينة البريطانية «أوسيان» ويوقف تقدم العدو.

وتحت قيادة الكوبريللي بدأت البلاد في الانتعاش. وتم إسكات صوت المعارضة، واستردت الدولة خلال سنوات عافية مالية حتى عادلت الميزانية. ومع ذلك لم تلزم نفسها إلزاماً عميقاً في الحرب من أجل

الاستيلاء على كانديا. وقد خدمت الحملات السنوية بشكل جيد توجيه التوترات التي يمكن أن تصيب الدولة نحو الخارج. فالجنود، ولا سيما القادمون من مصر، الذين كانوا في البداية الأكثر تردداً في الرحيل إلى الحرب، وجدوا الآن في مدة التجنيد الذي دام طوال أشهر الصيف، عملاً مجزيَ الأجر. ولِما يقرب من ثلاثين عاماً ساهمت السفن الحربية التي مرت من بحار المشرق في إنعاش اقتصاد البلدان الساحلية. ويجب أن نتذكر أن السفن والقوارب المستخدمة حينئذ في البحر الأبيض المتوسط، لم يكن فيها غاطس كبير وكان ينبغي أن تلقي بالمرساة كل يوم تقريباً لجلب الماء والغذاء. وكانت تكفي طلقة مدفعية تطلقها سفينة من أحد الخلجان المنعزلة، حتى يهرع الفلاحون من الأنحاء حاملين معهم الماشية والبيض والخضر والفاكهة، لكي يبيعوها. وقد كان ممكناً للسفن ذات الجسور العالية والأشرعة الهائلة أن تبقى في البحر لعدة شهور، متمتعة بالنقل وبامتياز عبر المحيطات، لكنها في المقابل لم تكن مناسبة للرياح غير المواتية والسواحل الوعرة ضحلة المياه، كما هو الحال في جزر المتوسط، حيث كانت القوارب ذات المجاذيف قادرة على المناورة بسهولة أكبر. وقد تعلم رعايا الدولة العثمانية في المغرب العربي بناء هذه القوارب من الهولندي دانزر في بداية القرن الثامن عشر، ثم اضطروا بعد ذلك إلى تطويرها لكي تتناسب مع الملاحة في البحار الداخلية.

وهكذا جاء الفتح النهائي لكانديا ببطء وعلى مضض تقريباً عام 1669، وخسرت البندقية مع الجزيرة أيضاً مملكتها الأخيرة واللقب الملكي الذي ارتبط بها. ثم استأنفت التجارة أنشطتها بعد اتفاق السلام، لكن

النفوس لم تكن كما كانت من قبل. فقد أنْسَت أعوام الحرب الثلاثون الأُلفَةَ القديمة وفاقمت التناقضات. وهكذا لم يكن صعباً على حكام البندقية الدخول عام 1684 في حرب جديدة ضد الإمبراطورية العثمانية التي اندلعت عندما حاصر الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا «فيينا»، ولقي الهزيمة بالقرب من جبل كالينبرج. ثم جاءت حروب أخرى، بين نصر وهزيمة، وأحياناً كان الطرفان يزعمان أنهما انتصرا، كما حدث في المعركة التي دارت رحاها قبالة ميتلينو في عام 1698، حيث زعم كل من جاكومو كورنر وحسين ميزو مورتو باشا النصر في المعركة.

كانت الحرب التي اندلعت بين عامي 1684 و1699 تسمى بالعصبة المقدسة، أو المورة كما يقول البنادقة، أو حتى الحرب العظمى كما هو مدون في السجلات العثمانية. فقد احتشد ضد العثمانيين تحالف يتكون من القوات الإمبراطورية ومن بولندا والبندقية وروسيا. ولأول مرة واجهت الإمبراطورية العثمانية، في ساحة المعركة وليس في عرض البحر، أربع دول أعداء منظمة تنظيماً جيداً ومسلحة تسليحاً جيداً لا دولة واحدة. وطلبت الإمبراطورية سنوات هدنة، كما أرسلت الرسل إلى فيينا، فتم احتجازهم لفترات طويلة، دون مفاوضات فعلية. وفي نهاية المطاف عندما بدأت الجيوش تحصل على بعض المكاسب، سواء على الأرض أو في البحر، قرر الأعداء أن الوقت قد حان للتوصل إلى سلام. وحل عام 1699 ليتم الاتفاق المبرم في بلدة صغيرة في شبه جزيرة البلقان: هي كارلوفجه.

وبهذه المعاهدة الأخيرة حصلت البندقية على مملكة جديدة، هي

المورة، والتي سوف تخسرها على أي حال بعد أعوام إثر حرب جديدة ضد الإمبراطورية العثمانية. وهذه الحرب الجديدة بدأت عام 1714 وانتهت في 1718 بمعاهدة سلام بساورفجا. وفي عام 1716 تدخل آل هابسبورغ جنباً إلى جنب مع الجمهورية حاصدين عدة انتصارات. وقد كانت الهزيمة الحقيقية -في الواقع- على طاولة المفاوضات؛ فقد أُجبرت البندقية على التخلي عن العديد من الأراضي طبقاً لمبدأ «يوتي بوسيدتيس» (*uti possidetis*)، حيث يحتفظ كل طرف بما فتحه من أراضٍ، كما لا ينبغي أن تقوم أي حرب أخرى بين البندقية والإمبراطورية العثمانية.

وعلى العكس تم التوقيع على معاهدة سلام دائم عام 1733، والتي لم تكن تحتاج إلى تصديقات جديدة عند اعتلاء أي سلطان جديد للعرش. ومن نافلة القول إن الدولتين كانتا كلتاهما على وشك الأفول. فالسقوط بالنسبة إلى البندقية كان هبوطاً رائعاً مكتوماً ختامه مأساوي في أيام حرب نابوليون المحمومة، إذ وقعت فريسة لنهم فرنسا والنمسا (1797). وحينذاك كان الصوت الوحيد المسموع بين حكام ذلك العصر احتجاجاً على نهاية الجمهورية العتيقة والظلم الذي حاق بها، هو صوت السلطان العثماني وحده.

أما مصير الإمبراطورية العثمانية فجاء مختلفاً عندما بدأت في القرن الثامن عشر نضالها من أجل التوافق مع الأفكار الجديدة التي كانت تصل من أوروبا، وكانت شديدة الخطورة على دولة كانت تريد أن تكون متعددة الأعراق متجاوزة القوميات تحترم الفوارق الدينية. ففكرة الدولة/ الأمة التي سادت في الغرب في القرن التاسع عشر، ثبت أنها مخلة بالنظام

في أقاليم البلقان التي طالبت بحقها في الاستقلال، حيث اعتمدت مطالباتهم على تاريخ الدول التي انقرضت قبل قرون. وقد كان هذا هو المبدأ المثالي للدولة العثمانية المنادية بالتعدد العرقي، في مواجهة التناغم القسري للرعايا المختلفين عرقاً وديناً، وهو السبب الرئيس في خراب الإمبراطورية. وفي الوقت نفسه كان الاستعمار الفرنسي والبريطاني يتحول إلى إمبريالية تقضم مزيداً من أراضي الإمبراطورية العثمانية، وقد سعى السلطان للتكيف مع الأحوال الجديدة، لكن المبدأ المثالي للدولة العثمانية لم يثبت نجاحه، فقد أخذت الدولة تتحول باطراد إلى دولة تركية مسلمة، حتى ولو كانت مجرد جمهورية تركية علمانية هي التي نجحت في فرض سيادتها واستقلالها على الساحة الدولية.

الفصل الرابع

نظام البندقية الدبلوماسي والقنصلي

1. سفراء ورسل

ظهر مصطلح الدبلوماسية متأخراً في القرن الثامن عشر، وحتى ذلك الوقت كان تعريف الدبلوماسية يقتصر فقط على مصادر القانون التي تجمع معاً مجموعات وثائق واتفاقات السلام. ومع ذلك فإن استخدام سفراء وممثّلين لدى حكام أجانب يعود إلى فجر التاريخ. ففي الغرب، وتحديداً في مجال القانون الدولي، حدثت تغيرات مهمة في أواخر العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، وذلك عندما أدى تراجع النظام الإقطاعي وتآكل القوى التقليدية إلى تعايش جديد بين كيانات حكومية مستقلة ومنسقة، كما حدد ظهور الدولة التدريجي، بوصفها كياناً سيادياً مسيرة تطور الممارسة الدبلوماسية، إذ لم يعد ممكناً فصل الحرية والاستقلال عن الحياة الاجتماعية ولا عن ضرورة الانتماء إلى الجماعة الدولية. وفي هذا المجال انطلقت البندقية مستفيدة من ميزة كونها دولة ذات سيادة منذ قرون، كما أنها اعتادت على دقائق الأمور السياسية التي كانت متداولة في بلاط الإمبراطورية البيزنطية، والتي كانت تابعة لها لمدة من الزمن. ولم يكن من قبيل المصادفة أن البندقية على وجه التحديد هي

التي دشنت عام 1431 أول بعثة دبلوماسية دائمة: حيث اعتلاء كرسي البابوية للبندقي جبراييل كوندولمير (البابا أوجين الرابع)، والذي دفعها إلى إنشاء منصب سفير مقيم لدى الكرسي الرسولي؛ حتى يدير العلاقات الدبلوماسية الجديدة والمكثفة مع البابا البندقي إدارةً مباشرة في روما.

كما أن أقدم اتفاقات السلام الموقعة بين البندقية والدول الإسلامية تذكر وجود سفراء (متحدثين باسمها أو ممثلين)، أو رسل، أو مفوضين، أو أفراد من الطبقة النبيلة مكلفين بإجراء هذه المفاوضات أو تلك. وكل هذه التسميات ليست مترادفات بسيطة، وإنما هي مناصب محددة تتباين في درجة التمثيل الذي يتم منحه للمبعوث. فقد كانت لدى السفير مثلاً إمكانية المناقشة باسم حاكمه واتخاذ القرار بناءً على ذلك، ومن أجل ذلك يتلقى، فضلاً عن التعليمات المكتوبة أو الشفهية، الشهادات الرسمية الممنوحة من السلطات المانحة (النقابات)، إضافة طبعاً إلى خطاب «الاعتماد» الذي يعتمده سفيراً لدى الحاكم الذي يتم إرساله إليه. ثم كان هناك أشخاص مسؤولون فقط عن توصيل رسالة ما أو نقل موظفين دبلوماسيين لا يحملون لقب «سفير» على الرغم من حصولهم على حق التصرف باسم الدوجي، سواء لأنهم لا ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية، أو لأن الموقف السياسي الدولي لم يكن يشجع على استخدام مثل هذا الوسيط باعتباره وسيطاً رسمياً أو ظاهراً للعيان أكثر مما يحتمله الموقف.

وسرعان ما أصبحت الدبلوماسية البندقية معقدة ومنظمة. فعلى سبيل المثال، يَرجع القانونُ، الذي يفرض على سفراء البندقية أن يقدموا للدوجي وللمستشارين تقريراً عما قالوه أو سمعوه، إلى عام 1286. وعام

1425 تم تأكيد هذا القانون مع تحديد أن كل دبلوماسي في الخارج لابد أن يقدم تقريراً مكتوباً أو شفهياً عن مهمته. وأخيراً، ففي عام 1524 تم توسيع القانون ليشمل كل موظف عمومي يتم إرساله إلى الخارج بعيداً عن الوطن الأم، سواء في دولة أجنبية أو في الدول الخاضعة للبندقية. ويعود إلى هذه الممارسة أصل التقارير الشهيرة لسفراء البندقية في الخارج، والتي يتم التفتيش عنها بنهم في قصور الحكم الأوروبية؛ نظراً لما توفره من أخبار مباشرة. وقد أفادت هذه المصادر في القرن التاسع عشر أوائل العلماء الذين اهتموا بدراسة العلاقات الدولية. وكذلك استخدمها المؤرخون الأوروبيون الأوائل المهتمون بدراسة الإمبراطورية العثمانية على نطاق واسع، مثل جوزيف فون هامر-بورجشتال الذي استخدمها بالقدر نفسه الذي استخدم به العديد من الوثائق والسجلات الأخرى المكتوبة باللغة العثمانية.

وحتى عام 1453 تم اعتماد السفراء غير العاديين فقط لدى الحكام العثمانيين، وهم السفراء المكلفون بتنفيذ مهمة خاصة ومن ثم العودة إلى الوطن، وهو النسق الذي سارت عليه الممارسة الدبلوماسية الأوروبية كلها فى العصور الوسطى. وبعد إرسال ليوناردو كونتاريني ومارينو فينير (1360)، اللذين لا نعرف عنهما سوى القليل جداً من المعلومات، تم إرسال السفير جاكومو براجادين عام 1368من قِبل الإمبراطور البيزنطي، وتم تكليفه بمهمة لدى السلطان مراد الأول، في محاولة للحصول على سوق أسكدار. وفي ذلك الجزء من ذاك القرن كان للنبلاء البنادقة مهام مماثلة، بعضها لاقتراح تحالف ضد جنوة (1377) عشية حرب كيودجا

(1378–1381)، وبعضها الآخر للتفاوض حول مسألة جزيرة بوزكادا المختلف عليها (1382)، أو لتقديم الصداقة والعلاقات التجارية الطيبة (1384)، أو لتأمين الإفراج عن الأسرى (1387، 1388)، أو حتى لتفسير استحالة تقديم المساعدات العسكرية للعثمانيين (1388).

وقد تم إرسال سفراء بندقيين جدد إلى الشرق بعد الوفاة المفاجئة لمراد في ساحة معركة سهل قوصوه (كوسوفو) (1389) واعتلاء ابنه بايزيد الأول (1384–1402) العرش، وهو أول من حصل على لقب السلطان بدلاً من مجرد أمير[1]. ولم يكن نبلاء البندقية يرحبون دائماً بمثل هذه المهام نظراً إلى المخاطر التي يمكن أن يتعرضوا لها. فعلى سبيل المثال لم تسفر المرات الثلاث التي جرت فيها محاولة اختيار سفير لتهنئة الحاكم الجديد عام 1390 عن شيء، حيث فضل المرشحون دفع الغرامة المالية المقررة بدلاً من قبول المهمة، ولم يتم اختيار السفير الذي يتولى هذه المهمة إلا في المرة الرابعة.

وإلى جانب شخصية السفير كانت الإدارة البندقية في العصور الوسطى وغيرها من العصور، تستخدم شخصية الرسول أو المبعوث، وهو نوع آخر من الموظفين الذين يمثلون السلطة السياسية. وهؤلاء موجودون سواء في أراضي الدولة، على سبيل المثال في بعض المناطق أو المستعمرات، أو في الخارج، كممثلين ورؤساء لمواطنيهم المقيمين هناك، وفي هذه الحالة كان المبعوث يتفاوض مع السلطة السيادية المحلية لحماية مصالح الدولة

(1) A. Fabris, *From Adrianople to Constantinople. Venetian-Ottoman Diplomatic Missions, 1360-1453*, in «Mediterranean Historical Review», 7, 2, dicembre 1992, pp. 154-200.

التي أرسلته، حيث يمارس بعض وظائف السفير، على الرغم من أن مهمته، على الأقل في الأصل، كانت أقرب إلى مهام القنصل.

ويأتي المصطلح (*Bailo*) الذي يُعبّر عن هذا المعنى من اللاتينية (*baiulus*)، والتي معناها «حمال» أو «حامل». وقد كان أول ظهور له في أواخر القرن الثاني عشر، في ترجمة لاتينية لنصوص عربية تشير إلى موظفين في إدارة الدولة الأيوبية، وقد يوحي هذا بأنه يعني ببساطة المصطلح العربي «الوزير»، والذي يعني في أصله القديم «الحامل». ووظيفة المبعوث، المنتشرة على نطاق واسع خاصة في الجاليات الأوروبية في الشرق خلال العصور الوسطى، لها الكثير من القواسم المشتركة مع وظيفة رئيس الجماعة الدينية في أرض الإسلام: فكلاهما يتمتع بالسلطة القضائية على مرؤوسيه، على الأقل بالنسبة إلى العلاقات داخل الجالية والتي لا تنطبق على المسلمين، وهذا ما يفسّر لماذا، بعد ما يسمى بالجلسة المغلقة للمجلس الأعلى (1297) التي أدت إلى خلق طبقة حاكمة وراثية، بدأ اختيار المبعوثين البنادقة من بين الأرستقراطيين، وهم الوحيدون الذين لديهم القدرة على العمل قضاة[1]؟

ومع القرن الثالث عشر بدأت البندقية في إرسال مبعوثين، سواء إلى مستعمراتها، على سبيل المثال: نيغروبونتي، وباتراسو، وبوزكادا، وكورفو، ودوراتسو، وناوبليا، وكوروني، ومودوني، أو إلى بعض بلاد الشرق مثل إمبراطورية طرابزون، ومملكة أرمينيا، ومملكة قبرص، وسلطنة

(1) M.P. Pedani, *Consoli veneziani nei porti del Mediterraneo in età moderna*, in R. Cancila (a cura di), *Mediterraneo in armi (secc. XV-XVIII)*, Palermo, Associazione Mediterranea, 2007, pp. 175-205.

حلب، وكذلك إلى مدن صور وطرابلس الشام وعكا، التي كانت تنتمي إلى الممالك الصليبية. أما في بيزنطة، فعلى العكس، تم إنشاء عمودية عام 1205 للعمدة فيها سلطات مماثلة للدوجي، وواجبه حكم الجالية البندقية. ولكن في عام 1265، وعند استئناف الاتصالات بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية (1261) أرسلت البندقية مبعوثاً مرة أخرى. ولم يختلف لقب ممثل البندقية مع تغير الأسرة الحاكمة: بعد الأيام المحمومة الأولى من الفتح العثماني عام 1453، وذلك حينما مات المبعوث جيرولامو مينوتو وهو يقاتل في صفوف اليونانيين، وتم استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البندقية والعثمانيين. وبعد أن استسلمت المدينة التاريخية في 29 مايو، جرى التصويت على التوجيهات الخاصة بالسفير المكلف بعقد مفاوضات السلام مع السلطان في 17 يوليو. وقد أقرّ الاتفاق الجديد، الذي وقعه بارتولوميو مارتشيللو استعادة المهمة القديمة للبندقية في القسطنطينية، وفي يوم 16 أغسطس من العام التالي، تلقى النبيل نفسه تعليمات جديدة بصفته مبعوثاً رسمياً.

ومنذ تلك اللحظة بدأ المبعوث عقد اتصالات بين البلد الأم والبلاط العثماني، بهدف حماية مصالح التجار الذين كانوا يتاجرون تحت حماية علم سان ماركو، وصار يتصرف بشكل واضح باعتباره سفيراً مقيماً، مثل أولئك الذين كان يتم اعتمادهم في أوروبا. ومع نهاية القرن الخامس عشر كان جميع المبعوثين الموجودين فعلياً في الخارج، باستثناء واحد في القسطنطينية، قد تم تعويضهم بقناصل. ووحده المسؤول المعتمد لدى السلطان هو الذي احتفظ باللقب القديم وبدأ يعمل باطراد كـ«سفير»: وفي عام 1575 عادل

قانون جديد وظائف المبعوث بوظائف السفير المقيم، وعام 1670 عُهِدَ إليه بالولاية على جميع قناصل البندقية العاملين في الإمبراطورية العثمانية، بل وعلى جميع رعايا الجمهورية الذين يعيشون فيها.

لم يكن التعيين في منصب مبعوث في القسطنطينية شرفاً أو مطمعاً، رغم المزايا المالية التي يمكن أن يجلبها هذا المنصب. خاصة في أوقات التوتر الدولي الذي جعل الكثيرين يسعون إلى تجنب هذه المهمة، كما حدث، على سبيل المثال، عامي (1506–1507)، حينما كانت الحرب مع السلطان قد وضعت أوزارها منذ وقت قصير، ولاحت في الأفق مخاطر رهيبة جديدة على الجمهورية في إيطاليا: ففي هذه الحالة رفض أربعة من أعضاء مجلس الشيوخ قبول المنصب، قبل أن يقبله أندريا فوسكولو. وكذلك كان من الصعب العثور على مرشحين بعد نزاعات أعوام (1537–1540) وأعوام (1570–1573)، ولا سيما بين معاهدة كارلوفجه (1699) وبداية أعمال الحرب التي انتهت بمعاهدة سلام باساروفجا (1714–1718). وما بين 1705 و1706 ذهب التصويت خمس عشرة مرة سدى، وفي المرة السادسة عشرة فحسب أمكن انتخاب ألفيز موتشينيجو. وحتى عام 1712 كان لابد من انتظار التصويت السابع حتى يقبل فرانشيسكو جريتي مهمة المبعوث. وخلال الأزمنة نفسها كان من الأسهل كثيراً أن تجد من هو على استعداد ليكون سفيراً، فالمهمة تستمر مدة أقل، ما يقلل المخاطر التي يتعرض لها؛ لأنه من وجهة النظر العثمانية، كان احترام السفراء أكبر من احترام المبعوثين، والذين كانوا يتساوون في ذلك الوقت مع القناصل ورؤساء الطوائف «المِلل» غير المسلمة في الإمبراطوية. وفي عام 1516 فقط

رفض أربعة من أعضاء مجلس الشيوخ منصب سفير فوق العادة، ولكن في تلك السنة كان سليم الأول حربي النزعة بصدد إنهاء غزوه لدولة المماليك، بعد أن أشعل نار الحرب على الحدود مع إيران قبلها بسنوات قليلة، فكان الانتقال إلى بلاطه يمكن أن يكون طويلاً وخطيراً، خاصة أنه كان كثير الترحال بين الشام ومصر.

وفي العصر الحديث واصل الذهاب إلى القسطنطينية، إلى جانب المبعوثين، سفراء فوق العادة أيضاً. وكثير منهم تم تكليفه بمناقشة معاهدات السلام ومهام كثيرة ارتبطت بإنهاء مدة العداء. وآخرون تم إرسالهم شرفياً لحضور مناسبات هامة للإمبراطورية، ولذلك ذهب بعض نبلاء البندقية للتهنئة رسمياً بالجلوس على العرش للملك الجديد، أو لتقديم التهاني نيابة عن الجمهورية لانتصارات الإمبراطورية في ساحة المعركة، أو للمشاركة نيابة عن الدوجي في المناسبات الاجتماعية، وعلى وجه الخصوص في الحفلات التي يتم تنظيمها للاحتفال بختان الأمراء أو زفاف الأميرات. ومع القرن الثامن عشر، وبعد التصديق على معاهدة باساروفجا، اختفت عادة إرسال بعثات دبلوماسية غير عادية من البندقية؛ لأنها أصبحت مرهقة للغاية. وفي بعض الأحداث الهامة، مثل جلوس ملك جديد على العرش، كانت تستخدم حيلة تكليف المبعوث بمهام سفير فوق العادة، لتجنب تكلفة إرسال دبلوماسي، وهذا ما حدث عام 1732 مع المبعوث أنجيلو إيمو، وفي عام 1755 مع أنطونيو دونا للاحتفال بجلوس عثمان الثالث على العرش، وعام 1758 حدث هذا مع فرانشيسكو فوسكاري مع جلوس مصطفى الثالث على العرش، كما

حدث عام 1774 مع باولو رينييه لجلوس عبد الحميد الأول، ثم في عام 1789 مع نيكولاس فوسكاريني لجلوس سليم الثالث على العرش[1].

2. شبكة البندقية القنصلية

يتفق المؤرخون على أن المؤسسة القنصلية نشأت في الجاليات التجارية التي شكلها مواطنو الجمهوريات البحرية الذين يعيشون ويعملون في الشرق خلال العصور الوسطى، فعندما وجد التجار الإيطاليون أنفسهم بعيدين عن وطنهم فكروا في خلق مجموعات من أبناء جلدتهم مهمتها الدفاع عنهم وحماية مصالحهم. ثم بدأوا بعد ذلك ينتخبون من داخلهم واحداً يحكمهم ويمثلهم ويتولى الفصل بينهم كقاض. وتدريجياً اعترف القضاء في الوطن الأم بصحة هذا العرف، وبدأت بعض الدول، مثل البندقية المتنبهة دائماً لحماية رعاياها حتى على حساب التدخل بشكل مباشر في شؤونهم، بتعيين موظفين مكلفين بتمثيل أعضاء الجالية وحكمهم. وتدخلت الاتفاقيات الدولية مع حكام الدول التي يعيش فيها التجار؛ لتحديد مهام القناصل وحقوقهم وواجباتهم، خاصة فيما يتعلق بالاختصاص القضائي، وفي البلدان الإسلامية كان مسموحاً للقناصل الأوروبيين بأن يحكموا في القضايا التي لا يكون فيها طرف مسلم، وعلى العكس في البلاد الأوروبية حيث يستطيع القنصل الحكم في القضايا المدنية فقط.

(1) E.R. Dursteler, *The Bailo in Constantinople. Crisis and Career in Venice's Early Modern Diplomatic Corps*, in «Mediterranean Historical Review», 16, 2, dicembre 2001, pp. 1-30.

وتفسر هذه السلطة القضائية المختلفة جداً لماذا عمدت البندقية إلى تعيين أعضاء الطبقة الأرستقراطية وحدهم في المناصب القنصلية، في اثنين من أهم مقارها في الأرض الإسلامية، وهما مصر وسوريا، والذي استمر حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر. كما يقدم هذا برهاناً إضافياً على التداخل في دول الشرق الأوسط بين شخصية القنصل وشخصية زعيم الطائفة الدينية غير المسلمة. وفي الواقع الفعلي هناك العديد من مؤسسات القانون العرفي الإسلامي التجاري وصلت إلى أوروبا على وجه التحديد من خلال طرق التجارة القديمة: على سبيل المثال هناك مصطلحات غربية كثيرة مأخوذة عن العربية مثل الحوالة (*avallo*) والصك (*chèque*) والسمسار (*sensale*)، إضافة إلى أن طريقة تكوين الشركة هي نفسها المعروفة في العربية والمعروفة أيضاً باسم (إقراض أو مضاربة). وأيضاً خلال الفترة المملوكية في مصر، كان يُدفع للقناصل الأجانب مرتب يقال له «جماكية»، وكان مرتباً يُدفع نقداً لموظفي الحكومة، وقد كانوا بالفعل موظفين رسميين مكلفين من الدولة بإدارة شؤون أعضاء الجالية الخاضعة للحماية. ولذلك فمن المحتمل جداً أن تكون المؤسسة القنصلية قد تأسست بين الأوروبيين الذين عاشوا في الدول الإسلامية، بمن في ذلك العديد من رعايا الجمهوريات البحرية الإيطالية. وقد اعتمدت السهولة التي جعلت البندقية تستحوذ على هذا النظام وتحوله إلى قانون قنصلي كما نفهمه اليوم، على حقيقة أن العرف والقانون في تلك الدولة لم يكونا مستقلين في الاستخدام المشترك، كما كان الحال في بقية إيطاليا: ففي المجال التنظيمي أيضاً كان البنادقة دائماً واقعيين ومنفتحين في استقبال القواعد الجديدة، حتى من شخص غريب

على القانون الروماني، ما دامت هذه القواعد تتلاءم مع مصالحهم.

وعلى أي حال، لقد كان تطور المؤسسة القنصلية طويلاً وحدث خلال الفترة الانتقالية بين العصور الوسطى والعصر الحديث. وفي العصور الأقدم كانت عادة البندقية أن تُوكِل وظائف الرقابة على الأعمال التجارية للرعايا، وتوكل تحصيل الضرائب والجمارك إلى موظفين يسمون بنائب الحاكم أو (*Visdomini*). وكان في المدينة بعض القضاة يحملون هذا اللقب: ثم أصبح نواب الحاكم هم مسؤولو مستودعات الجمارك القديمة، وكانوا ثلاثة مسؤولين، إضافة إلى مسؤول فندق الجرمان، ومسؤولي مخزن الحبال في الترسانة البندقية. كما تم إرسال آخرين إلى الخارج، على سبيل المثال: إلى فيرارا (حوالي 1101م)، وأكويليا، ورافينا، وحتى إلى عكا (بين 1176 و1210). وقد كان انتخابهم يتم من قبل المجلس الأعلى، تماماً كالمبعوثين والقناصل، ويُمنحون راتباً منتظماً، لكنهم يستطيعون زيادة إيرادهم بامتيازات خاصة، منها على سبيل المثال، ربع مقدار الضرائب التي يمكنهم تحصيلها، أو كما حدث في أكويليا، بأرباح اثنين من المحال التي تملكها الدولة البندقية. وفي العصور الأقدم كان يتم انتخابهم مدى الحياة، لكن تقرر بعد ذلك تجديد ولايتهم عاماً بعد عام، كما هو الحال في فيرارا ورافينا، أو كل عامين كما هو الحال في فيرارا بعد عام 1285، وحتى بعد ثلاثة أعوام كما حدث في أكويليا، وهو الإجراء الذي كان يُعتمد مع المبعوثين الذين تستمر مدتهم ثلاث سنوات[1].

وقد كان لنواب الحكام المقيمين في بلدان أجنبية اليد الطولى في

(1) M.P. Pedani, *The Oath of a Venetian Consul in Egypt (1284)*, in «Quaderni di Studi Arabi», 14, 1996, pp. 215-222.

إدارة الحكم بالبندقية، بحيث تستطيع السيطرة على رعاياها وتجارتهم، وجباية الضرائب المستحقة بشكل صحيح، كما كان النواب أيضاً على اتصال بالسلطات المحلية، فكانوا على سبيل المثال يحيلون إليها المجرمين في بعض الجرائم. لكن نواب الحاكم في أكويليا فقط هم الذين كانوا يتمتعون بالسلطة (الضبطية) القضائية، وبمجرد أن يعودوا إلى بلادهم لم يكن لديهم الحق في حضور اجتماعات المجلس الأعلى مرة أخرى، على عكس ما كان عليه الحال مع المبعوثين والسفراء، وهذا يدل على أن وظيفتهم كانت أساساً في الشؤون المالية والرقابة الإدارية.

وكانت شخصية القنصل مستغلة أيضاً من جانب الإدارة البندقية سواء في المدينة أو خارجها. وفي البدء كان الأمر متعلقاً بأعضاء هيئة قضائية يتعاملون مع الشؤون التجارية والبحرية، مثل القناصل (ثم بعد ذلك قناصل التجار)، وقد ظهروا في البندقية في النصف الأول من القرن الثالث عشر، ثم تم إنشاء سلك رؤساء القناصل في النصف الثاني من ذاك القرن، وكانوا يمارسون اختصاصهم في قضايا الإفلاس، والتجارة والرهون العقارية.

وإلى المدة نفسها يعود القناصل الأوائل المسؤولون عن حماية الجاليات البندقية بعيداً عن الوطن الأم: فقد بدأوا في العمل بالتوازي مع المبعوثين، وتدريجياً بدأوا يدخلون معهم وتبعاً لهم. ففي الاتفاق الذي وقع عام 1231 مع أمير تونس أبو زكريا الأول (1228-1249) ورد الحديث بالفعل عن قنصل. ولم يأت ذكر هذا المنصب في أول عهد أمان ممنوح لحماية التجار البنادقة من قبل سلاطين مصر بين عامي 1205 و1218، والذي

كان بواسطة الملك العادل الأول (1200–1218). لكن كانت هناك بعض الامتيازات وحسب عام 1238 من الملك العادل الثاني (1238–1240) صادقت على وجود مسؤول مثل هذا. وعقب ذلك ظهر قناصل آخرون سواء في الشرق أو في الغرب عينتهم البندقية: فكان على سبيل المثال المعينون في نابولي (حوالي عام 1231)، ومن عام 1402 سمي القنصل العام في بوليا، أبروتسو (حوالي 1275)، وبولا (Pola) (1284)، وكلارينزا في المورة (1300)، وبروج (أو فلاندرز، 1322)، وتبريز (قبل 1325)، وميسينا (قبل 1333)، وتانا (1333)، وكافا (1345)، ومايوركا (1358)، وطرابزون (1395)، وغرناطة (1400)، وسِينيا (1408)، ودمشق (قبل 1409)، والقدس (1415)، ولندن (حوالي 1445)، ودوراتسو (حوالي 1476)، ووهران (1488). وكان الأمر في الغالب يتعلق بمؤسسات جديدة، ولكن في بعض الحالات، كما هو الحال مثلاً في طرابزون أو دوراتسو، جاءت شخصية القنصل لتحل محل شخصية المبعوث المنقرضة.

ومع العصر الحديث لم يقتصر الأمر على اختفاء المبعوثين فحسب (باستثناء مبعوث القسطنطينية)؛ ولكن الشبكة القنصلية انتشرت أكثر وأكثر، وتفرعت إلى شبكة من مقار القنصليات ونواب القنصليات، ووصلت أيضاً إلى أماكن غير مريحة، ولكنها كانت في جميع الأحوال مقصداً للتجار البنادقة والسفن التي ترفع علم سان ماركو. وفي البندقية بدأوا في التمييز وفقاً للموقع، فهناك قناصل الشرق، وقناصل الغرب، وقناصل الخليج. وفي البحر الأدرياتيكي، وراء الشريط الساحلي الذي يتكون من دلماسيا التابعة للبندقية، امتدت أراضي الدولة العثمانية، وهنا

تم تأسيس قنصلية في سرايبفو (1588). أما قنصلية تريسته فقد أنشئت فقط في عام 1773، وكانت قنصلية تخدم وتحمي مصالح الجمهورية العتيقة التي آلت بعد وقت قصير إلى نهاية غير مجيدة.

وفي الجزء الغربي من البحر الأدرياتيكي عملت القنصليات ونواب القنصليات في أنكونا، وبيسكارا، وفرانكافيلا، وأورتونا، ولانشانو، وكييتي (حيث أقام القنصل العام في أبروتسو) ثم فييسته، ومانفريدونيا، وفوجا، وبارليتا، وتراني (حيث القنصل العام في بوليا)، وبيشيليه، ومولفيتا، وجوفيناتسو، وباري، ومولا، ومونوبولي، وأوستوني، وبرينديزي، وليتشي، وأوترانتو، وغاليبولي وأخيراً تارانتو. وفي غرب البحر الأبيض المتوسط كانت توجد قنصليات ميسينا، وباليرمو، ومالطا، ونابولي، وتشيفيتافيكيا، وليفورنو، وجنوة، وكالياري، ومرسيليا، وبرشلونة، وإشبيلية، ومدريد. وفي منطقة جبل طارق في بداية القرن الثامن عشر أُرسِلَ ممثلو البندقية إلى ألميريا وملقة، والجزيرة الخضراء، وقادس، وشلوقة، وخلف المضيق إلى لشبونة، ولاهاي ولندن.

واستمرت موانئ شمال إفريقيا، المستقلة استقلالاً يكاد يكون تاماً عن الدولة العثمانية، مقصداً أيضاً للتجار البنادقة في القرن الثامن عشر، إذ تم توقيع سلسلة من الاتفاقيات مع الحكام المحليين، ما دشن عهداً جديداً لازدهار التجارة. حتى إذا كان ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر وُجد قناصل، أحدهم في الجزائر (1588)، وآخر في الساحل البربري (1622)، ونائب القنصل في طرابلس (1683)، وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر تمت الاستعاضة عنهم بقناصل في تونس والجزائر وطرابلس،

والمملكة المغربية التي لم يكن لديها حتى ذلك الحين ممثل مقيم للبندقية. وفي مصر تم نقل القنصلية من الإسكندرية إلى القاهرة عام 1553؛ بعد سنوات حرب كانديا الصعبة (1644–1669)، والتي شهدت احتجاز القنصل ماركو زين رهينة قبل بدء القتال، ومن عام 1642إلى عام 1664، ألغيت الوظيفة رسمياً في 1677، وظل وكيل فقط لحماية مصالح البندقية حتى عام 1685، عندما أدى اندلاع آخر للحرب إلى نهاية مؤقتة لوجود الجمهورية على أرض مصر. وفقط في عام 1745 تم إنشاء قنصلية جديدة، لم تعد مقصورة على النبلاء وإنما تألفت من الطبقة الحضرية فكانت من ثم ذات سلطات أقل كثيراً من تلك التي كانت لأسلافهم، وانضم إليها نائب للقنصل في الإسكندرية.

وفي مناطق أخرى مختلفة من الإمبراطورية العثمانية أُنشئت القنصليات، مثل أثينا وكانديا (1670)، وسالونيكي (نائب القنصلية عام 1729، وقنصلية عام 1741)، وإزمير، وخيوس (Scio)، وغاليبولي، وسيليفري، وبالورمو (Palormo) (بانديرما الحالية)، وإسكندرونة، ورودس، وميتيلينو، ومانيا (عامل)، والمورة (1605)، إضافة إلى الموقع القديم لكافا على البحر الأسود. ومن بين هذه القنصليات، كانت القنصلية الأهم بعد القاهرة هي قنصلية دمشق، التي انتقلت إلى طرابلس، ثم إلى حلب منذ 1548، حيث ظلت حتى 1675 عندما تم إلغاؤها.

وهكذا عهد بحماية رعايا البندقية إلى الممثل البريطاني حتى منتصف القرن الثامن عشر، عندما خضعت لسلطات قنصل البندقية في قبرص. وفي عام 1762 دفع إحياء التجارة مع إيران الجمهوريةَ إلى تعيين قنصل

جديد في حلب، في هذه الحالة أيضاً كان القنصل مواطناً عادياً وليس نبيلاً. وتدلُّ هذه السلسلة الطويلة من الأسماء على اتساع الشبكة القنصلية البندقية في العصور الوسطى والعصر الحديث. لقد كانت بالفعل شبكة عنكبوتية من المقار التي ظلت على اتصال دائم فيما بينها وبين الوطن الأم، حيث ظلت مستعدة لدعم مصالح تجارة البندقية وتجارها.

وقد كانت وظيفة القنصل هي حماية التجار والتجارة، وبالتالي إدارة أصول الجالية بصفةٍ خاصة، وأيضاً تحصيل الضرائب المستحقة، والاتصال مع السلطات المحلية نيابة عن الجالية بأسرها؛ لاسترداد أصول المتوفى في أرض أجنبية، والتدخل حَكماً أو قاضياً في حالة الضرورة. ولم تكن لدى القناصل سلطات مثل السفراء، على الرغم من أنه في البلدان الإسلامية لم يكن هذا الاختلاف ذا أهمية معتبرة. فعلى سبيل المثال قرر سلطان المغرب سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790م) عام 1788 اعتبار القناصل الأوروبيين الموجودين على أرضه بمثابة سفراء مقيمين، واستمرت هذه المعاملة من خليفته سيدي محمد المهدي اليزيد (1790-1792). وكانت مدة ولاية قنصل البندقية عادة عامين، فأصبحت بعد عام 1549 ثلاثة أعوام، على الرغم من أن المقار كانت أحياناً، وخاصة في القرن الثامن عشر، فقيرة غير مريحة باستمرار لشخص القنصل نفسه ولأفراد عائلته أيضاً، وكان كل قنصل يتلقى مرتباً من البندقية. أما في العصور الوسطى فكان القناصل وكذلك المبعوثون غير مسموح لهم بممارسة التجارة إلا باستثناءات محددة: منها على سبيل المثال ما حدث عام 1273 حيث تم السماح للمبعوث

في أرمينيا بتجارة القطن، في حين أن القنصل في مصر كان دائماً يحظى بإمكانية شراء الأحجار الكريمة وبيعها. أما في العصر الحديث، ومع انخفاض تجارة البنادقة، وفقدان الوظيفة القضائية، لجأ القناصل، وأكثر منهم نوابهم والعاملون، إلى التجارة لحسابهم الخاص.

وبخلاف المقار القنصلية الكبرى التي كانت محجوزة للطبقة الأرستقراطية، أصبحت القنصليات تستخدم مواطنين عاديين أو رعايا خاضعين للبندقية. وكانت الخيارات أوسع بالنسبة إلى منصب نائب القنصل. وفي بعض الحالات تم اللجوء إلى رجال الدين، في حالة لم يتم العثور على شخص مناسب في المكان يرضى بالمنصب، رغم الحذر الذي اعتادت البندقية عليه تجاه المتصلين بالكنيسة والبابوية. وعلى سبيل المثال، تم تكليف جوفاني باتيستا أوديت عام 1562 بمقر طرابلس الشام وكان عمره سبعين عاماً، وهو من الرهبان الدومينيكان. وكان يمكن تعيين رجال الدين إضافة إلى أولئك الذين لم يكونوا من رعايا البندقية نواباً للقنصل على الأكثر، رغم أنهم في الحقيقة يحملون كل أعباء القنصلية. فعلى سبيل المثال كان جاكومو جيرولامو كيابي في خدمة الجمهورية في المغرب من 1770 إلى 1797، لكنه لم يستطع الحصول على اللقب المرموق بسبب عدم وجود المتطلبات الضرورية. وعلى العكس استطاع يهودي مثل موسى إسرائيل وهو من رعايا البندقية الذين أقاموا لسنوات طويلة في تونس، الحصول على وظيفة قنصل الساحل البربري عام 1622، ومهمته الرئيسة هي تحرير مواطنيه في شمال إفريقيا من رق العبودية. وأخيراً لابد أن نذكر أن القناصل أنفسهم كانت لديهم سلطة تعيين نواب

لهم، سواء للإسراع بأعمال معينة، أو تولي مهامهم حال غيابهم، أو إذا دعت الضرورة لذلك في أي حال من الأحوال[1].

وقد كان يعاون قناصلَ البندقية في أنشطتهم مجلسٌ يسمى مجلس الاثني عشر، ويضم أهم الشخصيات في الجالية. فهو مشكّل على غرار المجالس المناظرة التي يتم تشكيلها على متن جميع السفن البندقية. وعلى الرغم من الاسم، فإن عدد أعضاء هذه الهيئة قد يختلف حسب عدد الحضور الذي لا يصل دائماً إلى العدد 12. وتتاح إمكانية قبول مواطنين أو أفراد من عامة الشعب في مناقشات المجلس فقط في حالة ما إذا كان الأرستقراطيون الموجودون لا يكملون هذا العدد. وعلى أي حال كان في الإسكندرية بمصر، باعتبار الجالية الهامة هناك التي يتردد عليها رعايا سان ماركو، مجلس آخر إلى جانب مجلس الاثني عشر يسمى المجلس الأعلى، وقد تأسس عام 1359، وضم جميع النبلاء البنادقة الذين وُجدوا في ذلك الميناء، وكانوا بالتأكيد أكثر كثيراً من اثني عشر عضواً.

كما كان البنادقة دائماً حريصين عند تقييم أولئك الذين يعينونهم قناصل، أو نواب قناصل، أو حتى عمالاً على هذه الجاليات. ولم تكن الدول الأخرى تتصرف دائماً بالطريقة نفسها. بل كان هناك أشخاص يعملون باسم دول عديدة في الوقت نفسه. فقناصل راجوزا، على سبيل المثال، كانوا بفضل الشهرة الواسعة التي كانوا يتمتعون بها، دائماً ما يختارون ممثلين لدول أخرى. وفي القرن السادس عشر كانوا يعدّون من المنتمين إلى الأمة الفرنسية مثل أولئك الذين كانوا على متن السفن التي

(1) Id., *Appunti sul consolato veneto in Marocco nella seconda metà del XVIII secolo*, in «Quaderni di Studi Arabi», 19, 2001, pp. 87-100.

ترفع راية الملك (*très chrétienne*) أي «المسيحية جدا»، وتحديداً رعايا مرسيليا، وقطالونيا، وبريطون، وجنوة، وميسينا، ولوكا واليونانيين من خيوس. وهذا مجرد مثال واحد، لكن هناك أمثلة كثيرة أخرى: ففي عام 1790 كان لدى نائب قنصل البندقية في المغرب، جياكومو جيرو لامو كيابي أخ اسمه جوزيبي يشغل منصب قنصل جنوة والولايات المتحدة في الصويرة، وشقيق آخر، اسمه فرانشيسكو، تولى منصب مستشار الشؤون الخارجية في المملكة المغربية، وكان، في الوقت نفسه، وكيلاً للولايات المتحدة. ومع ذلك فقد كان التجار فقط، في بعض الأحيان، هم الذين يلجأون إلى قناصل دول أخرى طلباً لحماية مصالحهم على نحو أفضل. وعلى سبيل المثال، في بداية القرن السابع عشر في إسكندريتا (الإسكندرونة حالياً) كان الجميع يلجأون إلى نائب القنصل البندقي بكونه المختص بدعم من السلطات العثمانية رسمياً بمهمة تحديد وقت تحميل البضائع وتفريغها.

ومن الملاحظات الجديرة بالذكر أيضاً أن أنشطة البنادقة باعتبارهم ممثلين للدول الأخرى، لم تكن حالة استثنائية: ففي حوالي عام 1635، على سبيل المثال، كان سانتو سيجتسي يدير القنصلية الفرنسية في مصر. وبشكل عام، كان البنادقة من الموثوق بهم في ساحات الشرق؛ حتى إن الرعايا العثمانيين قد عهدوا إلى بعض منهم بتمثيلهم على أرض سان ماركو. فإذا كنا لا نعرف جنسية قنصل إيران في هرمز البرتغالية عام 1580، فإننا عرفنا أن شاه إيران عباس الأول (1587–1629) عيّن بعدها بنحو ثلاثين عاماً قنصلاً للفرس في الإمبراطورية العثمانية هو ممثل

البندقية في حلب، جيوفاني فرانشيسكو ساجريدو، الذي اشتهر بصداقته مع جاليليو جاليلي، وكذلك بالمهام التي تولاها في المشرق.

3. المراسم العثمانية

لم يكن السفراء الأوروبيون، باعتبارهم مكلفين بنقل كلمة حكامهم؛ على وعي دائم بالمساحة المراسمية التي يعملون في إطارها في القسطنطينية أو القاهرة أو تبريز أو أصفهان، وكونها مختلفة عن المساحة نفسها في أوروبا المسيحية. كانت المسافة التي تفصل بين الباب العالي ومقار الحكم في مدن مثل لندن أو باريس أو روما ماثلة ليس بسبب اختلاف الدين فحسب، ولكن أيضاً بسبب مفاهيم مختلفة عن المكان والزمان، وموازين القيم ورمزية الأشياء. والمراسم العثمانية متجذرة منذ العصور القديمة، عندما كان الحاكم هو الخان الذي حكم القبائل البدوية واعتاد أن يحقق العدالة وهو جالس على عتبة خيمته، فقد كانت هذه التقاليد القديمة منصهرة على مر القرون مع عناصر عربية ويونانية وفارسية. وفي هذا الصدد مثلت الدولة العباسية أهمية خاصة للإمبراطورية العثمانية باعتبارها أزهى عصور تاريخ الشرق الأدنى، عندما جلس على عرش بغداد خلفاء أخذوا مراسمهم ورموزهم بإيحاء من مكة، باعتبارها المركز الروحي للإسلام، وكذلك من العاصمتين القريبتين قطيسفون[1] وبيزنطة، مع

(1) مدينة عراقية كانت عاصمة الساسانيين والفرثيين. بنيت المدينة على الضفة الشرقية لنهر دجلة قرب بلدة المدائن/سلمان باك الحالية ما يقارب 35 كم جنوب شرق بغداد. موقع قطيسفون قرب موقع مدينة سلوقية الأثرية التي بناها السلوقيون. من أشهر معالم قطيسفون طاق كسرى أو إيوان كسرى الذي كان مقر الحكم الساساني. (المترجم)

العمل بخيارات شخصية أكثر. فعلى سبيل المثال، كانت هناك في القرن السادس عشر عادة الحصان الذي ينبغي أن يكون دائماً على استعداد ليلاً ونهاراً لسليمان الأول، وهي في الأصل عادة عباسية: فقد تمكن الخليفة المنصور (754-775م) في الواقع من الفرار من هجوم بعض المتآمرين بفضل وجود جواد جاهز. ومنذ ذلك الحين والجواد جاهز دائماً ومسرج تحت طلب الحاكم، وقد واصل العثمانيون الأخذ بهذه العادة بعدهم بقرون. وبالطريقة نفسها فإن سياسة زواج السلاطين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، تقضي بأن يدخل الحرملك الإمبراطوري الرقيق فقط من النساء، وهي عادة مطابقة للدولة العباسية؛ حتى تتجنب التداخل بين الأسر الأخرى أو العائلات النبيلة الأخرى في الإمبراطورية. وبطبيعة الحال فإنه ينبغي تأكيد أن مراسم البلاط ولغته حتى في القسطنطينية تطورت على مر القرون. وفي القرن الخامس عشر كانت لا تزال هناك عناصر تركية قديمة؛ لكنها فقدت أهميتها بالتدريج. وفي عصر سليمان الأول تم إدخال بعض الرموز الغربية، منها على سبيل المثال: استخدام المقارنة بين الحاكم والشمس، واستخدام العروش التي يمكن الجلوس عليها دون الحاجة إلى الجلوس في وضع التربيعة. ونقطة التحول في هذا الاتجاه حدثت في القرن التاسع عشر، عندما مست الإصلاحات المجتمع العثماني كله، من المجال العسكري إلى المجال السياسي، ومن التعليم إلى الملابس، حتى مست كثيراً من مراسم البلاط.

وفي العصر الحديث كانت المسافة التي تفصل (من وجهة المراسم) بين أوروبا المسيحية، حيث الصعود إلى السلطة السيادية (التي تستمد

دورها مباشرة من الله العلي)، والعالم الإسلامي، سواء العربي أو التركي، حيث ينتمي العرش الأعلى فقط إلى الله، في حين أن الحاكم الذي كان يتقدم إلى العرش، هو الأول بين أكفاء، في مركز محيط مكاني يرى منه المؤمنين جميعاً على قدم المساواة. وعدم وجود التفاهم المتبادل في مجال المراسم أدى في بعض الأحيان إلى مواقف كانت في حدها الأدنى محرجة، إن لم تكن خطيرة، لممثلي الأوروبيين في الأراضي العثمانية. ففي عام 1616، على سبيل المثال، جاء المبعوث الإمبراطوري هيرمان سيرنين إلى القسطنطينية على ظهور الخيل مع عزف الفرقة الموسيقية والأعلام وفرد صورتي النسر والصليب، وفقاً لأوامر صدرت له من حاكمه. تبعت ذلك انتفاضة شعبية حقيقية، وانتهى الأمر بالسفير إلى السجن، وفي الواقع لم يكن بوسع أية فرقة موسيقية أجنبية أن تفعل ذلك. وكذلك فإن النبوءة القديمة تقول إن الدولة العثمانية سوف تنهار إذا رفعت في عاصمتها راية فيها صليب. وكان الأمر أهون على خليفة سيرنين الذي أمكنه، في عام 1665، أن يستخدم لافتة بنسر هابسبورغ، وكذلك الفرقة الموسيقية، لأن السلطان كان غائباً عن القسطنطينية[1].

ولم يكن كل من تم تكليفه بنقل كلمة الملك أو الإمبراطور إلى بلاد بعيدة في مستوى هذه المهمة. ففي أوروبا، في العصر الحديث، كان هناك أكثر من دبلوماسي تم اختياره بسبب ألقابه النبيلة التي يمكن أن يتباهى بها بدلاً من قدراته الفعلية. وعلى سبيل المثال فإن جيل دي نواي، الذي

(1) Id., *Il cerimoniale di corte ottomano. Il ricevimento degli ambasciatori stranieri (secoli XVI-XVIII)*, in E. Concina (a cura di), *Venezia e Istanbul. Incontri, confronti e scambi*, Udine, Forum, 2006, pp. 23-29.

خلف شقيقه سفيراً لفرنسا لدى الباب العالي بين عامي 1574 و1577، كان يعتبر من قِبل الأتراك غير موثوق به. ونجد مثلاً أن الصدر الأعظم مصطفى باشا قرة قال في عام 1677، معلقاً على ما فعله السفير البولندي، الذي أصدر أمراً بتركيب حدوات الخيول المصنوعة من الحديد والفضة بشكل سيئ حتى تسقط منها عند دخول موكبه إلى المدينة، حتى يستعرض ثراءه، قال عنه إنه عاجز يبعثر أمواله في الهواء. ويخصص المؤرخ مصطفى نعيمة في تاريخه (1591–1659) صفحة ونصف صفحة للسلوك الغريب من السفير المذكور سابقاً سيرنين، عندما رفض الذهاب إلى جلسة الاستماع مع السلطان لأن المطر كان يهطل[1].

وبالمقارنة مع مبعوثين أوروبيين آخرين، كان البنادقة أكثر خبرة بعادات الإمبراطورية العثمانية وآدابها. فلعدة قرون، احتفظت مدينتهم في الواقع بعلاقات مع الدول الإسلامية، عربية كانت أو تركية. فعلى سبيل المثال، فحتى عام 1502 عهد بمفاوضات السلام في القسطنطينية لأندريا جريتي، الذي كان يعيش في الشرق منذ ثلاثين عاماً وأصبح فيما بعد دوجي البندقية (1523–1538). وجاوره نبيل وتاجر آخر كنائب مبعوث هو ليوناردو بيمبو الذي أقام هو أيضاً لبعض الوقت في العاصمة العثمانية. وعلى أي حال فمع قدوم النصف الثاني من القرن السادس عشر، وخصوصاً مع بداية القرن السابع عشر، أصبح الأرستقراطيون البنادقة أقل اهتماماً بالإمبراطورية العثمانية وعاداتها ولغتها شيئاً فشيئاً. كما صارت الثروة تكمن الآن في العائدات، ولم يعد النبلاء يمارسون

(1) *Târih-i Na'îmâ*, a cura di M. İpşirli, 4 voll., Ankara, Türk Tarih Kurumu, 2007vol. III, pp. 1016-1017.

التجارة بأشخاصهم. وصار إرسالهم مبعوثين للقسطنطينية مجرد خطوة في سجل الشرف، الذي كان غالباً ما ينتهي بتعيين أحدهم حاكماً على البندقية. لذا يبدو سلوك جيوفاني باتيستا دونا سلوكاً خاصاً عندما كان مبعوثاً بين عامي 1681 و1684، فقد حاول قبل أن يغادر البندقية أن يتعلم على الأقل الأساسيات التركية.

وكان النبيل فور أن ينتخب مبعوثاً أو سفيراً يتلقى أمر التكليف، وهو عبارة عن تعليمات مكتوبة. وفي هذه اللحظة يبدأ رحلته للوصول إلى المقر الذي مُنح له، وكانت الرحلة على الأقل في جزء منها عن طريق البحر. وفي العصور الأقدم كان الوصول إلى الشرق يتم على متن قارب من البندقية، ولكن بعد ذلك، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، عندما زاد التعرض في كثير من الأحيان للقرصنة، أصبحت الرحلة تتم عن طريق البحر إلى مسافة قصيرة من البندقية إلى الساحل الدلماسي، ثم المتابعة براً إلى القسطنطينية، وغالباً ما كان يستخدم في القدم طريق إيجانتيا، والتي كانت منذ القرن الثاني قبل الميلاد تربط دوراتسو بمدينة البوسفور.

وكان وصول السفير إلى مقر البعثة لحظة مهمة حيث كان عليه أن يظهر للشعب المحلي عظمة الحاكم الذي أرسله. ولهذا كثيراً ما كان الدخول الرسمي أكثر تميزاً من لحظة الوصول الفعلي، وفي القسطنطينية مثلاً كان يمكن لممثل الدوجي أن ينتظر في السفينة حتى تصبح الأحوال الجوية مواتية، أو يذهب إلى مقر البعثة الدبلوماسية البندقية، أو ما يسمى بـ«منزل المبعوث»، وبعد عدة أيام يعود إليها في موكب مهيب يتقدمه رئيس رسل الإمبراطور بقبعته الطويلة المميزة، ويرافقه جميع من حضروا

معه من البندقية.

واعتباراً من القرن السادس عشر فصاعداً كان بيت المبعوث البندقي موجوداً في ضاحية «غلاطة» والتي كانت تعرف باسم بيرا، وتقع على الجانب الآخر من القرن الذهبي مقارنة بالباب العالي. وكان الدبلوماسيون الآخرون، الذين ليس لديهم مسكن ثابت، تتم استضافتهم في خان خاص يسمى «خان السفراء» (إيلجي هان) ويقع في الشارع المؤدي إلى القصر الإمبراطوري، والمعروف اليوم باسم ديوان يولو (Divan Yolu)، وهو الشارع الذي يقع فيه مجلس الدولة. ولكن في عام 1642 تم تخصيص بعض المنازل في غلاطة لمبعوثين أوروبيين، في حين بدأت في الخان القديم استضافة ممثلي الدول الوافدة فقط، مثل راجوزا، ومولدافيا، وفالاكيا وترانسلفانيا[1].

وكانت جلسة الاستماع مع الحاكم تتم بعد أيام قليلة من وصوله. كما كان المبعوث ينتقل عبر القرن الذهبي بزورق بسبعة أزواج من المجاذيف يرسل خصيصاً إليه. وعلى الشاطئ يكون في انتظاره رئيس رسل الملك، أو قائد رسل السلطان وسفرائه الذين يحملون كلمته إلى أقاصي الأرض مع رجاله بخيولهم أصيلة السلالة. وفور أن يمتطي المبعوث سرج الحصان تُعطى له بعض الحلوى والمشروبات السكرية، والتي استبدلت في نهاية القرن السابع عشر بالقهوة. والعطية الأولى هي بمثابة دعوة صامتة للفظ كلمات حلوة فقط، مثل «الشربات» الذي يتكون من ماء وإن أمكن ثلج وسكر أو عصير فاكهة، أما القهوة فتعبر عن فكرة الصداقة، ولكنها

(1) T. Bertelé, *Il palazzo degli ambasciatori di Venezia e le sue antiche memorie*, Bologna, Apollo, 1932, pp. 35-43.

دخلت متأخرة إلى البلاط العثماني.

وقد ظهر الشراب الأسود في القسطنطينية عام 1554، عندما فتح شخص حلبي اسمه «شمس» أول مقهى، وقد صنفها رجال الدين على الفور على أنها من المشروبات المُسْكِرة، وأفتوا بعدم جواز أكلها أو شربها بعد حرقها، بينما بدأ رجال السياسة في الخوف من كون الاجتماعات التي كانت تنعقد في هذه المقاهي قد تخفي وراءها أغراضاً تخريبية. وشيئاً فشيئاً نجحت القهوة في فرض احترامها سواء على الشعب أو على رجال السلطة. وقد وضع التحميص على درجة أقل لمنع تحول البذور إلى جسم بلا حياة حداً للنزاعات مع علماء الدين، لدرجة أنه حتى اليوم تُعدّ القهوة التركية هي الأقل تحميصاً والأكثر نعومة في الطحن من تلك التي تستخدم في إيطاليا. وفي زمن حرب كانديا ظهرت القهوة أيضاً في المراسم، بدايةً بين العسكريين المنخرطين في هذه الحملة الطويلة، ثم ظهرت في النهاية في البلاط أيضاً. وفي تلك الأثناء، كانت قد أصبحت من ضروريات الحياة في المدينة. وإذا قمت بنزهة في إسطنبول يمكنك أن ترى أن أعلى تركيز للمقاهي والحانات حتى اليوم إنما هو في المنطقة القريبة من قناة فالنس (بوزدوغان كميري)، حيث كان مكان الحي الذي يسكنه رجال الجيش والانكشارية على وجه الخصوص.

هكذا يتقدم موكب السفير بين فضول الجماهير إلى القصر الإمبراطوري. حيث يمر من الباب الأول فيتوقف الجميع عند كشك القرميد (سليني كشك) انتظاراً للدخول الرسمي على الصدر الأعظم. ثم يتبعونه لتجاوز الباب الأوسط (أورتا كابي) حتى دخول الفناء الثاني، حيث ينزل الجميع

من فوق الخيول، ومجرد دخول الفناء الأول يُعدّ تجربة غير عادية بالنسبة إلى الغربيين المعتادين على محورية وسيمترية الحدائق الفرنسية والإيطالية: فالطريق ينحني بخفة ناحية اليسار دون احترام لهذه القوانين. وبعد المرور من الباب الثاني الذي يقطعه من أعلاه برجان، يرى الزائر فرقة من الانكشارية محتشدة في وضع الثبات، وعلى الأرض مئات من آنية الطعام الفخارية تحتوي على خبز وزردة وأرز أصفر بالزعفران.. يطبق الصمت.. وعندئذٍ ينطلق صوت الصدر الأعظم: «ليكن صباحك فأل خير»، فينطلق الجنود نحو الطعام صائحين. ولابد أنه مشهد يثير الإعجاب، مرتب ترتيباً فنياً لكي يظهر للأجانب الانضباط وقوة الرجال الذين يغذيهم السلطان[1].

ويمكن أن نفهم من هذه المراسم المختلفة الأهمية التي يعطيها العثمانيون للطعام من خلال هذا الأثر الأول، خاصة ذلك الذي يوزعه الحاكم. وإلى اليمين، عند دخول الفناء الثاني لا يزال بإمكانك رؤية المداخن والقباب العشر لمطابخ الباب العالي في أكثر أيام الإمبراطورية تألقاً، حيث كان يتم إعداد ما يصل إلى اثني عشر ألف وجبة يومياً. وجميع العاملين في القصر، من مدنيين وعسكريين كانوا يَطعمون من طعام الإمبراطورية، وكثيرون كانوا يحملون منه إلى بيوتهم، فقد كانت عادة حاملات الطعام منتشرة على نطاق واسع في مختلف الطبقات، وكانت القيمة الرمزية للغذاء حاضرة بقوة بين الانكشارية، وهي قوة منظمة كأنها جماعة صوفية. كما كان المسؤولون يضعون ألقابهم التي تشير إلى مهامهم داخل المطابخ. وكان من بينهم الشوربجي الذي يوزع «الشوربة» أو الحساء، والسقا

(1) G. Obeling e G. Martin Smith, *The Food Culture of the Ottoman Palace*, İstanbul, Republic of Turkey, Ministry of Culture, 2001, pp. 59-88.

الذي يناول الماء، أو حتى عشي باشا، رئيس الطهاة. وعلى قبعة اللباد التي يرتديها هؤلاء الجنود ملعقة خشبية، وبالنسبة إليهم يعني رفض طعام السلطان الفتنة.

وتبدأ أعمال شغب هذه القوات ضد السلطة القائمة دائماً بلفتة رمزية: الإطاحة بالمرجل (كازان) الذي يتم فيه طهي الحساء. وقد كان لكل كتيبة واحد منها يتبع الجنود حتى ساحة المعركة، وفقده كان يعني قمة العار. وبالنسبة إلى أي أوروبي كان من السهل الخلط ما بين خدمة المطبخ وهؤلاء العسكريين. فعلى سبيل المثال، في مجموعة من المطبوعات من أوائل القرن الثامن عشر، تسمى «مجموعة فريول» (*Recueil Ferriol*) (1714–1715) تجد بعض طهاة الإمبراطورية، ينتمون إلى ضباط من الانكشارية وليس إلى ألْوية المطبخ[1]، على الرغم من الألقاب التركية المخصصة لهم، مثل عشي باشي وبولوكباشي (رئيس فصيلة).

وبعد أن يشهد السفير الأجنبي طعام القوات، يتم استقباله في الديوان خان، أو قاعة مجلس الدولة. وإذا قمت بزيارة قصر طوب قابو تستطيع الآن رؤية هذه القاعة، إنها بيضاء وذهبية كلها، بنيت في السنوات الأولى من عهد سليمان الأول. وفي العصور الأقدم كان الصدر الأعظم يوجد هنا بالفعل لاستقبال الضيوف، ولكن مع العصر الحديث وعندما بدأت الإمبراطورية العثمانية تفوق العديد من الدول الأخرى قوة، كان الوزراء وحدهم هم الذين يستقبلون السفير الأجنبي أولاً، بينما من يستطيع

(1) *Recueil de cent Etampes representant different nations du Levant*, Paris, chez L. Cars, 1714; A. Bettagno (a cura di), *Guardi. Quadri turcheschi*, Milano, Electa, 1993, pp. 21, 56-57, 145.

أن يتحدث باسم السلطان ينتظر في مكتب الاستقبال المجاور لكي يسمح بعد ذلك بدخوله الرسمي. وكذلك كان مستوى المقعد المجهز للسفير الأجنبي متغيراً مع مرور الوقت. وفي البداية كان على مستوى الأريكة الواسعة نفسه (ليس من قبيل المصادفة أن اتخذت بعد ذلك اسم «*divano*» في معظم اللغات الأوروبية) والتي كان يجلس عليها الصدر الأعظم، ثم جرى ترتيب المقعد بعد ذلك لكي يكون أكثر انخفاضاً. وبعض السفراء، مثل البولنديين أو الهولنديين أو البنادقة، قبلوا تقليص المكانة في هذه المراسم دون احتجاج، لكن الآخرين الذين ينتمون إلى دول صاعدة مثل فرنسا أو إمبراطورية هابسبورغ احتجوا بشدة على هذا التقليص. فالماركيز نونتيل غادر في عام 1677 القصر بكل الهدايا التي جلبها بعد أن تم منعه من وضع كرسيه على المنصة ذاتها التي وضعت عليها أريكة الصدر الأعظم. أما خليفته، كونت جويراج ففي عام 1681 رفض الجلوس وظل واقفاً طوال جلسة الاستماع شاعراً بالإهانة من أن ممثل ملك فرنسا يمكنه أن يجلس في مثل هذا الموضع غير الكريم.

وبعد اللقاء الرسمي بين السفير والوزير يذهب الجميع عادة إلى الفناء الثاني لمشاهدة تسلم الجنود الانكشارية رواتبهم (ألوف). وكانت هذه القوات هي الوحيدة التي تحمل السلاح طوال العام، وكانت تتلقى رواتبها بانتظام كل ثلاثة أشهر. وكانت هناك مائة وأربع وتسعون كتيبة تتلقى الأجور في أوقات مختلفة. وعلى أي حال فبالنسبة إلى أولئك الذين يتصادف دفع رواتبهم مع استقبال السفير الجديد، لم تكن الأوقات المتاحة في غضون شهر أوقاتاً كثيرة، إنها أربع أو خمس مرات على الأكثر،

ولهذا كان يتم اللجوء إلى استقبال مبعوثين اثنين في هذا الجزء من المراسم.

وعند هذه المرحلة كانت تتم عادة مأدبة الغداء، ووفقاً لقواعد اللياقة العثمانية كان كل مبعوث أجنبي يتلقى السكن والطعام والملبس. وهكذا يتم تجهيز قاعة الديوان سريعاً بموائد منخفضة يجلس على كل منها مجموعات من فردين إلى خمسة أفراد. ويجلس الصدر الأعظم مع السفير الذي يتم إجلاسه في المكان الذي يحتله عادة الباشدفتردار أي وزير المالية العثمانية، ويجلس أعضاء الفريق المرافق مع الحاجب (نيشانشي) والأدميرال الأعظم (كابتان يديريا أو منذ عام 1565 قبودان باشا) ورئيس الخزانة. وفي حالة الوفود المرسلة من أوروبا المسيحية يتناول قاضيا الإمبراطورية الرئيسان (قاضي عسكر) الطعام وحدهما، لأنهما باعتبارهما من رجال الدين، لا يمكن أن يتآلفا مع الكفار. وإلى يمين الصدر الأعظم، وكذلك إلى يمين السلطان، يجلس أعضاء الجيش والإدارة المدنية؛ وإلى يساره رجال الدين والقانون.

وإضافة إلى مأدبة الغداء الرسمية، كان من المعتاد في العصور الأقدم توفير إمداد للسفير والوفد المرافق له بالطعام طوال مدة إقامته في المدينة. وفي منتصف القرن السادس عشر بدأ المال يحل محل المواد الغذائية والخشب. وأول الذين استفادوا من هذا التبرع كان مبعوث فلورنسا في عام 1538.

أما الغداء المقدم في مأدبة غداء السلطان فلم يكن يزيد على وجبة خفيفة مثل الوجبات التي يتناولها الموظفون في القصر في ساعات الراحة، من أكبر المسؤولين إلى أصغر الخدم. وكان الأوروبيون بصفة عامة يندهشون لقلة الغذاء المقدم لهم؛ فهم اعتادوا على الموائد الفخمة في بلاط قصور

الحكم لديهم، وكانوا يتوقعون قضاء ساعات وساعات على المائدة، وربما تحدثوا أيضاً في السياسة والأعمال. ولكن كان الوضع معكوساً في القسطنطينية، فالحديث أثناء تناول الطعام يعتبر سلوكاً غير مهذب، ومن يفعله لا يصح أن ينتمي إلى المجتمع الراقي. وكان الصدر الأعظم أحياناً، وحتى يرضي بعض الزائرين غير المعتادين على مثل هذه الآداب، يقدم بعض الملاحظات حول الطقس أو مناطق الجذب في المدينة، لكنه يغير الحديث على الفور كلما حاول أحدهم الخوض في أحاديث أكثر جدية.

وكان الصدر الأعظم يبدأ وجبة الطعام بتقبيل الخبز. وكان الطعام يوضع في صحون كبيرة مستديرة في منتصف المائدة، فيما يخدم كل واحد نفسه بواسطة ملعقة خشبية طويلة، أو بيديه، حيث لم تكن توجد شوكات ذهبية أو فضية كما كان الحال في أوروبا، على الأقل منذ نهاية القرن السادس عشر، عندما بدأ هنري الثالث في فرنسا هذه الموضة الجديدة. وقد كان الأرز حاضراً دائماً في المأدبة، وغالباً ما كان يتم تتبيله بنكهة الزعفران، وكان لا بد من تكويره بأصابعك ثم تُرفَع هذه الكرات إلى الفم. ولم تكن الأسماك مستخدمة، خاصة الأسماك البحرية، فقد كانت تُعدّ غذاء اليونانيين والفقراء. إلا مع محمد الثاني فهو الوحيد الذي أحب هذا الطبق، ربما نتيجة للنظام الغذائي الذي اضطر إليه لمكافحة مرض النقرس الذي كان يعانيه. أما الدواجن فكانت على العكس مستخدمة بكثرة، لا سيما في وجبات الغذاء الرسمية. وفي القسطنطينية كان الدجاج والديوك وغيرها من الطيور تتمتع بتقدير عال للاعتقاد السائد بأنها مثل كل الطيور، لها اتصال مميز بأجواء السماء. وكانت تعزى إليها قيمة رمزية، رغم أن

العديد من السفراء الأوروبيين كانوا يستغربون كثيراً عندما يجدون هدية قد وصلت إلى بيوتهم عبارة عن زوج من الدجاج. وكان كل فرد يتناول الطعام على المائدة لديه منشفة لتنظيف يديه، بعد أن يرش عليهما ماء ورد يحمله إليه خادم، ثم يجففهما. ومع وصول الشراب، الذي يكون «شربات» في العادة ينتهي الغداء. وقد كان الصدر الأعظم هو أول من يشرب، ثم يقلده الآخرون فيشربون نخب صحته. ومن وجهة نظر اللياقة العثمانية كان المزج بين الطعام والشراب من السلوكيات غير الراقية، فإن كان على أحد أن يشرب أثناء الطعام، أصبح على الباقين التوقف حتى ينتهي فيعودوا إلى الأكل فقط بعد أن يعود الكوب إلى مكانه[1].

وبعد الغداء يتم رفع الأطباق والموائد وتعود القاعة إلى وظيفتها السابقة. وفي تلك الأثناء يكون السفير قد انتقل إلى غرفة الخزانة ثم إلى القاعة القديمة للمجلس (اسكي ديوان خان) حتى يرتدي ملابس الشرف (الحلة) ومعه أكثر أفراد حاشيته تميزاً. وتقول الحكاية العثمانية إن هذه العادة نشأت عندما سلّم الإمبراطور البيزنطي للحاكم أورهان، ابن المؤسس عثمان، هذا الاعتراف الفريد؛ وعلى كل حال كانت هذه العادة شائعة في الدول الإسلامية مثل الدولة العباسية والدولة الفاطمية. أما في العصور الأقدم في الإمبراطورية العثمانية فكانت ملابس الشرف لا يرتديها إلا قادة الجيوش المنتصرون. وعندما بدأت تستخدم على نطاق

(1) H. Reindl-Kiel, *The Chickens of Paradise. Official Meals in the Mid- Seventeenth Century Ottoman Palace*, in S. Faroqhi e C.K. Neumann (a cura di), *The Illuminated Table, the Prosperous House*, Würzburg, Ergon Verlag, 2003, pp. 59-88.

واسع، بدأت مع العسكريين بارتدائهم الفراء الثمين: ويحكى أنه في حالات التكريم الخاص كان يتم إلباس ثلاث حلل واحدة فوق الأخرى. وشيئاً فشيئاً دخلت هذه العادة في وقت لاحق في المراسم المخصصة لأمراء الدول التابعة ثم للسفراء. وأول مسيحي يحصل على هذه الحلة هو الأمير بيترو راريس المولدافي عام 1538، في حين كان أول دبلوماسي أجنبي يحصل عليها هو مبعوث البندقية فرانشيسكو فينير عام 1745. أما السفير المقيم البريطاني، الذي كان يعتقد أنه يتحدث باسم حاكم أهم بكثير من دوجي البندقية، فقد احتج بشدة ورفض تسليم الرسائل التي يحملها ما لم يحصل على فراء السمور. ولم تكن هذه الحلل والفراء مما يليق ارتداؤه في الحياة اليومية، وكان من يحصل عليها في العادة، يسارع ببيعها إلى الخزانة الإمبراطورية ذاتها والتي كانت تعيد استخدامها في مناسبات أخرى.

وفيما كان السفير يستعدّ، كان السلطان يأخذ مقعده في القاعة المسماة بغرفة العرض (arz odas)، وهو كشك صغير معزول، حيث توجد قاعة العرش. كان يقع وراء الباب الثالث لقصر طوب قابو مباشرة، في الجزء الأكثر سرية وقداسة منه. وكان البلاط الثالث وأماكن إقامة السلطان لها أسماء: فهي تعرف باسم بوابة الإمبراطورية (الباب الهمايوني) والعرض (عرض كابوشي)، والسعادة (باب السعادة) أو حتى الباب العالي. وهذا الاسم الأخير على وجه الخصوص، تغير معناه مع مرور الوقت. ففي القرن السابع عشر أطلق على مقرّ إقامة الصدر الأعظم، حيث تُعقد اجتماعات الديوان، وبعد ذلك وتحديداً مع الربع الأخير من القرن التالي

أصبح مرادفاً للإمبراطورية العثمانية[1].

ومن نافذة صغيرة في غرفة العرض كان بإمكان السلطان أن يراقب البلاط الثاني، حيث يتم بعد الغداء العرض الرسمي للهدايا التي يحملها السفير. وكانت هذه الهدايا تفيد في إظهار فنون الحرف اليدوية للبلاد التي جاء منها السفير، ومكانة ومقام الحاكم الذي أرسله. فتأتي الفيلة والطيور الملونة والخيول والعبيد، والأسلحة المزينة بالأحجار الكريمة، والراتنجات والبلسم من الهند. ويأتي من بلاد فارس الحرير الثمين، والساعات والمعدات الميكانيكية من فيينا. ومن روسيا تأتي الأسنان المرقطة، التي كانت تستخدم كمضاد ضد كل أنواع السموم، جنباً إلى جنب مع فراء القاقم والسمور. ومن البندقية تأتي الأقمشة والمرايا وزجاج المورانو، والساعات، والمشغولات الفضية، وكذلك أنواع كثيرة مفضلة ومحبوبة من جبن البارميزان.

وأخيراً يسارع السفير بمقابلة السلطان، حيث يعبر مع كبار رجال حاشيته الباب الثالث ويدخل غرفة العرض. وعادة ما تكون روايات الدبلوماسيين الأوروبيين عن هذا الجزء من الجلسة متحفظة إلى حد كبير. حيث لم يكونوا يفهمون الرموز المستخدمة، وكانوا في كثير من الأحيان يحسون بالخجل من ذلك. كان كل شيء وكل تصرف يتم ترتيبه بعلم وعناية فائقة وفقاً لطقوس صارمة يعود تاريخها إلى الأيام الأولى للإمبراطورية العثمانية والتي لم تتغير على مر القرون إلا ببطء شديد. فأولاً، كانت الغرفة التي يوجد بها عرش السلطان معتمة، على الرغم

(1) R. Mantran, *La vita quotidiana a Costantinopoli ai tempi di Solimano il Magnifico*, Milano, Rizzoli, 1985, p. 111.

من أنها مزينة بالذهب والأحجار الكريمة. حتى السجادة التي كانوا يسيرون فوقها كانت مطعمة باللؤلؤ والماس والزمرد والياقوت، ناهيك عن السقف الذي يمثل القبة السماوية. وهم معتادون على المحورية والسيمترية في بلاط قصور الحكم الغربية إذ يدهشون لرؤية العرش منذ دخولهم من الباب الثالث مركوناً في أحد أركان إحدى الغرف. وقد كان العرش موضوعاً فوق منصة منخفضة، بحيث يصبح السلطان على مستوى ارتفاع محاوريه إن كانوا يقفون. وفي العصور الأقدم كان السلطان يجلس على العرش مربع الساقين، وقد شابه العرش آنذاك صندوقاً على شكل طاولة وضعت عليه أوراق الدولة الثمينة مثل اتفاقيات السلام. وبالتالي فإنه يمكن القول إن الحكام العثمانيين القدماء كانوا يجلسون حرفياً فوق أرشيفهم. ولم يبدأ استخدام المقاعد الحقيقية إلا في عهد سليمان الأول، وكانت توضع فوقه مظلة. وإلى جانب الحاكم توضع أمارات سلطانه، فهناك السيف والقوس وجعبة السهام مع حامل الأقلام، وكل هذا يعني أنه رجل حرب ورجل إدارة.

وفور عبور عتبة غرفة العرش كان هناك ضابطان يقومان بتناول الدبلوماسي الأجنبي من ذراعيه بقوة ويرافقانه عند اقترابه من السلطان، ولا يتركانه طوال مدة الجلسة. وكثير من السفراء اعتبروا هذا السلوك غير مهذب ومهيناً، حتى إنهم يسكتون عنه في تقرير سفارتهم. والحقيقة أنه كان إجراء وقائياً، وفقاً للمراسم العثمانية، بعد اغتيال مراد الأول (1361–1389) فعقب معركة وادي كوسوفو، طلب أحد العسكريين الصرب التحدث إلى المنتصر ولكنه استغل هذه الفرصة لقتله، وبعد ذلك

لم يتمكن أي أجنبي من الاقتراب من السلطان العثماني بيدين حرتين. ولكن وفقاً لمصادر أخرى، تعود هذه العادة إلى عام 1492، عندما قام رجل وهو يقدم التماساً بالهجوم فجأة على السلطان بايزيد الثاني (1481-1512).

وحتى منتصف القرن السادس عشر كان الحاكم يقف حتى يرحب بالوفد الأجنبي، ولكن عندما بدأ سليمان الأول يتقدم في العمر، ومن ثم أصبح يعاني صعوبة الحركة، تم تغيير المراسم وانتقل هذا للأجيال القادمة. وعند هذه اللحظة يقدّم السلطان يده اليمنى لتقبيلها. وكانت هذه أكثر اللحظات المهيبة في الحفل كله، لدرجة أن جاكومو سورانزو، الذي رافق حفل استقبال السفير البندقي مارينو كافللي، المكلف بمهمة معينة لدى الباب العالي في عام 1567، لم يستطع أن يكرر تقبيل اليدين وقد كان قبلهما العام السابق. وحتى هذه العادة خضعت، مع ذلك، لبعض التغييرات على مر القرون. ففي عام 1636 تم إلغاء قبلة اليد والاستعاضة عنها بالسجود حتى ملامسة الجبهة للأرض على طريقة الصلاة الإسلامية. وقد حاول بعض السفراء التملص من هذه العادة الجديدة المهينة: ففي عام 1668، على سبيل المثال، تم إلقاء السفير الروسي بعنف على الأرض في الجلسة الأولى؛ لأنه رفض أن يسجد، في حين راح يتبادل الكلام مع ضباط الحرس في حضرة السلطان عند سجدة الانصراف. ووفقاً لتسجيلات الوقائع، في العام نفسه، وللسبب نفسه تم صفع السفير الفرنسي وضربه بالكراسي، أما السفير البولندي فكاد يلقى حتفه.

ويخصص الجزء الأوسط من الجلسة لإيصال الرسائل الرسمية، التي

يقدمها السفير بكلمة قصيرة، يلخصها المترجم للصدر الأعظم الذي يعيد تكرارها بدوره بتكثيف أكثر في كلمات قليلة جداً. وفي هذه المرحلة يكون السلطان إما صامتاً أو ينطق بكلمة أو كلمتين، مثل «خوش» أي حسناً أو «بيكي اي» أي جيد جداً أو «شويل أولسون» ليكن هذا. ويعيد الصدر الأعظم بخطاب قصير تفسير المعنى، فيما يعود المترجم إلى ترجمته أكثر وتطويله أكثر، وفي الجلسة الرسمية لم يكن من الممكن التحدث عن الشؤون السياسية، والتي كانت تخصص لها جلسة أخرى مع الصدر الأعظم. وهذه الحقيقة كانت تفاجئ المبعوثين الأوروبيين الذين كانوا يأملون التعامل مباشرة مع الملك. وعلى العكس من ذلك فقد أعدها سفراء شرقيون والفرس على سبيل المثال طبيعية؛ لأن لديهم عادات مماثلة.

والآن يمكن اعتبار المراسم قد تمت، فيخرج الوفد الأجنبي، بينما يتوقف الصدر الأعظم للتشاور لفترة وجيزة مع الحاكم. وفي البلاط الثاني يذهب السفير والوفد المرافق معاوداً ركوب الخيول، وينتظرون قليلاً عند السور إلى جوار المطابخ الإمبراطورية حتى يخرج الصدر الأعظم، ومن ثم يخرج الجميع في موكب من القصر.

لكن الجلسة التي يعطيها السلطان للدبلوماسي فور وصوله إلى القسطنطينية لم تكن هي الحفل الوحيد الذي يشارك فيه. لأن هناك جلسة أخرى مماثلة تُجرى قبل فترة وجيزة من رحيله، عندما يتوجب عليه تسلم الرسائل التي تتحدث عن عمله، والتي تسمح له بمغادرة المدينة. كما أن هناك جلسات يتم التخطيط لها لمقابلة الصدر الأعظم، في

البيت نفسه الذي يقيم فيه، حتى يستطيع أخيراً أن يفاوض في شؤون الدولة. وكانت هناك أخيراً فرصة للمشاركة في لحظات هامة من المراسم المدنية العثمانية مثل توديع الحملات العسكرية المشاركة في الحروب أو حفلات ختان الأمراء وزواج الأميرات. وفي هذه الحالة، يمثل السفراء الأجانب بحضورهم دليلاً على عالمية الحاكم وأنه يحكم شعوباً مختلفة. وفي أوروبا الحديثة لم يكن سفراء الحكام المسلمون يستطيعون المشاركة في لحظات الاحتفالات المدنية، تماماً كالنساء. أما في الدولة العثمانية، فمن كان على دين أو عرق مختلفين فهو جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية، ففي رؤية الدولة العثمانية للعالم أن الحاكم يمكنه أن يحكم مختلف الشعوب من غير شرط التناغم فيما بينها، بل تحتفظ باختلافاتها العرقية واللغوية والدينية والثقافية. ولم يأت التحول إلى دولة تركية ومسلمة إلا في وقت لاحق، وتحديداً مع القرنين التاسع عشر والعشرين، عندما كانت الفكرة الغربية للدولة الوطنية تقوض المبدأ السياسي لتعدد الأعراق، والذي لم يكن له نظير في أوروبا.

4. الهدايا الدبلوماسية

كانت الاتصالات الدبلوماسية الأولى بين البندقية والعثمانيين وكذلك بينها وبين حكام قوى إسلامية أخرى، مقترنة دائماً بالهدايا الثمينة التي يحملها سفراء البندقية باسم الدوجي. والوثائق القديمة في كثير من الأحيان لا توفر سوى مؤشرات على المبلغ الذي أنفق على شرائها دون وصفها، وقد وصل ما تم إنفاقه لخان القرم والحكام العثمانيين عند نهاية

القرن الرابع عشر إلى ألف دوقية، على الرغم من أن أعضاء مجلس شيوخ البندقية نصحوا دائماً من يشتري هذه الهدايا الباهظة بأن يوفر كل ما يمكن توفيره. وفي عام 1364 تم إرسال بعض الكلاب إلى مراد الأول الذي كان معروفاً بأنه يهوى اقتناءها. وفي ذاك الوقت كانت الكلاب تُستخدم في الحراسة، كما كانت تستخدم في الحرب أيضاً، ولذا كانت الكلاب الكبيرة القوية هي المفضلة، وفي عام 1382 اشترت البندقية ثمانية كلاب كبيرة من فيرّارا لهذا الحاكم تحديداً، وبعدها بسنتين تم إرسال كلبين آخرين لا يزال اسماهما يذكران: بازالاكوا وفالكون. وفي المناسبة نفسها تلقّى مراد الأول كوبيْن من الفضة وفراء بأزرار من اللؤلؤ وقطعتين من القماش المذهب وسبعة أردية باللون القرمزي، ومعها طلبٌ بالإفراج عن بعض السجناء البنادقة. وفي عام 1407 أهديت أحذية إلى بعض كبار المسؤولين العثمانيين، بينما تتحدث وثيقة تعود إلى عام 1408 عن هدية من الصابون والحلويات[1].

واعتباراً من بداية القرن الخامس عشر، وبعد هزيمة أنقرة (1402)، اندلعت الحرب بين عدد من المتنازعين على عرش الإمبراطورية العثمانية، وبدأت البندقية بإرسال الأموال في محاولة الحصول على امتيازات من الملك وحاشيته. وعام 1408 حمل بيترو زينو، المبعوث إلى الشرق لتوقيع اتفاق سلام جديد مع سليمان شلبي، الذي كان يحكم الجزء الأوروبي من الإمبراطورية العثمانية القديمة، ألفاً وخمسمائة دوقية لاستخدامها حسب

(1) ASVe, *Collegio, Secreti*, reg. 1354-63, cc. 150-152; Senato, *Misti*, reg. 37, cc. 104-106v; reg. 38, cc. 44, 106, 149; reg. 47, c. 35; Fabris, *From Adrianople to Constantinople*, cit., pp. 154-200.

سلطته التقديرية في إفساد المسؤولين والوزير ورشوتهم. ومن ثم ظهرت لأول مرة ما يسميه الأتراك «بقشيش» ويمكن ترجمتها الآن بمصطلح «الرشوة». وهي عادة واسعة الانتشار في الإمبراطورية العثمانية في بدايات العصر الحديث وما بعده. بل أصبحت من المسلمات إلى حد أبقى رواتب موظفي الخدمة المدنية منخفضة، لأنها أخذت في الحسبان المبالغ الأخرى التي يمكن أن يتقاضاها صاحب الوظيفة. وحتى عهد سليمان الأول تم الاقتصار على توفير الأموال من أجل تنفيذ أغراض معينة، ولكن مع القرن السادس عشر، وبالتحديد منذ أن صعد البخيل جداً رستم باشا إلى السلطة، توسع هذا النظام إلى حد أن الوظائف نفسها كانت تُباع، ولذا ليس من قبيل المصادفة أن مهر ماه، ابنة سليمان الأول، عندما أصبحت أرملة الصدر الأعظم، كانت على نطاق واسع أغنى امرأة في القسطنطينية.

وتهدف مبالغ البقشيش إلى الحصول على نتيجة فورية، وهي مختلفة عن الرسوم والضرائب التي كانت الدول الأجنبية تدفعها للحصول على امتيازات، ويتم دفعها بعد توقيع الاتفاقيات، أو من المدفوعات السنوية المستحقة على الأراضي التي تمتلكها الإمبراطورية العثمانية، على الأقل من وجهة نظر القسطنطينية، مثل جزر البندقية زانت، وقبرص، ومدينة راجوزا، أو حتى لشا، ومولدافيا، وترانسلفانيا وبعض الأراضي المجرية[1].

وبعيداً عن الدوقيات الذهبية، كانت هناك الأقمشة البندقية الثمينة

(1) M.P. Pedani, *Le prime «sottoscrizioni a coda» dei tesorieri nell'impero ottomano*, in «Quaderni di Studi Arabi», 8, 1990, pp. 215-228.

التي يتم نقلها هدايا دبلوماسية، تُقدّم عند أقدام الحكام سواء في الشرق أو الغرب. فعلى سبيل المثال عام 1423، وعند اندلاع الحرب على سالونيكي (1423–1430) تم تسليم ستة عشر ذراعاً من الديباج الذهبي والنسيج القرمزي، وستة عشر ذراعاً أخرى من القطيفة القرمزية، وقطعة قماش مصبوغة بنبات الفوة، وقطعة قماش زرقاء من فلورنسا، وقطعة فراء حيوان الخلد من فلورنسا وقطعة قماش حمراء فاقعة اللون من فيرونا، إلى سفراء سانتو فينير ونيكولو زورتسي، المبعوثين إلى مراد الأول. لكن هذا لم يمنع سجن زورتسي من قِبل السلطان، وربما قتله السجّانون بالسم[1].

وفي القرن السادس عشر، عندما زادت العلاقات مع البندقية توثقاً شيئاً فشيئاً، اعتبر العثمانيون كلاً من ريالتو (في البندقية) أو منزل المبعوث البندقي في القسطنطينية سوقاً يمكن أن تجد فيه جميع أنواع السلع الغريبة والقيّمة. وعندئذٍ كان البلاط ومسؤولوه الكبار يطلبون شراء أشياء وبضائع معينة. وكانت الأقمشة القاسم المشترك في الطلبات جميعها. وهناك تقارير عن تجار البلاط، أو الدبلوماسيين المبعوثين إلى البندقية بحثاً عن الأقمشة المنسوجة في فلورنسا، كما حدث على سبيل المثال مع الخازندار مصطفى عام 1593، أو تصاميم الأقمشة المسلّمة إلى الدوجي لتطريزها وفقاً لذوق خاص، كما فعل محمد بيلرباي مصر عام 1554. وبدلاً من ذلك تم إرسال الخازندار (خازن القصر الإمبراطوري) مصطفى عام 1589 لشراء أقمشة ذهبية خاصة بسرايا السلطان. وفي هذه

(1) ASVe, Senato, Secreti, reg. 8, cc. 114v-118.

المناسبة لم يكن موجوداً في البندقية إلا أربعة من أصحاب الحرف اليدوية القادرين على نسج أقشمة كتلك المطلوبة وهم: أوجستينو دال بونتي، وبييرو سيكي، وبارتولوميو دال كاليتشي، وجوفاني دي بيزادوري دال جريفو. أما المبلغ الذي تم إنفاقه فهو عال جداً، فقد تم دفع مبلغ ثمانمائة دوقية للوسيط وحده. وبعض المخامل التركية، ما زالت محفوظة في قصر طوب قابو، وقد أُعدت دائماً تركية الصنع، ولكن ثبت اليوم أنها بندقية، وهي لا تزال تشهد على أن سوق ريالتو تتكيف مع أذواق الأغنياء والمشترين القادمين من بلاد بعيدة[1].

وفي كثير من الأحيان، على الأقل عندما لا تصل البضائع إلى قيمة باهظة، عمد البنادقة إلى تقديم هذه البضائع هدايا. ففي عام 1466، على سبيل المثال، تم إرسال بعض الترجمات اللاتينية من الكتب الطبية العربية إلى القسطنطينية، بعد أن سعى طبيب السلطان يعقوب باشا للحصول عليها. أما في عام 1462 فقد تمت مصادرة كتاب في البندقية لأسباب سياسية، وهو كتاب عن الفن العسكري، كان سيجيسموندو باندولفو مالتستا (1432–1468) قد أرسله إلى محمد الثاني: وفي الواقع لم يكن ممكناً السماح لهذا العدو أن يبلغ بأحدث التقنيات الخاصة ببناء المعدات الحربية والتحصينات. وعلى العكس كلف المبعوث مارينو كافللي في عام 1559 مترجم قصر مراد بيه بأن يترجم إلى التركية كتاب «**في مديح الشيخوخة**» لشيشرون ليقدمه هدية للسلطان؛ وكان النص الإيطالي قد

(1) J. Raby, *La Serenissima e la Sublime Porta: le arti nell'arte della diplomazia (1543-1600)*, in *Venezia e l'Islam. 828-1797*, Venezia, Marsilio, 2007, pp. 107-138.

تمت ترجمته بواسطة جد لكافللي هو أندريا فوسكولو، مبعوث البندقية في أدريانوبوليس في عهد مراد الثاني، والذي كتبه بعد أن سمع السلطان يمدح الشيخوخة أمام ابنه الذي سوف يصبح في المستقبل محمد الفاتح. وهذا الكتاب الذي أهداه مبعوث البندقية لسليمان الأول مكتوباً بحروف جميلة وهوامش مذهبة، لا يزال محفوظاً في إحدى مكتبات إسطنبول[1].

وقد ظهرت البندقية في كثير من الأحيان في عيون العثمانيين باعتبارها مكاناً يمكن أن يجدوا فيه الأخبار المختلفة عن بلدان أوروبا، وعلى نحو مماثل كانت مختلف قصور الحكم في أوروبا تبحث فيها بكل دأب عن معلومات تخص إمبراطورية السلاطين. ففي عام 1563، على سبيل المثال، طلب سليمان الأول من البندقية ما لزمت معرفته حول مختلف الدول المسيحية لاستخدام هذه المعلومات في كتابة تاريخ القسطنطينية الذي أمر فعلاً بكتابته وقد كانت البندقية مركزاً مهماً لجمع المعلومات الجغرافية. ففي عصر الجغرافي الكبير بيري ريس (Piri Reis) أرسلت البندقية إلى السلطان سليم الأول خريطة العالم مفصلة. أما في عام 1552 فقد طلب أحد أبناء السلطان خريطة أخرى للعالم وأجيب إلى طلبه الذي عهد به مجلس الشيوخ إلى جوفاني باتيستا راموزيو. وقد تم التبرع بخرائط أخرى، جنباً إلى جنب مع بعض «الكتب الطريفة» عام 1598، لجيجالزاد سنان باشا، سليل المنشق الشهير من عائلة نبيلة من جنوة الذي كان الصدر الأعظم وقائداً عاماً أو قبودان باشا، وحصل أيضاً في سنوات تالية أخرى على كتب مصورة وساعات وكتاب عن الجزر بمثابة دليل

(1) ASVe, *Senato, Dispacci ambasciatori, Costantinopoli*, 21 gennaio 1563.

يصف الجزر والسواحل وصفاً دقيقاً ويفيد المسافرين بحراً فائدة جمة.

وجنباً إلى جنب مع الكتب والأقمشة، شقت نماذج عديدة من زجاج المورانو طريقها إلى القسطنطينية. وربما جاءت أول نظارة تصل إلى العاصمة العثمانية من البندقية تحديداً. حيث جلبها مبعوثان للسلطان معهما إلى القسطنطينية: علي بيه عام 1514، ويونس عام 1526، ولكن هناك نظارات أخرى أُهديت من المبعوثين والسفراء. وفي عام 1532 بعث نائب المبعوث البندقي بيترو زين إلى الدفتردار نظارة بإطار من الفضة. وفي عام 1575، بعد انتهاء الحرب القبرصية، سلمت لخوجة (معلم) السلطان الذي طلب عدسة مكبرة من زجاج مورانو، وبعض الكريستالات وأربعة كراسي. وفي عام 1612 جاءت النظارات بين السلع المختارة من قبل التجار المرسلين من جانب البلاط الفارسي للتسوق في ريالتو. ووجدت بعض النظارات الأخرى، وكانت كبيرة ومن العاج، طريقها إلى الإمبراطورية العثمانية عام 1677. ومن القسطنطينية جاءت عدة طلبات شراء للزجاج، على شكل ألواح و«بكرات» (أسطوانة) ملونة بألوان ناعمة مسبوكة بالرصاص، تستخدم لعمل نوافذ على الطريقة البندقية، ولا تزال تذكر المزهريات الكريستالية أو المصنوعة من الزجاج الذي يقلد العقيق مثل المزهريات الخمس والسبعين التي أمرت بها الوالدة باشا صفية، أُمّ محمد الثالث. كما تأثرت هذه السلطانة بقمة العمائم المصنوعة من الزجاج، والتي كان يتم استيرادها من البنادقة، فأمرت بشراء كل ما هو موجود منها في السوق وطلبت من المبعوث ألا يستورد المزيد منها، على الأقل لبعض الوقت، حتى يقال إنها المرأة الوحيدة في القسطنطينية القادرة على

ارتداء هذه العمائم.

كما اشتهرت البندقية بصناعة القناديل التي تتدلى من السقوف. وفي عام 1614 تم إنتاج ثلاثمائة قنديل من الكريستال دون استخدام الذهب، وفقاً لتصميم أُرسل خصيصاً من القسطنطينية. وفي متحف طوب قابو لا تزال هناك مصابيح مساجد مصنوعة في البندقية في القرن السادس عشر. وبدلاً من ذلك أُرسلت ساعات رملية كبيرة عام 1586 إلى الصدر الأعظم للمسجد الذي بناه، ثم مرة أخرى عام 1611 إلى مراد باشا، وكان آنذاك قائداً للجيش في الحرب ضد الفرس. ومن هذا ندرك أن زجاج مورانو حقق نجاحاً كبيراً في الإمبراطورية العثمانية. وفي عهد سليم الثالث (1789–1807م) بدأ الحرفيون في بيكوز إنتاج قطع زجاجية مقلدة لزجاج البندقية، وتم عمل تصميم على شكل دوامة يسمى في تركيا بلبل غوزو (عين العندليب)، وعام 1884 أسس إيطالي في «باشا بخجه» مصنعاً باسم «مصنع زجاج دي موديانو». وحتى اليوم لا تزال طريقة الصناعة هي نفسها البندقية التقليدية، حتى وإن ظل الزجاج المصنوع هنا أقل نعومة من ذلك الذي يتم صنعه حتى الآن في مورانو[1].

وقد استقطب الإنتاج البندقي من الذهب والمجوهرات الطبقةَ الحاكمة العثمانية المحبة للجواهر اللامعة والأشياء الثمينة. وفي عام 1530 تم إهداء ياقوتة ثمنها أربعة آلاف دوقية لإبراهيم باشا، وفي عام 1583 أهديت قطع من الزمرد إلى صدر أعظم آخر. ولا تكاد تحصى أعداد صناديق الفضة والكريستال المصنوعة في البندقية. وأحد أوائل

(1) A. Pannuti, *La comunità italiana di Istanbul nel XX secolo. Ambiente e persone*, Istanbul, Isis, 2006, p. 94.

هذه الصناديق تم طلبه لاستخدام القصر الإمبراطوري في يونيو من عام 1558، وفي سبتمبر التالي تم إرسال طلب مماثل. وفي عام 1584 وصل طلب من قبودان باشا لمقاسات صندوق مماثل إلى مصنع، وبعدها مباشرة طلب واحداً آخر ليهديه إلى السلطان. ثم تم عمل صندوق آخر لحساب بيلرباي اليونان. وفي نهاية القرن السادس عشر صنع الصائغ أنشيليو ديانا ثلاثة مصابيح أمامية ليخت السلطان الشراعي، كانت من الفضة والذهب، مطعمة بالأرابيسك مع معجون الزمرد، ولكن تفردها كان في استخدام المرايا بدلاً من الزجاج لحماية الداخل والقنديل، وحتى تعكس أشعة الشمس. وقد ناسبت هذه الفكرة مفهوم السيادة في العالم العثماني، حيث يتم تشبيه السلطان العثماني بالشمس، ومن ثم لا يمكن رؤيته إلا نهاراً، مثله مثل الجرم السماوي. وفي هذه الحالة فإن المصابيح الأمامية، ويستخدم منها ثلاثة مصابيح، تشير في البحر المتوسط إلى القائد الذي يقود الأسطول، ولهذا فإن وظيفتها لم تكن سوى وظيفة رمزية، فينبغي لها أن تلمع بالنهار وألا تضيء ليلاً. وبعد ذلك تم طلب مصابيح أخرى من البندقية: على سبيل المثال في عام 1580 من قِبل قبودان باشا، ثم في عام 1611، ومرة أخرى عام 1621 عندما تم بناء سفن جديدة للسلطان. وعلى نحو خاص السفينة التي تم اعتمادها ما بين آخر يناير وأوائل فبراير من عام 1622 بأربعة وعشرين صفاً، في كل صف أربعة مجاديف، ومقدمتها مرصعة بالمجوهرات والحلي الغنية. وفي غالب الأمر ربما يكون هذا هو اليخت الإمبراطوري الرائع الذي يسمى أيضاً الجوليه (Gulet)، المزين بالذهب والصدف، والمجوهرات الثمينة، والموجود حتى الآن

في متحف البحرية في إسطنبول، وهو القارب الوحيد منذ ذلك الوقت الذي ما زال محفوظاً لم يمس[1].

ولا يمكن أن ننسى الساعات والأشياء الميكانيكية من بين الهدايا الدبلوماسية. وكان آل هابسبورغ على نحو خاص هم من يرسلون الساعات والأشياء الميكانيكية وغيرها إلى القسطنطينية، ولكن بعضها وصل أيضاً من خلال القنوات الدبلوماسية البندقية. ثم كانت هناك ساعات كبيرة مثل تلك التي صنعها المعلم جيراردو عام 1589، أو تلك الصغيرة صغراً يجعل من الممكن وضعها داخل خاتم مثل ساعة صنعت عام 1532. وعندما كانت تتعطل أحياناً يتم إرسالها إلى البندقية لإصلاحها. أما بالنسبة إلى الأشياء المتحركة الآلية، فنذكر الدمية التي تمشي، والتي وصفها كاتب الوقائع البندقي مارينو سانودو. ومع ذلك، كانت تلك التي أُرسلت إلى القسطنطينية من بلاط فيينا أكثر بكثير، ولكن مصادر البندقية كانت تصفها بكل تفاصيلها، مثل الفيل الفضي الذي يشتمل على ساعة، والذي أُهدي للسلطان الإمبراطور في 14 يوليو 1559. ويمكن أيضاً أن نذكر هنا أرغن أُرسل من البندقية إلى بيال باشا وزوجته سلطانة جوهرخان عام 1568 ليقدماه هدية للسلطان. وأُرسل آخر من قبل الملكة إليزابيث الأولى إلى محمد الثالث في عام 1599، واستطاع الإنجليزي توماس دالام المكلف بوضعه في أكثر أجزاء قصر طوب قابو سرية، أن

(1) ASVe, *Senato, Dispacci ambasciatori, Costantinopoli*, 22 giugno 1588, 26 settembre 1558, 31 marzo 1580, 16 aprile 1580, 19 ottobre 1611, 12 dicembre 1621, 5 febbraio 1622; M.P. Pedani (a cura di), *Inventory of the «Lettere e Scritture Turchesche» in the Venetian State Archives*, basato sul materiale raccolto da A. Bombaci †, Leiden-Boston (Mass.), Brill, 2010, nn. 586-589.

يطل من خلال كوة على سراي الحريم فرآهن وهن يلعبن بالكرة[1].

خرجت من البندقية إلى القسطنطينية أيضاً العديد من أصناف الأثاث مثل المرايا، والوسائد، وعلى وجه الخصوص، الكثير من الكراسي، بعضها قابل للطي للاستخدام في الرحلات، ولكن في كثير من الأحيان تلك المبطنة بالمخمل القطيفة مثل ذلك الذي وصل عام 1603 من قِبل الطبيب التتري محمد غراي خان لمريضه اللامع، أو «االمنجدة» بأزرار ومن دون مساند ذراع، مثل الكرسي الذي أرسل إلى خليل باشا عام 1595. وكان البنادقة في حفلات الزفاف الإمبراطورية خاصة معتادين على إهداء أثاث أوروبي، والذي كان البلاط يفضله بوضوح[2].

والمنتج الآخر الذي كان الوزراء والباشوات وحريم السلطان يبحثون عنه بشراهة هو جبن البارميزان، الذي كان يسمى في البندقية بياتشنتينو (*piacentino*). ووَصَف بعض المبعوثين بارتياح الخصيان الإمبراطوريين الذين لا يهمهم أن تتسخ جلابيبهم الحريرية الغالية وهم يحملون تحت قدمي السلطان قرص الجبن الملطخ بالزيت فور وصوله من البندقية. وفي أحيان أخرى، كما حدث في عام 1584، كانت رئيسة خدم الحرملك هي التي تصرّ على الحصول على هذا الجبن الخاص جداً لزوم مائدة الوالدة باشا والسلطان. وكان هناك قبول أيضاً، ولكن بدرجة أقل، لجبن فنشنزا

---

(1) ASVe, *Senato, Dispacci ambasciatori, Costantinopoli*, 14 luglio 1559; Raby, *La Serenissima e la Sublime Porta, cit., p. 120; G. Necipoğlu, Architecture, Cerimonial and Power. The Topkapı Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries*, Cambridge (Mass.) - London, The Mit Press, 1991, pp. 179-180.

(2) ASVe, *Senato, Dispacci ambasciatori, Costantinopoli*, 16 settembre 1595, 22 marzo 1596, 4 novembre 1603; M.P. Pedani, *Safiye's Household and Venetian Diplomacy*, in «Turcica», 32, 2000, pp. 9-32.

(*vicentino*) الطري، مع السكر والمربى وعصير الليمون أيضاً[1].

وأخيراً، يمكن أن نذكر أيضاً العديد من الحيوانات الحية التي تم إرسالها إلى الشرق. وبعضها كان يستخدم في الصيد، مثل الصقور والكلاب. على سبيل المثال، في عام 1366 بحث السلطان المملوكي في البندقية عن سناقر، وهي صقور الشمال الأوروبي، وقرر البنادقة إنفاق ما يصل إلى ستمائة دوقية من أجل شرائها له[2]. وكذلك في القرن الخامس عشر لدينا أخبار عن ممثلين بنادقة اعتادوا على إهداء مثل هذه الحيوانات إلى الصدر الأعظم وحكام الأقاليم، ومع نهاية القرن السادس عشر أصبحت هناك تجارة حقيقية للسناقر، وبعضها تم استيراده خصيصاً من أوروبا الوسطى لسد احتياجات سوق النخبة العثمانية. واستخدمت الكلاب الكبيرة، وربما كلاب الدرواس للصيد والقتال ضد الكلاب الأخرى، أو ضد الثيران والدببة على حد سواء. وكان البنادقة يبحثون عنها خاصة في فيرارا، ولكن في نهاية القرن السادس عشر كانت الكلاب المطلوبة أكثر تأتي من كورسيكا. أما الكلاب الصغيرة البولونية أو الكنيش البيضاء، فكانت تستخدم لرفقة نساء الطبقة العليا، اتباعاً لموضة راجت على نطاق واسع، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، سواء في أوروبا أو في القسطنطينية. وقد يبدو مثل هذا الاستخدام غريباً عند الإشارة إلى مسلم، ولكن يجب ألا ننسى أن الدولة العثمانية شهدت في أواخر القرن السادس عشر تراجعاً ناجماً عن تفسير جامد جداً للدين: حتى ذلك الحين كانت الأزياء أكثر حرية بكثير مما يعتقد، حتى في أوروبا

(1) ASVe, *Senato Dispacci ambasciatori, Costantinopoli*, 28 dicembre 1584.

(2) ASVe, *Senato, Misti*, reg. 32, c. 6.

قبل حركة معاداة الإصلاح. ففي ذلك العصر على سبيل المثال لم يكن ممقوتاً حضور نساء الطبقة العالية ولائم الطعام التي يدعى إليها أجانب، بمن في ذلك الغربيون، كما روى المبعوثون البنادقة. وهكذا ففي منمنمات القرن السادس عشر التي تصور احتفالات نظمت لختان الأمراء وزواج الأميرات ظهرت وجوه النساء مكشوفة. فإذا كنت اليوم ترى أحياناً في بعض كتب ذلك الزمان وجوهاً أنثوية خبأتها الأحجبة فتفسير هذا افتراضاً أنها ربما أُضيفت في القرن السابع عشر. على الشاكلة نفسها وفي العصر نفسه كانت العادة في الغرب تغطية العري في تماثيل الملائكة في لوحات عصر النهضة برسم سحب فوقها، أو قطع من القماش.

ولم تكن هدايا البندقية تلبي دائماً ذوق من ألح في طلبها. ففي عام 1583، على سبيل المثال، احتجت الوالدة باشا نور بانو على الكلاب التي سُلّمت إليها لأنها كانت كبيرة جداً ومشعرة. ولم يكن إظهار الحيوانات الحية مجرد صرعة موضة، فقد استخدم السلطان ذوقاً غريباً لكي يشهد على أنه حاكم عالمي. وخصوصاً في الاحتفالات المنظمة للختان والأعراس التي لم تختف فيها الزرافات والأسود والفيلة. وهذه جاءت بطبيعة الحال إلى القسطنطينية من الهند وبلاد فارس أو الممالك الإفريقية التي كان السلطان على صلة بها. وربما كان الحكام الأوروبيون عندما يطلبون مثل هذه الهدايا بإلحاح، لا يجابون إلى طلبهم، مثلما حدث مع كاترينا دي ميديشي عام 1584، التي كتبت رسالة طويلة للحصول على هدية مكونة من اثني عشر عبداً حبشياً وفيل وزرافة وغيرهما من الحيوانات الغريبة ؛ فلم ترسل القسطنطينية إلا وعاء فيه بعض طين من

جزيرة ليمنوس، وهو أفضل ما يمكن استخدامه في علاج الروماتيزم. أما الإمبراطور فرديناند الأول فقد كان أوفر حظاً، إذ تلقى من السفير العثماني عام 1562 هدية قوامها أربعة من الإبل، وحصان، وعلبة مرهم، وقوسان على طبق من فضة، وقدحان من الجرانيت[1].

والهدايا الدبلوماسية تبرز في المقام الأول الفنون ومناحي الجمال في الدول التي تأتي منها. ففي حين تصل من البندقية إلى القسطنطينية الملابس على وجه خاص، فإنها تصل من فلورنسا أنواع عديدة من الرخام وألواح الحجر المنحوت. فعلى سبيل المثال، أرسل دوق توسكانا بعضاً منها في عام 1577 جنباً إلى جنب مع الأحذية العصرية على الموضة الفلورنسية الثمينة وعربة. ووصلت في عام 1584 من توسكانا ألواح رخام أخرى، ولكنها ليست للقصر الإمبراطوري هذه المرة، بل لتزين مقبرة شمس باشا[2].

وقد مثّلت الهدايا في الطقوس المدنية العثمانية عنصراً هاماً لا يمكن التخلي عنه. فقد كان على المسؤول الأدنى أن يقدمها للمسؤول الأعلى، والذي عليه أن يردها حتى ولو بقيمة أقل. فمن هو أعلى في السلّم الوظيفي ينفق أقل لرد الهدايا. ولهذا فإنّ ما كان يقدّم في البندقية باسم السلطان غالباً ما كان أقلّ بكثير مما يقدمه البيلربايات أو السناجق.

(1) Pedani, *Safiye's Household and Venetian Diplomacy*, cit., pp. 9-32; Id., *Le compagnie delle arti e la liturgia civica ottomana*, in M.P. Pedani e I.-A. Pop (a cura di) *Dinamiche di sociabilità nel mondo euro-mediterraneo. Gruppi, associazioni, arti, confraternite e compagnie*, Venezia-Bucarest, Istituto Romeno di Cultura e Ricerca Umanistica di Venezia, 2006, pp. 77-87.

(2) ASVe, *Senato, Dispacci ambasciatori, Costantinopoli*, 7 marzo 1577; 20 marzo 1584.

وفي هذه الحالة كان المهمّ قبل كل شيء المعنى الرمزي للهدية: فربما تُفضّل عمامة لبسها السلطان على قفاز مربّي الصقور المرصع بالجواهر. واكتسبت الخيول والسيوف معنى خاصاً، لأن كلاً منها يمكن استخدامه في الحرب. وكان محظوراً في الإمبراطورية العثمانية تصدير الخيول العربية الأصيلة لفائق قيمتها العسكرية. وفي الواقع فإن العديد مما وصل منها إلى أوروبا في العصور الوسطى والحديثة قد تم تهريبه، والبحث عنها ضمن قائمة الصادرات القانونية يذهب غالباً سدى. وفي بعض الأحيان، أو في حالات معينة، يمكن للسلطان إهداء حصان عربي إلى شخصيات رأى أنها تستحق نيل هذا الشرف. فعلى سبيل المثال تم صرف المبعوث كريستوفر فاليير عام 1615 بثماني حلل مذهبة وحصان. كما تم إهداء آخر لخليفته عام 1682. أما الهدايا الأكثر شيوعاً فهي السجاد و«الأرض المختومة»، أي التربة المأخوذة من جزيرة ليمنوس، أو بلسم القاهرة الشهير.

كما كان بعض الحكام المسيحيين يرسلون أيضاً الأسلحة النارية هدايا. وهناك تقارير تفيد بأن الأمر وصل بالبندقية، في عام 1616، إلى أن ترسل، مع مبشّر مسيحي مكلف بتجنيد أتراك للانضمام إلى جيش البندقية، بأظرفٍ لسلاح القربينة وعلبة بارود لبيلرباي البوسنة قصد إغرائه كي يعطي موافقته على العملية. ومن وجهة النظر العثمانية فإن السلاح، وخاصة أسلحة القطع، كان هدية ملأى بالمعاني الرمزية. وكان شاه إيران في كثير من الأحيان يرسل السيوف والخناجر إلى القسطنطينية مع سفرائه، في حين أن السلاطين العثمانيين لم يرسلوها أبداً إلى ملوك أوروبا المسيحية. وسليل آل عثمان الوحيد الذي أرسل مثل هذه الهدية

لشخص أوروبي هو محمد الثالث في يوليو 1598 والذي أراد أن يرسل فارساً لتقديم سيف لملك فرنسا، ولكن المشروع تأجل بعدها بأقل من شهر ولم يعد النظر فيه بعد ذلك أبداً[1].

لقد كانت الهدية في العالم العثماني مسألة شرف. وكانت واجباً ضمن قواعد اللياقة العثمانية التي يمكن تلخيصها في ثلاث كلمات: الانتساب والحد والشرف. والأولى تعني العلاقة «الزبونية» التي تنشأ وتترسخ بين الموظف وحاميه، وتفرض هذه العلاقة الولاء المطلق في مقابل المساعدة السخية في المسار الوظيفي. وقد كان تغيير رئيس العمل يعني نقصاً رهيباً في القدرة على إدارة دولاب العمل، وأي خراب سياسي يلحق بمسؤول رفيع يجر وراءه في التراب كل تابعيه. أما الحد فيتمثل في القيود الفردية المفروضة على المظهر عند الناس جميعاً، وتحددها عوامل كثيرة تتعلق بالعائلة والمنصب والطبقة والمقام. وأخيراً تمثل الشرف في الكرامة الشخصية، التي ترتبط بالوضع الذي يحظى به الفرد في السياق الاجتماعي. فالإهانة ليست أمراً شخصياً، وإنما هي عدوان على الرتبة الاجتماعية، وكذلك كانت الهدية إذ لابد أن تتناسب مع المهدي والمُهدى إليه.

هكذا كانت ثقافة الهدية مهمة للقسطنطينية، ولم يكن كل دبلوماسي غربي يفهم هذا. ومن بين الذين فهموا واستوعبوا المعاني الخفية يمكن أن نعد المبعوث كريستوفر فالير الذي سجل في تقريره المقدم إلى مجلس الشيوخ عام 1616 خصائص الهدية في العالم العثماني: يجب تقديمها

(1) ASVe, *Senato, Dispacci ambasciatori, Costantinopoli*, 25 luglio 1598; 22 agosto 1598; 7 giugno 1616.

للكثيرين غالباً، ولكن بقيمة متواضعة، ونادراً ما كان فعّالاً تقديم هدايا غالية، ويجب أن يتم تجنب الهدايا لأولئك الذين يطلبون ويلحون عليها أكثر من اللازم، أو في وقت غير مناسب، لأن ضرر هذه الطريقة أكبر من نفعها، ويسعى العديد إلى استغلالها لتحقيق مآرب. وتعتمد الهدايا على سمعة الشخص. وقد كان التهريب يستفيد من هذا ويحقق بواسطته ما يريد. وفي الختام، كما يقول المثل العثماني: «اليد التي تحمل إلى الباب العالي وتعطي لا تُقطع أبداً»[1].

(1) *Relazioni degli ambasciatori veneti al Senato*, XIII: *Costantinopoli (1590-1793)*, a cura di L. Firpo, Torino, Bottega d'Erasmo, 1984, pp. 253-308.

الفصل الخامس

الدبلوماسيون والمبعوثون الشرقيون

1. العصور الوسطى

تكرر كثيراً القول إن العلاقات الدبلوماسية بين الغرب المسيحي والدول الإسلامية، سواء في العصور الوسطى أو بدايات العصر الحديث قد أقامها على وجه الحصر تقريباً الوسطاء الأوروبيون. وفي أحسن الأحوال، كان هناك اعتراف بوجود أحد اليهود مبعوثاً يحمل رسالة السلاطين أو الأمراء إلى حكام الغرب. وفي الواقع يُعد في العُرف العربي الإسلامي، رغم معرفة القوانين الدبلوماسية الدولية، من غير اللائق الذهاب إلى أرض الكفار. وكان السبب الوحيد الوجيه هو ضرورة تخليص بني دينهم الأسرى أو السجناء أو العبيد، حتى إن العالم الإسلامي عرف صورة الفكّاك، أي المبعوث المكلف بالسفر إلى بلدان الكفار والأعداء للقيام بذلك، تماماً كما فعلت الطوائف الدينية في الاتجاه المعاكس مثل الثالوثيين. كما أن المعرفة باللغات الأوروبية كانت ذات يوم معرفة محدودة. إذ لم يكن هناك شعور بالحاجة إلى تعلُّم لغات الشعوب التي تُعدُ أقل شأناً وأكثر همجية من حيث الثقافة والحضارة. وشاركت في ازدراء السفارات لأسباب مختلفة، والشعوبُ التركية التي اعتنقت

الإسلام، واستقرت في منطقة الشرق الأوسط، كان سكان آسيا الوسطى التي جاءوا منها، وكذلك حكّام إمبراطورية التفويض السماوي البعيدة (الصين)، مقتنعين بالعيش في مركز الكون، أي في مركز القبة السماوية، بينما تسكن الشعوب الأخرى بعيداً، في أركان الكون الأربعة. وقد كان التعيين في منصب السفير في بلاد أجنبية في نظر الصينيين والمغول أمراً مريعاً، فالمناخ فيها غير صحي والعودة منها صعبة. بل وصل الأمر بالمغول، كما يقال، إلى أنهم كانوا يعينون المحكوم عليهم بالإعدام دبلوماسيين. ومن ثم كان نادراً أن يصل سفراء من بلاد الشرق الأقصى إلى الغرب، كما أن المساحة الشاسعة التي تفصل أوروبا عن آسيا القصوى كانت من العناصر التي شجعت على هذا الاتجاه[1].

وخلافاً لهذه الحيثيات العامة أظهرت الأبحاث مؤخراً أن السفراء والرسل المسلمين من الشرق الأدنى وشمال إفريقيا كانوا يصلون من وقت إلى آخر إلى قصور الحكم في أوروبا، وعلى وجه الخصوص في مدينة البندقية. وربما كانت إحدى البعثات الأولى هي المكونة من الدبلوماسيَين الاثنين اللذيْن أرسلهما الخليفة هارون الرشيد (786–809) إلى بلاط شارلمان بين عامي 801 و802، هذان الدبلوماسيان العربيان تبعهما رسول الإمبراطور بعدهما بشهور، وهو اليهودي إسحاق، الذي عاد من بلاط بغداد حاملاً هدية ضخمة الحجم للحاكم الفرنسي: وهو الفيل أبو العباس، الأبيض الثمين، لكنه مات بعدها بقليل بسبب البرد والحزن في أكويجرانا[2].

(1) B. Lewis, *Europa barbara e infedele. I musulmani alla scoperta dell'Europa*, Milano, Mondadori, 1983, pp. 81-128.

(2) G. Musca, *Carlo Magno e Hārūn al-Rashīd*, Bari, Dedalo, 1996, pp. 17-20.

ومنذ العصور الوسطى كانت البندقية، لارتباطها بالأسواق والشعوب الشرقية، تستقبل مبعوثين من الحكام المسلمين. وتعود أقرب سجلات هذه المفوضيات إلى القرن الرابع عشر. ومن بين السفراء الأوائل الذين جاءوا من المغرب العربي سفراء تونس عام 1329 وسفراء طرابلس عام 1362. كما أن رمضان، حاكم سوداك، بالقرم، والذي حصل منه البنادقة قبل عامين على امتيازات تجارية، أرسل ممثليه إلى المدينة في مارس عام 1358. كذلك فإن بعض الإمارات التركية الموجودة في شبه جزيرة الأناضول بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، والتي سرعان ما ابتلعها العثمانيون، لم تنقطع اتصالاتها الدبلوماسية مع الغرب. فعلى سبيل المثال وصل مبعوثو حاكم آيدن (المعروفة سابقاً باسم آيا صولوك، ثم ثيولوجوس، فأفسس، وتسمى اليوم سلجوق) إلى روما عام 1349. بينما توقف بعضهم الآخر في بلاط حكام الدولة البحرية البندقية، مثل خليل عام 1358، وهو ممثل أمير دولة منتشا (بالاتيا «Palatia» وميليتوس «Mileto» وتسمى اليوم بلاط «Balat») الذي وصل كانديا لمناقشة اتفاق سلام مع ممثلي البندقية. وفي عام 1402، وعلى العكس مما سلف، كان محمد الذي حكم آيدن باسم تيمورلنك، هو الذي أرسل ممثليه للسلطات البندقية الكريتية. ومرة أخرى في عام 1424 وصل سفير لحاكم هذه المدينة ومدينة منتشا إلى سالونيك، سعياً وراء الدعم البندقي ضد العدو المشترك مراد الثالث[1].

(1) ASVe, *Senato, Secreti*, reg. 8, cc. 158v-159v; E.A. Zachariadou, *Trade and Crusade. Venetian Crete and the Emirates of Menteshe and Aydin (1300-1415)*, Venice, Istituto Ellenico, 1983, pp. 62, 84-85; B. Doumerc, *Venise et l'émirat hafside de Tunis (1231-1535)*, Paris, L'Harmattan, 1999, pp. 36, 40.

لكن هذه المعلومات الشحيحة لا يمكنها أن تجعلنا نستوعب التأثير التوفيقي للبعثات الدبلوماسية لحكام الشرق. طال ذكر بعضها، مثل البعثة الدبلوماسية التي أرسلها إلى البابا آخر خان في أسرة يوان وهو «تيغون تيمور» (Toghön Temür) (1333–1368) كان يقودها الجنوي أندالو دا سافينيون الذي وصل مع حاشية المغول إلى بلاط أفينيون عام 1337. وقد عادت البعثة إلى الصين عام 1338، واستقلت المراكب من البندقية محملة بالهدايا القيمة بما في ذلك مشغولات متعددة من الزجاج والخيول الضخمة، على الأقل بالمقاييس الصينية[1]. أما ما جعل هذه البعثة تُذكر طويلاً فهي الملابس الخاصة والملامح الجسدية الغريبة والهدايا غير العادية التي حملتها معها. وقد استعاد بعض الرسامين هذه الأحداث في لوحاتهم، مثل رسام سيينا أمبروجو لورنسيتي الذي رسم لوحة «شهداء الفرانسيسكان في سويتا» لكنسية سان فرانشيسكو في مدينة سيينا، وأورد فيها مجموعة من الصور الشخصية لرجال ونساء لهم ملامح منغولية واضحة.

وفي العصور الوسطى لم يكن من الصعب جذب الانتباه بصور وهمية من آسيا. وتشهد على ذلك تلك المغامرة غير المعقولة للراهب الفرانسيسكاني لودوفيكو دا بولونيا ومجموعة الشخصيات الملونة المحيطة به. فنحو عام 1460م تمكّن هؤلاء من إقناع الآخرين بأنهم سفراء أرسلهم إمبراطور طرابزون، وملك جورجيا، وأمير قيليقية، وأوزون حسن، حاكم قبيلة الخرفان البيض التركمانية ونجاشي الحبشة زرع

(1) ASVe, *Senato, Misti*, reg. 17, cc. 201-202.

يعقوب. وقد ترك البابا بيوس الثاني (1458-1464) نفسه لكي ينخدع بهذا الموكب المسرحي الكبير الذي عبَر منتصراً شوارع روما، وكذلك فعَل أيضاً فيليب الطيب، دوق بورغوني. بينما كان الملك الفرنسي شارل السابع (1422-1461) أكثر حذراً، وكذلك خليفته، لويس الحادي عشر (1461-1483). وانتهت مغامرة هؤلاء البهلوانيين في البندقية، حيث قدَّم الراهب لودوفيكو نفسه منتحلاً لقب البطريرك. ففي البندقية جاء أمر البابا باعتقال المحتال ولكنه استطاع أن ينجو بجلده[1].

ولم يكن انتهاء مغامرة مثل هذه في شوارع البندقية مصادفة، نظراً لتشابك العلاقات لعدة قرون بين البندقية وشعوب الشرق. ففي تلك السنوات كانت هناك، على سبيل المثال، العلاقة الأسرية بين بعض عائلات النبلاء البندقية وأوزون حسن الذي حكم بلاد فارس الغربية، وكان أربعة أقارب لزوجته «ديسبينا خاتون» قد تزوجوا نبيلات من البندقية، من عائلات كورنر وبريولي ولوريدان وزين. وفي ديسمبر من عام 1463 قرر البنادقة محاولة التحالف العسكري معه: فقبْل الربيع بقليل اندلعت الحرب مع الإمبراطورية العثمانية، وهي المبادرة الأولى والوحيدة من جانب البندقية. وهكذا وصل في مارس 1464 أول سفير من بلاط أكيونولو وهو محمد عزب (جندي)، الذي تلاه سفير آخر وصل إلى المدينة في فبراير من العام التالي، وهو حسن عزب. ومن البلاد الفارسية وصل رسلٌ آخرون، سعياً لتشكيل تحالف مع الغرب بغية مواجهة العثمانيين. وفي عام 1471 وصل الأرمني ميراث، بينما وصل في عام 1472

(1) F. Cardini, *Le ambasciate dell'Asia in Italia*, in *Storie di viaggiatori italiani. L'Oriente*, Milano, Electa, 1985, pp. 166-181.

الطبيب اليهودي إسحاق، الذي كان قد ذهب إلى بولندا ثم ذهب إلى روما والبلاط البابوي. وفي العام نفسه، وتحديداً في أواخر أغسطس، وصل السفير حاج محمد يطلب مدفعية لازمة لهزيمة الجيش العثماني القوي، ولم يكن الحاكم يمتلك منها شيئاً. وقد أحضر هدية للدوجي هي عبارة عن كوب ثمين من زجاج الفيروز، المطعّم بالذهب والأحجار الكريمة، لا يزال محفوظاً في خزانة كنيسة سان ماركو. وقبلها ببضعة أيام وصل من البلاط نفسه رسول آخر، من اليهود الإسبان، مر بكل من كافا والبحر الأسود: وبعد أن ترك البندقية، توقف في روما ونابولي، يحمل نبأ حرب أوزون حسن ضد السلطان العثماني. ولتلبية مطالب الحليف الجديد أرسلت البندقية إلى بلاد فارس خمسين قاذفة قنابل، بما في ذلك القاذفات المتوسطة والكبيرة والصغيرة، وستمائة مدفع خفيف، وأكثر من خمسمائة بندقية، وباروداً، وثلاثمائة عمود من الحديد وثلاثة آلاف جاروف، وأربعة آلاف معول، فضلاً عن مائتي رجل وهدايا من القماش الثمين والفضيات بقيمة تصل إلى نحو عشرة آلاف دوقية.

وفي فبراير من عام 1473 وصل مبعوث جديد إلى البندقية عن طريق قبرص؛ لكي يروي النجاحات العسكرية لأوزون حسن. ومع ذلك، وبعد مدة وجيزة، تكبّد حاكم الخرفان البيض هزيمة قاسية على يد العثمانيين. وفي هذه المناسبة قرر استخدام السفير كاترينو زين، الذي كان معه، متحدثاً باسمه في القصور الأوروبية. وكانت رحلة عودة السفير البندقي محفوفة بالمخاطر، فقد ركب سفينة من جنوة لعبور البحر الأسود فتعرض لخطر تسليمه إلى العثمانيين. وأنقذه بندقي آخر، هو أندريا

سكاراميللي الذي قام بتهريبه مع خادم له، هو مارتينو، على قارب صغير وصل بهما إلى كافا. وبالنظر إلى الوضع الاقتصادي الصعب للسفير، فقد عرض عليه الخادم أن يبيعه في سوق النخاسة، بحيث يوفر المال اللازم لإكمال المهمة. وفيما بعد تحرر مارتينو بواسطة مجلس الشيوخ الذي اشتراه وعوَّضه بمعاش مدى الحياة. ثم واصل كاترينو زين طريقه حتى وصل إلى بولندا، حيث التقى الملك كازيمير، ثم وصل إلى المجر حيث تلقى وسام فارس. وأخيراً وصل إلى البندقية في أبريل من عام 1474، واستأنف المهمة التي كلفه بها ملك الخرفان البيض، فسافر إلى بلاط البابا ثم إلى ملك نابولي[1]. ولكن التبادل الدبلوماسي بين البندقية والخرفان البيض لم يؤت أكله. فقد مات أوزون حسن في 9 أبريل 1477، وفي العام التالي، بعد ضياع كل أمل لخلق جبهة مشتركة، اضطر البنادقة إلى الاتفاق مع محمد الثاني.

وتدل أسماء السفراء المختارين وصِفاتهم من جانب حاكم الخرفان البيض على أنه لم تكن توجد هيئة دبلوماسية حقيقية معروفة في تلك المملكة. فقد تم اختيار الأشخاص بناء على مهاراتهم وعلى أهمية المهمة. وليس هناك ما يمنع من استخدام غير المسلمين أو رعايا الدول الأخرى، إذا دعت الحاجة إلى ذلك. لذا فهي نوع من الدبلوماسية التي يمكن تعريفها على أنها مخصصة وفقاً للمأمورية التي يجب معالجتها وتنطبق الاعتبارات نفسها أيضاً على الدول الإسلامية الأخرى. وهذا في الواقع هو الحال في مصر المملوكية وخاصة في حالات الحرب، كما كان الحال

---

(1) G. Berchet, *La Repubblica di Venezia e la Persia*, Torino, Paravia, 1865, pp. 1-22.

أيضاً في الإمبراطورية العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر، عندما اختارت التكيّف مع النظام المعمول به في أوروبا منذ منتصف القرن الخامس عشر وذلك بإنشاء السفارات الثابتة[1].

وفي مرحلة من التوسع العثماني الكبير، ما بين القرن الخامس عشر والسادس عشر، بدأ الحكام المسلمون الآخرون الانتباه إلى أهمية أن تكون لهم علاقات مع أوروبا المسيحية، وبصفة خاصة البندقية التي كانت سفنها تبحر لعدّة قرون في بحار الشرق. وقد كان عام 1476 عاماً ذا خصوصية للدوجي المنتخب حديثاً أندريا فندرامين فيما يتعلق بسفارات الشعوب البعيدة؛ لأن السفارة جاءت من سراي عاصمة دولة التتار الكبرى؛ وجاء في سبتمبر سفراء من مصر، وفي أكتوبر جاء سفراء من البرتغال، ثم في وقت لاحق من بولندا، وقد دفعت الحربُ البندقية العثمانية، التي كانت تطل برأسها منذ بعض الوقت، بالعديد للسعي إلى إقامة اتصالات مع البندقية. وبين ديسمبر 1474 ويناير 1475 وصل مبعوث من زوجة والد محمد الثاني، الأميرة الصربية مارا برانكوفيتش التي حاولت التقاط خيوط المفاوضات الدبلوماسية. كما وصل أيضاً سفراء أمير موسكو العظيم إيفان الثالث. وحمل هؤلاء السفراء فرو

(1) M.P. Pedani, *In nome del Gran Signore. Inviati ottomani a Venezia dalla caduta di Costantinopoli alla guerra di Candia*, Venezia, Deputazione Editrice, 1994, pp. 7-10, 198-201; G. Akyılmaz, *Osmanlı Diplomasi Tarihi ve Teşkilatı*, Konya, s.e., 2000, pp. 136-141; H. Tuncer e H. Tuncer, *Osmanlı diplomasisi ve Sefaretnameler*, Ankara, Ümit Yayıncılık, 1997, pp. 11-17; B. Arı, *Early Ottoman Diplomacy. Ad Hoc Period*, in A.N. Yurdusev (a cura di), *Ottoman Diplomacy. Conventional or Unconventional?*, Houndsmill, Basingstoke, Palgrave Macmillan, 2004, pp. 36-65.

سمور ثميناً وتلقوا في مقابله أقمشة رائعة باللون القرمزي وملابس مذهبة ودمقساً، وقد كانت معدة لأوزون حسن لكنه لم يتسلمها، وأعيدت للبندقية إلى مكتب راسون فيكيه الذي دفع ثمنها.

أما بالنسبة إلى البعثات التترية، فكانت الأولى بقيادة طير، مبعوث أحمد خان (1465–1481). وكان هذا حاكم القبيلة العظيمة التي تأسست عام 1466، جنباً إلى جنب مع خانات مستقلة أخرى، نتجت عن تقطع أوصال القبيلة الذهبية، وقد قدّر لها أن تنقرض في عام 1502. وكان أحمد آنذاك حليفاً لملك بولندا، والأمير الأكبر لليتوانيا كازيمير الرابع (1447–1492)، وعدو أمير موسكو إيفان الثالث (1462–1505) الذي هزم عام 1480. وكان السفير طير «رجلاً وسيماً مهيباً» يرتدي زياً «يتوافق مع الزي المجري». وقد تحدث إلى الدوجي بواسطة اثنين من المترجمين الفوريين، وحمل إليه هدية عبارة عن درعين وحصان. وكان يرافقه مبعوث تتري آخر اسمه باطير تحدَّث نيابة عن تامير أحد قادة الخان. وكلاهما كان يلقى معاملة محترمة، إلى أن عادا بعد ثلاثة أشهر محملين بالهدايا الثمينة والأقمشة والخرز والياقوت والآس، وسروج الخيول. ولأنهما كانا معتادين على أكل لحم الخيل وشرب الحليب والعسل فقط، فقد كان من السهل إغواؤهما بسهولة بواسطة نبيذ مالفازيا، الذي قدمه البنادقة إليهما، بالرغم من أنه كان يسبب لهما احمراراً في العين[1].

وبين نوفمبر من عام 1465 ويناير من العام التالي جاء سفير للحاكم المملوكي في مصر أيضاً مرتين إلى البندقية. ومن ثم ففي قاعات قصر

(1) P. Molmenti, *La storia di Venezia nella vita privata*, 3 voll., Bergamo, Istituto Italiano d'Arti Grafiche, 1927, vol. II, pp. 437-437.

الدوجي وفي شوارع البندقية كان يمكن أن يتلاقى دبلوماسيون من مصر وبلاد فارس، بل حتى من القسطنطينية رغم استمرار الحرب، ناهيك عن القاصد الرسولي المبعوث من بلاط البابا، وسفير سكانديربيرج، والبطل الألباني في الحرب ضد الأتراك، وكثير غيرهم من ممثلي حكام أوروبا. لقد كانت مدينة البندقية مدينة عالمية حقاً، وبوابة مفتوحة على الشرق والغرب، حيث كان من الممكن ربط خيوط الاتصال وتحقيق اللقاءات العلنية والسرية بين المسيحيين والمسلمين. وكان السفير المملوكي الذي جاء آنذاك هو جاني بيك الترجمان ومهمته هي الاتفاق حول حدث قرصنة خطير وقع في العام السابق، عندما هاجم فرسان رودس بعض سفن البندقية، وبسبب عاصفة تعرضوا لها اضطروا إلى الاحتماء بالخلجان في الجزيرة، واقتنصوا العديد من التجار المغاربة المتوجهين إلى القاهرة ببضائعهم، التي كانت على متن السفن. ورداً على ذلك وضع السلطان المملوكي الأغلال في أيدي التجار الأوروبيين الذين كانوا في مصر وسوريا. وشارك البنادقة في هذا النزاع الذي حُلّ في نهاية المطاف، لكنه استدعى منع مرور قوافل السفن في موانئ السلطان لمدة سنة واحدة. وقد تلقى جاني بيك وصحبه، كما جرت العادة، أموالاً وملابس ملونة وجلوداً ونسيجاً من المخمل وأقمشة مشغولة بالزجاج الكريستالي لتسليمها إلى بلاط السلطان[1].

وكان السفير المملوكي الثاني الذي وصل إلى البندقية هو المغربي محمد ابن محفوظ. وقد وصل في عام 1476 لمعالجة قضية مجموعة من التجار

(1) ASVe, *Senato, Secreti*, reg. 22, cc. 83v, 126v-127, 130-131v; A. Ashtor, *Levant Trade in the Later Middle Ages*, Princeton (N.J.), Princeton University Press, 1983, pp. 452-453.

المسلمين الذين اختطفتهم مجموعة من بروفانس وحملتهم إلى رودس. وقد بدت المسألة خطيرة جداً؛ لأن المقبوض عليهم ينتمون إلى الطبقة العليا من المماليك ومن بينهم التاجر الشهير ابن عليبة الذي كان يعمل مع البلاط حصرياً. ورداً على هذه الإهانة أمر السلطان مرة أخرى بالقبض على جميع تجار الفرنجة الموجودين على أراضيه ومصادرة بضائعهم. ولكن في السنوات التالية ذهب ابن محفوظ أيضاً إلى نابولي وقطالونيا وفلورنسا[1].

وقد توافرت تفاصيل أكثر عن السفارة المملوكية التي أُرسلت إلى البندقية من مصر في عام 1507. وكان المبعوث يدعى تغري بردي بن عبد الله، ومن الواضح أنه اعتنق الإسلام كما يدل لقبه «ابن عبد الله» والذي عادة ما يُستخدم ليحلّ محل الأسماء التي تدل على عقيدة أخرى. ومن غير الواضح في الواقع ما هو أصله، وربما كان من إسبانيا، حتى وإن كان بعضهم يذكر أن صقلية هي مسقط رأسه. ومن المحتمل أنه كان يقدّم نفسه للمسيحيين على أنه مسيحي، ويهودي لليهود، حتى يستطيع الحصول على الصداقات والدعم بسهولة أكثر. وفي جميع الأحوال كان يعرف سبع لغات معرفة جيدة، حتى إنه تولى وظيفة ترجمان البلاط لثلاثين عاماً، من 1481 وحتى 1511، عندما وقعت له كارثة.

وقد وصل تغري بردي إلى البندقية مكلَّفاً ليس فقط بالاتفاق مع الدوجي على سعر الفلفل والتجارة البندقية في الإسكندرية، بل أيضاً لكي يفتح مفاوضات تجارية جديدة مع فلورنسا، مستغلاً الاتصالات التي يمكنه عقدها في البندقية تحديداً. ونحن نعلم أيضاً أن هذا السفير

---

(1) Ashtor, *Levant Trade in the Later Middle Ages*, cit., pp. 497-503.

أعطيت له في تلك السنوات نفسها بعثة دبلوماسية أخرى في القسطنطينية، وربما تعلّقت بطلب الدعم الفني ضد البرتغال، وهو الطلب الذي قدّمه سلطان المماليك في أوائل القرن السادس عشر للسلطان العثماني. وكان استيلاء فرسان رودس على أسطول للمماليك يحمل مواد لبناء السفن من القسطنطينية إلى مصر في عام 1510 من الحوادث التي ساهمت في سقوط مترجم البلاط.

ولا يبدو أن تغري بردي قد قدّم هدايا تحت قدمي الدوجي. ولكننا نعرف أنه توقف في المدينة منذ 17 سبتمبر عام 1506 إلى 26 يوليو عام 1507. والبقاء لمدة طويلة، ومثل هذا بسبب أنه لم يكن لديه كامل الصلاحيات، ومن ثم فإنه قبل التوقيع على اتفاق جديد للسلام والتجارة مع الجمهورية، واضطر إلى إرسال أحد رجاله إلى القاهرة ليتلقى تأكيداً منها. وقد نسمع عن بعض النزهات التي خصصت له في المدينة، ففي البداية تمت استضافته في دار باسكواليو (Ca' Pasqualigo) في جزيرة جيوديكا، كما كانت العادة في ذلك الحين مع المبعوثين المسلمين، والذين يمكن السيطرة عليهم على نحو أفضل في جزيرة، ممّا لو تمت استضافتهم في قصر يقع في الحيز العمراني للمدينة. وفي يوم 27 سبتمبر حضر مأدبة غداء مع ماركو مالبييرو حاكم قبرص، ثم حفلة موسيقية في كنيسة سانتا ماريا ديللى فيرجيني. ويوم 4 أكتوبر حضر وليمة عرس في دار ناني (Ca' Nani) في سان تروفازو، وشهد في 11 نوفمبر موكباً في سان فيو، وفي 23 ديسمبر ذهب للتسوق في ريالتو، وأخيراً في 26 يوليو كانت آخر زيارة رسمية له عند الدوجي يليه موكب من جميع أعضاء السفارة في ساحة سان ماركو، ترافقه أبواق الدوقية

والموسيقيين الآخرين[1].

وقد مثَّلَ الاتفاق الذي وقعه تغري بردي انتصاراً للدبلوماسية البندقية، ولكننا لا نعرف ما إذا كان قد تم تطبيقه بالفعل بعد ذلك. فالميزة التي تمتع بها السفير بعد ذلك قلَّت وبدأت في طريقها إلى الزوال. ووصل به الحال إلى تأكيد أن البنادقة لم يرسلوا الأسلحة والهدايا التي وعدوا بها إلى السلطان بحيث يمكنه الاحتفاظ بها. وبعد ذلك بمدة وجيزة أُتهمَ بأنه أجرى اتصالات مريبة مع الحكام الأوروبيين، وبصفة خاصة مع معلم فرسان رودس، والذي كان مستعداً دائماً لمهاجمة السفن الإسلامية التي تعبر مياهها وحماية القراصنة المسيحيين. وهكذا أنهى تغري خدمته الدبلوماسية المملوكية: فقد أُعتقلَ بتهمة الخيانة وأُودع في السجن. ولم يخرج منه إلا في عام 1513 بعد عفو عام، ولكنه لم يستطع استئناف عمله القديم، والذي شغله مساعده السابق يونس، وكان مسيحياً من فيرونا وأسلم. وبعد أربع سنوات كان سلطان المماليك هو الذي اختفى تحت ضربات لا هوادة فيها من الجيش العثماني بقيادة سليم الأول الشهير بالقاسي.

2. العصر الحديث

كان العثمانيون هم الأكثر عدداً من بين السفراء المسلمين الذين وطئت أقدامهم أرض سان ماركو، خاصة في العصر الحديث. ولكن الاتصالات

(1) M. Sanudo, *I diarii*, 58 voll., Venezia, Deputazione, 1879-1903, vol. VII, pp. 121-122; J. Wansbrough, *A Mamaluk Ambassador to Venice in 913-1508*, in «Bulletin of the School of Oriental and African Studies», 26, 3, 1963, pp. 503-530.

الدبلوماسية لم تنعدم مع الحكام الآخرين. ففي عام 1486، على سبيل المثال، كان هناك ممثل دبلوماسي للحفصيين من تونس وقُتل وهو متجه إلى القسطنطينية أثناء مروره بأركاديا بالقرب من مودوني، وكانت آنذاك من أعمال البندقية.

وقد كاد هذا الحادث يتسبب في أزمة دولية، على الرغم من أن البندقية نشطت على الفور لمعاقبة الجناة. وقد أعرب أعضاء مجلس الشيوخ عن خوفهم من ردود فعل بلاط القسطنطينية أكثر من خوفهم من رد فعل تونس: بعد مرور عام، وفي الواقع كلّف السلطان بايزيد الثاني إلياس بيك أولاً ثم الجاووش إسكندر بالاحتجاج رسمياً لدى الدوجي ضد هذا الانتهاك الخطير للأعراف الدبلوماسية[1]. وهكذا فإن المرور من تونس إلى البندقية، ثم إلى القسطنطينية، لم يكن غريباً، ففي عام 1504 توقّف سفير حفصي آخر في القصر الدوكالي قبل أن يقصد العاصمة العثمانية[2]. وفي عام 1519 جاء من المدينة الشمال إفريقية مبعوث آخر يرتدي ملابس البربر ومعه جوادان وخادمان أسودان. وفي هذه الحالة فإن ما أدهش أعضاء مجلس الشيوخ لم يكن ملابسه ولا حتى علمه في الشريعة الإسلامية والفلسفة، كما يتبيّن من مخطوطات ابن رشد العربية التي معه، وإنما كانت الهدايا التي حملها. وإلى جانب قماش لصنع المناديل سلّم أيضاً 20 جرة مملوءة بالتمور، دارت حولها مناقشات ساخنة بين البنادقة حول كيفية تقسيم محتوياتها اللذيذة، ولكن بعد أن تم فتح الجرار

(1) ASVe, *Senato, Secreti*, reg. 33, cc. 43v-44, 95-95v, 100-101.

(2) Sanudo, *I diarii*, cit., vol. VI, p. 43.

اتضح أن الثمار قد فسدت وتعفنت وتخمرت[1].

كما وصل سفير مسلم آخر إلى البندقية عام 1530، مبعوثاً من حاكم جزيرة جربة. وكان هذا الرجل أسود البشرة ولا يرتدي حذاء وفقاً لعادات قومه. وكانت الهدايا التي قدمها قليلة: قطعتان من النسيج؛ لأن الغزلان والنعام التي كان يحملها ماتت أثناء الرحلة[2]. وقد كان الحكام في الماضي يحبون تلقي الحيوانات الغريبة، والتي كانت دليلاً ملموساً على العلاقات السلمية القائمة مع الشعوب البعيدة، وبالتالي على السلطة العالمية لمن يملكها. ولا يزال يُذْكَر في مدينة البندقية أن لبؤة ولدت منذ مدة طويلة في الفناء الخلفي للقصر الدوكالي عام 1316، فأنجبت ثلاثة أشبال: كانت اللبؤة مرسَلة هدية للدوجي من فريدريك الثاني الأراجوني ملك صقلية (1296–1337م) ومعها أسد. وفي عام 1402 حمل سفير «القس يوحنا»، وهو الاسم الذي يطلق على حاكم أثيوبيا المسيحية ديفيد الأول (1382–1411)، إلى الدوجي أربعة فهود. وحتى ملك المغرب فإنه أهدى لقنصل البندقية، في نهاية القرن الثامن عشر، أسداً مدرباً اعتاد اللعب مع أطفاله: لكن الهدية لم تواصل طريقها إلى البندقية، وكان على الدبلوماسي المسكين إبقاء الأسد في حديقة منزله رغم ضخامته، وتكبد التكلفة الباهظة لإطعامه، حتى إنه لم يستطع إلا أن يطعمه من زهور الحديقة[3].

ومع القرن السادس عشر والفتح العثماني للعديد من الأراضي التي

(1) Id., *I diarii*, cit., vol. XXVII, pp. 45-46.

(2) Id., *I diarii*, cit., vol. LIII, pp. 278-279.

(3) G. Cappelletti, *Storia della Repubblica di Venezia*, 13 voll., Venezia, Antonelli, 1803-1876, vol. III, p. 342.

تشرف على البحرين الأبيض المتوسط والأسود أصبح العالم الإسلامي يُعرف تقريباً بأنه إمبراطورية السلاطين، وعلى هوامشه ظلت هناك كيانات مستقلة، في أقصى الغرب مملكة المغرب، وفي الشرق أرض فارس القديمة، والتي دارت منذ بداية القرن السادس عشر في فلك الصفويين. وكان مؤسس هذه الدولة الشاه إسماعيل، الذي تمكن في عام 1499، وهو لم يتجاوز خمسة عشر عاماً من العمر، من الحصول على دعم مختلف القبائل التركية. وكان يسمى «صوفي» في المصادر البندقية، بالمعنى التصوفي الديني؛ لأن صعوده كان مرتبطاً برئاسته لطريقة دينية. وقد انتشر الإسلام في شكله الشيعي في أرضه سريعاً، بحيث أصبح معارضاً بقوة أكبر للعثمانيين السنيين.

ومرة أخرى لم تكن المسافة التي تفصل بين البندقية وتبريز وأصفهان عائقاً أمام إقامة اتصالات دبلوماسية. ففي عام 1504 تم توسيع الاختصاص القضائي للقنصل البندقي في دمشق ليشمل أيضاً التجارة مع بلاد فارس. وفي عام 1505 أبلغ إسماعيل «سلطان البنادقة» بانتصاراته ورغبته في عقد أواصر الصداقة معه، ووصلت رسالته إلى المبعوث البندقي في القسطنطينية بواسطة خازندار إمارة كرمان. وفي 1507، أرسل الدوجي رسولاً منه لاقتراح تحالف، لكنه اعتقل في حلب على يد المماليك، ولم يستطع إكمال المهمة[1]. وفي الوقت نفسه وصل إلى البندقية من بلاد فارس طلبُ مدافع لمحاربة العدو المشترك. وفي عام 1508 وصل مبعوث صفوي متنكراً في زي درويش إلى ناوبليا، في دولة الجمهورية البحرية. وأخيراً في 9 مارس عام

(1) Wansbrough, *A Mamaluk Ambassador to Venice*, cit., p. 511.

1509 في قاعة المجمع بالقصر الدوكالي سلّم بعض سفراء فارس وكرمان إلى الدوجي طلباً لمصانع صب مدافع ودعم من جانب البحرية البندقية للقيام بهجوم بري جهزه الشاه ضد العثمانيين. أما الوقت المختار فلا يمكن أن يكون أقل ملاءمة من ذلك. وقد كانت البندقية آنذاك متورطة في حربها ضد الدول الأوروبية الأخرى المتحالفة في عصبة كامبراي (Cambrai). وبعد شهرين، أي في 14 مايو 1509 كان على الجمهورية أن تشهد واحدة من أكثر الأيام مأساوية في تاريخها، وهي هزيمة مروعة في ساحة أنياديللو وكان من شأنها أن تخفي الجمهورية البندقية إلى الأبد. وفي مثل هذه الظروف بدا سلطان القسطنطينية للبعض حليفاً محتملاً وليس عدواً يطلق ضده هجوم مشترك مع شعوب فارس البعيدة.

ثم عاد رُسل الفرس عن طريق دمشق وأراضي المماليك. وقد انزعج السلطان الذي كان في القاهرة لهذه الواقعة كثيراً؛ لأنه خشي أن يظنهُ بايزيد الثاني مشاركاً في المسؤولية عن مثل هذه الاتصالات الدبلوماسية. ومن ثم أمر أن يوضع قناصل البندقية الموجودون على أرضه رهن الاعتقال: بيترو زين، الذي يعيش في دمشق، وتومازو كونتاريني الذي يعيش في القاهرة. وكان من الضروري إرسال سفير إلى مصر، وهو دومينيكو تريفيزان، الذي نجح في عام 1512 في تسوية المسألة. ورافقه سكرتير له وهو مواطن بيللونو واسمه زكريا باجان، الذي ترك تقريراً رائعاً عن زيارته إلى الأرض المملوكية. وكان هذا واحداً من كثيرين ينتمون إلى دولة الجمهورية البرية الذين سافروا في القرن السادس عشر إلى أراضي الشرق أطباء أو كتبة أو مترجمين، وأنشأوا علاقات سرية

وغريبة بين سكان الشرق وسكان الجبال البندقية. ومن أشهرهم أندريا ألباجو الذي عاش بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكان عارفاً باللغة العربية، وهو كذلك مترجم ابن سينا الذي لا تزال صورته تطالع المارة من النحت الغائر على واجهة قصر عائلته في بيللونو. أما أسماء الآخرين فقد تم نسيانها بالكامل تقريباً، ومنهم على سبيل المثال، الطبيب كورنيليو بيانكي دا ماروستيكا، الذي عمل في سوريا في القرن السادس عشر. وبروسبيرو ألبيني، من ماروستيكا أيضاً، وهو عالم النبات الأول الذي جمع بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، نبات القهوة ووصفها، وكذلك تيتو ليفيو بوراتيني دا أجوردو الذي سافر عام 1637 إلى مصر لدراسة فيضانات النيل[1].

وبعد هذه المرحلة الأولى بدا أن الاتصالات الدبلوماسية مع بلاد فارس قد أبطأت، على الرغم من أن البنادقة واصلوا وضع هذه الإمبراطورية البعيدة في الاعتبار والحصول على معلومات حول مواجهاتها مع العثمانيين. وبعد أن نشبت الحروب الجديدة ضد الباب العالي (1537–1540، 1570–1573) سعت البندقية لتعزيز العلاقات مع الحاكم الصفوي. وفي عامي 1539 و1570 أرسلت مبعوثين لاستطلاع إمكانية التوصل إلى اتفاق، فانتقل أولاً: ميكيل ممبريه ثم فينتشنزو ديلي

(1) F. Lucchetta, *Il medico e filosofo bellunese Andrea Alpago (†1522) traduttore di Avicenna*, Padova, Antenore, 1964; Id., *L'«affare Zen» in Levante nel primo Cinquecento*, in «Studi Veneziani», 10, 1968, pp. 109-219; F. Lucchetta e G. Lucchetta, *Un medico veneto in Siria nel Cinquecento: Cornelio Bianchi*, in «Quaderni di Studi Arabi», 4, 1986, pp. 1-56; G. Lucchetta, *I viaggiatori veneti nel Medioevo e nell'età moderna*, in Viaggiatori veneti alla scoperta dell'Egitto, Venezia, Arsenale, 1985, pp. 43-68.

ألساندري إلى بلاط الشاه طهماسب الأول خليفة إسماعيل، والذي دشن ملكه الطويل (1524–1576) عصراً له ملامحه، كما حدث في تلك السنوات في أوروبا مع شارل الخامس (1520–1558)، وفي الإمبراطورية العثمانية مع سليمان الأول (1520–1566م). وكتب السفيران في تقريريهما عن رحلتهما نصوصاً جديرة بالذكر؛ نظراً إلى المعلومات المثيرة للاهتمام التي جاءت بها عن الإمبراطورية الفارسية(1).

وفي عام 1570 نفسه تم تسليم رسائل موجهة إلى الشاه أيضاً للتاجر خوجة علي التبريزي، والذي كان في المدينة لإدارة شؤونه الخاصة. ومع ذلك فبين عامي 1580 و1590، وتحديداً بعد وفاة طهماسب الأول أُستؤنفت الاتصالات الدبلوماسية مع وصول الرسل والمبعوثين من بلاد فارس إلى البندقية. أولاً مع محمد خوذ بنده (1576–1587) ثم وعلى نحو خاص مع عباس الأول (1587–1629) تم تكثيف العلاقات مع البندقية. وفي عام 1580م وصل في مهمة سرية للغاية خوجة محمد، وهو إيراني يبلغ من العمر ثمانين عاماً؛ لكي يحضّر للتحالف الذي كان طهماسب الأول قد رفضه، ولكن البندقية والباب العالي أصبحا اليوم على وفاق وسلام، ولم يكن هناك مجال لمثل هذه المفاوضات. أما في عام 1600 فقد وصل تاجر آخر، هو أسعد بيك، مع حاشية من ستة أو ثمانية أشخاص، لشراء بضائع ثمينة للبلاط. وكان في استقباله الدوجي في قاعة المجمع بالقصر الدوكالي، وقدم هدية عبارة عن قطعة قماش مذهبة ثمينة ومخمل يصور

(1) M. Membré, *Relazione di Persia (1542)*, a cura di G.R. Cardona, Napoli, Iuo, 1969; Berchet, *La Repubblica di Venezia e la Persia*, cit., pp. 130-137, 167-182; G. Benzoni, *Venezia e la Persia*, in *Storie di viaggiatori italiani*, cit., pp. 70-87.

بشارة عيسى. ولم ير أسعد بيك وطنه بعد ذلك أبداً: مات في بغداد أثناء رحلة العودة؛ ولكن هدايا الدوجي، وكانت عبارة عن سلاح القربينة وصديري مدرع، واصلت طريقها من حاكم بغداد إلى أن تمّ تسليمها إلى الشاه. وقد روى قصته في وقت لاحق في البندقية أنجيلو جرادينيجو، التاجر الشاب الذي قصد بلاد فارس العديد من المرات.

ومنذ تلك اللحظة أصبح الفرس في البندقية هم تجار البلاط، ولم يعودوا سفراء مخوَّلين بالحديث عن السلم أو الحرب باسم حكامهم. ومع ارتفاع عدد أعضاء البعثات، ارتفعت أيضاً قيمة الهدايا التي قدموها بين قدمي الدوجي. فعلى سبيل المثال عندما وصل في عام 1603 إلى البندقية فتحي بيك ومحمد أمين بيك، لاحظ المسؤولون في البندقية وصولهما فقط بسبب قيمة البضاعة التي كانا يحملانها. لهذا تم إرسال المترجم جاكومو دي نوريس إلى المنزل الذي استقرا فيه في فريتسيريا بالقرب من سان ماركو، في محاولة لفهم سبب مجيئهما، وما إذا كانا كما يبدو من تجار البلاط الصفوي، وهو الوحيد الذي يمكنه تجهيز هذه الكمية من البضائع الثمينة. وكان الغرض من إرسال هذا الوفد هو أن يبيعوا البضاعة، ويشتروا بثمنها المنتجات الأخرى، وخاصة الأسلحة والدروع. وتم استقبال فتحي بيك في قاعة المجمع مع الوفد المرافق له، ويتكون من ستة إيرانيين وثلاثة أرمنيين، وقدموا للدوجي هدايا ثمينة منها سجادة من الحرير ولوحة نسيجية مذهبة بصورة العذراء مع يسوع الطفل على ذراعها، وهي لا تزال حتى اليوم محفوظة في البندقية[1].

---

(1) cfr. *Venezia e l'Islam. 828-1797*, Venezia, Marsilio, 2007, pp. 338-339, schede nn. 58, 66; cfr. M. Bergamo, *I tappeti dei dogi, in Arazzi e tappeti dei dogi nella basilica di San Marco*, Venezia, Marsilio, 1999, pp. 63-75.

وقد رسم اجتماع الوفد الفارسي عام 1603 مع الدوجي جبرييلي كالياري، ابن فيرونيزي، في لوحة وضعت في قاعة الأبواب الأربعة بالقصر الدوكالي، التي تُستخدم لانتظار المبعوثين الأجانب قبل قبولهم في جلسة الاستماع مع الدوجي. وقبل بضع سنوات، ضمن إعادة تنظيم بناء مقر الدوجي ورموزه، تم التفكير في وضع لوحة أخرى تُمثّل وصول أربعة «سفراء» من اليابان البعيدة، وهو حدث وقع في يوليو من عام 1585. وقد كانوا في الواقع مجموعة من الساموراي الشبان الذين اعتنقوا المسيحية، يرافقهم بعض اليسوعيين، وزاروا بعض قصور الحكم الأوروبية، من لشبونة إلى روما والبندقية. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن اليابانيين أكدوا، في خطاب الشكر الذي تركوه في البندقية، أنهم رغبوا في زيارة المدينة للسمعة الكبيرة التي تحظى بها في بلادهم. ومع ذلك فإن مهمتهم، وبدلاً من أن تعطي شارة البدء لإقامة اتصالات دبلوماسية حقيقية، كانت في الحقيقة تهدف إلى الدعاية لرهبانية اليسوعيين التي أخذت على عاتقها تنصير الناس في البلاد البعيدة. وربما لهذا السبب لم يتم الانتهاء من الصورة أبداً وبدلاً من ذلك تم اختيار لوحة الفرس، والتي وضعت بجانب لوحة أخرى تصور زيارة هنري الثالث ملك فرنسا للبندقية عام 1574، للرسام أندريا فنشتينو. وكان من شأن مثل هذه الرسومات أن يوضح بطريقة ملموسة الدور الذي لعبته الجمهورية البندقية على صعيد السياسة الدولية[1].

وفي عام 1603 أعاقت إقامة فتحي بيك في المدينة الخلافات التي نشبت

(1) A. Boscaro, *Giapponesi a Venezia nel 1585*, in Venezia e l'Oriente, Firenze, Olschki, 1987, pp. 409-429.

بينه وبين الإنجليزي أنتوني شيرلي، الذي حاول الاستيلاء بالقوة على الأقمشة الثمينة التي أحضرها لمبادلتها، ولهذا وضعه البنادقة في السجن وتمت محاكمته، وأخيراً تم إبعاده. وقد كان شيرلي مغامراً ورحالة سافر عام 1599 إلى بلاد فارس مروجاً أنه سفير للملك إنجلترا، وبعد مدة وجيزة عاد أدراجه إلى أوروبا زاعماً أنه مبعوث الشاه إلى دولها. ثم قدّم نفسه إلى العديد من قصور الحكم جنباً إلى جنب مع دبلوماسي فارسي حقيقي هو سلطان علي بيك، والحقيقة أنه صاحبه مترجماً، لكنه روج للأمر على أنه خادمه. وبعد الذهاب إلى موسكو وبراغ، وبمجرد وصوله إلى إيطاليا، قرّر السفير الفارسي أن الوضع قد أصبح الآن لا يطاق؛ لأن شيرلي فيما يبدو قد باع لحسابه هدايا الشاه المخصصة للحكام المسيحيين. ومن ثم تمّ فضّ السفارة: وتوجه سلطان علي بيك إلى البرتغال لكي يعود إلى بلده، بعد جولة إفريقية. وعلى العكس ظل شيرلي في إيطاليا، ثم انتقل إلى البندقية، وبعد ذلك تم إرساله سفيراً في المغرب من قِبل الإمبراطور رودولف الثاني من هابسبورغ (1576-1612) وتوقف في إسبانيا، حيث خبا نجمه، رغم أنه حصل على وسام صليب سانتياغو والقيادة البحرية. وقد رُويت بعض المعلومات عن تلك السفارة الفاشلة من قِبل سكرتير فارسي اعتنق المسيحية، ومكث في إسبانيا، وغيّر اسمه، من أوروش بيك، إلى دون خوان الفارسي[1].

(1) *The Three Brothers or the Travels and Adventures of Sir Anthony, sir Robert and Sir Thomas Sherley in Persia, Russia, Turkey, Spain*, London, Hurst, Robinson & Co. 1825, pp. 23-121; K. Parker (a cura di), *Early Modern Tales of Orient. A Critical Anthology*, London -New York, Routledge, 1999, pp. 61-82; Relaciones de don Juan de Persia, Prologo e note di N.A. Cortéz, Madrid, Graficas Ultra, 1946.

وأدى نشوب الحرب بين الفرس والعثمانيين إلى عدم تمكن فتحي بيك من إنقاذ البضائع الثمينة التي اشتراها للشاه، فقد صودر بعضها من قِبل السلطات العثمانية وأرسل هو بنفسه الجزء الآخر إلى البندقية في محاولة لإنقاذه. وبعد ذلك أُرسِل مبعوثان من الشاه في محاولة لاستعادة البضاعة، وقد كان هذان المبعوثان هذه المرة من التجار الأرمن، وهما خوجة كيراكوس وخوجة جعفر، واللذان وصلا عامي 1609 و1610 على التوالي[1].

ومنذ ذاك الوقت بدا أن الأمل في إنشاء جبهة مشتركة ضد العثمانيين بعيدٌ، وساهمت اتفاقية السلام بين الشاه والسلطان في انفراج دولي. وفي الواقع، قدّم مبعوثان فارسيان عام 1613، وهما علاء الدين محمد وخوجة ساهسوفار، إلى الدوجي خطاب توصية من الصدر الأعظم العثماني نصوح باشا. وكانا مكلّفيْن بالبحث عن الملابس البندقية وشرائها مع المخمل والملابس الأورموزية (أقمشة على الموضة من أورموز «Ormuz»)، مع الفضيات والزجاج والكريستال والمرايا والأحجار الكريمة المقطوعة للخواتم، وكذلك الأسلحة العسكرية، والنظارات والسكاكين والمقصات وأدوات العمل لصناعة الدروع والشفرات، والأقراط وبصيلات الزهور وبذورها، مع تعليمات بمعرفة أفضل وقت لزراعتها، وكذلك البحث عن نساجين مهرة في نسج الحرير، وأدوات

(1) G. Rota, *Diplomatic Relations between Safavid Persia and the Republic of Venice. An Overview*, in H.C. Güzel, C.C. Oğuz e O. Karatay (a cura di), *The Turks*. 6 voll., Ankara, Yeni Türkiye, 2002, vol. II, pp. 580-587; L.B. Zekiyan, *Xoğa Safar ambasciatore di Shâh 'Abbâs a Venezia*, in «Oriente Moderno», 58, 7-8, 1978, pp. 357-367.

تلميع الملابس الحريرية، ومعرفة تعليمات حول كيفية استخدامها، وأقنعة مختلفة للتمويه، ولكنهما لم يطلبا المسدسات، ولا علب الكريستال ولا الساعات، بعد أن أصبحت كمياتها ضخمة في فارس. هذا ما ورد في خطاب التكليف حين عهد الشاه إليهما بالمهمة[1].

والنتيجة أن البندقية ظهرت بالنسبة إلى بلاط أصفهان بشكلٍ أوضح باعتبارها سوقاً يمكن أن تجد فيه الأشياء الخاصة أو الثمينة. وفي الوقت نفسه كانت حركة تصدير السلع العادية إلى بلاد فارس في انخفاض. وكانت مصانع الحرير التي تم إنشاؤها في المدن العثمانية في حلب ودمشق، على الرغم من أنها لم تعادل في جودتها الأقمشة المذهّبة والدمقس والحرير البندقي، تجذب إليها جزءاً كبيراً من أسواق الهند وبلاد التتار وفارس ومكة المكرمة. وإضافة إلى ذلك فقد عمد عباس الأول، بغية زيادة صادرات الحرير والصوف الخام من مملكته، إلى استخدام ملابس قطنية محشوة، الأمر الذي أدى إلى أن يقلّده في ذلك جميع وجهاء الدولة الفارسية[2].

والحق أن الصفويين ما عادوا يهتمون بالدور البارز الذي أصبحت البندقية تحظى به على المستوى الدولي، والذي يشهد عليه قوام البعثات الدبلوماسية الفارسية. فلم تكن البعثات تصمد أمام أية مقارنة مع البعثات التي يبعث بها الشاه إلى السلطان العثماني. فعلى سبيل المثال

(1) ASVe, *Secreta, Documenti Persia*, nn. 21-22; Berchet, *La Repubblica di Venezia e la Persia*, cit., pp. 65-66.

(2) G. Berchet, *Relazioni dei consolati di Alessandria e di Soria*, Torino, Paravia, 1866, pp. 131, 141; M.P. Pedani, *Venetian Consuls in Egypt and Syria in the Ottoman Age*, in «Mediterranean World», 18, 2006, pp. 7-21.

وصل في عام 1566 السفير الفارسي إلى القسطنطينية مع حاشية من أربعمائة تاجر وفرقة موسيقية شملت أيضاً أربع قيان خبيرات في الغناء. ووصل دبلوماسي آخر عام 1596، وكان معه ألف رجل، في حين كان مع البعثة التي وصلت عام 1692 ثلاثمائة رجل. كما كان رئيس الوفد دائماً متعلماً مثلما كان معظم مرافقيه. وفي القسطنطينية كانوا يقولون إنك حتى تصبح ضمن مرافقي سفير إيراني عليك أن تكون غزير العلم والثقافة والأدب، وعلى العكس تماماً إذا أردت أن تصبح ممثلاً لحاكم أوروبي، فيكفيك أن تكون أحمق جاهلاً[1].

وقد عاد خوجة شاه ظفار إلى البندقية عام 1621 في مهمة تهدف إلى شراء حاجيات للبلاط. وفي هذه المرة حمل معه أربع سجادات ثمينة كهدية، وكالعادة تم تسليمها إلى كنيسة سان ماركو، ولا تزال محفوظة في متحفها. وفي تلك المدة كان القنصل جيوفاني فرانشيسكو ساجريدو هو الأكثر حرصاً على الحفاظ على طرق التجارة مفتوحة مع الشرق، وهو القنصل في حلب لكل من البندقية وبلاد فارس لعدة سنوات، وكذلك حفيده ألفيز الذي طور المشروع الطموح لتحويل صادرات الحرير من بلاد فارس إلى سوق ريالتو مباشرة. لكن وفاة عباس الأول والحملة العثمانية على الشرق عام 1630 منعت ميلاد هذه المبادرة. وفي عام 1634 حمل مبعوث الحاكم الجديد صافي الأول (1629-1642)، واسمه علي بالي، رسالةً منه تدعو تجار البندقية للسفر إلى بلاد فارس، مثل الإنجليز

(1) M.P. Pedani, *Il cerimoniale di corte ottomano: il ricevimento degli ambasciatori stranieri (secoli XVI-XVIII)*, in E. Concina (a cura di), *Venezia e Istanbul. Incontri, confronti e scambi*, Udine, Forum, 2006, pp. 23-30.

والهولنديين، وأيضاً حمل طلباً لاستخدام كمية من العملات المتبقية المملوكة للشاه في دار سك العملة بالبندقية، وكانت العملات لا تزال بالبندقية من مخلفات العمليات التجارية للمبعوثين السابقين[1].

وعند اندلاع حرب كانديا بين البندقية والعثمانيين (1644-1669) سعت البندقية إلى استئناف الاتصالات الدبلوماسية مع الصفويين. فتمّ إرسال وفد إلى الشاه الجديد عباس الثاني (1642-1666). ولتجنب أراضي السلطان تم اختيار مسار الرحلة عبر بولندا، ثم روسيا، ونيجني نوفغورود، وكازان، وكاسبيو، للوصول في النهاية إلى أصفهان. ولم يحصل الوفد الذي كان أعضاؤه رسلاً أكثر منهم سفراء على ما كان يأمل. وحُصِدتْ نتائج فاشلة بالمثل في المفاوضات التي دارت عام 1660، من قِبل الواعظ ورجل الدين الأرميني أراكائيل ورئيس الأساقفة ناخيتشيفان[2].

وفي أوج الحرب، في ديسمبر 1652، وصلت البندقية سفارة من الأراضي الصينية أيضاً. وكان رئيس الوفد هو الأب اليسوعي البولندي ميشيل بويم الذي بعث به الملك الشاب مينج ووالدته وشقيقته وزوجته الذين كانوا قد تنصّروا مؤخراً. وكان يشارك مع الوفد، الذي توقف في روما، شاب صيني مكلَّف بمراقبة العرف الدبلوماسي للتحضير بعد ذلك لبعثة كبيرة ومهمة، وهذه الحالة ربما كانت محاولة أخيرة من قبل إمبراطور الإمبراطورية السماوية؛ للعثور على دعم جديد من الغرب.

(1) ASVe, *Secreta, Documenti Persia*, n. 28; Rota, *Diplomatic Relations between Safavid Persia and the Republic of Venice*, cit., p. 582.

(2) Rota, *Diplomatic Relations between Safavid Persia and the Republic of Venice*, cit., p. 583.

والحقيقة أنه بينما كان الأب بويم في أوروبا كانت إمبراطورية جديدة قد قامت من أسرة تسونج التي أودعت آخر سلالة منج السجن والنسيان[1].

وبمجرد عقد الصلح مع الإمبراطورية العثمانية عام 1673، وصلت إلى البندقية البعثة الأخيرة من بلاد فارس. ولم يعد المبعوثون الآن حتى من تجار البلاط، وإنما كانا اثنين من الآباء الدومينيكان اختارهما رئيس الأساقفة ناخيتشيفان لإبلاغ الجمهورية بمسار المفاوضات التي كان يجريها في أصفهان باسم الدوجي: وضَعَ السلام المبرم بين البندقية والدولة العثمانية حدّاً لمشروع عمل مشترك ضد الأراضي العثمانية، ولما لم يستطع الشاه سليمان (1666-1694) منح المساعدات العسكرية المطلوبة اقتصر ما قدّمه على منح الإعفاءات والحماية لتجار البندقية الذين يعبرون أراضيه. وهكذا عادت العلاقات الدبلوماسية بين البندقية والفرس؛ لتقتصر مرة أخرى على العلاقات التجارية. وعاد الحلم الكبير بتكوين جبهة مشتركة بين شعوب الشرق والغرب من قبل البندقية، في رسالة إلى الشاه عام 1695، وذلك أثناء حرب أخرى اندلعت مع الباب العالي العثماني (1684-1699). وعلى العكس لم يطرق أحد السبيل التي تربط البندقية بأصفهان أثناء النزاع التالي الذي نشب بين عامي (1714-1718).

وفي القرن الثامن عشر لم تعد جمهورية البندقية معارضة للمبادلات التجارية الدولية بين أوروبا وآسيا. وحلّت دول أخرى محلها في دور البطولة، سواء على صعيد الاتصالات التجارية أو السياسية مع دول الشرق. وهكذا راحت سفارات حكّام المسلمين تنخفض أيضاً بشكل

(1) M.P. Pedani, *La prima ambasceria cinese a Venezia (1652)*, in «AN», 2, 4, 1994, p. 38; Id., *Venezia e la Cina*, in «AN», 4, 2-3, 1996, pp. 10-11.

مستمر. ففي النصف الأول من ذلك القرن لم يأت سوى عدد قليل من مبعوثي الإمبراطورية العثمانية. ومع ذلك فقبْل أن تتم الجمهورية عامها الألف نجحت في ضخ دماء جديدة في شرايين سوق ريالتو بالانفتاح على أسواق شمال إفريقيا التي طالما أهملتها. وبعد ذلك دخلت فيما يسمى بـ«السلام البربري»، وهو عبارة عن اتفاقات مع باشوات ودايات مقاطعات البربر، التي كانت لا تزال تابعة رسمياً للباب العالي العثماني. وحول عامي (1763–1764) ومرة أخرى في عامي (1792–1793) تمت صياغة معاهدات جديدة مع طرابلس، وتونس، والجزائر، وأعقبتها اتفاقات أخرى مع ملك المغرب، كُتبت عام 1765 وعام 1795. وأسفرت الاتصالات بين البندقية وطرابلس عن إرسال آخر حاكم مسلم لسفارة إلى البندقية. وكان مفوضاً لباشا طرابلس علي القرمانلي، واسمه الحاج عبد الرحمن، والذي قضى عدة سنوات في البندقية بين عامي 1760 و1770 للتفاوض حول السلام والمكوس.

وفي هذه المدة كان الباشا يمر بوضع اقتصادي صعب جداً؛ حتى إن أي تأخير في تسليم المكوس التي كانت تدفعها العديد من الدول الأوروبية للتمتع بالتجارة الحرة والحماية من قراصنة طرابلس، كان من شأنه أن يضعه في ورطة خطيرة، وعلى سبيل المثال، أجبره عدم وصول الأموال المقررة بعد السلام مع إسبانيا على رهن ماسة تاجه، لكي يستطيع سداد ديونه. وعن طريق إرسال دبلوماسيين إلى مختلف قصور الحكم، تمكن علي القرمانلي في كثير من الأحيان، ليس فقط من الحصول على دفعة مبكرة من الأموال الموعودة، ولكن أيضاً على بعض الهدايا الكبيرة

الاستثنائية، ولهذا السبب ازدهرت البعثات الدبلوماسية في أوروبا، وغالباً ما كانت تثير الامتعاض من قِبل قصور الحكم الأوروبية التي أعدَّتها ذريعة لابتزاز المال.

والشيء نفسه كان البنادقة يعتقدونه، وخصوصاً عندما عاود المبعوث الحاج عبد الرحمن بعد وصوله لأول مرة عام 1763 الظهور ثانية في البحيرة البندقية. وخلال المهمة الأولى تم استقباله بكل الحفاوة والتكريم وجرت استضافته في دار فندرامين جيودكا. إلا أن وجود مترجم تحول عن دينه واسمه سكوتاري ضمن الوفد المرافق له، وكان مطلوباً في جريمة قتل في مدينة البندقية، بدأ يعكر صفو العلاقات الجيدة مع أعضاء مجلس شيوخ البندقية. وبعد أربعة أشهر من مغادرته في مايو من العام التالي ظهر في المدينة للتفاوض دائماً على بنود اتفاق السلام ولم يغادر إلا في منتصف أغسطس. وفي 1765 عاد مرة أخرى بحجة سحب الأقساط المتفق عليها مع البنادقة، ولكنه هذه المرة لم يتم قبوله حتى في حضرة الدوجي، ولم تعقد له جلسة استماع علنية. وكان الحاج عبد الرحمن مما لا شك فيه متقد الذكاء واسع الحيلة، ولكن من أجل هذا كان البك نفسه غير واثق فيه، وكان يتجنب مشاركته في كثير من الشؤون التي تتعلق بالبندقية، متى أمكن ذلك. ووفقاً للبنادقة كان له طابع دساس، وغالباً ما كان يحصل بالهدايا على ما يريد، وكان متعطشاً للمال والتكريم. وقد حاول عدة مرات أخرى معاودة إرساله إلى الدوجي، لكن المصادفة وتدخل القنصل في طرابلس، كانا ينجحان دائماً في تعطيل خططه. وفي عام 1770 تم إرساله إلى السويد والدنمارك، حيث عاد في

عام 1782، عندما كان في فرنسا. وقد بدأ حياته المهنية عام 1746 سفيراً في القسطنطينية، وآخر الأخبار التي لدينا عنه عندما كان على وشك السفر إلى لندن. وخلال إقامته في البندقية عام 1764 رسم له أليساندرو لونجي صورة بقي منها شقٌّ فقط[1].

وببعثة الحاج عبد الرحمن انتهت السفارات المرسلة من حكام دول الشرق إلى البندقية. وبصرف النظر عن تلك السفارات التي أرسلتها الإمبراطورية العثمانية، والتي تستحق مناقشة منفصلة لعددها وأهميتها، كانت البعثات الأخرى قصيرة في الواقع، ولا تفيد إلا في بيان أهمية الجمهورية باعتبارها مركزاً للاتصالات الدولية. وحتى تلك البعثات التي أُرسلت من قبل حاكم الخرفان البيض في النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم تحظَ بالنجاح المنشود وهو خلق تحالف فارسي بندقي لم يتحقق أبداً ضد العثمانيين. وقد كانت البندقية حريصة دائماً على مراجعة وثائق تفويض أولئك الذين قدّموا أنفسهم بوصفهم سفراء ودبلوماسيين. وأدى وجود عدد كبير من الناس في المدينة، من المترجمين الرسميين إلى الوسطاء والسماسرة، وحتى التجار والنبلاء الرحالة إلى أراضٍ بعيدة، إلى تجنب الوقوع في أخطاء صارخة. ولخداع البيروقراطية البندقية، كان على المحتال أن يكون ماهراً وعارفاً معرفة جيدة بالأعراف الدبلوماسية الدولية. فكانت حوادث السفراء المزيَّفين الذين يتم استقبالهم ببهرج وتكريم، كما حدث في روما وقصور الحكم الأوروبية الأخرى، لا يمكن تصور وقوعها في البندقية. وظلت معرفة البندقية

(1) G. Cappovin, *Tripoli e Venezia nel secolo XVIII*, Verbania, Airoldi, 1942, pp. 367-397.

بالشعوب البعيدة لا نظير لها لعدة قرون، وكانت المدينة البحرية حقاً، الباب المفتوح على الشرق، تستورد بضائعه، وتساهم في نشر المعرفة عن اللغات والحضارات المختلفة.

3. الدبلوماسية العثمانية

منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر تتكرر كلمة أحفاد عثمان في الوثائق البندقية التي ذكرت أسماء المبعوثين الدبلوماسيين الذين قدموا بين يدي الدوجي. وقد كان أول مبعوث عثماني إلى الدوجي جاويش مجهول الاسم وصل عام 1384 لاقتراح تحالف ضد العدو المشترك المتمثل في جنوة. وقد تبعه العديد من الدبلوماسيين الآخرين، واحد كل سنة تقريباً، خلال القرن السادس عشر. وقد كانت التغييرات التي أدت إليها حروب النصف الثاني من القرن السابع عشر، جنباً إلى جنب مع الأزمة التي تعرضت لها كل من الجمهورية والإمبراطورية، سبباً في تقليل إرسال البعثات وتحديدها على نحو ملحوظ. وكانت آخر بعثة في عام 1762، لكن مهمتها تعلقت بشراء الأقمشة وثلاث نظارات مقربة (تلسكوبات). وبلغ العدد الإجمالي للبعثات المرسلة من الديوان الإمبراطوري إلى الدوجي بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر 178 بعثة، ولكن ينبغي أن تُضاف إليها بعثات أخرى أقل أهمية[1].

ويمكن تقسيم الدبلوماسيين العثمانيين في البندقية إلى فئتين: تلك

(1) Pedani, *In nome del Gran Signore*, cit., *passim; Id., Ottoman Envoys to Venice (1384-1644)*, in «Arab Historical Review for Ottoman Studies», 13-14, ottobre 1996, pp. 111-115; Id., *Ottoman Diplomats in the West. The Sultan's Ambassadors to the Republic of Venice*, in «Tarih incelemeleri dergisi», 11, 1996, pp. 187-202.

التي بعث بها السلاطين والصدر الأعظم، وتلك التي أرسلتها سلطات الولايات. وبينما كان على الأوائل الاهتمام بشؤون الدولة، مثل الحرب والسلام، كان على الآخرين الاهتمام بالشؤون التجارية أو الحدودية، أو شراء نفائس يسعى رؤساؤهم إلى اقتنائها. وكانوا عادة من الجزء الأوروبي من الإمبراطورية ويتبعون البيلربايات الذين كانوا يديرون المناطق، أو السناجق الذين كانوا يديرون المقاطعات. وكان من النادر أن يحتاج أهل المناطق البعيدة إلى الاتصال بالدوجي أو شراء حاجيات من سوق ريالتو. ولكن هذا لم يمنع من وجود بعض مثل هذه الحالات. فيمكننا أن نذكر، على سبيل المثال، حالة أحمد باشا، الابن الذي اعتنق الإسلام لسطفان سيل ماري أمير مولدافيا (1466–1481)، والذي أصبح بيلرباي كرمان، وأرسل في عام 1493 ثلاثة من الرسل لمعرفة أخبار عن أقربائه، وانتقل بعض منهم إلى البندقية. وفي عام 1632 أرسل جعفر آغا وهو البستانجي باشي (رئيس حرس القصر وكانوا يسمون «البستانيين») أحد رجاله واسمه عمر؛ لتحصيل مبلغ مستحق له لدى النبيل ألفيز موتشينيجو وشراء القماش[1]. ويصل هذا النوع من المبعوثين عادة من البلقان أو من المجر. وعلى سبيل المثال، فقد جاء «أحمد شلبي» من البوسنة بحثاً عن كتب باللغة التركية عام 1591. وفي عام 1593 أرسل بيلرباي تلك المنطقة لشراء قرط من الزمرد مطابق لما تم إرساله: فقد أعجب زوجته

---

(1) ASVe, *Senato, Secreti*, reg. 34, cc. 214-214v; M.P. Pedani Fabris (a cura di), *I «documenti turchi» dell'Archivio di Stato di Venezia*, con l'edizione dei regesti di †A. Bombaci, Roma, Ministero per i beni culturali e ambientali, 1994, nn. 1371-1372, 1433.

التي فقدت أحد قرطيها. وفي عام 1587، طلب فرهاد بيلرباي البوسنة من السلطات البندقية أن تشفع له عند الصدر الأعظم ليحصل على سنجقية على الحدود مع زارا. وفي نهاية عام 1596 سارع إسماعيل، فور تعيينه في هذا المنصب، إلى إبلاغ الدوجي بالخبر عن طريق الجاويش محمد التابع له. وفي عام 1633 أرسل بيلرباي بودا محمد آغا لمرافقة بعض رجال سفير السويد إلى البندقية، حيث كان عليهم مواصلة طريقهم من هناك إلى بلادهم. وبعدها بقرن وتحديداً عام 1759 أرسل محمد والي البوسنة والهرسك، إلى البندقية عمر آغا وموسى آغا بخيمة ومظلة؛ لكي يصنع بعض الحرفيين البندقيين المهرة على شاكلتها[1].

إن دراسة أسباب البعثات الدبلوماسية المرسلة من قبل السلاطين العثمانيين والصدر الأعظم إلى البندقية تعني تقفّي أربعة قرون من الاتصالات واللقاءات والمصادمات. وقد كانت سنوات الحرب بين الدولتين قليلة نسبياً، وتتركّز خصوصاً في النصف الثاني من القرن السابع عشر. وعلى أي حال وصل كثير من المبعوثين للتفاوض على شؤون الحرب والسلام. وعادة ما كان سبب نشوب الأعمال العدائية بعضَ الحوادث على طول الحدود أو في البحر. وفي مرة واحدة فقط تم احترام الشريعة الإسلامية بكل تفاصيلها حتى يمكن الوصول إلى حل شرعي لحالة إعلان الحرب. وحدث هذا عام 1570 عندما قرر سليم الثاني (1566–1574)، وهو راغب في إلغاء اتفاق السلام الذي يربطه بالبندقية

(1) ASVe, *Collegio, Esposizioni principi*, reg. 7, cc. 153-154v; reg. 9, cc. 161-161v; reg. 10, cc. 69v-70; Pedani Fabris (a cura di), *I «documenti turchi» dell'Archivio di Stato di Venezia*, cit., n. 1090, 1436, 1439, 1932.

لكي يشحذ همة جيشه لغزو قبرص، فقرر أن يطلب رأي أعلى سلطة دينية في دولته، شيخ الإسلام. وقدّم رئيس علماء الإمبراطورية كلها له رداً إيجابياً، حيث إن الجزيرة كانت بالفعل إسلامية لنحو ثلاثين عاماً في عهد الخلفاء، وأبلغه بشأن الإجراء الذي يجب اتباعه. ثم أرسل السلطان إلى البندقية جاويش كوباد بإنذار يتضمن تسليم المملكة طوعاً. واستبقى البنادقة السفير لأقل من ثمان وأربعين ساعة، وهو الوقت اللازم لرفض العرض، وهكذا نشبت الحرب.

وقد كانت الحروب ذات يوم تقوم في فصل الصيف، عندما تكون الحقول ملأى بالغذاء والمؤونة لإعاشة الرجال والخيول، ولا يستطيع الجنرال شتاءً أن يتدخل لمصلحة هذا الفريق أو ذاك. كما لا يتوقف النشاط الدبلوماسي توقفاً تاماً خلال مدة الأعمال الحربية، ولا حتى بين البلد المسيحي والبلد المسلم، وكذلك لا تتوقف التجارة. وفي عام 1774، حملت رسالة وُجهت إلى كارلو الثالث ملك إسبانيا اقتراح حاكم المغرب سيد محمد التمييز بين الحرب البحرية والحرب البرية، وأكد بعدها بقليل أن رجاله المعسكرين قبالة مليلة يقاتلون أثناء النهار، ويمارسون التهريب آناء الليل حين يسود البحر الهدوء[1].

ولذا يمكن ملاحظة أنه خلال الحروب المتعددة بين الإمبراطورية العثمانية والبندقية، كان المبعوثون على اختلاف درجاتهم الرسمية أو غير الرسمية، يجوبون الطرق التي تربط بين العاصمتين. حيث لم يكن هناك فقط دبلوماسيون يتحدثون باسم الدوجي، ممنوحين لقب سفير، أو حتى

(1) M.P. Pedani, *Dalla frontiera al confine*, Roma, Herder, 2002, p. 29.

سكرتير أو نبيل، حتى لا تكتسب البعثة أهمية خاصة. بل كان هناك حكام عثمانيون يرسلون ممثليهم إلى البندقية. وخلال حرب (1463-1479)، على سبيل المثال، نجد أن بعض اليهود واليونانيين، قد تم إرسالهم، على نحو خاص من المريسة (أي زوجة والد الغازي) مارا برانكوفيتش ابنة جورجو طاغية صربيا. وقد اكتسبت هذه المرأة، التي أُهدِيتْ جاريةً في حرملك السلطان مراد الثاني بوصفها عربون سلام، دوْراً واضح الأهمية في عهد محمد الثاني، الذي اصطفاها ونظر إليها بتقدير كبير. فكانت هي، على سبيل المثال، التي أرسلت اليوناني تيودورو سباندوجينو كانتوكوزينو إلى البندقية للحديث عن السلام، وقد كان ألَّفَ كتاباً عن تاريخ عهد الأتراك وأصلهم، نُشِرَ في منتصف القرن السادس عشر، في كل من لوكا وفلورنسا[1].

وفي العصور القديمة لم يكن كافياً توقيع أعلى منصب في الدولة على وثيقة لتصديق اتفاق السلام أو ختمه. فقد كان من الضروري أيضاً أن يحضر ممثل الحاكم الآخر حلف اليمين، والذي كان هو الأساس الرئيس. ولهذا السبب انتقل السفراء من الغرب إلى الشرق، وبالعكس، وعادة ما يصحب السفراء عتاد كبير؛ لأن البعثة لابد أن يكون لها تأثير إعلامي. وعلى سبيل المثال ففي عام 1479 وصل لطفي بيك إلى البندقية بحاشية من عشرين رجلاً، بينما في عام 1514 وصل علي بيك فوق سفينة مسلحة

---

(1) T. Spandugino, *Delle historie et origine de Principi de Turchi, ordine della Corte, loro rito et costumi*, in Documents inédits relatifs à *l'histoire de la Grèce au Moyen Âge*, a cura di K.N. Sathas, 9 voll., Paris, Maisonneuve, 1980-1990, vol. IX, pp. 134-261.

إلى راجوزا وعلى متنها ثمانون شخصاً وتكوّن موكبه من خمسة وعشرين فارساً.

ووِفقاً للشريعة الإسلامية لم يكن ممنوعاً محاولة الحصول على أقصى استفادة من عقد، حتى بإدراج نص به «لغو قد يحمل معصية» لكي يتم التوقيع على هدنة مع «الكفار»، أو إيجاد صيغة أقل حدة يمكنها أن «تجلب للحاكم قطعة صغيرة من الأرض»، إذا حدث هذا مع حاكم مسلم، وِفقاً لما كتبه في دفتر تسجيل الوقائع الكاتب المملوكي القلقشندي[1]. وكانت هذه أيضاً حيلة مستخدمة لأغراض فوق قانونية، أو بالأحرى مراعاةً لمقتضيات الشريعة الدينية حرفياً، وفي الوقت نفسه سدّ الاحتياجات المختلفة. ولا يزال هذا يقع حتى اليوم، على سبيل المثال، لتقديم قروض بمعدلات أعلى من المنصوص عليها في الشريعة أو لاستثمار الأموال بالفائدة. وفي حين يُستخدم القضاء في القانون الروماني لتلبية المتطلبات الجديدة عند الممارسة، يتم استخدام الشريعة الإسلامية للالتفاف على تدابير قانونية ليس من الممكن إلغاؤها للوصول إلى النتائج نفسها. تظهر على كل حال بعض الأهداف أحياناً فوق قانونية بشكل واضح، مثلما حدث في عام 1499، عشية الحرب، عندما قُدّم للسفير أندريا زانكاني ختم وثيقة السلام مكتوبة بلغة أخرى غير التركية، ومن ثم ليس لها قيمة قانونية في الإمبراطورية.

وبصفة عامة حرص البنادقة حرصاً كبيراً على قانون الطرف الآخر

(1) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، إعداد عبد الرسول إبراهيم، ج 14، القاهرة (1333-1338هـ) (1913-1920م)، الجزء الرابع عشر، ص: 13.

وأعرافه. ففي عام 1479، على سبيل المثال، رفض الدوجي أن يتمنطق بمنديل أرسله البلاط العثماني مثلما طلب لطفي بك. وقد أكد هذا المبعوث أن السلطان فعل الشيء نفسه، وأن الأمر لا يتعدى رمزاً للصداقة. وفي الواقع لا يزال يُستخدم في اللغة التركية حتى اليوم تعبير «*bel bağlamak*» وتعني «ربط الحقوين» أي الاعتماد على شخص ما ولهذه البادرة قيمة رمزية محددة سواء في العلاقة بين حاكم وقائد من قواده، أو في طقوس الزواج. ولعل ارتداء حزام منحه الرئيس يعني الارتباط به، مثلما هو الحال في وضع قبعة يتم تلقيها هدية. وليس من قبيل المصادفة أن الانكشارية عندما يموت السلطان يرمون بقبعاتهم على الأرض، دليلاً على أن كل علاقات الولاء معه قد انفرطت. وربما تكون هذه الرمزية قد انتقلت، ولا أحد يدري من أي طريق، إلى طلاب الجامعات الأنجلوسكسونية الذين يرمون بقبعاتهم في الهواء في حفلات التخرج رمزاً لاستعادتهم حريتهم بعد الحصول على اللقب العلمي الذي طالما طمحوا إليه.

وقوبلت الحيل العثمانية في بعض الأحيان بحيَّل بندقية مشابهة. فبدت بالمثل إحدى الوثائق المحلفة من جانب الدوجي غريبة جداً، فعند نهاية الحرب في مايو عام 1503، وفي ترجمة شاملة لوثيقة صادرة باسم السلطان بايزيد الثاني، لاحظ قلم الكتّاب العثماني ذلك، واحتج عليه، رغم وجود السفير علي بيك شاهداً عليها، وكان حاضراً في المراسم. كما حدث شيء غير واضح أيضاً في نهاية حرب (1537–1540)، إذ طالب العثمانيون هذه المرة أن يجدد الدوجي القسم على عهد السلام، وحدث هذا عام 1542، بعد عامين من التصديق عليه، بحضور يونس بك.

وبعد اكتمال المعاهدة حان وقت استعادة من تمّ أسرهم خلال الحرب، وإقرار الحدود المشتركة بصورة نهائية، ولعل الانتقال إلى الكفار لتأمين الإفراج عن رفاق الدين الواحد، كان السبب الأكثر صلاحية لإرسال سفير مسلم. لذا فقد تعلقت بعثات عديدة بإطلاق سراح العبيد أو الأسرى، بداية من حمزة، أول سفير تركي نعرف اسمه، وقد ابتُعِث عام 1417، أي بعد مرور عام على معركة غاليبولي، التي أدت إلى تدمير الأسطول العثماني. وأحياناً يكون من السهل جداً الحصول على الإفراج عن المجرمين المسلمين الذين أُدينوا في دولة البندقية، كما حدث عام 1456 لتركي حُكم عليه بالإعدام في نيغروبونتي، أو الإفراج عن الجواسيس أيضاً، مثل ما حدث مع محمود من كاستلنوفو وهو الذي عبثاً تمت محاولة لتحريره من سجون مجلس العشرة أيضاً عن طريق إرسال بعثة رسمية عام 1576. وكان بإمكان كل أولئك الذين كانوا تحت حماية الباب العالي التقدم إلى الديوان (مجلس الدولة)، أو إلى السلطان مباشرة بعريضة التماس للحصول على اعتراف بحقوقهم. ولا يهم ما إذا كان الملتمسون أغنياء أو فقراء، رجالاً أو نساءً، مسلمين أو كفاراً. فكان ينبغي للحاكم، الذي أُوكلت إليه مهمة إقامة العدل أن يتدخل غالباً، وفي حالة وجود البنادقة طرفاً، كان يرسل إلى الدوجي بعثات رسمية. كان هذا هو الحال إذاً، ومنه على سبيل المثال، تلك العرائض الكثيرة التي قدّمتها زوجات محمود من كاستلنوفو والمتعلقة بالعفو عنه. وفي عام 1558 وصل إلى البندقية رسول يطلب عهد أمان لليهودي برناردو ميكويز. كما في عام 1609، حيث جاء الحاج إبراهيم من القاهرة، أسمر البشرة حافي القدمين، ليطلب رسمياً

السماح بالمرور في أراضي البندقية للموريسكيين المطرودين من إسبانيا، والذين كانوا عالقين بلا حول ولا قوة في الأراضي الفرنسية والإيطالية بحثاً عن وسيلة للوصول إلى بر الأمان حيث الإمبراطورية العثمانية.

وعادة ما كان يُعهد بإقرار الحدود إلى لجنة مشتركة، بندقية عثمانية، وكان عليها أن تنتقل إلى الأماكن المتنازع عليها لإقرار خط ترسيم الحدود بين البلدين. حتى في هذا المجال ظل المؤرخون، لسنوات قليلة مضت، يعتقدون أنه قبل سلام كارلوفجه «Karlowitz» (1699)، لم يعرف العثمانيون فكرة الحدود. وفي الواقع، وُجدت في العلاقات مع البندقية، لجان مشتركة لترسيم الحدود، منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، ليس على الأرض فحسب بل وفي البحر أيضاً. وفي كارلوفجه أُغلقت رسمياً، مع إمبراطورية هابسبورغ، الحدود الشمالية التي ظلت حتى ذلك الحين مفتوحة يسيطر عليها كلا الجانبين بحصون فردية ومجموعات مسلحة. وبالفعل كان السلاطين والدوجي قد اتفقا في القرن الخامس عشر على خطوط الحدود التي تجري على طول الأنهار وقمم الجبال، أو عبر الحقول والغابات، وتحديداً في دلماسيا والمورة. ويمكن أن تكون الوسائل المستخدمة لوضع علامات الحدود هي أكوام من الحجارة، أو صخور، أو نقش على الأشجار، أو على الصخور. وفي عام 1671 تم في دلماسيا إنشاء ما يسمى بخط ناني «Nani»، وأعقبه خط جريماني «Grimani» عام 1701، وخط موتشينيجو «Mocenigo» عام 1720. وقد أفادت تلك الخطوط بكونها مرجعاً في القرن العشرين، عندما توجَّب ترسيم حدود الدول الجديدة التي نشأت من انحلال يوغسلافيا.

وكانت تنشأ أحياناً بعد الاتفاق مشكلات تجعل من الضروري إرسال دبلوماسيين أولاً إلى البندقية ثم إلى مواقع النزاع. ولم يكن من الممكن دائماً التغلب على الصعوبات كلها. فعلى سبيل المثال اجتمع جوفاني جريماني عن البندقية، ولويجي فرديناندو مارسيلي عن هابسبورغ، وعثمان آغا وإبراهيم أفندي عن العثمانيين، وذلك في منطقة بلافنو في كرواتيا الحالية، للاتفاق على النقطة الحدودية بين الدول الثلاث. واختاروا لنقاط الحدود ثلاث قمم لجبل دبلو بردو، ولكن على الرغم من طلقات المدفع وقبلات السلام التي تبادلتها الوفود، فإن ممثل البندقية لم يكن مقتنعاً بالاختيار الذي كان ينزع من الجمهورية الأراضي الخصيبة. ولم تُصدّق البندقية على هذا الاتفاق أبداً، وتم تعليقه من جانب واحد، ولأكثر من قرن من الزمان ظلت الحدود الثلاثية المنشأة رسمياً عند نقطة لا تلتقي فيها الدول الثلاث حقاً[1].

كان من الواجب إذاً تجديد اتفاقات السلام، ليس بعد الحرب فحسب، وإنما أيضاً بعد وفاة السلطان. ووفقاً للقواعد المعمول بها في الدولة العثمانية، على الأقل حتى بداية القرن الثامن عشر، فإن كل المحررات السيادية الصادرة عن الحاكم المتوفى لا تكون ذات قيمة بعد وفاته، وعلى خليفته تجديدها. وهكذا يصل العديد من المبعوثين الإمبراطوريين إلى البندقية عقب الجنازة الإمبراطورية لحضور التصديق الجديد على الاتفاقيات.

وكما ذكرنا سابقاً، فقد وصل أول دبلوماسي عثماني إلى البندقية عام 1384، حاملاً اقتراحاً بإنشاء جبهة مشتركة ضد جنوة. وقد ترك وجود

(1) M.P. Pedani, *Das «Triplex Confinium»: Diplomatische Probleme nach dem Karlowitz Frieden*, in «Croatica Christiana Periodica», 48, 2001, pp. 115-120.

تحالفات عسكرية بين المسلمين والمسيحيين في القرون القديمة المؤرخين في حيرة بالغة؛ لأنهم استناداً إلى قانونيْ أوروبا المسيحية والشرق الأدنى الإسلامي، كانوا يرون أنها غير جائزة. ومع ذلك فقد كانت موجودة وتؤكدها بعض البعثات الدبلوماسية العثمانية. ولم تكن العلاقات بين المسيحية والإسلام دائماً متضاربة، بل على العكس من ذلك، كانت هناك لحظات من البراغماتية والتعاون. ففي مايو من عام 1480، وقبل حوالي شهر من الغزو العثماني لأوترانتو وصل إلى البندقية سنان بيك يحمل طلباً للتحالف ضد العدو المشترك فرديناند الأول ملك أراجونا.

وفي الأعوام التالية تم تقديم طلبات مساعدة وتحالفات أخرى كثيرة. وفي عامي (1484-1485) اقترح مبعوث من السلطان أن تُقدّم البندقية الضيافة إلى الأسطول العثماني في موانئها. ومع عام 1504 طلب سنان الحماية وحرية المرور للمراكب العثمانية من فالونا إلى القسطنطينية. وفي عام 1537، ومرة أخرى بعدها عام 1542 حضر يونس بيك، للمرة الخامسة ثم السادسة إلى البندقية، وعرض التحالف مع طلب الصداقة بين الجمهورية وفرنسا. وفي عام 1544 جاء جاويش محمد للاستفسار عن مكان وجود قائد القوات البحرية العثمانية ومعه الأسطول الإمبراطوري. وفي ذلك العام قرر خيرالدين بربروس فعلاً قضاء فصل الشتاء في ضيافة ميناء طولون الفرنسي، ولكن من الواضح أنه لم يُبلّغ السلطان بهذا. ولذلك سارع البنادقة بإرسال المعلومات المطلوبة مشيرين إلى أن الأميرال يقوم بإعادة تنظيم قواته استعداداً للمعركة المقبلة، وكانت المعركة الأخيرة التي شارك فيها القائد العجوز، والتي تقاعد بعدها في قصره المطل على البوسفور.

انحصرت مهمة بعض المبعوثين إلى البندقية في تسليم الرسائل المهمة. ومن بين هذه الرسائل المتعددة **«الفتحنامة»** أي الرسائل التي تبلغ الأصدقاء بانتصارات السلطان. كان الأمر يتعلق في الواقع بنشرات تعميمية، فيها إصرار على البطولات وعلى قوة الحاكم وجيوشه. يدور فيها حديث عن الأعداء الذين بلغ عددهم عدد نجوم السماء، ومياه الأنهار الحمراء من دماء القتلى والكثير من الجثث المكدسة التي تعيق الوصول إلى نوافذ القلعة. وقد تلقى البنادقة هذا النوع من المعلومات بداية من عام 1482، عندما كتب بايزيد الثاني بأنه هزم شقيقه جم. وكان يحمل الفتحنامة دائماً مبعوثون عثمانيون بشكل خاص، ولم تكن تسلم مطلقاً للمبعوثين المقيمين أو السفراء. وكان يتم إرسالها أيضاً إلى البيلربايات والسناجق والأمراء التابعين والحكام المحليين في ترانسلفانيا ومولدافيا، أو الحكام الأصدقاء، ولكل من يُراد أن تظهر له قوة السلطان. وفي عام 1516 أرسل سليم الأول إلى البندقية جاويشه مصطفى محملاً بفتحنامة ومعها رأس زعيم فارسي محشوة بالقش. كما أرسل هدية مماثلة حينها أيضاً إلى سلطان مصر قنصوه الغوري، والذي كاد يموت بالسكتة القلبية عندما رأى الهدية المروعة المخيفة. وبعد مدة وجيزة اضطر إلى إنهاء عمره بمثل هذه الطريقة على أرض المعركة، بينما دمرت مدفعية سليم فرسانه. وفي البندقية أيضاً لم يتم الترحيب بهذه الهدية وتم إجبار المبعوث على تركها عند باب المجمع. أما والد سليم، وهو بايزيد الأول، فقد كان سلوكه مختلفاً تماماً، إذ تلقى رأس القائد الفارسي، فسبكه مع معادن نفيسة وصنع منها كأساً. وارتبط هذا الشيء في التقليد القديم التركي

المنغولي بمفهوم السيادة. ففي كأس مثل هذه كان ينبغي احتساء دم العدو المقتول بحيث يتم امتلاك روحه، تلك التي تحتوي على القيمة، وعلى حق الملك. وقصة الملك اللومباردي ألبوينو، وروزموندا، وجمجمة ملك الغبديين كونيموندو يمكن تفسيرها على أساس معتقدات مشابهة. وإلى جانب ذلك، فمن بين الشعوب القديمة التي اجتاحت إيطاليا خلال ما يسمى بـ«غزوات البرابرة»، مثل شعوب الهون والأفار، الذين لم يأتوا من الشمال، بل من الشرق، كانت هناك شعوب تحمل معها التقاليد الدينية لآسيا الوسطى[1].

وكان أيضاً يُستخدم السفراء أحياناً لدعوة أحد الحكام لحضور حفل يُقام في القسطنطينية، مثل حفلات ختان الأمراء الصغار التي كانت تقام غالباً مع حفلات زفاف الأميرات النبيلات. وكان محمد الثاني قد طلب عام 1457 المشاركة في حفل مماثل، وكثيرٌ من خلفائه فعلوا الشيء نفسه، حتى وإن كانت السلطة العليا في جمهورية البندقية لم تتحرك أبداً للمشاركة فيها. ومن بين أكثر الحفلات شهرة تلك التي أقيمت عام 1582، وتوزعت دعواتها على باريس ووارسو وفيينا. وفي تلك المناسبة كان يصل إلى البندقية أيضاً رسلٌ آخرون لشراء سلع نفيسة للبلاط. وكذلك كان السفراء المرسلون إلى ملك فرنسا يمرون بالبندقية ثم يتابعون طريقهم من هناك. وقد اندهش الباريسيون من هذا الوفد الدبلوماسي غير العادي، حتى بدأوا يطلقون على هنري الثالث (1574–1589) لقب «الملك التركي» (*Le roi turc*).

(1) Id., *Ottoman Fetihnames. The Imperial Letters Announcing a Victory*, in «Tarih incelemeleri dergisi», 13, 1998, pp. 181-192.

ومع حلول النصف الثاني من القرن السادس عشر قلّت السفارات التي كانت تفاوض في شؤون السلم أو الحرب. وبدأ المبعوثون يهتمون أكثر وأكثر بالسلع المسروقة، والقرصنة والقراصنة، والمشتريات أو الأعمال التجارية من التجار اليهود. ومن أجل بنات عمومة اليهودي المتمسح منديث، وكنّ من أغنى النساء في ذلك الوقت، بذل اثنان من الرسل جهوداً حثيثة لكي يتركن إقامتهن بالبندقية وينتقلن إلى القسطنطينية[1]. وكانت آخر قصة معقدة تتعلق باليهود تلك المتعلقة بالمنازعات التجارية التي وَقَعت قبل وقت قصير من حرب قبرص، وتم إرسال الجاويش كوباد هذه المرة لإنفاذ حكم عدالة السلطان في منزله بمدينة البندقية.

ومن بين البعثات الدبلوماسية الأخيرة في البندقية كانت بعثة مصطفى آغا، الذي كُلِّفَ عام 1704 بإبلاغ نبأ اعتلاء أحمد الثالث (1703–1730) العرش. وقد كان البنادقة غير معتادين لسنوات عديدة، على استقبال سفراء عثمانيين؛ فنظروا إليهم بفضول كبير وهو الشيء الذي اكتشفه المبعوث فرَاح يسخر منهم بلطف.

وفي العقد الأخير من القرن الثامن عشر بدأت القسطنطينية أخيراً تشرعُ في ملاءمة أوضاعها مع النظام السائد منذ قرون في أوروبا، عبر إنشاء سفارات دائمة في العواصم الكبرى. وقد تم اعتماد السفارة الأولى عام 1793 في لندن. وفي عام 1795 تم اختيار مقار أخرى في: برلين، وسان بطرسبورغ، وفيينا، وستوكهولم، وكذلك البندقية. ومثْل الروس لم يأخذ

(1) A. di Leone Leoni, *The Hebrew Portuguese Nations in Antwerp and London at the Time of Charles V and Henry VIII. New Documents and Interpretations*, Jersey City (N.J.), Ktav, 2005, pp. 89-96; M.D. Birnbaum, *The Long Journey of Gracia Mendes*, Budapest -New York, Central European University Press, 2003.

البنادقة بالاقتراح، ولكنهم ذهبوا يفتشون في أوراقهم القديمة لعلهم يجدون طريقة يتعاملون بها مع الدبلوماسيين العثمانيين. وماتت رغبة سليم الثالث في إنشاء سفارة تركية في البندقية مع اندثار الجمهورية نفسها تحت سنابك خيل نابوليون. وحتى البعثات الأخرى، رغم إنشائها، فقد توارت مع نشوب حرب الاستقلال اليونانية في المدة المتراوحة بين 1821 و1829، حيث كان السفراء جميعاً من رعايا السلطان اليونانيين. وبعد مدة وجيزة قرر محمود الثاني إعادة المحاولة، وفتح سفارات جديدة عام 1834 في باريس ولندن، وعام 1835 في فيينا، وأعقبتها سفارات في برلين وأثينا وستوكهولم وسان بطرسبورغ وبروكسل وواشنطن. وفيما يتعلق بإيطاليا تم افتتاح المفوضية الأولى عام 1857 في بلاط سافوي بتورينو. وفي عام 1870 نُقلت إلى روما، وبعد حوالي عشر سنوات تم تحويلها إلى سفارة حقيقية. كانت قد مرت نصف ألفية منذ أن وصل أول سفير تركي إلى مدينة البندقية حاملاً رسالة من السلطان.

4. الرجال والاستقبال

قبل سقوط القسطنطينية كانت البعثات الدبلوماسية العثمانية التي تصل إلى البندقية تتكون عادة من شخصين، أحدهما تركي والآخر يوناني، يُرسَلان معاً حتى يساعد أحدهما الآخر، وكذلك لكي يراقبه. وكان من بينهم عدد قليل جداً من اليهود، الذين عدَّهُم المؤرخون طويلاً الوسطاء الوحيدين بين العالم العثماني وأوروبا. وقد كانوا في واقع الأمر لا يُستَخدمون إلا في أوقات الحرب، حتى يعطوا للبعثة شأناً أقل. وكان

الأكثر شأناً من بينهم سليمان أشكنازي، الذي وصل إلى البندقية في أغسطس من عام 1574، ولكن بعثته كانت مجرد مكافأة له لما قدّمه من جميل في حق المبعوث أو الصدر الأعظم أثناء حرب قبرص، عندما قَبِلَ أن يتولى الاتصالات بين الطرفين.

كانت نوعية الأشخاص تتناسب مع مهمة التكليف. ولم يكن العديد من جاويشات الإمبراطورية مجرد رسل، ولكنهم أعضاء هيئة مكلفة بنقل رسائل الحاكم بعيداً عن العاصمة، وكذلك التصرف باسمه في بعض الأمور مثل تنفيذ أحكام الإعدام، وكانت العصا التي يحملونها رمزاً لسلطتهم، ثم كان هناك مترجمو الديوان الإمبراطوري، وكانوا يُستخدمون لمعرفتهم باللغات الأوروبية، وفي أواخر القرن السادس عشر وَفَد أيضاً تجار البلاط، لشراء المنتجات الفاخرة على نحو خاص. ثم كان هناك حامل رسائل بسيط مكلّف بتسليم الرسائل الخاصة، أو تخصيص انكشارية أو جنود آخرين لمرافقة السفراء والمبعوثين المقيمين من البنادقة إلى القسطنطينية وجعل رحلتهم أقل صعوبة وخطورة. وتتباين نوعيات ممثلي الدولة العثمانية إلى حد كبير، وكذلك السلطات المخوّلة لهم بالتحدث والتصرف نيابة عن الحاكم. كان بعضهم سفراء، أو «إيلجي» كما تقال بالتركية، حقيقيين، أو حتى وزراء مفوضين يمكنهم التفاوض في أمور الحرب والسلام. وكان هناك أيضاً العديد من المتفرقة، وهؤلاء هم أعضاء من النخبة معظمهم من شبان المجتمع العثماني الراقي، يُبعثون إلى البندقية على اعتبار أن هذه البعثة مربحة مادياً، وأيضاً مصدر للهيبة لمن يتقلدها. أما الأغلبية، فكانت مجرد متحدثين باسم السلطة يُستخدمون

لحل المشكلات التي لا يمكن إرسالها إلى القسطنطينية وتتعلق بالتجار، أو القراصنة، أو العبيد أو النزاعات الحدودية. وفي الولايات التابعة يتم إرسال موظفين أو وكلاء أو سكرتارية (كخيا) بدلاً من المبعوثين. وقد قَلَّدتْ قصور الشخصيات البارزة في الدولة العثمانية بلاط السلطان قدر الإمكان، فكما كانت توجد هيئة جاويشية وانكشارية في القسطنطينية، كان هناك بالطريقة نفسها موظفون نظراء عند البيلربايات والسناجق والصدر الأعظم وكبار القادة.

ومن بين أولئك الذين لهم الحق في الكلام والتصرف باسم السلطان السفراء. ومنهم السفير الشهير قرة محمد، الذي كان سفيراً في فيينا عام 1665، ولم يكن كما يقول المؤرخون هو الأول الذي تم إرساله إلى الغرب، ولا حتى سليمان آغا الذي كان سفيراً في فرنسا بعده بأربع سنوات. وفي حالته اكتشف الفرنسيون أن الخطاب الذي يحمله ليس خطاب اعتماد سفير، فرفضوا مثوله أمام الملك لويس الرابع عشر الشهير بالملك الشمس (1643–1715م)، ولم يتم قبوله إلا بعد العديد من الاعتراضات، ولكن لم يُسمح له بتسليم رسالة السلطان محمد الرابع كما أمره. ووفرت مزاعمه (بعلو مكانة السلطان العثماني على مكانة الملك الفرنسي) ومواقفه، نقطة الانطلاق لموليير حتى يكتب مسرحيته الشهيرة «البورجوازي الظريف» (1670)، والتي اُشتهرت بتقديمها «للتركيات» أي كل ما يتعلّق بالدولة العثمانية، ولا تزال هذه المسرحية تذكّرنا حتى اليوم بسوء الفهم الدبلوماسي.

والواقع أن المجتمع العثماني كان يمثّل عالماً شاذاً وفوضوياً، بالنسبة

إلى من اعتاد على اعتبار النبل الشرط الأساسي للوصول إلى أعلى المراتب، حيث يمكن لأي شخص أن يصل إلى أعلى المراتب اعتماداً على جدارته الخاصة. والكلمة «كول» تعني الرقيق، والتي تشير في القسطنطينية إلى أعضاء الطبقة الحاكمة التي تخلت عن انتماءاتها العرقية الخاصة وطبقتها الاجتماعية لكي يصبحوا عثمانيين، وكانت هذه الكلمة مصدراً لسوء الفهم. وكل كبار الدولة بمن في ذلك الصدر الأعظم كانوا من الكول أوغلي، أو «عبيد الباب العالي»، وكانوا ينتمون إلى الأسرة الكبرى للحاكم. ويُستثنى من ذلك القضاة والعلماء وقاضي عسكر أي القضاة العسكريون، وأيضاً شيخ الإسلام، أي أعلى سلطة في الدولة في مجال الشريعة، بمعنى كل أولئك الذين درسوا في المدارس الدينية والذين اختاروا مهنة القضاء أو رجل الدين. أما في أوروبا، فكانت كلمة «العبد» تثير دلالات مختلفة تماماً. وماكيافيلي نفسه، في كتابه «**الأمير**» (1513)، قال في الفصل الرابع وهو يمتدح صلاحيات ملك فرنسا:

«يخضع كلّ النظام الملكي التركي لسيد واحد، والباقي عبيده: ويقسّم مملكته إلى سنجقيات، ويرسل إليها مديرين مختلفين، ويغيّرهم ويبدل فيهم كما يحلو ويبدو له، ولكن ملك فرنسا يجلس وسط كثرة من السادة، الذين يعترف بهم رعاياهم ويدينون لهم بالحب، ويستقون منهم امتيازاتهم التي لا يستطيع الملك أن يسلبهم شيئاً منها دون خطر عليه».

ومن ثَم كان سهلاً، من وجهة النظر الغربية، اعتبار المبعوث العثماني، الذي ربما تم اختياره لمهاراته أو معرفته اللغوية، شخصاً قليل الوزن السياسي. وكما حاول أن يشرح ذلك الجاويش حسن للدوجي يوم 25

يونيو 1580، ومهما كانت المهمة التي يتولاها في الوقت الحالي أو سبب بعثته، فإنه مثل الموقد عندما يكون مشتعلاً، إذ يشع نوراً، وعندما ينطفئ لا يبقى منه إلا الفحم. وهكذا فإنني وأنا أؤدي هذه المهمة، فإنني مثل الموقد أتلقى النور من سيدي الذي أمثّله، ولكن بعد أن تنتهي مهمتي وأفي بما كلفني به، أظل كما أنا، رماداً، وسأبقى كما أنا قطعة من الفحم[1].

وربما كان من بين أهمّ مبعوثي القرن السادس عشر والقائمين على البعثات مترجمو الديوان الهمايون، أي الديوان الإمبراطوري. إذ أكسبتهم مهاراتهم اللغوية في الواقع كفاءة التفاوض المباشر مع حكام الغرب، على الرغم من كونهم في كثير من الأحيان وخلال جلسات الاستماع، يتحدثون أيضاً بالتركية العثمانية، ومن ثم يحتاجون إلى مترجم آخر. ولم يكن ذلك لاكتساب أهمية ذاتية قدر ما كان حيلة لا تزال تُستخدم في الاجتماعات رفيعة المستوى، لتوفير المزيد من الوقت لفهم السؤال وصياغة رد مناسب. ومنذ عام 1514 وحتى حرب قبرص كان جميع أولئك الذين شغلوا منصب المترجم الإمبراطوري قد جاءوا إلى البندقية. فقد بدأ علي بيك عام 1514 وعام 1517. وكان بندقياً اعتنق الإسلام، وهو حفيد النبيل ليوناردو (ربما ينتمي لعائلة باربارو من سانتا ماورا، وعند وصوله إلى البندقية لاحظ الجميع التشابه غير العادي بينه وبين نبيل آخر هو باولو فالاريزو. وقد مات بالطاعون عام 1526 عن عمر يناهز السبعين عاماً.

وجاء أيضاً يونس بيك إلى المدينة ست مرات، والذي حل محله في موقع المسؤولية. المرة الأولى عام 1519، عندما كان مجرد عضو صغير في

(1) ASVe, *Collegio, Esposizioni principi*, f. 3, cc. 294-298v.

سلاح الفرسان. ثم عاد عام 1522، وبعد أن أصبح ترجماناً إمبراطورياً، عاد مرات أخرى في أعوام 1530 و1533 و1537 و1542. وقد كان معنى أن ينفرد شخص واحد ببعثات كثيرة أنه سعى إلى الحصول عليها، فالبعثة للبندقية تعني في المقام الأول مكسباً مادياً كبيراً، كما تعني كثيراً من الهدايا التي يتلقاها والمبيعات والمشتريات التي يحصُل عليها معفاة من الضرائب. وقد كان يونس شديد الاعتزاز بنفسه وبالغ الثقة، لدرجة أنه يمكن القول إنه في عام 1533 لم يكن الشخص الذي يمكن مقايضته بخمس علب من الحلويات!!؛ ولهذا السبب بالذات اتخذ لقب ابن عبد الرحمن، وهو اللقب الذي يُعطى لمن اعتنق الإسلام وأنجز عملاً مهماً، بدلاً من لقب «عبد الله» الأكثر شيوعاً، وقد وُلد في مودوني، ابناً لجورج تارونيتي من زانتي، وهو أيضاً كان مسيحياً ومن البندقية، ولم ينس أسرته الأصلية، حتى إنه طلب في البندقية مكتباً في جزيرة زانتي لابن أخيه نيكولو ستيفاني ووظيفة في قلم الكتاب لابن أخ له اسمه أنطونيو. كما تحوَّل أحد إخوته للإسلام، وكان اسمه مصطفى آغا، وحصل على أعلى المناصب كبيسي باشي (رئيس حراس القصر الإمبراطوري) وجاويش باشي (رئيس جاويشية الإمبراطورية). وكان يونس رجلاً وسيماً، طويل القامة، مهيب المظهر. يتحدث باللغات الإيطالية واليونانية والتركية، وكان أول من وصل إلى البندقية مع حاشية كبيرة تتضمن ترجماناً مثله بدرجة أقل، وهكذا أمكنهم تعلم قواعد الدبلوماسية الدقيقة والخفية، وفي عام 1542، على سبيل المثال، كان معه الشاب جعفر الذي عاد بعد ذلك رئيساً للبعثة عام 1546.

وقد مات يونس يوم 22 يونيو عام 1551، وحل محله البولندي إبراهيم الذي جاء مرتين سفيراً إلى البندقية عام 1555، وعام 1567. وكان هذا أيضاً قد اعتنق الإسلام رغم أنه ينتمي إلى المجتمع البولندي الأرستقراطي. كان اسمه يواكيم ستراش وكان يُدعى غالباً باسم «فارس» في وثائق البندقية. وقد أسَرَه الأتراك خلال حملة الكونت كاتزاينر عام 1537، فانتقل إلى القسطنطينية حيث أصبح مترجماً إمبراطورياً، وتولى إبراهيم الكثير من البعثات في الخارج، فكان في فرانكفورت عام 1562، والنمسا عام 1568، وفي فرنسا وبولندا عام 1569، وتوقفت مسيرته بسبب الشك في خيانته فتم إيقافه عن عمله، وتجدر الإشارة إلى أنه عندما كان شاباً درس لمدة أربع سنوات في بادوفا، وخلال بعثته الثانية في البندقية طلب الذهاب إلى المدينة الجامعية في رحلة حنين بحثاً عن شبابه وعن أحد أقاربه وكان رئيس أساقفة يقيم هناك ليكمل دراسته، وأُجيب إلى طلبه. ولم يكن، مع ذلك، المترجم الإمبراطوري الوحيد الذي درس في مدينة القديس التاريخية، وفي القرن السابع عشر، كان أول من حصل على لقب باش ترجمان (كبير المترجمين)، هو باناجوتي نيقوسياس، بعد أن تخرج في كلية الطب قبل أن يصبح طبيباً للصدر الأعظم محمد كوبرولو ثم مترجماً. كذلك كان خليفته، ألساندرو ماوروكورداتو، طالباً في جامعتيْ بولونيا وبادوفا، وبدأ مسيرته بأطروحة علمية عن الدورة الدموية، ثم شارك في الوفد الذي تفاوض على السلام في كارلوفجه.

وعام 1570 وصل إلى البندقية محمود، الترجمان ألماني الأصل ماراً بها في طريقه إلى فرنسا، وعندما وصل إلى المدينة السفير الفرنسي كلود دو

بورغ، الذي كان قد وصل معه من القسطنطينية، خشي أن يحرج حاكمه بحضوره غير المناسب في لحظة توتر دولي، ففضل المماطلة بحيث يظل محمود في المدينة في انتظار استكمال الرحلة، وذلك عندما تم رفض الإنذار العثماني بشأن جزيرة قبرص. وباعتباره سفيراً معتمداً لدى دولة أخرى فإن البنادقة أعدُوا أنفسهم أحراراً في وضعه قيد الإقامة الجبرية لأول مرة في البندقية ثم في قلعة سان فليتشه في فيرونا. وهكذا بدأت مغامرة استمرت ثلاث سنوات، حتى انتهاء الأعمال العدائية عندما تمكّن من العودة إلى بلده ومعه هدية من الملابس الثمينة وألف دوقية، مثله مثل المبعوثين الآخرين المعتمدين لدى الجمهورية في تلك السنوات. ثم تولى محمود المكان الذي كان ليونس وإبراهيم. ومن بين رحلاته الدبلوماسية نذكر رحلة ترانسلفانيا عام 1549 وآخرها عام 1575 في براغ، حيث توفي.

ومن بين المترجمين الآخرين الذين جاءوا إلى البندقية مصطفى، وجاويش، وترجمان من أصل مجري: تم إرساله في مايو 1574 إلى ترانسلفانيا ومن ثم إلى البندقية حيث حمل أخبار خلافة مراد الثالث على العرش. وفي نهاية عام 1577 ذهب إلى بولندا لتجديد عهد السلام، وسافر مع جاويش أحمد إلى ترانسلفانيا عام 1581. وذهب إلى بولندا عام 1576، وعام 1578، ومرة أخرى عام 1583. وأجرى اتصالات لمصلحة الباب العالي مع كانتونات سويسرا عام 1581 والملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا، وخصوصاً عبْر الإنجليزي وليام هاربورن.

وعندما يتم اختيار مبعوث لبعثة في البندقية كان عليه أن يقدّم نفسه فوراً للمبعوث البندقي المقيم، بحيث يستطيع الإبلاغ المبكر عن

وصوله. وعدم مراعاة هذا الإجراء ينطوي على التعرض لخطر اعتباره مبعوثاً زائفاً. وبعض ذوي الخبرة الجيدة، أو من لديه أصدقاء في البلاط العثماني، نجحوا على أي حال في اتباع البروتوكول والوصول إلى البندقية مبعوثين، دون أن تكون لديهم جميع الأوراق السليمة نظامياً. وقد كانت هذه على سبيل المثال حالة مصطفى آغا، عضو النخبة المتعلمة عام 1609. وكان شاباً في السادسة والعشرين من عمره، ولديه مال كثير، وينتمي إلى مجتمع عثماني راق، وأوضح على الفور أنه إنما جاء بحثاً عن الدعة والمتعة، وليس في بعثة رسمية. واستقبله الدوجي في المجمع على أي حال، وبعد أن أخافه بأنه سوف يبلّغ القسطنطينية عن لهوه، أعاده إلى بيته ومعه هدية صغيرة.

وعادة ما كانت الرحلة إلى البندقية تتم في جزء منها على البر، عن طريق البلقان، ومن ثم عن طريق القوارب من أحد الموانئ على الساحل الأدرياتيكي مثل راجوزا أو سبالاتو أو زارا. وتختلف أنواع القوارب تبعاً لخطورة البحر. وكان القارب المسلح هو أقلها راحة، لكنه كان أكثر أماناً من الزورق غير المسلح. وقبل أن يُسمح للقادم بالدخول إلى المدينة كان يتم إرساله ومرافقيه إلى الحجر الصحي؛ لكي يقضي المدة الضرورية للحجز. ولتجنب ترك الدبلوماسيين، وكذلك التجار، ينتظرون طويلاً، عادة ما كان يُسمح لهم بقضاء هذه المدة في ميناء دلماسيا التابع للبندقية. وبعد أن يحصل على الشهادة الصحية يصل السفير العثماني إلى الليدو، حيث يُستقبل في دار مجلس العشرة، وهو مبنى أحمر، ما زلنا نراه، في منطقة سان نيكولا. ومن المفترض أن يرافقه موكب بحري إلى البيت

الذي خصص له. ويتنوع عدد أعضاء مجلس الشيوخ الذين يعتلون القارب الذهبي مسطح القاع المستخدم في التكريم، حسب نوع البعثة. وعموماً، وفي أغلب الأحوال، ومهما كانت أهمية البعثة، فإن عدد من يستجيبون للدعوة كان قليلاً. فقد كان نبلاء البندقية، في الواقع، وخاصة في القرن السادس عشر عندما بدأ وصول عدد كبير من البعثات، يُعدون هذا التكالب مملاً وقليل الأهمية.

وقد كان منزل السفير عادة ميزا قصر في البندقية. وتعبير الميزا (*mezà*) يُقال في البندقية عن الشقة التي تتكون من حجرات قليلة مقتطعة من بعض القاعات عالية السقف في الطابق الذي يقع بين الطابقين الأرضي والأول، وفي بيوت التجار القديمة كان بمثابة المكتب أو غُرف مجهزة سهلة التدفئة في الشتاء، وكانت القاعات عالية السقف، وبعضها يصل ارتفاعه إلى نحو ستة أمتار، وقد كانت تُستخدم أيضاً غرف تمثيل، بينما كانت تُستخدم غرف الطابق الأرضي للمحال والمخازن على الجانبين، يميناً ويساراً، وبينهما ممر رئيس، وكان يتم تزيين الغرف المختارة على الطريقة التركية، بالسجاد والأثاث المنخفض، بحثاً عن راحة المبعوث، وفي العادة يتم اختيار جزيرة جيودكا، من حيث إن الوصول إلى مركز المدينة يتطلب ركوب جندول، ومن ثم تسهل مراقبة أعضاء المفوضية، وفي بعض الأحيان، إذا كان هناك بالفعل سفير آخر لولاية عثمانية في الجزيرة، يتم اختيار مكان آخر، يكون غالباً في أحد القصور التي تقع على القناة الكبرى. ونادراً ما يُترك المبعوثون في الفنادق، وفي العصور الوسطى فحسب، العادة التي كانت تقتضي إسكانهم في بعض الفنادق في

سان ماركو، والتي يملكها مدعي البندقية العام، وتُستخدم دور ضيافة للدولة. وفي العصر الحديث اقتصر هذا الحل على الانكشارية فحسب أو العسكريين المبعوثين لمرافقة مبعوث القسطنطينية.

وقد تم إيواء المبعوثين العثمانيين أساساً في قصور مختلفة في جيوديكا، أولها وأهمها دار داندولو ذات البرج، وبديلاً عن ذلك، ومن بين المباني المنتشرة في النسيج الحضري، يمكننا أن نذكر بيتاً آخر لداندولو، وهو الآن فندق قصر دانييلي في سان ماركو: أقام يونس فيه عام 1529؛ لكي يلتقي سرّاً برسول من ماركيز مانتوفا، الذي كان يسكن القصر نفسه. كما استضاف قصر داريو على القناة الكبرى علي بيك عام 1504، وسليمان عام 1515، ومصطفى عام 1516. ومن المؤكد أنها محض مصادفة، لكن السفير الذي حمل الهدية المريعة لرأس آدمي محشو بالقش، هو نفسه الذي أقام في القصر الذي تدور حوله أساطير غامضة عن وجود لعنات قاتلة تجعل أصحاب القصور، منذ قرون، ينتهون نهاية مأساوية.

ويتم استقبال المبعوث، مرتين على الأقل في القصر الدوكالي أياً كان موقعه من التسلسل الهرمي. الأولى لتسليم الرسائل وخطابات الاعتماد، والثانية لتلقّي الجواب والإذن بمغادرة البلاد. وكانت هناك أيضاً حالات كثرت فيها اللقاءات، ويحدث هذا عندما يحظى المبعوث بصلاحيات أوسع تمنحه القدرة على التعامل مع شؤون الدولة، وعلى سبيل المثال عند التوقيع على معاهدة السلام والقَسَم عليها من قِبل الدوجي يوم 10 فبراير 1514 ذهب الترجمان علي بيك إلى القصر سبع مرات سواء في جلسات خاصة أو عامة.

ونادراً ما كان المتحدث باسم السلطان أو الصدر الأعظم يحمل هدية كبيرة القيمة. أما الهدايا التي يرسلها الولاة فكانت أعلى قيمة. وفي عام 1522، على سبيل المثال، أرسل سنجق البوسنة جوادَيْن إلى الدوجي. ومن البوسنة أيضاً وصل عام 1587 كخيا ومعه غطاء مائدة وبعض السجاد، وفي عام 1591 وصل أحمد شلبي حاملاً من جانب البيلرباي حسن قفازاً مطرزاً لمروِّض صقور، وقد كان بالفعل من قفازات السلطان، وقوساً، وجعبة، وثلاثين سهماً وسجادة صغيرة، وهذا السلوك ليس مستغرَباً؛ لأنه كان جزءاً من المراسم العثمانية التي تقتضي بأن يقدّم الأدنى هدايا قيمة للأعلى في مقابل الحصول على امتيازات، وهدايا أقل قيمة كلما ارتفعت مرتبة مقدم الهدية في السلم الاجتماعي[1]. وكان البنادقة، عندما يحصلون على هدايا من الأسلحة يسلّمونها إلى مجلس العشرة، وكثير منها لا يزال محفوظاً في متحف كورير. أما السجاد، فكان يُستخدم لإغناء الكنيسة الدوكالية، بينما كان القماش يُستخدم في صنع المعاطف والثياب الكنسية الأخرى.

وبعد جلسة الاستماع الرسمية يبدأ الجزء الأكثر إمتاعاً من الرحلة. إذ تتم مصاحبة المبعوث لرؤية مخازن البضائع، وفي حالة البعثات الهامة يتمّ عمل معرض أو مهرجان لعرض السلع، كما هو الحال عند زيارة أمير أو حاكم أوروبي للمدينة. ويمثّل سوق ريالتو نقطة جذب لا يمكن التخلي

(1) ASVe, *Collegio, Esposizioni principi*, reg. 7, cc. 153-154v; reg. 9, cc. 157-157v; M.P. Pedani (a cura di), *Inventory of the «Lettere e Scritture Turchesche» in the Venetian State Archives*, basato sul materiale raccolto da A. Bombaci†, Leiden-Boston (Mass.), Brill, 2010, n. 462; Sanudo, *I diarii*, cit., vol. XXXIII, col. 440.

عنها. والحقيقة أن كثيراً من المبعوثين يأتون إليه محمَّلين بالبضائع؛ لكي يبيعوها ويشتروا بعائدها بضائع أخرى قيّمة؛ من أجل الحصول على ميزة اقتصادية إضافية، وكذلك كان أعضاء الحاشية المرافقة يفعلون الشيء نفسه، وأحياناً كانت السلطات البندقية تتدخل لمراقبة سير عمليات التداول عندما تشيع أخبار وصول رسول الباب العالي، فترتفع الأسعار على الفور.

وإضافة إلى التجارة يجري تنظيم عروض ممتعة أخرى. فيتم توفير أكثر من جندول للمبعوث ومرافقيه، ويصاحبه مترجم، وبعض شبان النبلاء، الذين يكلَّفون بمنصب «عالم تحت الاستدعاء»، حيث يبدأ بهذا العمل حياته المهنية السياسية، ومن أراد من المبعوثين أن يذهب إلى سان ماركو لرؤية «الكنز» كان ييسر له ذلك، ووحده الترجمان يونس هو الذي توقف؛ لكي يستمع إلى قداس الغروب. وفي كثير من الأحيان يتم تنظيم حفل طعام في الشرفة الواقعة على قمة برج أجراس سان ماركو من نبيذ مالفازيا والحلويات، وذلك لقضاء وقت لطيف للاستمتاع بالمنظر البانورامي، ولم يكن جميع المبعوثين من الملتزمين بالقواعد الغذائية الإسلامية، ولكن ينبغي الإشارة في هذا الصدد إلى أن العثمانيين كانوا يتبعون المذهب الحنفي، الذي يسمح بشرب المشروبات المختمرة قليلاً. وعلى كل حال كان بعضهم يظهر متمسكاً بإسلامه بصرامة، مثل يعقوب، الذي صام نهار رمضان مع حاشيته عام 1504، ولم يُقم مآدب الطعام إلا ليلاً.

ثم تأتي زيارة ترسانة السفن، التي تثير الدهشة عند الزائرين

الأوروبيين أكثر من العثمانيين. ففي القسطنطينية كانت توجد ترسانة ضخمة هي ترسانة قاسم باشا، وكانت هناك ترسانات كثيرة في موانئ الإمبراطورية. كما لم تكن هناك سفينة يتم صنعها كلها في يوم واحد حتى تثير دهشة سفير عثماني، كما حدث عام 1574 لملك فرنسا هنري الثالث، فقد وصل في الصباح إلى موقع العمل، وفي المساء رأى السفينة جاهزة للتعويم في الماء، وإن كان في الأمر حيلة صغيرة، فقد كان البنادقة قد بنوا السفينة بالفعل قبل قدومه، ثم فككوها وأعادوا تجميعها قطعة قطعة أمامه، كأنها سفينة سابقة التجهيز. وخلال الزيارة عادة ما تقام في الترسانة أيضاً مأدبة عشاء، وأحياناً ترقص زوجات العمال وبناتهم للضيوف، كما يستدعى أحياناً أحد المهرجين، مثل المهرج الشهير جوفاني بولو، ذائع الصيت في البندقية بسبب العرض الأوليّ لمسرحية «ماندراجولا» (*Mandragola*) (1518) لماكيافيللي، والتي لم يحضرها أحد؛ لأنه كان يمثل في مسرح آخر. وقد أعجب الترجمان الإمبراطوري علي بيك بنكاته، لدرجة أنه ظل يدفع له سِيكوِيناً ذهبياً يومياً مدة إقامته في المدينة حتى يأتي إليه ويسامره بنكاته.

لكن الحفلات التي كانت تقام في القصور هي الأكثر بذخاً وثراءً. فأن يكون لديك سفير للسلطان من بين ضيوف حفل الزفاف هو ما يسمح لك بتجنب قوانين الإنفاق البندقية الصارمة التي وضعت سقفاً لما يمكن أن تنفق على مثل هذه الاحتفالات، ولذا استغل النبلاء شديدو الثراء بكل سرور حضور السفراء للاستفادة من فرصة إظهار ثرواتهم. وحدث هذا على سبيل المثال عام 1512 عندما تم إرسال سميز لحضور

زفاف مزدوج لابنة جيرولامو مالبييرو من ألفيز باروتسي، وابنة برناردو بوندومير من جورجو جورو. وعلى العكس نظم بيترو جوستينياني حفلة رقص على شرف علي بيك عام 1514، وتكَّرمَ المبعوث نفسه بالرقص مع سيدة تدعى لوتشيا وامرأتين أخريين. واستضافت عائلة زين، التي كان لها العديد من الاتصالات مع الباب العالي في قصرها المخصص لجامعة الصليب «الأحمر حسين» على مأدبة في عام 1530؛ وأقيمت مأدبة أخرى في عام 1581 بواسطة سيباستيانو كونتاريني شقيق المبعوث المقيم لـ«حسن آغا».

كما كانت هناك حفلات عامة قليلة لا يستطيع سفراء المسلمين وكذلك زوجاتهم المشاركة مباشرة في مراسمها المدنية، لكنهم يكتفون فقط بحضورها عن بعد، كما هو مبيّن في مطبوعة جميلة لماتيو باجان عام 1559، والتي تصوّر الطابور الدوكالي: الدوجي يرافقه أسقف كنيسة سان ماركو، وتسبقهما شارات السلطة، ويليهما موكب طويل يجتاز الميدان، بينما تراقب المشهد من نوافذ قصور الميدان النساء وكبار الشخصيات. ومن النوافذ نفسها شاهد «مصطفى» عام 1504 مهرجان الصيد السنوي للثيران والخنازير، وتمثيلية لحكاية أورفيوس، وباليهات أخرى، واستعراضات يتم تنظيمها بمناسبة اختتام الكرنفال. أما علي بيك فقد راقب من هناك عام 1514 الموكب الرسمي الحزين الذي رافق نعش القاصد الرسولي بيترو دي بيبينا، وقد توفي بنوبة قلبية في اللحظة التي أبلغوه فيها أن سفيراً للسلطان قد وصل إلى البندقية. ولم يكن الجميع يقدّرون مثل هذه المشاهد، مثل أحد المسلمين الذي قال عام 1525 إنه كان

يفضل مبارزة بالسيوف على مثل هذا الموكب الجنائزي الذي حضره. أما السفراء الأكثر تكريماً فهم أولئك الذين كانوا يوضعون في جزيرة الليدو. وأما الترجمان إبراهيم فقرر على العكس حضور مسرحية ثم ذهب إلى جزيرة مورانو ليرى كيفية صناعة تحف الزجاج الشهيرة للجزيرة، وهو ما فعله حسن أيضاً عام 1581، وفي عام 1530 حضر حسين مأدبة في قصر بريولي، أحد قصور الجزيرة، نظمها جورجو جريتي ابن الدوجي وشقيق ألفيز الذي سُمي في القسطنطينية بايوغلو أي «ابن النبيل». وفي عام 1518، أراد يونس الخروج لمشاهدة مكاتب الرهونات في الجيتو اليهودي متلمساً بلا شك بعض الصفقات. وطلب عدد قليل جداً من السفراء السفر إلى البر الرئيس. وقد زار بادوفا كل من مصطفى عام 1519، وإبراهيم عام 1566 ثم عام 1591، وربما أيضاً أحمد بيك شلبي جاويش بيلرباي البوسنة، وذلك بحثاً عن شخص يفلح في علاج معدته، ثم كانت بعد ذلك لحظات حميمية وشخصية، لم تبق منها سوى آثار قليلة في الوثائق القديمة، مثل حفل القيثارة والكمان الذي استمع إليه المبعوث كابود في بيته بجوديكا عام 1569 مع البحيرة في الخلفية والشمس لحظة الغروب.

ومن بين اجتماعات البندقية النادرة جداً والمراقبة جداً، كانت تلك الاجتماعات التي تُعقد بين المبعوثين وأفراد الطبقة النبيلة، حيث لم يكن مسموحاً بعقد مثل هذه الاتصالات، باستثناء مرافقة شبان النبلاء المكلفين بذلك وكانوا يكتبون تقارير عن مهماتهم يتم رفعها إلى المجمع. وعلى الرغم من العلاقات الودية مع القسطنطينية كان ينبغي طلب الإذن لعدم إثارة ارتياب السلطات، كما حدث مع فاليريو مارتشيللو الذي

تعرض لخطر تقديمه للمحاكمة من قِبل مجلس العشرة؛ لأنه أهدى خريطتين لدلماسيا وأستريا إلى يونس، رغم أنه كان يستضيفه في قصره. أما على الجانب الأخلاقي فكان هناك دائماً تسامح أكبر. وإنما بعد رحيل المبعوث يحاكم من سايره، مثلما حدث مع شخص اسمه آدم عام 1520؛ لأنه رافق أحمد، وقد كانت ليونس أيضاً الميول نفسها، ففي عام 1533 كاد يتصادم مع السلطات لمنعها إياه من أن يأتي معه بشاب من عائلة نبيلة قدمه إليه مضيفوه أنفسهم وقضى معه بضعة أيام ممتعة.

لقد كان البنادقة دائماً حريصين على احترام التقاليد العثمانية، التي تنص على توفير الغذاء والمأوى والملبس للسفير. وفي آخر استقبال للمبعوث بالقصر الدوكالي كان السفير ومرافقوه يَمنحون الحلل الفاخرة والقفاطين وأزياء الانكشارية المصممة خصيصاً على الموضة التركية. وفي بعض الأحيان يستغل الخياطون الأيام التي يمرون فيها بالبندقية لأخذ مقاساتهم بحيث تصبح الملابس مضبوطة بدقة. أما المأكل فكان يقدم مباشرة من البنادقة، وكذلك الحطب لطهي الطعام والتدفئة، أو يمكن التعويض عن ذلك بمبلغ ثابت، وكان هناك سعي إلى أقصى حد ممكن لتلبية رغبات المبعوثين، إذا تقدموا بأي التماس لإلغاء حكم بالسجن أو الإفراج عن سجين أو تقديم وساطة. ويمنحون عطية تبدأ من مائتي دوقية، وتصل في بعض الأحيان إلى ألف دوقية. وفي عام 1542 تم تسليم مبلغ يصل إلى ستة آلاف دوقية ليونس، نظراً إلى منصبه في البلاط، لذلك لا يبدو من الغريب أن الترجمان أمر في ذلك العام المهندس المعماري التركي الشهير سنان ببناء مسجد له: جامع الترجمان يونس بإسطنبول.

ومن الهدايا المقبولة أيضاً المربى أو الحلويات أو السكر أو الشمع، أو زجاج المورانو، والساعات أو حتى البنادق.

وقد تمتد الإقامة في المدينة إلى بضعة أشهر، إذا تطلّب العمل ذلك، أو تقتصر على عشرة أيام. وكانت أقصر مدة هي التي قضاها كوباد الذي وصل بالإنذار بشأن قبرص عام 1570. فلم يمكث بالمدينة سوى المدة الكافية لاستقباله وغادر على الفور قاطعاً مسار الرحلة كله في زمن قياسي قدره ستون يوماً.

هكذا يعود المبعوث إلى وطنه محملاً بالمال والتكريم. وتشبه رحلة العودة رحلة الذهاب: إبحار حتى شاطئ دلماسيا أو راجوزا، على حساب الجمهورية، ثم بعد ذلك على الحصان عبر البلقان حتى القسطنطينية. وفيها تنتظره مقابلات مع مسؤولين بالدولة، وربما أيضاً صياغة تقرير رسمي. والحقيقة أننا نجد في أرشيفات إسطنبول تقارير سفراء ومبعوثين في العواصم الشرقية والغربية. وللأسف لم يتم العثور على أي تقرير يتحدث عن البندقية رغم العدد الكبير من المبعوثين الذين تم استقبالهم في القصر الدوكالي.

الفصل السادس

البنادقة في الشرق

1. من فندق البندقية إلى دار الرسل

«خان *'Han'* –موقف القوافل *'caravanserraglio'* – فندق *'fondaco'*» ثلاث كلمات مختلفة تعبّر عن الفكرة نفسها، أي النُزل الذي يستضيف الرحالة والتجار الذين يجوبون طرق البحر المتوسط وآسيا. ومعظمها مجمعات ضخمة مخصصة لتوفير مكان إيواء للأشخاص والحيوانات والبضائع، ومن ثم تحتوي على غرف، ومخازن، وحظائر، ومحال يمكن أن تُشترى منها حاجيات الطعام والشراب، كما تحتوي في الغالب أيضاً على سوق. والفنادق من هذا النوع منتشرة في العصور الوسطى وقد ارتادها البنادقة، من تانا في القسطنطينية إلى الإسكندرية بمصر وإلى تونس أيضاً. لقد دفع هذا البندقية لطرح حل مماثل للأجانب الذين يصلون إلى المدينة؛ لأن تجارها اعتادوا على استخدامها في المدن الإسلامية. فهناك جيتو اليهود الشهير، وفندق الألمان، وفندق الأتراك، وكلها لم تكن إلا أحياء منفصلة، حيث كان بوسع من له دين وعادات مختلفة أن يحتفظ بهويته، على أن يدفع مقابل ذلك الانعزال في ساعات الليل. وبالمثل كان الأمر في الإسكندرية بمصر أو في تونس، حيث كان يغلق على الأجانب ليلاً في

خانهم، ولا يسمح له بمخالطة السكان إلا نهاراً[1].

أما مصطلح فندق، فيُستخدم أيضاً في اللغة العربية، مأخوذاً من الكلمة اليونانية (*pandokeion*). وثمة في العالم الإسلامي نوعان مختلفان من الفنادق من حيث الوظيفة، وإن كانا غير مختلفين من الناحية المعمارية. النوع الأول هو المنتشر على الطرق لاستضافة أي تاجر بلا تمييز، من أي منطقة وبأي دين. أما النوع الثاني فيوجد في المدن الكبرى، ويميل فيه التجار إلى التقسيم وفقاً للدين، وفي كثير من الأحيان وفقاً لجهة قدوم معينة، في المواقع الأكثر أهمية أيضاً، مثل الإسكندرية أو القسطنطينية، تضاعفت المباني وكانت هناك فنادق للبنادقة، ولأهل جنوة، وللقطالونيين والجماعات الأخرى.

وقد استخدم البنادقة كلمة فندق منذ القدم للإشارة إلى المكان الذي اعتاد تجارهم الإقامة فيه في المدن البعيدة. فقد اعتادوا التنقل في مجموعات، تحت إشراف الدولة، ومن هنا أعطوا أهمية خاصة لهذا المبنى حيث كان يعيش في كثير من الأحيان القنصل أو المبعوث المقيم ومعاونوهما. أما في مصر فكانت الحكومة المحلية هي التي توفّر الفنادق للأجانب بالإيجار. وفي الأماكن الأخرى، على سبيل المثال في تانا، كان البنادقة أنفسهم يملكون الفندق. وفي العصور الوسطى، بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، استفادت البندقية من فتح طرق التجارة التي سمحت بها مدة من الهدوء سُميت «السلام المنغولي»، فأنشأت جماعات هامة للتجار سواء في المدن الإسلامية مثل تبريز، وتانا، وسوداك، وحلب، ودمشق،

(1) E. Concina, *Fondaci. Architettura, arte e mercatura tra Levante, Venezia e Alemagna*, Venezia, Marsilio, 1997, pp. 65-114.

والإسكندرية بمصر، وتونس، أو في المناطق المسيحية. فكانت هناك فنادق في عاصمة إمبراطورية طرابزون، وفي المملكة البلغارية، في فارنا وسوزوبول؛ وفي الإمبراطورية البيزنطية القسطنطينية وسالونيك. وفي رومانيا في إبيروس لنيغروبونتي، وفي رودس وفي إمارة أكايا (بيلوبونيز). وفي قبرص، في ليماسول، فاماغوستا ونيقوسيا. وفي الممالك الصليبية في الشرق، في أنطاكية، وفي عكا، وفي صور. وأخيراً، حتى في مملكة قيليقية الأرمنية، في لاياتسو وماميسترا.

وفي حالة الجماعات الكبيرة، وخاصة تلك التي استقرت في البلاد المسيحية، سمحت الاتفاقيات مع الحكام المحليين بتشكيل حي بندقي حقيقي، وحدث هذا على سبيل المثال في طرابزون، والقسطنطينية وعكا وتانا، حيث تم بناء قرية محصنة صغيرة، بعد الحصول على إذن من خان القبيلة الذهبية أوزبك (1313-1341م). وفي حالات أخرى، كما هو الحال في الإسكندرية، تمت معالجة الحاجة إلى مزيد من المساحة في المكان بإنشاء فندق ثان. وعموماً، كانت هذه المباني تمثل للجماعات البعيدة خلف البحر نقطة ارتكاز تدور حولها الأنشطة التجارية، وإضافة إلى الغرف والمخازن المخصصة لاستيعاب الناس والبضائع، كان هناك فرن لإعداد الخبز، وبعض المحال التجارية في كثير من الأحيان، وأيضاً الحانة والخزانات أو الآبار لتحقيق الاكتفاء الذاتي فيما يتعلق بإمدادات المياه. ففي البلدان الأجنبية يمكن أن يكون هناك خطر من أن تتعرض الجماعة لهجوم ولذا كان من الضروري عدم الاعتماد كلياً على الإمدادات الخارجية. فعلى سبيل المثال، تعرض حي البندقية في تانا لهجوم وتدمير

مرتين، عام 1395 وعام 1410. وفي الليل، على الأقل في البلدان الإسلامية، كان الفندق عادة ما يغلق بالأقفال ولا يسمح لأحد بالخروج أو الدخول. وفي الإسكندرية بمصر كان هذا يحدث طوال نهار يوم الجمعة، وأحياناً في أوقات أخرى طبقاً لتقدير القنصل. وعلاوة على ذلك، كان مسموحاً في الدول الإسلامية، في فندق مخصص للمسيحيين بشرب الخمور وبيعها، وتربية الخنازير والاتجار فيها، ولكن ليس في أي مكان آخر. ووفقاً لما رواه الرحالة فليكس فابر (Felix Faber) في القرن الخامس عشر، فقد رأى رجلاً يحرس فناء الفندق وأرضه من المتسللين كما يفعل كلب الحراسة.

وبقرب الفندق أو داخله كنيسة أو مصلى لإقامة الشعائر الدينية، بل وحتى المقبرة حيث يدفن من يموت بعيداً عن وطنه وأهله. وعادة ما كانت الكنائس في الجماعات البندقية تخصص للقديس مرقس شفيع المدينة، ومع ذلك فهناك بعض الاستثناءات لهذه القاعدة، وعلى سبيل المثال سان ميشيل في الإسكندرية، والقديس ديمتريوس في عكا وسانتا ماريا دي أبيمبولو في القسطنطينية البيزنطية، ولكن كان معها أيضاً كنيسة بندقية للقديس مرقس.

ويوجد أقدم فندق بندقي في الإسكندرية بمصر، بشهادة تعود إلى عام 1206، وكان يسمى سوجفيديكي (Sogvediki). وهذه الكلمة مشتقة من العربية «سوق الديك» للإشارة إلى سوق الدواجن، ويمكن أيضاً قراءتها على أنها «سوجفين ديك» ومعناها «سوق البندقية» انطلاقاً من التركية وليس العربية، نظراً إلى أن كثيراً من جيوش الخلفاء والأمراء كانوا من الترك، وكذلك كان المماليك الأوائل الذين تولوا السلطة في مصر بعد

عام 1250. واستطاع البنادقة هناك استخدام الحمام أيضاً، وكانوا يسمونه «خليج»، وهو الاسم الذي شاع عن كافة الشرايين المائية التي مرت عبر المدينة؛ ولأنه تقرر أن البنادقة لا يدفعون أي رسوم للدخول، ويمكنهم الاستحمام فيه مرة واحدة أسبوعياً، فقد يفهم من ذلك أنها لم تخصص لاستخدامهم الحصري، ولكن كان آخرون يستخدمونها أيضاً. لذلك كانت على الأرجح لا تقع في الفندق نفسه، ولكن على طول الشريان المائي الرئيس للمدينة[1].

وخلال القرن الخامس عشر تعرضت تجارة البندقية في البحر الأسود لأزمة، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية تتوسع على نحو متزايد. وحول الأعوام من 1420 إلى 1430 كادت الجماعة الموجودة في تانا تهجرها، واختفى الحي البندقي من طرابزون مع اختفاء إمبراطورية كومنينوس عام 1461؛ وفي ذلك الوقت كانت القلعة الخشبية التي بناها مواطنو البندقية خارج أسوار أول مبنى يتم حرقه من قبل الفاتحين العثمانيين، وفي الوقت نفسه ازدهرت مستوطنات البحر الأبيض المتوسط، وعلى الرغم من سقوط القسطنطينية في يد محمد الثاني عام 1453، استمرت حركة التجارة. وكان البنادقة من بين أوائل التجار الإيطاليين الذين استقروا في عاصمة الإمبراطورية. وهناك شهادات على وجودهم في وقت مبكر من عام 992، متقدمين على تجار أمالفي وجنوة، الذين وصلوا إلى هناك عامي 1112، و1155 على الترتيب. وفي العصور البيزنطية تكوّن الحي البندقي

---

(1) M.P. Pedani, *Bahrî Mamlûk-Venetian Commercial Agreements*, in H.C. Güzel, C.C. Oğuz e O. Karatay (a cura di), *The Turks*, 6 voll., Ankara, Yeni Türkiye, 2002, vol. II, , pp. 298-305.

في منطقة ضيقة طويلة، وتقع أمام غلاطة في الحي المعروف حالياً باسم أمينونو. وبدءاً من القرن الذهبي ضم جزءاً من أسوار المدينة وتمدد باتجاه وسط المدينة، وأصبح بعد عام 1455 البازار الكبير. أما جامع رستم باشا، الذي بناه المعماري سنان في الأعوام من 1555 إلى 1561، فبُني على الأرجح في مكان كانت تعلوه إحدى كنيستي البنادقة في المدينة. ويعتقد كثيرون أن اثنين من الخانات القديمة هما اللذان وجدا في تلك المنطقة، وهما خان باكابان وخان بورمالي، وهما في الأصل كانا فندقين يتبعان الحي البندقي. بينما يبدو من غير المحتمل أن يتطابق ما يعرف باسم بازار التوابل، مع مبنى بندقي آخر في المدينة.

ثم قلّت مساحة المستوطنة التي تمددت حتى منتصف القرن الثالث عشر، وذلك عقب سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية عام 1261. وإضافة إلى العديد من المنازل، بقي منزل ممثل البندقية، الذي أصبح اسمه الآن المبعوث الدائم، والكنيسة والمقابر المجاورة لها. وكان سقوط القسطنطينية عام 1453 لحظة هامة أخرى بالنسبة إلى المدينة. فقد تمت إعادة التخطيط العمراني للمدينة، لكي تجسد على نحو ملموس فكرة الإمبراطورية التي أراد السلطان أن يخلفها للأجيال التالية، وبعد أيام حامية من الغزو، سارع البنادقة إلى عقد الاتصالات السلمية والتجارية. فتمّ التوصل إلى اتفاق جديد يوم 18 أبريل 1454، وبهذه المناسبة تم منح المبعوث المقيم دار إقامة رسمية وكنيسة ظلت مفتوحة أمام تجار أنكونا، الذين كانت لهم في العاصمة البيزنطية قنصلية، وفي البندقية تمّ تخصيص مائتي ليرة آنذاك لترميم هذه المباني، وفي عشية الحرب التي استمرت من

عام 1499 إلى عام 1502، تمت مصادرتها وإهداؤها للسلطان من سنان باشا الذي ضمها إلى الوقف الذي أنشأه[1].

وفي فبراير من عام 1499 لم يستطع السفير أندريا زانكاني، المبعوث إلى القسطنطينية الذي فشل في محاولة تجنب الصراع الذي بدا وشيك الوقوع، أن يقيم في بيت المبعوث المقيم بل تم اصطحابه إلى ضاحية غلاطة وكانت تسمى في السابق بيرا، في بيت سكنه بالفعل من قبل الدبلوماسيان أنطونيو فيرو في (1486) وجوفاني داريو في (1487). وبعد الحرب بدأ المبعوثون المقيمون يسكنون هذه المنطقة، وتقع على الجانب الآخر من منطقة القرن الذهبي، وهي المنطقة المفضلة للإقامة وخاصة من قِبل أهل جنوة، وهي حالياً مركز تجاري على أعلى مستوى، وقلب المدينة الحقيقي الحديث، المختلف تماماً عن الجزء الأقدم من إسطنبول بآثارها الشهيرة مثل قصر طوب قابو وآيا صوفيا والبازار الكبير الذي اقتصر دوره الآن على جذب السائحين. وفي السابق كانت مساكن اللاتين تتجمع حول برج جنوة المهيب، والذي ينكشف حتى اليوم فجأة أمام العين، بعد أن ضاع في زحام الشوارع وأقيم مقهى في قمته. وفي القرن السادس عشر كان لا يزال بعض سفراء البندقية يسكنون على الجانب الآخر من القرن الذهبي، في حي معظمه من اليهود، وهو يجاور في الوقت الراهن «جامع والدة السلطان»

(1) ASVe, *Senato, Mar*, reg. 5, cc. 49-52; T. Bertelé, *Il palazzo degli ambasciatori di Venezia e le sue antiche memorie*, Bologna, Apollo, 1932, pp. 19-32, 38; S. Yerasimos e J.-L. Bacqué-Grammond, *La Résidence du Baile de Venise à Balıkpazarı. Essai de localisation*, in «Anatolia Moderna. Yeni Anadolu», 6, 1996, pp. 1-11; A. Ağır, *Whether Balkapanı Han had Witnessed the Continuity of Commerce in the Old Venetian Quarter of Istanbul*, in 7 Centuries of Ottoman Architecture «*A Supra-National Heritage*», İstanbul, Yem, 1999, pp. 95-102.

(Yeni Valide Camii). وفي الوقت نفسه أصبحت الإقامة المفضلة لديهم هي المبنى الواقع أعلى التل في غلاطة، خارج أسوارها، أو ما يسمى «كروم بيرا»، وكان مكاناً صحياً، يقع بعيداً عن الحرارة وخطر الطاعون الذي كان يحوم دائماً على شوارع مدينة البوسفور المكتظة بالسكان. إنها منطقة تعصف بها الرياح، لذا يسكنها قليل من الناس يستمتعون بإطلالة جميلة على بحر مرمرة.

وقد استأجر البنادقة أولاً هذا المبنى من عائلة سلفاجو، الذي شغل منصب مترجم السفارة، وبعد ذلك اشتروا المبنى، وحولوه إلى مقر للمبعوث الدائم. وكان سلفاجو قد عرض المنزل بالفعل للبيع حوالي عام 1650، ولكن إطالة أمد حرب كانديا قطعت المفاوضات مع البندقية؛ ولهذا فإن الوريثة الأخيرة للعائلة، وهي جويا سلفاجو، باعت عام 1666 جزءاً من البيت لرجل تركي، هو مصطفى شلبي، باعتباره الولي الشرعي لفتاة هي ابنة الراحل بيرم آغا، وبعد وصوله إلى القسطنطينية عام 1672 قرر المبعوث الدائم جاكومو كوريني في النهاية شراء البيت كله؛ وذلك لتجنب النزاعات المستقبلية مع الملاك المسلمين الذين كانوا سيرفعون بالتأكيد النزاع أمام قاض عثماني، وليس أمام بطريرك أو قاض مسيحي آخر.

ولم يمنع وجود المقر الرسمي للبندقية على تل غلاطة المبعوثين المقيمين من الانسحاب إلى شاطئ البحر عندما يشتد الحر ويصبح خانقاً؛ لكي يقضوا بضعة أيام للاصطياف الهادئ. وعلى مقربةٍ من توفان كانت تقع قرية أرناؤوط كوي حيث المنزل الريفي للمبعوث المقيم حتى نهاية القرن السابع عشر: «كازينو تحيط به منازل اليهود». وقد مات فيها المبعوث

المقيم ألفيز مولين عام 1671. وفي بلطة ليمان كان هناك بيت آخر مؤجر بغرض قضاء أوقات الراحة فيه. وقد وصفه جوفاني باتيستا دونا، الذي سكنه عام 1682، كما يلي: «سكن راق أو قصر منيف على قناة البحر الميت، تجده فور أن تترك القلاع، في منطقة تدعى بالتيمان [...] تلال واسعة وحدائق غنّاء». وأخيراً كان هناك المقر الجميل في بويوكدير حيث استأجر البنادقة عدة بيوت ما بين عامي 1722 و1797. وقد عاش هنا عام 1780 المبعوثون المقيمون في منزل التاجر البريطاني باركر، ثم انتقلوا إلى منزل مترجم هولندا، جاكومو تيستا الأكثر تواضعاً، ولكن للملاءمة استخدموا ثلاثة مساكن أخرى قريبة منه، حتى يستطيعوا إسكان العدد الأكبر من موظفي السفارة.

ولا تزال تحفظ لبيت المبعوث المقيم في غلاطة الرسومات والخرائط والاسكتشات التي كان يتم عملها عند الحاجة إلى ترميمه أو تعميره، وكان لقرون طويلة مقراً لإقامة ممثلي البندقية في القسطنطينية، وعندما انتقلت أراضي الجمهورية إلى سلطة هابسبورغ، أصبح البيت مقراً للمبعوث الرسولي. وفي السنوات التالية كان لا يزال يتابع أحداث البندقية: ثم انتقل إلى الفرنسيين، ليعود بعدها في عام 1814 إلى أصحابه السابقين. ولكن عندما أصبحت المدينة البحيرية جزءاً من مملكة إيطاليا عام 1866، لم يتم التنازل عن بيت البندقية بإسطنبول، ولا قصر فينيسيا بروما، إلى الحكام الجدد؛ وظلا ملكاً لهابسبورغ، وظل الأمر كذلك حتى بعد الحرب العالمية الأولى واختفاء الإمبراطورية النمساوية المجرية، مما سمح لإيطاليا باستعادة ممتلكاتها منها. وباتفاق سلام لوزان عام 1923 والاتفاقات اللاحقة عامي

1924 و1927، تم التصديق على نقل الملكية الجديد. واليوم يستضيف بيت المبعوث المقيم القنصلية العامة لإيطاليا في إسطنبول[1].

2. في موكب المبعوث المقيم

كرّسَ مارينو كافالي، وهو دبلوماسي من ذوي الخبرة الذين وُجدوا في العديد من قصور الحكم الأوروبية، عام 1550 كتيّباً هاماً لابنه بعنوان «**معلومات حول مهمّة السفير**». وكان الغرض من هذا العمل توفير دليلٍ عمليٍ لمن يستعد لتنفيذ هذه المهمة، ولم يكن خطابه متعلقاً بالعلوم السياسية والدبلوماسية، وإنما بالتنظيم العملي للبعثة، وهكذا وجدنا فيه صفحات عديدة عن الخيام والأمتعة والملابس، والفضيات، وكذلك الأتباع، ومن هذا العمل نكتشف الأهمية المنسوبة إلى رؤساء الطهاة، والحظائر، والنوادل، والوصيفات، والطهاة، وأمناء المخازن، والرجال والسكرتارية والسادة الذين يشكّلون حاشية الدبلوماسي. كان لكل واحد منهم مهام محددة وساهموا جميعاً في نجاح البعثة، التي لم تكن تكتمل بنجاح المحادثات السياسية فحسب، بل كان أيضاً التأثير في كل من يمرّ بهم من فلاحين وبلاد صغيرة بنقل رسالة عن القوة والعظمة[2].

وتتألف حاشية القنصل أو المبعوث المقيم من مجموعة من الناس مهمتهم مساعدة المبعوث، وينضم إليها أحياناً، في البعثات الهامة الكبيرة،

(1) Bertelé, *Il palazzo degli ambasciatori di Venezia e le sue antiche memorie*, cit., pp. 151, 320-322, 355-389.

(2) M. Cavalli, *Informatione dell'offitio dell'ambasciatore*, a cura di T. Bertelé, Firenze-Roma, Olschki, 1935.

شبان من طبقة النبلاء يستفيدون من الرحلة لمعرفة مسالك الدبلوماسية والسياسة الدولية الخفية. ومن بين أهم الناس لنجاح المهمة كان هناك السكرتير، الذي كان يقوم أيضاً بالمهام القنصلية في المحررات العامة والتوثيق في المحررات الخاصة. وفي العصور الوسطى كان ذلك المسؤول قساً، ومن ثم كان يقوم أيضاً بالإشراف على مكان العبادة. وكان هو من يدير كنيسة الفندق في البعثات الصغيرة، وتحرير الطلبات لأعضاء الجماعة التي تحتاجها في أنشطتها التجارية وإقامتها في الخارج. وإصرار البندقية حتى بداية القرن السادس عشر على شخصية القس- كاتب العدل، التي اختفت في بقية إيطاليا نحو عام ألف، ربما كان مرده إلى أنهم يستطيعون ممارسة وظيفة مزدوجة سواء على متن السفن التي ترفع علم سان ماركو أو مع الجالية البندقية التي تقيم على أرض أجنبية. وإذا لم يمكن العثور على رجل دين لديه القدرة على التصديق على الوثائق، فإنه يُسمح للقناصل أو المبعوثين الدائمين بتوظيف شخصين للقيام بالمهمتين، ومع نهاية القرن الخامس عشر مضى هذا الأمر نحو الاختفاء، وتم فصل الوظيفتين سواء في البندقية أو في الجاليات البندقية، وفي القسطنطينية ظهر في ذلك الحين، إلى جانب الكتبة العموميين، قسيس يساعده في بعض الأوقات عالم دين أيضاً.

وقد كان أعضاء السكرتارية التي ترافق المبعوثين الدائمين خبراء في القانون والتشريعات البندقية، وكانوا أحياناً من رجال الدبلوماسية المهرة، وخاصة المخوَّل لهم العمل لدى قصور الحكم القوية والهامة والبعيدة مثل القسطنطينية، وكان يتدخل بعضهم في المفاوضات الدبلوماسية مباشرة.

وأصبح الجميع في العصر الحديث ينتمون إلى المواطنين العاديين باستثناء المبعوث المقيم أو السفير الذي وجب أن ينتمي إلى طبقة النبلاء، وفي حالة تكليفهم بمهام رسمية خارجية كان يتم اعتمادهم لدى السلطان، ولكنهم لم يحملوا قط لقب السفير، وإنما لقب سكرتير، حتى وإن كانت المهام التي يقوم بها السفير في الحقيقة. فإلى القسطنطينية تم إرسال مبعوثين لقضاء مهمة مثل سكرتيري مجلس الشيوخ ماركو أوريليو (1472)، وجوفاني داريو (1478–1481)، في أعوام (1484–1485، 1487)، وألفيز ساجودينو في أعوام (1484، 1485، 1487) وألفيز مانيتي (1500)، وزكريا دي فريسكي (1502)، وجورجو نيجرو (1504)، ودانييل دي لودوفيتشي (1533)، وبيترو دي فرانشيسكي في عامي (1539، 1548)، وجوفاني كابيلليو، وكان سكرتير مجلس العشرة في عامي (1683–1684).

وبالنظر إلى هذه التواريخ نلاحظ كيف كان يتم الاستعانة بهذه الشخصيات الدبلوماسية غير العادية في حالات التوتر، أو حتى في حالة الحرب المفتوحة، والمخوَّلة بسلطات كاملة رغم حرمانها من لقب السفير، وكان يُنصَح بعدم إرسال شخصية من نبلاء البندقية للحديث باسم الدوجي. وحقق بعضهم نجاحاً في المهام الموكلة إليهم؛ فأُعيد إرسالهم عدة مرات. وعلى الرغم من كونهم مواطنين فإنهم لم يكونوا من عديمي الأهمية في الحكومة البندقية، فقد كان يُعهد بالمناصب الإدارية لأعضاء تلك الفئة. وفي البندقية كانت هناك لجنة خاصة مهمتها تقييم الاعتراف بالجنسية البندقية للمواطنين. وكانت هناك عدة درجات للمواطنة: من المواطنين الأصليين (*intus tantum*) إلى المواطنين من أصل أجنبي (*intus*

et extra (داخلي-خارجي) وهي التي تُعطى للتجار الذين يستطيعون التمتع بالمعاملة المخصصة للتجار البنادقة. وقد تنوعت متطلبات الحصول على الجنسية على مر القرون لتصبح أكثر تقييداً. أما الجنسية الأصلية فكانت تعطي إمكانية للوصول إلى الوظائف الإدارية، وكانت محفوظة لأعضاء الأسر، الذين كانوا يقيمون في مدينة البندقية لمدة لا تقل عن ثلاثة أجيال، ولم يمارس أفرادها الحرف الميكانيكية. لقد كانت نوعاً من طبقة نبلاء صغرى، وأقصى ما يمكن أن يطمح إليه أعضاؤها من وظيفة عامة هي وظيفة كبير المستشارين، وهي الوظيفة الوحيدة التي تدوم مدى الحياة بخلاف منصبي الدوجي وقائد البحرية. وفي أيدي هؤلاء الرجال كانت تمر السياسة البندقية كلها، وكانوا هم من يعلمون إجراءاتها والعثور على سوابقها من الأرشيف، وغالباً ما كانوا يوجهون بخياراتهم الجهاز الإداري للدولة بالكامل، حتى إنهم كانوا يثيرون غيرة مجموعات النبلاء، كما حدث على سبيل المثال في النصف الثاني من القرن السادس عشر، عندما اضطر رئيس مجلس العشرة رانييري زين إلى التفتيش وحده في الأرشيف للحصول على الأوراق التي كان بحاجة إليها لمعارضة سلطة الأمناء الطاغية، فتسلق سلماً متهالكاً ببزته الطويلة ذات الذيل والتي كان يرتديها بحكم منصبه، وعندما نزل كان مغبراً كله[1].

وبعض سكرتارية البندقية كانوا من كبار الشخصيات من ذوي المهارات الدبلوماسية الملحوظة، مثل جوفاني داريو، الذي نجح في مفاوضات السلام مع السلطان محمد الثاني، فبنى لنفسه قصراً فخماً

(1) G. Trebbi, *Il segretario veneziano*, in «Archivio Storico Italiano», 144, 527, 1986, pp. 35-73.

على القناة الكبرى في البندقية وحفر على واجهته كلمات ظاهرة حتى اليوم: «Genio urbis Joannes Dario»، ومعناها «جوفاني داريو لعبقرية المدينة»، والمهندس المعماري الذي قام بإنشائه هو ماورو كوندوسي حوالي (1440–1504) من مواليد مدينة لينا في وادي بريمبانا، وقد نقل إلى قمته نحتاً غائراً كان على مبنى آخر، هو سان ميكيلي في الجزيرة. ومن ناحية أخرى فإن اسمه (القدس باللغة العربية) يعطي انطباعاً بتأثيرات شرقية، ويمكن ترجمته بتصرف بعبارة «الأسمر القادم من القدس». وأيضاً كانت الحياة المهنية لجوفاني باتيستا بللارين حافلة بالأحداث. وعلى وجه الخصوص، خلال حرب كانديا، قبل أن يسجن في قلعة من سبعة أبراج مع المبعوث المقيم جيوفاني سوارنزو، ثم تولى المسؤولية الكاملة عن سفارة البندقية وَسُجِن مرتين أو أكثر في أدرنة، ولجدارته انتخب عام 1660 كبيرَ المستشارين، على الرغم من أنه كان لا يزال في مهمته الخارجية. ولم يتمكن من تسلم منصبه، وقد توفي عام 1666 بينما كان مسافراً إلى كانديا، ومن ثم تم منح منصب المستشارية على أساس استثنائي إلى ولده دومينيكو اعترافاً بأفضال والده، وهناك صورة مصغرة لبللارين مقتاداً إلى السجن بواسطة العثمانيين عام 1656 في كتاب من القرن السابع عشر يحمل ذكريات القسطنطينية، وهو محفوظ الآن في مكتبة متحف كورير. ولقي اثنان من السكرتارية شغلوا مكانه مفاوضين في كانديا مصيراً مأساوياً: جوفاني باتيستا بادافين وجيرولامو جافارينا، وكلاهما دُسّ له السم بأمر من الصدر الأعظم[1].

(1) A. Zannini, *Burocrazia e burocrati a Venezia in età moderna. I cittadini originari*, Venezia, Istituto Veneto, 1993, pp. 152-153; *Vedute di Venezia ed Istanbul attraverso i secoli*, İstanbul, Istituto Italiano di Cultura, 1995, p. 271.

كان السكرتير عادة ما يهتم بأمور الرسائل والشيفرات، وتنظيم الخدمة البريدية، وإدارة الأرشيف والإمساك بدفاتر يوميات الخزينة. وفي الأماكن الرئيسة، مثل القسطنطينية، كان يعاونه مساعد إداري يحل محله في حالة الغياب لأزمنة طويلة. ثم كان هناك الكَتبَة، المكلَّفون بنسخ الوثائق والرسائل، والحسابات، وكان من واجبهم إدارة الشؤون المالية. ثم كان هناك المترجمون الفوريون ولهم أهمية كبيرة ينبغي أن تفرد لهم معالجة منفصلة، فهم الذين تمر بين أياديهم شؤون السفارة كلها.

وفي موكب الدبلوماسية هناك أيضاً المسؤول عن التعامل مع صحة أفراد البعثة. وهو طبيب فيزيائي يتولى تشخيص الجرعات الدوائية وتجهيزها، وفي كثير من الأحيان لم يكن سوى حلاق صحي بسيط، أو جراح يتولى تنفيذ العمليات الجراحية البسيطة، وكان هؤلاء يعامَلون معاملة الخدم، ولا نعرف من أسمائهم إلا القليل جداً. ومن ناحية أخرى، تتحدث وثائق الأرشيف عن منازعات وجرائم، ولكن لم تكن توجد حاجة إلى هذا، إذ كان كل شيء يمضي بسلاسة وهدوء. وهكذا، فإن الحلاق جريجوريو لم يُذكر إلا لأنه في عام 1588 أدين وأرسل من القسطنطينية إلى كانديا مكبلاً في أغلاله لعلاقة مثلية أنشأها مع رجل الأعمال الشاب والمترجم جانوتو سلفاجو. كما اصطحب قناصل البندقية في مصر وسوريا معهم طبيباً-فيزيائياً، كان له الفضل في نقل كثير من المعارف الطبية العربية، التي وصلت حتى إلى صفوف الجامعة البادوفية الكبرى التي تأسست عام 1222 وخضعت منذ القرن الرابع عشر للبندقية[1].

(1) F. Lucchetta, *Il medico del bailaggio di Costantinopoli: fra terapie e politica (secc. XV-XVI)*, in Veneziani in Levante, *Musulmani a Venezia*, suppl. al n. 15 di «Quaderni di Studi Arabi», 1997, pp. 5-50.

وفي القسطنطينية كان بوسعهم أيضاً الاستعانة بالأطباء الذين يدورون في فلك القصر الإمبراطوري، وكان من بينهم الكثير من اليهود أوروبيي الأصل. وعلى الرغم من أن هذه المهنة هي الوحيدة التي يمكن أن يمارسها هؤلاء الليبراليون، من أتباع الديانة اليهودية، في العالم المسيحي، فإن الكثير منهم فضّل الفرار من ألمانيا وشبه الجزيرة الإيبيرية، حيث أصبحت الظروف المعيشية، ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر، عسيرة أكثر وأكثر. ففي عام 1565 تم التعاقد مع اليهودي أبراهام أبينسانتيو، يعمل طبيباً للأمة البندقية، وقد تم اختياره من قِبل مجلس الاثني عشر للجالية، وتم استقباله بحماس من المبعوث المقيم، ليس فقط بسبب مواهبه المهنية وإنما أيضاً بفضل صداقاته. لقد كان في الواقع متغلغل العلاقات بين أطباء القصر الإمبراطوري وقد سمح له هذا بإجراء اتصالات، ليس فقط مع الوزير، ولكنه استطاع كذلك التعرف عن قرب إلى الطلاب الذين كانوا يدرسون في مدرسة سيراليو (Serraglio) وكلهم من أصل مسيحي، وقد ظل أبينسانتيو طبيب الأمة الفرنسية لمدة قصيرة فقط. فقد فضّل مهنة الترجمان التي تناسبه أكثر، وفي عام 1614 كان واحداً من ترجمانين اثنين شاركا في أول بعثة دبلوماسية عثمانية إلى لاهاي، تحت قيادة الجاويش والمتفرقة عمر آغا.

وحلّ محل أبينسانتيو طبيب يهودي آخر، هو سليمان الأشكنازي، والذي قدّر له أن يكون دبلوماسياً من الطراز الأول في المفاوضات التي انتهت بالحرب القبرصية، وقد وُلد في أوديني في عام 1520، وحصل على الدكتوراه في جامعة بادوفا، وهي درجة الدكتوراه

الوحيدة التي كان يمكن لغير المسيحيين أن يحصلوا عليها من الكلية المقدسة للأطباء والفلاسفة، ولكن من خلال حساب خاص بحرس القصر. ثم انتقل الأشكنازي في وقت لاحق إلى كراكوف ثم إلى القسطنطينية حيث أجرى خلال حرب قبرص اتصالات سرية بين الصدر الأعظم محمد الصقلي، الرجل الوحيد في الديوان الإمبراطوري الذي كان معارضاً للحرب، ومعه المبعوث المقيم مارك أنطونيو بارباروا والذي وُضع تحت الإقامة الجبرية في مقر المبعوث المقيم. واستغل هذا الطبيب نفوذه السياسي، الذي اكتسبه من تدخله في مفاوضات السلام، لإلغاء مرسوم طرد اليهود الذي تمت الموافقة عليه في البندقية في 1571. وبفضل مساعيه الحميدة أرسله الصدر الأعظم عام 1574 مبعوثاً إلى جمهورية البندقية لحل مسألة الحدود بين دلماسيا التابعة للبندقية والأراضي العثمانية. وفي تلك المناسبة استقبله أهالي الجيتو اليهودي بحماس كبير، وقد ألّفوا صلاة تكريماً له، ومات في شهر يناير من عام 1584 وواصلت زوجته مهنته، وكرست نفسها لرعاية النساء والأطفال.

وتم استبدال موسى بينفينيسته بأشكنازي، ليصبح موسى طبيباً للأمة البندقية، وقد واصل موسى عقد الاتصالات السياسية بين المبعوث المقيم وأعلى شخصيات الدولة، وكان هو الآخر يهودياً يعيش في الحي اليهودي، خلف القرن الذهبي في غلاطة، ولم يكن يستطيع الوصول إلى بيت المبعوث المقيم ليلاً أو في أيام السبت، ولذا تقرر البحث عن طبيب آخر يقيم في المنطقة، ويمكنه أن يتدخل إذا لزم الأمر، وفي عام 1584 تم

تعيين دافيد فالنتينو في هذا المنصب، وهو يهودي برتغالي اعتنق الإسلام عام 1593، دون أن يُفقده هذا منصبه لدى البنادقة[1].

ومع نهاية القرن السادس عشر، بدأ أطباء آخرون العمل لحساب التمثيل الدبلوماسي البندقي، وكانوا هذه المرة من المسيحيين، مثل الدكتور فلانجيني، الذي هجرت عائلته قبرص بعد أن أصبحت الجزيرة عثمانية، أو ألفيز راجوزا من البندقية أو الإيطالي جراسي الذي حل عام 1641 محل مترجم الباب العالي ذو الفقار الذي كان مريضاً. وخلال الحروب التي اندلعت في النصف الثاني من القرن السابع عشر، عمل طبيب يهودي آخر، هو إسرائيل كونليانو، بنشاط لمصلحة الجمهورية البندقية ما جعله في نظر الأتراك جاسوساً. وخلال المدة نفسها اعتنق بندقي آخر الإسلام، لا نعرف اسمه، وابنه علي المعروف باسمه العائلي «حكيم أوغلو» (ابن الطبيب)، عمل في خدمة الإمبراطورية حتى وصل إلى منصب الصدر الأعظم عامي (1732–1735) ومرة أخرى عام 1742.

وكما ذكر مارينو كافللي توجّب على كل دبلوماسي أن يصطحب معه عدداً من موظفي الخدمة، بمن في ذلك مدير البيت ورئيس الطهاة والطباخ، وكان للطباخ أهمية كبيرة؛ لأنه كان عليه أن يعرف كيف يجهّز المآدب، بكل ما يمكن أن يجده في هذه الرحلة، ومن ثم كان لابد أن يعرف ثقافة الطهي عند مختلف الشعوب. وروى كافللي عن طباخ ماهر يدعى جوليلمو نورمانو الذي تبعه في العديد من الرحلات. وكان هذا الطباخ

(1) B. Lewis, *Europa barbara e infedele. I musulmani alla scoperta dell'Europa*, Milano, Mondadori, 1983, p. 103; B. Arbel, *Trading Nations. Jews and Venetians in the Early Modern Eastern Mediterranean*, Leiden - New York - Köln, Brill, 1995, pp. 77-86.

يعرف كيف يصنع حلوى المرزباني، والعصائر والأدوية والمسهلات، والحساء على الطريقة المجرية والسويسرية والإيطالية والإسبانية والفرنسية والألمانية والإنجليزية، وكان يثمن الكعك والحلويات الإيطالية والفطائر والجيلاتينيات من الفرنسيين واويا بودريدا (طبق إسباني يمكن تسميته بالعربية «القُلّة المكسورة»، يتكون من الفاصوليا ولحم الخنزير) والمهلبية من الإسبان، والمحمرات والبطاطا المقلية من الألمان والأسماك من المجريين، الوحيدين الذين كانوا يعرفون طبخها حقاً حسب قوله. ومن شأن وليمة جيدة في الواقع أن تعمل على تليين القلوب وتمهيد الطريق لاتصالات دبلوماسية كثيفة ودية، وفي حالة الضرورة كان الطباخ الجيد يُعرف أنه حتى في قلب الغابة يمكنه أن يعدّ وليمة من لحم العجل تكفي لعشرة أشخاص. لقد كان المطبخ مهماً، سواء في أوروبا أو بالقدر نفسه في الإمبراطورية العثمانية. وقد حدث هذا أكثر من مرة، عندما نظم المبعوثون المقيمون ولائم في بيوتهم للتأثير في الضيوف من كبار الشخصيات، ليس من بينهم السلطان، الذي كان يتناول طعامه وحده منذ أيام محمد الثاني، خلف ستائر لا يمكن اختراقها في القصر الإمبراطوري إلا لبعض من أكبر شخصيات الباب العالي. ففي عام 1532، على سبيل المثال، استضاف بيترو زين شخصيات بارزة من البلاط للاحتفال بالانتصارات العثمانية ضد الإمبراطور الروماني المقدس. وكانت الاحتفالات المدنية الخاصة بالقسطنطينية تشمل المدينة كلها، بمن في ذلك المبعوثون المقيمون البنادقة، الذين كان لابد لهم من المشاركة فيها، ليس بمجرد حضور بعض الأنشطة في ساحات

سباق الخيل فحسب، أو تكريم بعض الشخصيات الهامة، وإنما بإقامة الحفلات أو تزيين مقار الإقامة، كما حدث على سبيل المثال عام 1759، عندما تم تزيين واجهة منزل المبعوث المقيم بالزهور والأغصان وظلت مضاءة لمدة عشر ليال على التوالي للاحتفال، وذلك بمناسبة ولادة ابنة السلطان[1].

3. المترجمون والخدمة البريدية والجوسسة

وِفقاً لمارينو كافالي، مؤلف دليل «السفير المثالي» الذي سبقت الإشارة إليه، كان من الأفضل أن يكون خادم السكرتير، الذي يعمل أيضاً حاملاً للرسائل، أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة، بحيث يمكن تجنب خيانة أسرار الدولة. أما السكرتير والمترجم فقد توجب أن يكونا من الكتّاب، وكان ينبغي للأول أن يكون ملماً بفنّ التوثيق، بينما وجب أن يكون الثاني متمرساً في لغة البلد. والحقيقة أن الدبلوماسي لم يكن ملزماً بأن يعرف لغات البلد نظراً إلى كونه يستطيع أن يعتمد في ذلك على تابعيه، ولكن هناك مشكلة أكبر تمثلها اللغات غير الأوروبية مثل العربية والتركية؛ ولهذا السبب، وخاصة ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر، عندما زادت الاتصالات بين البندقية والباب العالي، عهدت البعثات الدبلوماسية إلى أشخاص سبق لهم العيش في البلاد التي يُرسَلون إليها، وهم من القناصل أو التجار.

(1) Bertelé, *Il palazzo degli ambasciatori di Venezia e le sue antiche memorie*, cit., pp. 56, 291.



الصورة رقم 1: محمد الثاني يحاصر شكودرا عام 1478م (حوالي 1531)، البندقية، مدرسة الألبان.



الصورة رقم 2: الجمل والجمال (القرن الرابع عشر)، البندقية، شارع ماستيللي (المعروف باسم قصر الجمل). تصوير أنطونيو فابريس.







الصور رقم 3. شخصيات معمّمة معروفة باسم: «الموري» (القرن الرابع عشر)، البندقية، كامبو دي موري. تصوير أنطونيو فابريس.



الصورة رقم 4. مصباح قارب تركي، من غنائم الحرب (القرن السابع عشر)، البندقية، مجموعة خاصة.



الصورة رقم 5. الطبيب أندريا ألباجو (1566م)، بيلونو، قصر ألباجو.



الصورة رقم 6. ماورو كوندوسي (1477)، البندقية، كنيسة سان ميكيلي في الجزيرة.



الصورة رقم 7. إسطنبول، قصر فينيسيا، كان ذات يوم منزل المبعوث المقيم، المقر الدبلوماسي البندقي منذ النصف الأول من القرن السادس عشر، وقد تغير تغيراً لافتاً في القرن الثامن عشر.



الصورة رقم 8. إسطنبول، خان بالكاباني، تعود المباني إلى الحي البندقي القديم في العصر البيزنطي. صورة فاتح دميرهان.



الصورة رقم 9. إسطنبول، مدخل المدرسة التي بناها البندقي غضنفر آغا، والآن متحف كاريكاتير (النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي). تصوير أنطونيو فابريس.

وقد كان عمل المترجم مهماً جداً في السفارات القديمة، خاصة تلك الموجودة في القسطنطينية. وحتى في حال معرفة الدبلوماسي للّغة التركية، فقد كان يستعين دائماً في المقابلات الرسمية بالمترجمين. وكان البنادقة أيضاً من أوائل من حاولوا تشكيل فريق من المترجمين المحلّفين يخرجون من صفوف البيروقراطية. وعلى أية حال فقد كان تطور هذه العملية طويلاً، ففي البداية كانت اللغة اليونانية هي المستخدَمة في التواصل مع العثمانين، وعندما غزا محمد الثاني القسطنطينية، وقع اختياره على مجموعة من الموظفين الكتبة من الحكومة السابقة، كانوا يكتبون له الخطابات الموجهة للحكام الغربيين باللغة اليونانية والتي كان يجيدها هو شخصياً، إلى جوار التركية والفارسية والعربية والكرواتية. ومع بايزيد الثاني، في نهاية القرن، بدأت عملية «تركنة» كاملة للجهاز البيروقراطي. وعندئذٍ تنحت اليونانية وحلت محلها التركية العثمانية، وهي لغة البلاط والإدارة، لتصبح لغةً للدبلوماسية، وليست لغةً للشعب الذي واصل الحديث بالتركية واليونانية والعربية والعبرية والتترية والبربرية، وغيرها، بما بلغ أكثر من سبعين مجموعة عرقية مختلفة[1].

وفي العصور الأولى كان المبعوثون البنادقة يستخدمون موظفين محليين. وكان المترجمون يسمون في البندقية «دراجومانو»، وكانوا من رعايا العثمانيين في معظمهم، وقد اضطرتهم صروف الحياة إلى تبني لغة الغزاة، مثل اليوناني تيودورو باليولوجو الذي عمل بين القسطنطينية والبندقية حتى العقد الثاني من القرن السادس عشر، أو بانتاليوني

(1) J. Raby, *Mehmed the Conqueror's Greek Scriptorium*, in «Dumbarton Oaks Papers», 37, 1983, pp. 15-62.

كوريسي. وما بين عامي 1540 و1550 تولى تلك المهمة جانيتينو سالفاجو، الذي ينتمي إلى العائلة اللاتينية جالاتا، والتي تناقلت المنصب، وقيل إنها في الأصل صاحبة المنزل الذي أصبح مقر الإقامة الثابت للمبعوث المقيم. ومع الوقت زاد تحديد عمل الترجمان وفقاً للتخصصات المختلفة. وبالتالي أصبح هناك كبير المترجمين وهو رئيس مكتب الترجمة، ويعمل تحت رئاسته ترجمان صغير، أو مشرف السفينة، الذي كان يتعامل مع المسائل المتعلقة بالبضائع والتجار، وآخر يسمى «المخصص للطريق»، وهو المسؤول عن مرافقة السفراء والمبعوثين في سفرهم من البلد الأم إلى الباب العالي والعكس بالعكس. وفي عام 1555 صدر مرسوم القانون الذي يحدد عدد المترجمين باِثنين فقط، ولكن بعد أقل من عام لزم الأمر تغيير هذا المرسوم، الذي اتخذ على ما يبدو في محاولة للتوفير. وبعدها زاد عدد المترجمين زيادة ملحوظة، كما زاد الاعتماد عليهم في إدارة شؤون مقر المبعوث المقيم والتجارة البندقية والمفاوضات الدبلوماسية كافة.

وفي محاولة الدولة العثمانية عدم الاعتماد حصراً على مترجمين مسيحيي الأصل من جنوة والبندقية، قررت جمهورية البندقية عام 1551 إنشاء مدرسة لشبان من البندقية ينتمون إلى أُسر مرتبطة بالجهاز الإداري للدولة يتم إرسالهم إلى القسطنطينية. وقد بدأت المدرسة في الأصل باثنين امتدت إقامتهما في الإمبراطورية العثمانية لخمس سنوات، لكن العدد تضاعف عام (1625-1626)، وامتدت مدة بقاء هؤلاء الشبان إلى سبع سنوات بحيث يحترفون اللغة التركية التي يتحدث بها السكان المحليون، جنباً إلى جنب مع اللغة العثمانية التي تُستخدم في المراسلات الدبلوماسية

والتي كانت ملأى بألفاظ عربية وفارسية. وسمي هؤلاء الشبان باسم «شبان اللغة»، وأولهم هما الشابان سالِفا الذكر سيباستيانو ديل كورتيفو والثاني هو لودوفيكو ماروتشيني. وتبعهما آخرون على مدى القرن، مثل كولومبينا، الذي أصبح اسمه بعد ذلك محمد، والذي «تجنس بالتركية» بعد أن أغرته «شهوة أن يعيش كالأتراك»، أو بالأحرى؛ لأنه وقع في غرام فتاة مسلمة لم يكن يستطيع الزواج بها إذا ظل مسيحياً.

وفي القسطنطينية كان هناك معلم يتابع الطلاب، وكان البنادقة يسمونه «كوذا» (cozzà)، وهو اشتقاق من كلمة «خوجة» التركية التي تعني «المعلم». وأحد أوائل المعلمين هو مايكل سيرنوفيتش، الذي كان أيضاً من كبار المترجمين، حكم عليه سراً في النهاية بالإعدام من جانب مجلس العشرة بعد اتهامه بالخيانة. وهناك معلم آخر للغة التركية اسمه بيترو ماروفو، خدم الجمهورية البندقية بإخلاص لسنوات عديدة ودخل بسبب ذلك السجن العثماني، لكنه اضطر حوالي عام 1564 لقبول منصب الترجمان في فرنسا براتب قدره مائتا دوقية في العام، بسبب خلافاته مع زملائه الذين اتهموه بأنه جاسوس[1].

(1) F. Lucchetta, *La scuola dei «giovani di lingua» veneti nei secoli XVI e XVII*, in «Quaderni di Studi Arabi», 7, 1989, pp. 19-40; Id., *Sui dragomanni di Venezia*, in «Quaderni di Studi Arabi», 11, 1993, pp. 215-222; M. Lesure, *Michel Černović «explorateur secretus» à Constantinople (1556-1563)*, in «Turcica», 15, 1983, pp. 127-154; G. Berchet, *La Repubblica di Venezia e la Persia*, Torino, Paravia, 1865, pp.163-191; C. Coco e F. Manzonetto, *Baili veneziani alla Sublime Porta. Storia e caratteristiche dell'ambasciata veneta a Costantinopoli*, Venezia, Comune di Venezia, 1985, pp. 105-116; C. Coco, *La lussuria del viver turchesco*, Venezia, Centro Internazionale della Grafica, 1990, pp. 45-62; E.N. Rothman, *Between Venice and Istanbul. Trans-Imperial Subjects and Cultural Mediation in the Early Modern Mediterranean*, tesi di dottorato, University of Michigan, 2006, pp. 210-275.

وقد استمرت مدرسة المترجمين بصعوبة كبيرة، فالشبان الذين ترسلهم البندقية لا يعرفون دائماً، أو لا يستطيعون جسدياً التكيف مع هذه البيئة المختلفة. وبعضهم أعيد إلى وطنه حفاظاً عليه من الأمراض الخطيرة. كما عانى الكثير منهم بسبب الانفصال عن الأسرة، وضُبطت حالات كثيرة متزايدة من اللواط. أما الذين لاحت لهم فرص أكبر للنجاح فكانوا من المنتمين إلى أسر لاتينية في القسطنطينية، والذين بدأوا يتوارثون المهنة. فلم يكن لديهم شكوى من البيئة، التي هي المكان نفسه الذي ولدوا فيه، وقد تعودوا الحديث بأكثر من لغة، خاصة اليونانية والتركية والإيطالية واللغة «الحرة»، أي اللغة الشعبية التي كان الحديث يجري بها على الألسنة في موانئ البحر المتوسط، وكان بعضهم يعرف الفارسية والعربية والكرواتية والألبانية أيضاً. وهؤلاء هم أفراد أسر سلفاجو (Salvago) وناعون (Naon) وجريللو (Grillo) وفورتيس (Fortis)، وأصلهم من غلاطة، أو بوريسي (Borissi) وبروتي (Brutti) وكارلي (Carli) وتارسيا (Tàrsia)، وهم يعيشون في إيستريا البندقية. وقد كان الميل إلى الزواج من داخل هذه المجموعة قوياً جداً، وهكذا تكونت عصبة من الأشخاص المرتبطين ببيت المبعوث المقيم الذي تدعمه البندقية، وكانت ترى في هذا ضماناً للاعتماد على مجموعة من الأشخاص المخلصين لمصالحها. والحقيقة أن الزواج من خارج العائلة كان يبدو أكثر خطراً، حتى من أشخاص مسيحيين يدورون في فلك القصر العثماني، مثل فاسيل لوبو أمير مولدافيا (1634-1653) الذي تزوج ابنة مترجمه جريللو.

وعلى أية حال كانت مهنة الترجمان محفوفة بالمخاطر. وكان البنادقة أقرب إلى الشك في خيانتهم، فيما كان الباشوات العثمانيون يخاطبونهم بكلمات غير لائقة. وبعضهم فقد حياته في خدمة الجمهورية. فقد أُعدم مارك أنطونيو بوريسي في عام 1620 بعد اتهامه من قِبل الصدر الأعظم بأنه تحدث ضد القانون والشرف خلال نقاش يتعلق بخلاف نشب مع تجار البوسنة التابعين للتاج العثماني. في هذه الحالة، ألمح بعض الدارسين إلى تدخل سري من قِبل هيئة مكلفة بأمن الدولة البندقية، وهم مفتشو الدولة، الذين أوعزوا إلى العثمانيين بتوجيه تهمة الخيانة للمترجم بعد أن ارتابوا في أن له اتصالات سرية مع الإسبان. وفي عام 1649، في بداية الحرب مع كانديا، شُنق مترجم كبير آخر هو جوفاني أنطونيو جريللو، لكونه مسؤولاً عن إضعاف الاستعدادات العسكرية العثمانية بكلمات استخدمها في معاهدة كان قد تم قبولها من البندقية. وكلاهما كان يذكر لمدة طويلة أنهما من شهداء دولة البندقية، وعمل هذا أيضاً على هز الرأي العام خلال الصراع الطويل ضد الدولة العثمانية في أواخر القرن السابع عشر.

إن الصلات الوثيقة بين البندقية ومترجميها جعلها قليلاً ما تستعين بمترجمين آخرين، بخلاف ما كان يحدث من السفارات الأخرى، خاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر. لكن عندما كان المبعوث المقيم يذهب إلى الديوان، كان هناك أيضاً مترجم من البلاط الإمبراطوري يحضر اللقاء ليخدم الوزراء عند مناقشة أمور السياسة الدولية بحضور ممثلين عن حكام آخرين. وقد كان المترجمون جميعاً من المسلمين، ومعظمهم اعتنق الإسلام ولم يكن في الأصل مسلماً. ولم تكن علاقات البندقية دائماً

مع هؤلاء المترجمين قائمة على الشك أو الصراع، وعلى سبيل المثال كلّف السفير مارينو كافالي مترجماً عثمانياً بترجمة كتاب «**في مديح الشيخوخة**»، وهو في الأصل من إعداد دي سينيكتيوت لكتاب شيشرون؛ وذلك لكي يهديه إلى مراد بك. كما تمت الاستعانة بخريم بيك، في غياب المترجم البندقي الذي يستطيع أن يترجم كلمات الصدر، فقد استعان به المبعوث المقيم مارك أنطونيو تيبولو، ومن جاء بعده.

وبعد حرب قبرص القصيرة اقترح الخوجة الذي كان يدرّس «شبان اللغة» نقل المدرسة إلى البندقية، بحيث لا يتم اقتلاع الشبان من بيئتهم. وأثبتت أفكاره صحتها، فقد واصلت مدرسة القسطنطينية هبوطها بسبب نقص المتقدمين إليها مع مشكلات انضباطية وتعليمية، وتم وقف المشروع لمراجعته عدة مرات. وفي عام 1627 كانت هناك رغبة في حل جديد: مدرسة أولية توفر أساسيات اللغة في البندقية، ثم دورة تكميلية في القسطنطينية. ثم لم يتم فعل شيء، حتى جاءت الحرب الطويلة مع كانديا؛ لكي توقف المشروع. وعاد الحديث عنها عام 1692، عندما قدم اقتراح تعيين إبراهيم الألباني مدرساً فيها. وفي عام 1699 تقرر فتح مدرسة جديدة تُقدم جزءاً من دروسها في البندقية وجزءاً آخر في القسطنطينية. وبعد وفاة إبراهيم الألباني عام 1705 تم اختيار سولمون نيجري خليفة له، وكان يونانياً من دمشق أعلن أنه يعرف التركية والعربية واليونانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية، واضطرته الحاجة إلى توفير كتب للتدريس دفعته لعمل رحلة طويلة إلى الشرق، وكان من المفترض أن يعود بعد أربعة شهور، لكنه لم يعد إلى البندقية

بعد ذلك، وعام 1712 حينما فَقَد الأمل في تنشيط الدروس التي عهدت بها إليه انتقل إلى ألمانيا. وفي تلك الأثناء استمرت مدرسة القسطنطينية في عملها، وبدأ يدرس فيها أبناء الشعب الفقراء الذين يحملون الجنسية البندقية. واستمرت الصعوبات، ففي عام 1792، وتحديداً عشية سقوط الجمهورية، تم نقل المدرسة بطلابها ومعلميها إلى البندقية، ومع ذلك، فقد أغلقت المدرسة أبوابها بعد مدة وجيزة[1].

كان نشاط المبعوث المقيم في القسطنطينية يعتمد كله على المراسلات المتبادلة مع الحكومة المركزية. حيث يتلقى المبعوثون تعليمات مفصلة جداً، ويكتبون غالباً للبندقية، لمجلس الشيوخ ومجلس العشرة وغيرهما من الأجهزة، تماماً مثل مفتشي الدولة إذا كان الأمر يتعلق بأمن الدولة، أو يكتبون إلى مجلس الحكماء الخمسة للتجارة إذا تعلّق الأمر بالشؤون التجارية. وعندما أصبح المبعوث المقيم مسؤولاً عن جميع القنصليات الرئيسة والفرعية للبندقية في الأراضي العثمانية تكثفت المراسلات بشكل أكبر. ولم تكن الخدمة البريدية الدولية قد أصبحت بعد من اختصاص الدولة، فكان يمكن لأي شخص أن يتدبر أمره لإرسال مراسلاته. كما كان يمكن استخدام الناقلات العابرة بالمصادفة، مثل قوافل التجار أو البحارة الذين كانوا يجوبون مسالك البحر المتوسط، أو الأشخاص الذين اختاروا العمل بمهنة «حامل البريد».

(1) F. Lucchetta, *L'ultimo progetto di una scuola orientalistica a Venezia nel Settecento*, in «Quaderni di Studi Arabi», 3, 1985, pp. 1-43; Id., *Lo studio delle lingue orientali nella scuola per dragomanni di Venezia alla fine del XVII secolo*, in «Quaderni di Studi Arabi», 5-6, 1987-1988, pp. 479-498; I. Palumbo Fossati Casa, *L'école Venitienne des «Giovani di Lingua»*, in F. Hitzel (a cura di), *Istanbul et les langues orientales*, Paris, L'Harmattan, 1997, pp. 109-122.

وغالباً ما كان المبعوثون البنادقة المقيمون يلجأون إلى خدمات البريد المحترفة، والتي كانت تسافر أزمنة منتظمة، غالباً ما تكون مرتين شهرياً، على عكس قناصل البندقية في دمشق والإسكندرية، الذين كانوا يبعثون بمراسلاتهم عند الضرورة فقط. وفي كثير من الأحيان كانوا يوجهون رسائلهم إلى مقر المبعوث المقيم في القسطنطينية، ومن هناك تستأنف طريقها إلى البندقية. وفي الأزمنة الأقدم كان طريق الرسائل كله بحرياً، لكن مع القرن السادس عشر، وعندما أصبح البحر المتوسط مسرحاً لنشاط القراصنة من بلاد البربر ومالطة، وساد الخطر على البحر الأدرياتيكي من جانب القراصنة الأوسكوك والدولتشينيوتي، تم تفضيل الطريق المختلط، عن طريق البر في الأراضي العثمانية الآمنة، ثم بمحاذاة ساحل دلماسيا، ثم بالسفن.

وحتى السنوات الأولى من القرن السادس عشر لم تكن هناك قواعد محددة لإرسال البرقيات من المبعوث المقيم إلى الحكومة البندقية. وغالباً ما كانوا يدفعون لسعاة يتم اختيارهم من وقت إلى آخر للقيام بمهمة معينة، وقد كان بوسعهم استخدام طرق مختلفة. وعام 1535 قرر مجلس شيوخ البندقية أن يصل جميع الرسل إلى كاتارو، والذي يُعد مكاناً أكثر أماناً في راجوزا، حيث انتقل إليها بريد البندقية حتى ذاك الوقت. وراجوزا، التي تسمى اليوم دوبروفنيك (Dubrovnik)، كانت تابعة لعدة سنوات إلى البندقية، وأصبحت تابعة للإمبراطورية العثمانية، تدفع لها جزية سنوية لكي تحظى بحرية التجارة. ومن كاتارو إلى بلاد القديس مرقس، بدأ الرسل يغادرون ويعودون إلى القسطنطينية، وكذلك كانت

تغادر السفن إلى البندقية. وفي العادة كان الرسل آمنين، إذ كان معظمهم يأتي من الجبل الأسود، وهي منطقة عبور آمنة؛ لأن البنادقة كانوا يدفعون رشوة للحكام المحليين الصغار لضمان أمان وسائل النقل العابرة.

وفي عام 1535 كان هناك عشرة رجال يعملون في خدمة الجمهورية، أصبحوا في عام 1614 ستين رجلاً، ولكن في بعض الأحيان كان عددهم يصل إلى مائة وخمسين رجلاً، ثم هبط العدد إلى نحو أربعين عام 1786. وكان في العادة يغادر شخصان معاً، ولكن في بعض المرات، عندما تكون الأحوال في الطريق على درجة عالية من الخطورة، كان عدد الرسل الذين يسافرون معاً أكثر من ذلك. وكانت الرحلة دائماً ما تتم سيراً على الأقدام، مما كان يثير ضحك سفراء الدول الأخرى في القرن الثامن عشر. وقد كان الزمن المستغرق من القسطنطينية إلى البندقية والعكس يتراوح ما بين عشرين وأربعين يوماً، ويعتمد هذا كثيراً على فصول السنة وحالة الطرق. وكانت الحروب والمستنقعات المائية والطقس السيئ هي العوامل التي تتسبب في تأخير تسليم الرسائل. وبحساب مسافة حوالي ثمانمائة وخمسين كيلومتراً بين كاتارو والقسطنطينية؛ نستنتج أن الرسل كان بوسعهم قطع ما بين 20 وأربعين كيلومتراً يومياً من طريقٍ معظمه جبلي[1].

لم تكن حياة رسول البريد سهلة، فعلاوة على المشي عدة كيلومترات كل يوم، كانت هناك المخاطر التي يمكن مواجهتها على طول الطريق،

(1) L. De Zanche, *I vettori dei dispacci diplomatici veneziani da e per Costantinopoli*, in «Archivio per la storia postale, comunicazioni e società», 1, *Capitolo sesto 281 2*, agosto 1999, pp. 19-43; Id., *Tra Costantinopoli e Venezia. Dispacci di Stato e lettere di mercanti dal Basso Medioevo alla caduta della Serenissima*, Prato, Istituto di Studi Storici Postali, 2000.

وخصوصاً خلال أزمنة الحروب بين الباب العالي والبندقية، عندما كان مجرد اكتشاف رسول يحمل رسالة من المبعوث المقيم يعني الموت. وفي كتاب المنمنمات في القرن السابع عشر، الذي يصف تطور الحياة والبنادقة في القسطنطينية والمحفوظ في متحف كورير، والذي تم رسمه لأحد الرحالة كما هو واضح، يمكنك رؤية الصور الفظيعة لتعذيب اثنين من رسل البريد البنادقة[1].

ومع القرن السادس عشر بدأ دبلوماسيو الإمبراطورية نقل الرسائل إلى قصر الحكم بفيينا باستخدام رسلهم المخصوصين، ولكن هذه الخدمة لم تكن منتظمة أو منظمة من دولة مثل البندقية. ومع عام 1740 كوَّنَ حكام هابسبورغ في القسطنطينية مكتب بريد حقيقياً مفتوحاً للجمهور أصبح موثوقاً فيه جداً عند استخدامه، ليس فقط من قِبل التجار ولكن أيضاً من قِبل دبلوماسيين آخرين، بمن في ذلك البنادقة في بعض الأحيان. وعندئذٍ كان بريد المبعوث المقيم يوجه أولاً إلى فيينا، ثم يتم نقله إلى البندقية. وحتى القرن الثامن عشر كان ممثلو الدول الأخرى في القسطنطينية، يستخدمون البريد في حالة الضرورة، وفي حالة عدم وجود حرب مع البندقية، كما استخدمه أيضاً التجار البنادقة، لإرسال الرسائل إلى ممثليهم في البندقية، والتي كانوا ينقلونها إلى قصور الحكم في بلادهم.

وقد كان البنادقة في الواقع من الناقلين الموثوق بهم، على الرغم من أن هناك دائماً خشية من أن شخصاً ما سوف يستفيد من هذه الفرصة

(1) *Vedute di Venezia ed Istanbul attraverso i secoli*, cit., pp. 275-276.

لقراءة المراسلات سراً، وقد حدث شيء من هذا النوع حوالي عامي 1584 و1585، عندما لم تصل بعض الرسائل المبعوثة من ملك البرتغال إلى الحاكم البرتغالي على هرمز وواليه على الهند. ونُظِّمت الخدمة البريدية بين البندقية والمدينة البعيدة التي تقع على الخليج العربي من جانب الأخوين تروليو وسيرتوريو أتلان، ولمدة بعينها بدت الخدمة فعّالة وعلى كفاءة جعلت البرتغاليين يستخدمونها أيضاً. وكان لدى الشقيقين مراسلون على طول الطريق الذي يربط قبرص بحلب، وبغداد والبصرة، ثم هرمز والهند، وكانا يستخدمان تجار البندقية الذين يقطعون هذا الطريق. ومن بين هؤلاء نذكر الشاب بارتولوميو بونتميللي الذي كان يُطلق عليه اسم «دال كاليشي» ومعناها «أبو الكأس»، وهي العلامة التي وضعها على المحل الذي افتتحه في سان سلفادور في البندقية، ثم أصبح بعد ذلك من التجار الأغنياء في عصره، وكان وكلاؤه التجاريون يَصِلون بانتظام إلى الهند، وكان أحد القلائل في المدينة الذين لديهم معرفة بإنتاج الأقمشة التي تناسب العثمانيين. ولا تزال صورته تُطالعُ الزوار حتى اليوم، في لوحة بكنيسة سان سلفادور بالبندقية[1].

هكذا واصل بريد هابسبورغ عمله مع القسطنطينية حتى عام 1787 عندما تم وقف الخدمة بسبب الحرب، وفى العام السابق عليه كانت البندقية قد أنشأت خدمة جديدة من القسطنطينية إلى زارا، وسرعان ما تم السماح أيضاً للأفراد ومن ساحل دلماسيا أيضاً بتوصيل المراسلات إلى أنكونا ثم إلى روما. بعد انتهاء الحرب في عام 1791 فتحت الإمبراطورية

(1) ASVe, *Quarantia Criminal*, b. 97, fasc. 40.

مكاتبها. ومع عام 1793 قررت جمهورية البندقية إلغاء خطوط بريدها؛ لأنها مكلِفة للغاية ولجأت مرة أخرى إلى خدمة بريد هابسبورغ.

ولتجنب أن يفتح بعض القراصنة المراسلات الدبلوماسية ويقرأونها، بدأ البنادقة في وقت مبكر جداً استخدام أنظمة التشفير المختلفة. وكانوا في معظمهم من كتّاب العدل أو السكرتارية الذين كرسوا أنفسهم لفن صنع كلمات لا يفهمها من ليس لديهم مفتاح الشيفرة. وكانت الشيفرة التي يستخدمها المبعوث المقيم تسمى شيفرة كبيرة، تمييزاً لها عن الشيفرة الصغيرة التي تستخدمها الجزر والفصائل الصغيرة. وكان الصدر الأعظم غالباً ما يشكو من هذه العادة، التي كانت تمنعه من قراءة الرسائل التي يتمكن من اقتناصها. وذات مرة أجاب مبعوث مقيم بندقي على مثل هذا التقرير بأن العثمانيين ليسوا أقل منا في هذا، فطريقة كتابتهم تشبه نصاً مشفراً. وقد تم ابتكار أنظمة بارعة جداً: بدءاً من الورق المقطع المثقوب الذي يسلم للمبعوث المقيم عند مغادرته، والذي كان يرفق بالرسالة المطلوب قراءتها، وحتى العجلات، التي كانت تصنع دائماً من الورق، والتي تمد من يحصل عليه بالمراسلة السليمة المكونة من رموز وحروف. ولا نزال نذكر نوتة موسيقية وصلت من إسبانيا، عهد بها إلى فريق كورال كنيسة سان ماركو المشهور بقدرته على إعادة إنتاج أي لحن من أول وهلة، وفي هذه المرة أنتجت النوتة لحناً نشازاً احتار فيه قائد جوقة الكينسة فيلايرت، ولم يفهم الأمر سوى سكرتير عائلة لودوفيكو، وعرف أنها ليست موسيقى، وإنما رسالة مشفرة مرسلة من كارلو الخامس إلى

الدوجي، تم تحريرها على نوتة موسيقية[1].

لقد كانت طرق السياسة الدولية تتوقّع وجود حرب سرية في أوروبا، وكذلك الأمر في الإمبراطورية العثمانية، حربٌ قوامها الجوسسة والمصادمات، التي يتورط فيها عملاء وضحايا من أولئك الذين يحتلون الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعي. وكان العثمانيون يعدون دائماً، أن مقر المبعوث المقيم هو نقطة الاتصال بين الجواسيس البنادقة وبلادهم. وربما كانوا محقين في هذا، ومن البندقية كان مجلس العشرة هو الذي ينظم أنشطتهم. وكان التجار البسطاء والوكلاء التجاريون، والبحارة البنادقة، الذين يشعرون بالانتماء القوي للهوية الاجتماعية، يسارعون إلى تقديم معلومات عن كل ما يُصادف أن يروه أو يسمعوه. ولمدة طويلة كانت مدينة دوبروفنيك مركزاً مهماً للجواسيس البنادقة ولكثير من المؤامرات الدولية أيضاً.

ونستطيع أن نذكر هنا بعض أنشطة التجسس تلك، وعلى سبيل المثال، في نهاية الحرب التي وقعت بين عامي (1537-1540) تم تسجيل معلومات تسربت من الجمهورية إلى الإمبراطورية العثمانية. وقد سبب هذا ضرراً كبيراً للبنادقة الذين اضطروا للتفاوض من موقف ضعف. فقد عرف العثمانيون عن طريق السفير الفرنسي، الذي عرف بدوره بواسطة زميله في البندقية بيلليسييه غيوم، أمر التنازلات القصوى التي تستطيع البندقية أن تقبلها، بما في ذلك التخلي عن ناوبليا ومالفازيا وبعض الحصون في دلماسيا. وقد تم الحصول على هذه المعلومات عن طريق رشوة بعض

(1) Coco e Manzonetto, *Baili veneziani alla Sublime Porta*, cit., pp. 73-77.

البنادقة، غير أن عشيق زوجة أحد هؤلاء أبلغ مجلس العشرة، لكن بعد فوات الأوان، حيث لم يعد هناك مفر من توقيع معاهدة السلام ومعاقبة الجناة بطريقة أصبحت عبرة لمن يعتبر. وخلال حرب قبرص التالية، نجح مارك أنطونيو باربارو، رغم سجنه في منزل المبعوث المقيم، في أن يبلِّغ رسائله من خلال الطبيب سالوموني أشكنازي والبندقي جوزيبي سوريان ورسل سرّيين آخرين كانوا ينقلون رسائل إلى كاتارو وكانديا وكورفو ودوبروفنيك وفيينا وزانتي. وفي الوقت نفسه كان يتلقى تعليمات سرية من خلال الأرمني سيمون ساش، والبوليزي كوستا، وأنطونيو ستانجا وجوزيبي، وهو يوناني من قبرص[1].

وغالباً ما كانت الحرب تحدث بالاغتيالات أيضاً. ففي 31 أكتوبر 1571 خطط مجلس العشرة لقتل سليم الثاني عارضاً مبلغاً كبيراً وأراضي وإقطاعيات على رجل إسباني كان مرشحاً لتنفيذ الاغتيال، وهذه ليست المرة الأولى التي يخاطر فيها البنادقة بخطوة مماثلة، فقد فعلوا هذا بالفعل عام 1463، ثم مرة أخرى عامي 1464 و1477، عندما وعد مجلس العشرة رجلاً من كاتانيا والحلاق باولو البانيزي اللذين كانا يريدان المشاركة في هذه الخطة، ولكن محاولات الاغتيال هذه لم تنجح، حتى إن الشكوك تحوم حول وفاة محمد الثاني عام 1481، للاشتباه في أنه مات مقتولاً بالسم. ولكن أمر الاغتيال هذه المرة لم يصدر من البندقية، وإنما من ابنه بايزيد،

(1) P. Preto, *La guerra segreta. Spionaggio, sabotaggi, attentati, in Venezia e la difesa del Levante. Da Lepanto a Candia 1570-1670*, Venezia, Arsenale, 1986, pp. 79-85; M.P. Pedani, *In nome del Gran Signore. Inviati ottomani a Venezia dalla caduta di Costantinopoli alla guerra di Candia*, Venezia, Deputazione Editrice, 1994, p. 151.

الذي كانت تدعمه الطريقة العلوية ومعها جماعات من الدراويش الآخرين، الذين كانوا متضررين من السياسة الضريبية ومصادرة ممتلكات المؤسسات الوقفية التي قررها السلطان العجوز.

وبعد ما يقرب من قرنين من الزمان، ومع اندلاع حرب كانديا، بين عامي 1646 و1647، جرى النقاش في مدينة البندقية حول كيفية قتل إبراهيم الأول وتقييم اقتراح مغامر أرمني اسمه جيامباتيستا كوريل، كان ينوي أن يعطيه جرعة سمّ قاتلة بالاتفاق مع طهاة القصر، وتم رفض الاقتراح لاستحالة تنفيذه، ومن ناحية أخرى تم اعتبار بقاء إبراهيم على العرش أكثر ضرراً على الإمبراطورية العثمانية وليس على البندقية. وقد بدأت الحرب عن طريق المصادفة تقريباً، بهدف دفع الضغوط الداخلية التي من شأنها أن تصبح تخريبية إلى خارج البلاد، وكان سببها أن السلطان لا يحكم. وقد كان إبراهيم محباً للمجون والخلاعة، وكان مشروعه الوحيد هو أن يحافظ على السلالة العثمانية التي كان آخر ممثليها. وقد أُعطي لقب «ديلي» وتعني «المجنون» وكان يستخدم في المجال العسكري للإشارة إلى الشخص فائق الشجاعة الذي لا يأبه بالمخاطر، ولكن من المحتمل جداً أن استخدامه في حالة السلطان كان بالمعنى الشائع للكلمة. وكان الوزراء العثمانيون هم أنفسهم من قرروا قتله مستغلين فتوى أصدرها شيخ الإسلام.

لكن حظ مجلس العشرة كان أكثر وفاء عندما تعلق الأمر بالقصاص من البنادقة الخونة الذين وقفوا في صف العدو. فعلى سبيل المثال تقرر حوالي عامي (1592-1593)، قتل الترجمان ماتيكا سالفاجو بالسم، وهو

ابن جانونتينو، وقد تم تكليف المبعوث المقيم ماركو فينير نفسه بهذا أثناء الرحلة التي أقلته إلى دوبروفنيك. وفيما بين عامي 1653 و1655 كان الأب لوكاتيلي، من دير سانتا ماريا في القسطنطينية، هو الذي دسّ السمّ في القهوة للعديد من اليهود والمرتدين، في حين قدم السكرتير جيوفاني باتيستا بللارين «جوازات سفر إلى العالم الآخر» لآخرين محكوم عليهم. وقد بدا هذا النظام في نظر مجلس العشرة أكثر أماناً وأقلّ تكلفة. كما قُتِلَ ترجمان آخر اسمه باتشي عام 1665 أثناء حرب كانديا أيضاً، وقتله البنادقة لشكهم في خيانته. وقائمة الذين أعدموا سراً بهذه الطريقة قد تطول كثيراً. وبعضهم لم يكن سوى أشخاص مساكين رمتهم أقدارهم في خيار صعب مثل المحامي جيرولامو فازانيو من ليزينا، هذا الرجل الذي بعد أن اغتصب أحدُ سادة البندقية ابنتَه، وقد أصبح الدوجي فيما بعد، أقسم على الكراهية الأبدية للجمهورية، واعتنق الإسلام، وحاول أن يضع معرفته وعلمه ومهاراته في خدمة العثمانيين. لكن العرائض التي قدمها للسلطان لم تُؤخذ في الاعتبار، بل على العكس من ذلك، وضع مجلس العشرة مكافأة لمن يقتله على اعتبار أنه شخص شديد الخطورة. وبعد أحداث كثيرة استطاع اثنان من القتلة المأجورين الوصول إليه وقتله لنيل المكافأة، وبعثا برأسه المفصول عن جسده إلى البندقية، جنباً إلى جنب مع الأوراق العثمانية التي كان يحملها معه.

وهناك آخرون كانوا فعلاً من الخونة مثل أندريا باروتسي، الذي سلَّمَ بعد اعتناقه الإسلام خطط حصن كانديا للعدو. وفي هذه الحالة أيضاً طاردته عدالة البندقية أكثر من عشر سنوات، ثم أُعطيَ له سمّ تراب

الماس أثناء حفل بالسفارة الفرنسية، مصحوباً بارتياح كبير من المبعوث المقيم جيوفاني فرانشيسكو دونا، الذي أعطي التكليف بالقتل. وهذا السم، وإن كان مكلفاً جداً، كان مجلس العشرة يُعده الأكثر نجاعة في الاستخدام، فاستخدمه أيضاً في حالات أخرى. وبه مات سليمان آغا عام 1683 وتركي آخر في منطقة سبالاتو عام 1686. وكذا مات بالسم مبعوث السلطان مصطفى الكردفاني. وقد وصل إلى البندقية عام 1574 لكي ينتقل منها إلى فلورنسا في عهد فرانشيسكو الأول دي ميديشي، وقد كان يحاول في ذلك الوقت أن يعيد فتح حركة التجارة مع العثمانيين، والتي كانت قد انقطعت عام 1530، فأعدَّه البنادقة فوراً جاسوساً خطيراً وحاولوا اغتياله، لكنه أفلت من محاولتين، الأولى كانت بسُم أعده له مدير الحديقة النباتية في بادوفا، مليكيوري جويلاندينو. لكن المحاولة نجحت عند عودته إلى المدينة في 1576، عندما استعر وباء الطاعون، لتُعزى وفاتُهُ لهذا المرض. وقد كان الدبلوماسي العثماني الوحيد الذي يقتل في البندقية[1].

4. بين الفن والتجارة

استندت ثروة البندقية في العصور الوسطى إلى الرحلات إلى بلاد بعيدة. وتحوّل تجارها إلى طبقة حاكمة، ومن ثم تحوّلت بعض العائلات إلى الطبقة الأرستقراطية وفقاً لتدابير المجلس الأعلى التي سميت (Serrata)

(1) A. Fabris, *Il dottor Girolamo Fasaneo, «alias» Receb*, in «Archivio Veneto», s. V, 23, 1989, pp. 105-118; P. Preto, *Un infortunio professionale di Melchiorre Guilandino, direttore dell'Orto Botanico di Padova*, in «Quaderni per la Storia dell'Università di Padova», 22-23, 1989-1990, pp. 233-236.

لغلق عضوية المجلس على أعضائه ومن يرثونهم مؤقتاً، وصدرت عام 1297. وخلافاً لبقية أوروبا في العصور الوسطى، لم تكن شخصية التاجر في البندقية ينظر إليها سلباً. وكان فن التجارة علماً يتم اكتسابه في العائلة في سن الشباب، وكان الأبناء يشاركون الآباء والأعمام رحلاتهم الطويلة. وقد بدأت مغامرة ماركو بولو على هذا النحو نفسه. وكانت قصة هذا الرحالة استثنائية، سواء من ناحية الوقت الذي قضاه في الشرق، أو لأن مذكراته قد انتقلت مكتوبة. ورغم أن كثيراً غيره قد سبقوه أو تبعوه، فإننا لانكاد نتذكر عنهم إلا القليل. وربما يمكن إحالة أسماء عائلات مثل كاتايو أو ساراشينو إلى ارتياد أماكن بعيدة والاختلاط بأهلها. ومع ذلك، لا تزال بعض الآثار موجودة، مثل شاهدة القبر التي اكتشفت في يانغتشو في الصين حيث حفر اسم كاترينا ابنة بيترو فيليوني، الذي يعتقد البعض أنه من البندقية فيما يعتقد آخرون أنه من جنوة.

وتشهد وثائق المشتريات والمبيعات من جانبها على رحلات المغامرة لكل من لوكيتو دوودو وفرانشيسكو لوريدان وفرانشيسكو كوندولمير الذين وصلوا هم أيضاً إلى «كاتاي» البعيدة بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وقد توقف العديد من أولئك في الهند وبلاد فارس. وفي العادة كان يتم الشراء والبيع أثناء الرحلة للبضائع الكبيرة، ويستعين التجار بمترجمين أو يتعلمون لغات الشعوب البعيدة. وقد سمحت الإقامة في مستعمرة البندقية بـ«تانا» في شبه جزيرة القرم، على سبيل المثال، باكتساب القليل من اللغة القفجاقية أو (*kıpçak*)، وهي اللغة التي تتحدث بها القبيلة الذهبية التترية، وكانت مفهومة في العصور

الوسطى، بتنويعات مختلفة للنطق في أنحاء كثيرة من قارة آسيا. أما طالبو الراحة فكانوا يختارون شراء جارية إيرانية أو تترية تجيد التركية أو العربية يمكنهم استخدامها مترجمة أيضاً.

وكان شرق المتوسط لا يزال منطقة مفضلة من جانب التجار البنادقة، فكانوا يشترون البضائع من مصر والشام والقسطنطينية، ثم يبيعونها في البندقية أو في الأسواق الأبعد من ذلك. وعلى سبيل المثال، يمكننا العثور على خبر شراء حجري ياقوت أفغانيين ضخمين في الإسكندرية بمصر حوالي عام 1413. حيث كان المشترون جماعة من التجار البنادقة، وقد أرسلوا الحجرين إلى لندن لدى باولو باسكواليو، عديل القنصل البندقي بمصر بيادجو دولفين، الذي شارك في الصفقة. وتم بيع الحجر الأول على الفور مقابل مبلغ هائل قدره ألف ومائتا دوقية، على الرغم من أن الشركاء كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون بيعه بألف وثمانمائة. وعرضت الياقوتة الثانية على ملك إنجلترا هنري الخامس (1413-1422) الذي سرعان ما أظهر اهتمامه بشرائها لدرجة أنه أرغم باسكواليو على حجزها له. وقد كان بحاجة إليها إذ كان التاج الجديد يعد في ذلك الوقت لزواجه بابنة ملك فرنسا، كاترين دي فالوا. وفي الواقع، تم الحفل بعد بضع سنوات، عام 1420، ولكن في هذه الأثناء وقعت معركة أجينكورت، وارتدى الملك هنري خوذة وضع حجراً أحمر ضخماً في وسطها. وتقول الأسطورة إن ياقوتة الأمير السوداء الموجودة الآن في التاج الإنجليزي، وهي من الأحجار الكريمة، امتلكها أمير غرناطة أبو سعيد، ثم بيدرو القاسي، ملك قشتالة، وأُهديت عام 1367 لإدوارد «الأمير الأسود»، نظير

الخدمات التي قدَّمها للتاج القشتالي. ومع ذلك ففي اللحظة التي خرج فيها هذا الحجر من الأسطورة دخل التاريخ، فالأوراق تدل على وجود ياقوتتين رائعتين في لندن أثارتا اهتمام القصر والملك، وتم استيرادهما من الإسكندرية بمصر بواسطة بعض التجار البنادقة[1].

وقد كانت الأحجار الكريمة من البضائع التي يشتريها البنادقة، بمن في ذلك مبعوثهم المقيم من الشرق. وعلى مدى العصور الوسطى كانت التوابل والحبوب والأقمشة، والعبيد والأخشاب، هي المنتجات الأكثر تداولاً. ويقال عادة إن تجارة التوابل هي في الأساس التي جعلت المدينة غنية. واستمر ذلك بعد اكتشاف الطريق الجديد حول رأس الرجاء المصلحة. وحتى نهاية القرن السادس عشر كانت الجمهورية قادرة على مواجهة المنافسة من المنافسين الجدد؛ لأنها في هرمز حصلت على الضرائب نفسها التي كان البرتغاليون يدفعونها. ومن هناك تُواصل البضائع طريق البصرة- بغداد- حلب حتى الساحل حيث يتم نقلها إلى البندقية. وهي رحلة أقصر بالتأكيد وأقل خطورة من الدوران حول إفريقيا. وإنما بدأت تجارة البنادقة تتدهور عندما تمت زيادة الضرائب المفروضة عليهم[2].

كان البنادقة، من الخبراء المدققين للأعمال الفنية، يشترونها ويبيعونها، وينهبونها أحياناً. فوصلت الخيول البرونزية إلى كنيسة سان ماركو بالبندقية عقب نهب القسطنطينية عام 1204 وكذلك بعض التحف

(1) M.P. Pedani, *Balas Rubies for the King of England (1413-1415)*, in «Electronic Journal of Oriental Studies», 5, 7, 2002, pp. 1-13.

(2) Id., *Venetian Consuls in Egypt and Syria in the Ottoman Age*, in «Mediterranean World», 18, 2006, pp. 7-21.

الشرقية الأخرى، والأعمدة العكاوية الموجودة في سان ماركو، التي جاءت من كنيسة القديس بوليكتوس في عكا. كما جاءت أيضاً مجموعة الحكام الأربعة من السماق الأحمر من القسطنطينية. وفي منتصف القرن العشرين، تم العثور على كتلة حجرية بها قدم وقاعدة تمثال في إسطنبول تعرض الآن في متحف الآثار في تلك المدينة. والأعمدة التي تزين واجهة الكنيسة تم أخذها من الشرق، ولا تزال مكتوبة باللغتين العربية والأرمنية المنقوشتين على بعض هذه الأعمدة، مما يشير إلى هذا الأصل البعيد. وكثير من الأوعية الفخارية والرخام الذي يزين بعض القصور في البندقية جاءت عن الطريق نفسه، حتى وإن كان تحميلها على المراكب قد جاء بهدف وضع ثقل لحفظ اتزانها.

وفي وقت من الأوقات لم يكن الفن مقدراً لأسباب جمالية فقط، وإنما أيضاً لنقل رسالة عن الثراء والسلطة. كانت هذه أيضاً رسالة محمد الثاني عندما طلب المهرة من أصحاب الحرف وجَلبَهم من البندقية. وقد كان هذا الملك معروفاً بالنزعة الإنسانية والنهضة بالفعل قبل غزو المدينة التاريخية. وقد كان طبيبه الخاص جاكوبو دا جاييتا من بين الذين يسروا له الاتصال بعالم الفن الإيطالي، وكذلك الأثري صاحب النزعة الإنسانية والرحالة الإيطالي تشيرياكو دانكونا، والذي يقال إنه كان يحكي له قصص عظماء الماضي. وتشهد مصادر مختلفة على رغبة الفاتح في طرح نفسه بوصفه الإسكندر الأكبر الجديد، والحاكم الذي ينتمي إلى تاريخيْ المسيحيين والمسلمين على حد سواء. ويقال إن الخارطة نجمية الشكل بخمسة أطراف، في قلعة (الأبراج السبعة) التي بنيت عام 1458،

إيطالية الأصل، وإن هناك تأثيرات مشابهة يمكن أن نصادفها أيضاً في قلعة قيلد البحر على الدردنيل وبنيت قبلها بسنوات قليلة. كما وصل إلى القسطنطينية حرفيون في صب البرونز والحفر، وحرفيون آخرون عند نهاية عصر محمد الثاني، بينما ساهمت الجالية البندقية في بيرا في بناء الحصن المسمى وفقاً للمصادر الغربية التي تحدثت عنه: «فيتوبريو `Vituperio`».

عندئذٍ كانت الحرب والفتوحات والسياسة الدولية تمتزج بعالم الفن. وكان المهندسون المعماريون وأولئك الذين يعملون في البرونز يبنون القصور والمباني العامة جنباً إلى جنب مع الحصون والآلات الحربية، بينما كانت التماثيل الشخصية مما يعد بيانات سياسية الطابع. وكان لاهتمام الفاتح بعصر النهضة الإيطالية جانب مزدوج. ونحو عام 1461 جرت اتصالات مع سيجيسموندو مالاتستا للحصول على خبير في رسم الوجوه، حتى يسافر إلى القسطنطينية. وقد تم اختيار ماتيو دي باستي الذي انقطعت رحلته في كانديا بوساطة البنادقة الذين كانوا يخافون، ربما عن حق، من أن تكون رحلته تخفي وراءها غرضاً سياسياً: وتمت مصادرة كتاب للرسام في فن العسكرية وخريطة مفصلة جداً للبحر الأدرياتيكي أو ربما لإيطاليا كلها. وربما كان أول فنان يصل إلى القسطنطينية هو كوستانزو دا فيرارا، وقد حظي بثقة فرديناند الأول الأراجوني ملك نابولي. ونذكر له ميدالية رسمت عليها صورة السلطان، وقد عاد إلى إيطاليا عام 1480 محاطاً بكل أنواع التكريم. وكان الرسام الشهير في البلاط العثماني في تلك السنوات هو سنان بيك ابن ساعاتي، وربما كان من أصل يوناني، وقد اعتنق الإسلام، وحظي بتقدير خاص من الحاكم،

وكان معلمه رساماً اسمه باولو، يمكن التعرف في شخصه إلى باولو دا راجوزا، وهو تلميذ لشخصية غير معروفة اسمه داميانو[1].

وكان سنان يحمل لقب نقاش البلاط عندما وصل إلى القسطنطينية فنان من البندقية هو جنتيلي بيلليني. وكان البنادقة هم الذين اختاروه لمثل هذه المهمة عام 1479، لتلبية مطالب السلطان الذي يتوق لوجود رسام ونحات (وهو بارتولوميو بيللانو)، مصطحباً مهندساً معمارياً، وصاهر نحاس وغيرهما من الحرفيين. وفي ذلك الوقت كان محمد الثاني يبني القصر الإمبراطوري الجديد، وتخبرنا المصادر أن بيلليني زينه بلوحات جدران إباحية في الحمام. وإضافة إلى هذا صنع عدة اسكتشات لرجال الحاشية والدراويش والانكشارية والبورتريهات التي لا تزال محفوظة. وهناك أيضاً حديث عن منظر للبندقية ولوحة للعذراء والطفل تم عملها في القسطنطينية. أما بورتريه الملك فكان الهدف منه إظهار العظمة الإمبراطورية حسب الموضة في عصر النهضة الإيطالية، ولا تزال هناك ثلاثة بورتريهات منها منسوبة إلى بيلليني، أشهرها وربما أكثرها تدميراً هي المعروضة اليوم في المتحف الوطني بلندن، وهي تصور محمد الثاني خلف قوس على خلفية سوداء تبرز عليها التيجان الذهبية الستة، وعلى عتبة القوس فُردت سجادة من اللؤلؤ والأحجار الكريمة وطرز عليها تاج سابع. ولو تصورنا أن الفاتح قد شرح للرسام مفاتيح الرموز

(1) F. Babinger, *Maometto il Conquistatore e il suo tempo*, Torino, Einaudi, 1977, pp. 554-556; M.P. Pedani, *Un appunto d'archivio su «Nakkaş» Sinan*, in «Thesaurismata», 31, 2001, pp. 131-136; J.M. Rogers, *Mehmed the Conqueror. Between East and West*, in C. Campbell e A. Chong (a cura di), *Bellini and the East*, London, National Gallery Company, 2005, pp. 80-97.

العثمانية، فإن العناصر التي تتكون منها اللوحة تصبح واضحة التفسير. فالتيجان الستة في الخلفية يمكن ربطها بالملوك الستة الذين سبقوا محمد الثاني، وهو السابع في سلالته والذي يعبر عنه التاج الذي تم تطريزه على الأرضية. وفي اللوحة يظهر الملك خلف قوس وعتبة، وهو مكان العدالة المميّز عند العثمانيين، ويذكرنا بالخيمة التي كان الخانات القدامى يجلسون فيها للاضطلاع بشؤون الحكم. ويحيل القوس إلى رمز الباب، نظراً لأهميته القصوى في القصر الإمبراطوري، حتى إنه سمي عندئذٍ بالباب العالي. والجزء المعتم في خلفية اللوحة يمكن ربطه في الجزء الأكثر سرية في القصر، حيث تقع الغرف الخاصة بالحاكم، والحرملك الخاص به، حيث لا تصبح صارمة تلك القوانين التي تطبق في بقية المملكة بصرامة: الحقيقة أنها مكان يشبه جنات عدن التي يستعصي الدخول إليها[1].

ولم يتردد ابن الفاتح، بايزيد الثاني، في احتقاره للفنون التصويرية، إذ قام ببيع مجموعة لوحات أبيه في البازار الكبير. غير أنه كان مغرماً بالعمارة، حتى إنه دعا إلى القسطنطينية ليوناردو دافنشي عام 1502 ومايكل آنجلو عام 1506. وكان يفكر في جسر على القرن الذهبي لربط مركز المدينة بغلاطة، فأرسل ليوناردو إليه بتصميم جسر له ساحة مفردة ويبلغ طوله 360 متراً وعرضه 24 متراً، لكنه رفض التصميم، لأنه أعدَّهُ

(1) M.P. Pedani, *The Portrait of Mehmed II. Gentile Bellini, the Making of an Imperial Image*, in Turkish Art, Genève, s.e., 1999, pp. 555-558; Id., *Simbologia ottomana nell'opera di Gentile Bellini*, in «Atti dell'Istituto Veneto di Scienze, Lettere ed Arti», Classe di Scienze Morali, Lettere ed Arti, 155, 1, maggio 1997, pp. 1-29; A. Chong, *Gentile Bellini in Istanbul. Myths and Misunderstandings*, in Campbell e Chong (a cura di), *Bellini and the East*, cit., pp. 98-129.

عندئذٍ غير قابل للتنفيذ. وهذا التصميم تم تنفيذه بالفعل في أوسلو عام 2002، ما يدل على أن الهيكل الذي تخيله ليوناردو كان في الواقع قادراً على الوقوف والصمود في وجه الرياح. وقد دعا سليم الأول، الذي خلف بايزيد، مايكل آنجلو مرة أخرى. فقد كان هذا الحاكم مهتماً أيضاً بالفنون التشكيلية، حتى إنه رغب في تزيين الكشك الرخامي عند سور جدران قصر طوب قابو ببعض اللوحات، وربما لم تكن لوحة بيلليني موجودة بعد في القسطنطينية، وتلك التي اشتراها لم تكن تشبه الفاتح كثيراً، بل لم تحمل ملامح أنفه الأعوج الشهير. وكان السلطان هو الذي أدرك ذلك؛ لأنه كان لا يزال يتذكر جدَّهُ الذي توفي عندما كان عمره حوالي ست سنوات.

وما بين عامي 1490 و1530 سادت في البندقية موضة شرقية حقيقية، أو بالأحرى مملوكية، حيث لم يعد الشرق الغرائبي مصدراً للإلهام، ولا حتى القسطنطينية، وإنما الإسكندرية بمصر، ودمشق وبلاط سلاطين القاهرة. فمنذ قرون والبندقية تطرح نفسها على أنها «الإسكندرية الجديدة» ووجود رفات القديس مرقس كان الدليل الملموس على هذه التبعية. وقد بدأت أشياء مملوكية تظهر في اللوحات، مثل دلو في حلم سانت أورسولا (1490-1495) أو رشاشات سقي الورود في سانت أجوستينو في مكتبه (1502)، وكلاهما من رسم فيتوري كارباتشو. وفي عام 1495 صور تشيما دا كونليانو مريم العذراء بسوار منقوشة عليه كتابة إسلامية تستدعي للذاكرة الأقمشة الشرقية. ونجد في العديد من اللوحات تصويراً للسجاد الشرقي، ولم يكن وجود هذه الأشياء في البندقية مستغرباً، حيث كان يوجد مصري

أسمر ينسج السجاد وبلغت شهرته أنه دُعي إلى فيرارا لكي يعمل فيها نساجاً للسجاد حتى 1528 تقريباً. وربما كانت الثياب والمعاطف هي الأكثر إثارة للاهتمام، مثل تلك الموجودة في لوحة مراسم إصلاح إنيانو (1497-1499) والتي رسمها تشيما دا كونليانو، وفي لوحة اعتقال القديس مرقس ومحاكمته (1499)، لجوفاني مانسويتي، وفي لوحة عظة القديس استفانو في القدس (1514)، وتعميد السيلينيين (1507) وكلاهما رسم لمدرسة سان جورجيو ديلي سكيافوني بواسطة فيتوري كارباتشو.

وقد تم تصوير العمائم والقبعات العالية التي استخدمها المماليك بدقة كبيرة دون تدّخل من الخيال. كما ظهرت العمائم الواسعة لعلماء الدين، والذين كانوا يضعون دائماً وشاحاً حول العنق. أما السلطان والأمراء فقد كانوا يرتدون عمامة أكثر انتفاخاً مصنوعة من قطعة قماش طويلة جداً مطوية بالتقاطع بحيث تشكل ما يشبه القرون التي يتراوح عددها بين اثنين وستة حسب مكانة من يرتديها. وفي لوحة مانسويتي نرى السلطان المملوكي، بينما نرى نائبه في حفل استقبال لسفراء البندقية في دمشق عام 1511. وقد كانت الملابس الأكثر فخامة هي التي تطرز عليها آيات من القرآن أو أبيات من الشعر. والأعلى مرتبة هو من يرتدي رداء بأكمام قصيرة، حتى تكون الذراع على استعداد للضرب، لكن الجنود كانوا يرتدون أردية واسعة طويلة الأكمام؛ لأنه كان من غير اللائق أن يظهروا أمام قادتهم بأيدٍ عارية. وكان هناك مسؤولون آخرون يرتدون عمامة لها طرف جانبي ساقط، يوضّح أنهم من العبيد. أما المماليك الأقل مرتبة فكانوا يضعون أوشحة حمراء أو داكنة.

ونكتشف من لوحة تعميد السيلينيين عمامة عثمانية ملقاة على الأرض في الأمام. وفي عام 1507 عندما تم تنفيذ اللوحة لم تكن العلاقة بين سلطان القسطنطينية وسلطان القاهرة قد توترت بعد. بل على العكس، ففي بداية القرن أرسل بايزيد الثاني خبراء من قواته البحرية إلى مصر لمساعدة نظيره الذي لم يكن لديه أسطول، وبالتالي لم يكن ليتمكن من مواجهة البرتغاليين الذين بدأ تدخلهم في تجارة التوابل يصبح تدخلاً محسوساً. وفي وقت لاحق، في عهد سليم الأول القصير جداً، كانت التوازنات القائمة مع الشرق الأدنى منذ عدة قرون قد اختلت، وساهمت الثروة والفنانون القادمون من بلاد بعيدة في إرساء دعائم النهضة العثمانية التي أثمرت في عهد سليمان الأول. أما سليم الأول، فبعد إجبار والده على التنازل عن العرش والتخلص من الإخوة وأبنائهم، التفت إلى بلاد فارس، وهزم الشاه الشاب في معركة جالديران عام 1514. ثم غزا سوريا، وبعد ذلك توجه ضد قلب الدولة المملوكية التي احتلها عام 1517. وفي عام 1518 أهداه قرصان، أصبح بعد ذلك أكبر أميرال عثماني وهو خير الدين بربروس، الجزائرَ، وحصل في مقابلها على ولاية وألفين من الانكشارية.

كانت القسطنطينية قد أصبحت عاصمة لإمبراطورية شاسعة امتدت من شمال إفريقيا إلى منطقة القوقاز. وفي تلك الأثناء كانت الموضة المملوكية في التصوير الفني في البندقية قد تضاءلت واقتصرت على بعض اللوحات المقلدة الباردة[1]. ومع ذلك فإن صورة القاهرة التي غزتها جيوش سليم

(1) C. Schmidt Arcangeli, *La pittura «orientalista» a Venezia dal XV al XVII secolo*, in Venezia e l'Islam. *828-1797*, Venezia, Marsilio, 2007, pp. 139-161; G. Ricci, *Ossessione turca. In una retrovia cristiana dell'Europa moderna*, Bologna, Il Mulino, 2002, pp. 27-28.

قد تم حفرها في البندقية تحديداً، في خريطة طبعت عام 1549 من قِبل الحفار ماتيو باجان: الوصف الحقيقي لمدينة القاهرة الكبرى. يتعلق الأمر بتصوير مفصل، ربما يستند على اسكتش تم رسمه قبلها، عام 1497، عندما تم تدمير حديقة النباتات الطبية البلسمية المصورة في هذه اللوحة. بينما نجد إلى اليمين واليسار جنوداً عثمانيين يدخلون المدينة منتصرين. حيث لم يعد في البحر المتوسط سلطانان، وإنما سلطان واحد[1].

لم يكن جنتيلي بيلليني الفنان الوحيد من البندقية الذي رأى القسطنطينية. وحول عام 1578، قام الصدر الأعظم سكولو محمد بتشغيل عبد من البندقية في القصر الذي كان ينشئه، وكان هذا العبد رساماً قديراً، ثم أعتقه بعد أن وعده بأنه سيعود إلى القسطنطينية لإنهاء العمل. ولم يعد الولد مطلقاً، فطلب سكولو بعد أن خاب أمله في عودة العبد من المبعوث البندقي المقيم أن يحضر إليه لوحات السلاطين العثمانيين التي كان يعلم بوجودها في البندقية. وقد أظهر اهتمامه أيضاً بلوحة، رسمها له على عَجلٍ شاب من فيرونا، كان موجوداً في القسطنطينية للعمل بمهنة المترجم لحساب البندقية. كما أبدى إعجابه أيضاً بصورة أخرى للسلطان مراد الثالث رسمها الرسام نفسه. وقد طرح بعض الدارسين أن البورتريه الذي رسمه كريستوفانو ديل التيسيمو لسكولو، والمحفوظ الآن في متحف الأوفيتسي (Uffizi) في فلورنسا، يستند على وجه التحديد إلى لوحة ذلك الرسام المجهول. وفي تلك الأثناء تم تكليف رسامين في البندقية، برسم مجموعة من البورتريهات للسلاطين. وصلت أربعة منها

(1) N. Warner, *The True Description of Cairo. A Sixteenth-Century Venetian View*, 2 voll., London, The Arcadian Library - Oxford University Press, 2006.

إلى إسطنبول في نهاية مارس 1580. وكان الصدر الأعظم الذي كلفهم بالعمل قد مات قبلها بما يزيد على خمسة أشهر، ولهذا استخدمت لوحات البورتريه لتزيين مقر المبعوث المقيم، وكان الاهتمام العثماني بفن تصوير البورتريه في البندقية وراء سلسلة من لوحات السلاطين المنتجة في البندقية، في ورشة عمل فنان فيرونيزي آخر أكثر شهرة، وكل هذا محفوظ الآن في بيناكوتيك ميونخ بافاريا[1].

ومن ثم فإن الاهتمام بفن الرسم لم يقتصر على السلطان محمد الثاني، كما يقال غالباً. فلم يكن تصوير الإنسان مسموحاً بعرضه في العلن ولكن كان يمكن استخدامه في الأملاك الخاصة، كما تشهد بذلك العديد من الأعمال التي تحتوي على منمنمات، مثل تلك التي تصور الاحتفالات الهامة التي كانت الإمبراطورية تقيمها. والذنب في ذلك لا يقع على المستخدم ولكن على الرسام. فعند يوم الحساب سوف يقول له ربه: «انفخوا في ما خلقتم»، وسوف يضطرب؛ لأن الخلق حق مقصور على الله. وهكذا عندما نتصفح صفحات الوثائق الأرشيفية وسجل الأحداث العثمانية تظهر في بعض الأحيان، وعلى غير المتوقع، أخبار عن لوحات فنية مصورة. منها على سبيل المثال لوحتان من دون إطار لباسانو تصوران قططاً وغيرها من الحيوانات أرسلهما البنادقة عام 1589 إلى القسطنطينية هدية للسلطان. ويحكي المؤرخ نعيمة أنه في بداية حرب كانديا أعاد البنادقة إلى بلادهم لوحة تصور حسين كوجك باشا ممتطياً

(1) F. Lucchetta, *Sulla ritrattistica veneziana in Oriente*, in «Quaderni di Studi Arabi», 8, 1990, pp. 113-122; J. Raby, *La Serenissima e la Sublime Porta: le arti nell'arte della diplomazia (1543-1600)*, in *Venezia e l'Islam. 828-1797*, cit., pp. 107-138.

حصانه المسمى كايتاس يهمّ بدخول المعركة[1]. وبعد فترة وجيزة زيّن الشاعر فيني (Fenni) باللوحات الكشك الذي بناه بالقرب من قلعة «روملي حصار» على البوسفور. وفي عام 1643 تم العثور في منزل الصدر الأعظم قرة مصطفى، بعد إعدامه مباشرة، على عرش وخمسة بورتريهات: واحد له والباقي لغيره من عظماء الإمبراطورية، وجميعها مثبتة بمسامير من البرونز، وقيل إنها كانت تستخدم في أعمال السحر. وفي عام 1682 بدا أن السلطان محمد الرابع اندهش كثيراً لسلوك السفير الفرنسي، الكونت جويراج، عندما طلب منه صورة بورتريه له. وأخيراً وبعد حصار فيينا تم العثور على غرفة بها لوحات مرسومة في أنفاق تحت الأرض حفرها العثمانيون. وبحلول القرن التاسع عشر كانت الفجوة بين الفن الأوروبي والفن العثماني قد تقلصت في إطار برنامج إصلاح جهاز الدولة وتغريبه: فأصبح السلاطين في ذلك الحين يسمحون برسمهم من جانب رسامي البلاط، بينما أخذ المجتمع يتأثر بالمستجدات الواردة من أوروبا.

(1) *Târih-i Na'îmâ*, a cura di M. İpşirli, 4 voll., Ankara, Türk Tarih Kurumu, 2007, vol. III, pp. 981, 1076.

الفصل السابع

بين هويّتين

1. مهاجرون ومعتنقون

إن شخصية المهاجر الذي يترك وطنه وأسرته، لكي يسافر بعيداً إلى بلد لا يعرف حتى لغته، لا تنتمي إلى الحضارة المعاصرة وحدها. فقد كانت الظاهرة موجودة حتى في القرون الماضية، وإن كانت ذات دلالات مختلفة. في الماضي كان التغيير أكثر إيلاماً سواء لصعوبات التواصل مع كل ما تركه المهاجر وراءه في وطنه، أو عندما يتعلق التغيير أيضاً بالمجال الديني. فبالنسبة إلى المسلم كان العيش في أوروبا المسيحية مستحيلاً تقريباً، إلا إذا كان عبداً أو مسافراً لأسباب دبلوماسية أو تجارية. وعلى العكس من ذلك، كان بوسع المسيحي أن ينتقل إلى أي بلد مسلم ويحافظ على دينه، حتى وإن كانت معظم الحالات تدل على أن من يقرر ترك بلده كان مجبراً على ترك دينه أيضاً؛ لكي يثبت أنه قطع كل ما يربطه بالماضي وأنه جدير بالثقة. وقد كان أغلب السجناء أو العبيد من بين أولئك الذين اختاروا اعتناق دين آخر، سواء في أوروبا أو في البلدان الإسلامية، حيث أرادوا شراء حياة مختلفة، ومعهم الحرفيون المهرة بحثاً عن أجور أعلى، وكذا المعارضون السياسيون للنظام الممسك بالسلطة، أو المجرمون

الذين يحاولون التهرب من العقوبة[1].

وفي هذا المجال مثلت البندقية أيضاً استثناء بطريقة معينة، وبخاصة في العصر الحديث، عندما أصبحت الاتفاقات المبرمة مع السلطان تقضي بتبادل السجناء ومنع البنادقة من الاحتفاظ بالعبيد المسلمين. وقد سمح هذا للكثيرين، الذين اضطروا إلى العمل في التجذيف على مراكب إسبانية، أو السجناء في مدن إيطالية أخرى، بالبحث عن الحرية في بلد سان ماركو. وفي مثل هذه الحالات أثبتت الجمهورية التزامها بما وقّعت عليه، وحاولت مساعدتهم، وهذا هو ما تم بالفعل في حالة طرد المسلمين من إسبانيا من جانب الملك فيليب الثالث ملك هابسبورغ عام 1609. وقد وصل عدد البعثات الدبلوماسية العثمانية إلى البندقية ثلاث بعثات بالتمام والكمال، طلبت غوث الفارين ومنحهم حق حرية المرور والتصريح بخلع الملابس المسيحية ووضع العمامة الخاصة بمن غيّر دينه، فور الوصول إلى الحدود مع الإمبراطورية العثمانية.

وقد كان الانتقال من دولة إلى أخرى يمثل لحظة حاسمة حيث كانت سلطات الحدود، من كلا الجانبين، تحاول منع عبور من يريد الانتقال إلى دولة تختلف ديانتها عن ديانة دولته، خاصة مع عدم وجود الوثائق اللازمة. ومن ثم كان تغيير الملابس سلوكاً يتساوى فيه الرمز مع الحقيقة، ويعبّر عن دخول المجتمع الإسلامي أو المسيحي على حدٍ سواء، وكان فرار المسلمين الأندلسيين يتم في اتجاهات عديدة، ففي اتجاه الجنوب كان يمر بالأراضي العثمانية بشمال إفريقيا، أو في اتجاه الشمال بالدخول

(1) S. Bono, *Un altro Mediterraneo. Una storia comune fra scontri e integrazioni*, Roma, Salerno, 2008, pp. 79-110.

إلى فرنسا، ثم مواصلة الطريق إلى إيطاليا، أو بالسفن من مرسيليا حتى ليفورنو، أو مباشرة عن الطريق البري تجاه الدولة البندقية. وفي عام 1610 بلغ تدفق المهاجرين مستويات عالية جداً: فقد وصل إلى مرسيليا، على سبيل المثال، في سبعة عشر يوماً 9788 شخصاً، إلى درجة أن السلطات المحلية نفسها هي التي دفعت لهم ثمن تذاكر السفينة إلى إيطاليا حتى تبعدهم سريعاً عن المدينة. وحتى الحكومة البندقية حاولت تشجيع الهجرة السريعة؛ لتفادي الاحتكاك مع السكان المحليين. فوصل عدد كبير من المسلمين إلى الأراضي العثمانية، التي نجحت في الاستفادة من وجودهم. فإذا كانت إسبانيا قد فَقَدت بهذه الطريقة أصحاب المواهب من الحرفيين وجزءاً من الثقافة القديمة التي ازدهرت في الأندلس، فإن الولايات العثمانية في المغرب العربي شهدت نهضة في الفنون والعلوم مع وصول هؤلاء اللاجئين[1].

وفي بعض الأحيان كان العبيد من المسيحيين الذين يعيشون في الدول الإسلامية يلتمسون الأمان في أراضي الجمهورية، وفي هذه الحالة كان المرور من الحدود في الاتجاه المعاكس، على الرغم من أن الصعوبات التي واجهها أولئك الذين يرغبون في العودة إلى أوروبا، هي الصعوبات نفسها التي كان على الكثير من المسلمين التغلب عليها، وفي بعض الأحيان كان العبد المسيحي إذا وصل إلى البندقية بصحبة سفير عثماني ينجح في الهروب منه، وبالطبع كان لمثل هذه الحوادث يدٌ في خلق أزمات دبلوماسية

(1) M.P. Pedani, *In nome del Gran Signore. Inviati ottomani a Venezia dalla caduta di Costantinopoli alla guerra di Candia*. Venezia, Deputazione Editrice, 1994, pp. 176-178.

حقيقية، ولهذا احتفظت السلطات البندقية دائماً بموقف المواربة لتجنب تقديم تنازلات. وعلى سبيل المثال شكا علي بيك عام 1514 من هروب عبد مسيحي، لكنه عندما لم يستطع تقديم مزيد من المعلومات حوله اضطر إلى التراجع عن الشكوى. والشيء نفسه حدث مع إبراهيم، الذي نجح في ذكر أسماء أقارب العبد الذي وصل معه وقد هرب إليهم في بياتشنسا، ولهذا اضطرت السلطات إلى استجوابهم، وعندما أكدوا أنهم لا يعرفون شيئاً عن الصبي فضَّلت السلطات عدم الإلحاح وتجاهل الأمر. وفي عام 1604 فر أحد الخدم من منزل المبعوث ذو الفقار، ولكنه اعتقل بعد توجيهات سيده، الذي ادعى أنه اعتنق الإسلام، واقتيد إلى قصر الحكم، حيث أقسم أمام الشهود من كلتا الديانتين على إيمانه بالمسيح. وفي نهاية الأمر أطلق البنادقة سراحه، على الرغم من غضب سيده التركي الذي أبى التخلي عنه.

ويمكننا ملاحظة أن المسيحيين الذين يأتون إلى البندقية بصحبة السفراء العثمانيين كانوا جميعاً من صغار السن. فعلى سبيل المثال، اصطحب السفير محمد عام 1547 صبياً قالت الإشاعات إنه مسيحي، لكنه في النهاية فشل في إثبات الديانة التي يعتنقها، فامتنع عليه أن يظل معه بالمدينة. ورغم القوانين القائمة ضد اللواط في البندقية فإن السلطات كانت تتعامى عن ملاحظة ذلك مع سفراء السلطان، حتى لا يخلقوا أية تعقيدات دولية. وفي هذا الصدد الهام، وإن كان غير حيوي، كان من الممكن محاباة الأتراك، دون تدخل، إلا في حال تجاوز الأمور الحدود المسموح بها[1].

---

(1) *Ibidem*, pp. 55-56, 84.

وفي قصة أخرى من قصص العودة إلى الدين الأصلي، كانت قصة جاكومو دي ملنيزيو دا ساشيل الشهير باسم المملوك. وكان قد سقط في فريولي خلال غارات عام 1499 بقيادة سنجق البوسنة إسكندر، تلك الغارات التي أودت بحياة أو حرية 1965 شخصاً، وتم بيع جاكومو في مصر، حيث دخل في جيش المماليك، ووصل إلى درجة الخاصكية، وهي طبقة متميزة من الحراس الشخصيين الذين يحمون حياة السلطان نفسه أو أحد الأمراء التابعين له. وما إن وصل إلى البندقية في صحبة السفير المملوكي تغري بردي، المعتمد لدى الجمهورية عام 1507، حتى وقع في حب فتاة بندقية. ثم غادر معها المدينة، ولجأ إلى بورشا، في فريولي، وعاد إلى دين آبائه. وسمحت مهاراته في التعامل مع الأسلحة وبراعته في أداء التمارين على ظهور الخيل في دخول الخدمة بجيش الجمهورية قائداً، وتم تكليفه بإنشاء ميليشيا خاصة على الطريقة المملوكية، أي وحدة فرسان خفيفة، بالسيف والرمح والسهم. ثم حارب مع البندقية خلال حرب العصبة المقدسة. وفي عام 1511، سقط مريضاً بسبب المشقة والإرهاق فتوفي في البندقية، ودفن في كنيسة سانتا كروتشي ديللا جوديكا، التي تستخدم الآن فضاء لتخزين وثائق أرشيف الدولة[1].

لقد كانت البندقية على وجه العموم تستقبل بسهولة كل من ارتد عن المسيحية ثم اختار أن يعود إلى وطنه. فإذا كان من العبيد أو الأسرى في أرض الإسلام، كان هناك تفهم للأسباب التي أدت بهم إلى «التترك»، ومن ثَمّ لم يكن هناك إلحاح على التوبة أو المحاكمة العلنية كما كان يحدث في

(1) W. Zele, *In laudem Iacobi Mamaluchi, ovvero vita di Jacopo da Malnisio detto il Mamelucco*, in «Studi Veneziani», 26, 1993, pp. 255-281.

الدول الإيطالية الأخرى التي كانت أكثر ارتباطاً بالبابوية والكاثوليكية. أما إذا كان من الحرفيين، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين يعملون في بناء السفن، فإن الحكومة البندقية كانت تحسن استقبالهم من أجل منعهم من مواصلة استغلال مهاراتهم المكتسبة في ترسانات الجمهورية لمصلحة العثمانيين. كما كان هناك سعي لتجنب أي خروج محتمل، برفع أجور المهن الأكثر أهمية من الناحية الاستراتيجية. وفي نهاية القرن السادس عشر مثلاً قال سكان كانديا: إنه ليس من الضروري أن تذهب للعمل في ترسانات العثمانيين؛ لأن الأجر الذي يدفعونه هو نفسه الذي يدفعه البنادقة الموجودون على الجزيرة. وتزيد الشراسة بالتأكيد في اضطهاد من يذهبون بدافع الرغبة في تحسين وضعهم الاجتماعي. وبالفعل كانت هناك محاولة لاغتيال بنديتو باربيتا عام 1495، وهو بحار من ذوي الخبرة اعتنق الإسلام، وفي القرن التالي وقع العديد من حوادث الاغتيال الأخرى. وكان قتل المرتدين والخونة يتم بالسم، مثل الجواسيس، وكان مجلس العشرة يحتفظ بكمية كبيرة من السم في خزانة خاصة، هذا السم عبارة عن «ماء سام» يُستخدَم بكل سرية، بخلطه مع القهوة، عندما أصبحت القهوة موضة في القسطنطينية، أو يُستخدَم تراب الماس عندما تكون هناك رغبة في عدم إثارة الشكوك[1].

أما عندما يتقرر التحول من الإسلام إلى المسيحية، فكان يتم استقبالهم باحتفال عظيم، في البندقية أيضاً، وإن كان ذلك يتم بدرجة أقل من بقية

(1) P. Preto, *La guerra segreta. Spionaggio, sabotaggi, attentati*, in *Venezia e la difesa del Levante. Da Lepanto a Candia 1570-1670*, Venezia, Arsenale, 1986, pp. 79-85.

أنحاء إيطاليا. فالتحول إلى المسيحية يعني عند المسيحي برهاناً ساطعاً على الانتصار على العدو المسلم. وكان التحضير للتعميد يتم في بيت الموعوظين اعتباراً من عام 1557، وهو البيت الذي تأسس على التوجه الإيديولوجي السائد في تلك السنوات. ويحضر التعميد ضيوف يقصدون البندقية خصيصاً لهذا الغرض، وكان معظم من يعبرون الحدود من الجنود والبحارة الفارين من ويلات الحرب أو المجاعة، أو أناس تم شراؤهم أو اختطافهم، وفي بعض الحالات كانوا أولاد المسيحيات المتزوجات من مسلمين، والذين اختاروا دين أمهاتهم. وفي حالات أخرى كانوا من سكان المناطق الحدودية، الذين قرروا اعتناق دين الشعوب المجاورة. إضافة إلى بعض الأشخاص الذين كانوا يفعلون هذا عن اقتناع، وآخرين للحصول على هبة أو عطية.

أما المسلمون الذين كانوا يختارون طواعية هجر أوطانهم والبحث عن مغامرة في بلد غريب، فكانوا قليلين جداً. ولكن يمكن ذكر بعض الحالات على أية حال. فقد وصل علي الفارسي إلى البندقية عام 1583 تقريباً مع شريكه الحاج أحمد، وقرر أن يعتنق المسيحية وغيّر اسمه إلى جوفاني باتيستا، وعثر على منزل يقع على جسر فيرالي. وأدى نكوصه إلى مصادرة الحكومة البندقية كافة أمواله، مما اضطره إلى اللجوء إلى السلطان لكي يسترد نصيبه من الأصول. أما مصير شخص يدعى يونس فكان مختلفاً، وكان مسلماً وصل إلى البندقية نحو عام 1592. وكان من العبيد الذين خدموا في القصر الإمبراطوري ثم أصبح كتخدا (سكرتيراً) للصدر الأعظم سياوش. ومن ثم فهو ينتمي إلى شريحة عليا في الإمبراطورية،

حيث كان كبار المسؤولين جميعاً من المسلمين وعبيد الباب العالي. وبعد أن أخذ من أحد المرابين مبلغاً كبيراً من المال حوله إلى بضائع وذهب بها إلى البندقية، وبعد أن باع بضاعته كلها اعتنق المسيحية. وآخر الأخبار عن هذه القصة عبارة عن رسالة من الصدر الأعظم إلى الجمهورية يذكر فيها أنه وفقاً لمعاهدات السلام ينبغي إعادة كل العبيد المسلمين الذين فرّوا إلى منطقة البندقية إلى أسيادهم حتى ولو ارتدوا عن دينهم[1].

وبعد انتهاء طقوس التعميد يتلقى الوافد الجديد التعاليم البسيطة عن دينه الجديد. وأول عَقَبة لابد أن يتجاوزها هي عقبة اللغة، ولهذا كان ينبغي استخدام مترجمين، أو إبقاء متحولين آخرين مدة أطول حتى يتعلموا اللغة الإيطالية، وقد كانت لغاتهم التي يتكلمونها غالباً هي الكرواتية أو اليونانية أو التركية، ويعطي معهد دار كاتيكوميني مساهمة في معرفة اللغة التركية في البندقية، وقد فعل ذلك أيضاً، أي قام بنشر أساسيات اللغة التركية، جوفاني أجوب، وهو رسول أرمني عمل على كتاب في هذا المجال لمدة طويلة نسبياً، وكانت الدورة التعليمية تستمر عادة ستة أشهر على الأقل، يتعلم خلالها الشخص اللغة الإيطالية ويتأهل للعمل، إضافة إلى تعلم العقيدة الجديدة، كما كان ينبغي العثور على عراب لمن يقام له التعميد حتى يدفع تكاليف الحفل، وفي حالة العبيد كان سادتهم هم عادة من يتصدون لهذه المهمة، حتى يأخذوا

(1) M.P. Pedani Fabris (a cura di), *I «documenti turchi» dell'Archivio di Stato di Venezia*, con l'edizione dei regesti di †A. Bombaci, Roma, Ministero per i beni culturali e ambientali, 1994, nn. 927-929; M.P. Pedani (a cura di), *Inventory of the «Lettere e Scritture Turchesche» in the Venetian State Archives*, basato sul materiale raccolto da A. Bombaci †, Leiden-Boston (Mass.), Brill, 2010, n. 513.

معهم المسيحي الجديد إلى البيت بعد انتهاء الحفل، والذي ليس دائماً ما كان يُعتق. وحتى من كان يستطيع التحرر لم يكن من السهل له أن ينظم حياته على نحو مختلف عما كان يعرضه عليه مَنْ يدفع له تكاليف تحوله عن دينه، ولهذا كانت بيا كازا (Pia Casa)، التي تلقّت هؤلاء الناس عندما كانوا لا يزالون كفاراً، تواصل رعايتها لهم بعد ذلك. وفي حالات النساء التي يتم فيها تشغيلهن بالخدمة أو تزويجهن، لم يكن من النادر أن يعدن إلى «بيا كازا» طلباً للمساعدة أو الإحسان، أو اللجوء إلى هذه الدار هرباً من مواقف غير مواتية في البيوت التي يقمن فيها. وفي حالة الرجال، الذين يُعهد بهم إلى ورشة لتعلم مهنة، كان المعهد هو الذي يدفع لنقابة الحرفيين عن الذين تقبلهم. أما الحرف التي كانوا يتعلمونها فهي الحرف التي تشتهر بها البندقية، وبعض هؤلاء واصل العمل في الحرفة التي كان يعرفها في السابق، مثل صناعة الأحذية على الطريقة التركية والأردية على الطراز الهندي أو القفطان الفارسي.

وكان النبلاء والميسورون يذهبون إلى كاتيكوميني للبحث عن عمالة رخيصة. وفي نهاية القرن السابع عشر بدأ المتنصرون الجدد في البندقية يُطلبون خارجها، وتحديداً من سكان ميلانو وفيرارا وبريشا وجنوة، وحتى سكان سالسبورج، ولهذا ففي سبتمبر 1701، قررت الجماعة التي تدير «بيا كازا» أن يقتصر ضم الوافدين الجدد على المدينة فقط. في هذه المدة انتشرت شهرة معهد البندقية لدى كثير من النبلاء خارجها، حتى أرسلوا عبيدهم إلى البندقية لتلقي التعميد، وأيضاً في 1734 أرسل المغني الشهير فارينيللي (المعروف بالمخصي، وكانت العادة إخصاء المغنين السوبرانو من

الذكور حتى لا يتغير الصوت عند البلوغ) عبده الكونغولي الذي اشتراه وعمره 12 سنة، ثم أعيد إليه في نابولي بعد تنصيره[1].

وعموماً فإن القليل من القصص الإنسانية للذين مروا بمعهد الموعوظين كاتيكوميني وصل إلى كتب التاريخ. وكانوا من الأشخاص المجهولين المقدَّر لهم الاختفاء من الفضاء العام للمدينة. ولم يبق منهم سوى بعض السمات في ملامح من تبقى الآن من سكان البندقية الأصليين، والتي قد تشير إلى أحد الأسلاف القادمين من بلاد بعيدة. وفي البندقية، كما هو الحال في باقي أوروبا المسيحية، كان كل من يأتي من بلد آخر أو من دين آخر يمكنه الاندماج فقط في الطبقة الدنيا من السلم الاجتماعي. وحتى أولئك الذين يزعمون أنهم من سلالة السلاطين أو البيلربايات لم يبلغوا الأمل في أن يجدوا مكاناً بين الطبقة الحاكمة. بيد أنه كان من الممكن استخدام بعضهم بيادق في لعبة سياسية، ولكنها ألعاب سياسية تخرج غالباً عن نطاق السيطرة. وربما كان الحل الوحيد هو التنصر والانضمام إلى الوظائف الكنسية الوضيعة التي تترك للرعاع، ولكنها بالنسبة إليهم تمثل لحظة خلاص، وقد تغير الوضع على مر القرون، وكان وضع المتنازعين على العرش العثماني يبدو أكثر رمزية. وفي القرن الخامس عشر، تم بيع جم، ابن السلطان محمد الثاني التعيس، وتم شراؤه من جانب الحكام الأوروبيين، وظل أخوه

(1) A. Vanzan, *La Pia Casa dei Catecumeni in Venezia, un tentativo di «devshirme» cristiana?*, in A. Destro (a cura di), *Donne e microcosmi culturali*, Bologna, Pàtron, 1997, pp. 221-255; E.N. Rothman, *Becoming Venetian. Conversion and Transformation in the Seventeenth Century Mediterranean*, in «Mediterranean Historical Review», 21, 1, giugno 2006, pp. 39-75.

الجالس على العرش في القسطنطينية يدفع لمدة عشرين سنة ثمن محبسه الذهبي. وخلال تلك المدة كان السفراء والجواسيس يغدون ويروحون من الشرق إلى الغرب والعكس، كان السلطان حينئذٍ يحيك المؤامرات السياسية الدولية الجريئة ويتجنب دفع جيوشه ضد حكام أوروبا الذين كان يمكنهم أن يستخدموا جم دمية وينصبوه حاكماً على القسطنطينية. وقطع الطريق نفسه متنازعون آخرون على العرش العثماني. وقد جاء مراد بيك الأعمى، الذي ربما كان حفيداً لمراد الأول، في النصف الأول من القرن الخامس عشر إلى بلاط سيجيسموند من لوكسمبورج (1410-1437 ملك الرومان وإمبراطور منذ 1433)، وهناك تزوج المسيحية أنييزه وأنجبت له ثلاثة أطفال، أورهان وداوود شلبي وكاترين. وقد استخدم ابنه الثاني رهينة ضد العثمانيين، في راجوزا وفي ألبانيا واليونان، وانتهت أيامه في ساشيل مسيحياً ودفن في كاتدرائية المدينة حيث لا يزال بالإمكان رؤية شاهدة قبره[1].

وإذا كان هناك احتمال في أن يكون داوود من أبناء عثمان، حتى وإن كان مرفوضاً منهم، فهناك آخرون من المغامرين الذين قدّموا أنفسهم في أوروبا بوصفهم أبناء سلاطين. فهناك أخ مزعوم لمحمد الثاني تم تعميده في روما بواسطة البابا كاليستوس الثالث (1455-1458م). ثم دخل في حماية الإمبراطور فريدريك الثالث تحت اسم كاليستو العثماني. وفي بداية القرن الثامن عشر ادَّعى ابن إحدى النساء اليونانيات أنه يحيى شقيق أحمد الأول، وذهب إلى وارسو وبراغ وفلورنسا ونابولي وروما، وأيضاً

(1) F. Babinger, *Dâvûd-Celebi. Un pretendente al trono ottomano morto a Sacile*, in «Ce fastu?», 33-35, 1-6, 1957-1959, pp. 11-22.

إلى دولة البندقية البحرية. فقد كانت قصة الراهب دومينيكو دي تومازو، الملقب بالأب العثماني أكثر تعقيداً، وكان في الحقيقة ابن جارية في غاية الجمال لرئيس الآغوات سمبل آغا، والتي أصبحت مرضعة السلطان القادم محمد الرابع، ونظراً لتفضيل إبراهيم الأول لهذا الطفل، فقد حقدت عليه وعلى أمه الوالدة باشا، وحاول سمبل آغا إنقاذه فوضعه على سفينة متجهة إلى مكة المكرمة، ولكنها وقعت في أيدي قراصنة من مالطة، فخطفوا الطفل وزعموا أنه أمير عثماني وأودعوه لدى طائفة الدومينيكان.

ولم تتأثر البندقية بهذه الأحداث كثيراً، فقد كانت الأعراف القديمة في العالم العثماني تحمي رجال الدولة من مزاعم الأمراء المحتالين الزائفين التي يمكن أن تخدع بسهولة، إلى حدٍ ما، من ليس على دراية بالسلاطين والوزراء الحقيقيين. وكان من المعروف في البندقية أن القانون العثماني يقرر أن جميع الذكور في الإمبراطورية لهم الحق في العرش. وفي الإسلام لا يوجد قانون مختلف يفرق بين الأبناء الشرعيين وغير الشرعيين عندما يكونون من الأب نفسه. وكان مجرد التمنطق بسيف عثمان تنصيباً للسلطان، ولهذا السبب، ووفقاً للقانون الذي سنّه محمد الثاني، كان واجباً عليه قتل إخوته جميعاً؛ لكي ينقذ البلاد من حرب أهلية، وكان صاحب السلطة يتقلد السيف الذي يرمز لحظ السلطان، ومن يفقد السيف يفقد السلطنة. وكان لوجود ممثل دائم للبندقية في القسطنطينية أثره في جعل الجمهورية على علم دائم بما يحدث فعلاً أو يتم التدبير له في تلك العاصمة. وهكذا فإن خطابات السلطان يحيى لم تؤخذ على محمل

الجد. وتكفي نظرة إليها للتأكد من أن طغراء الإمبراطورية كانت مزيفة، فقد خطّها من لا يعرف اللغة العثمانية بتاتاً[1].

2. حكايات البنادقة

شكَّلَ المسيحيون السابقون غالبية الطبقة الحاكمة العثمانية، حتى بداية القرن السابع عشر. خاصةً أولئك الذين أسلموا في سن مبكرة، وكانت لديهم الفرصة للوصول إلى أرفع المناصب، بينما صَعُبَ هذا على من فعل ذلك في سن متقدمة. وقد اعتمد النظام اعتماداً خالصاً على الجدارة في الاختيار، فلم يستطع أن يصل إلى القمة سوى من أثبت قدرته وعرف كيف يشق طريقه بمهارة في عالم السياسة الخطير وفي دهاليز البيروقراطية العثمانية، ومن تعلّم القواعد المنظمة لها، وخاصة القواعد غير المكتوبة. ولم يكن الذكاء كافياً، وإنما لابد أن ترافقه القدرة على التكيف والقدرة على اغتنام الفرصة المناسبة، مع مساندة الحظ الوفير. وقد كان معظم هؤلاء من الشبان الذين يتم تجنيدهم من خلال «الدوشيرمة»، وهو نظام كان يفرض على الأسر المسيحية في البلقان تجنيد أحد شبان العائلة كل سبع سنوات للدخول في خدمة السلطان. وكان هذا الإجراء مسيحياً في الأصل، وموجوداً من قبل في الإمبراطورية البيزنطية، وأخذه عنهم الحكام المسلمون الجدد، ولم ينظر الناس إلى هذا الإجراء على أنه سلبي

(1) C. Luca, *Appunti sui rapporti del «Sultano» Jahja (c. 1585-1648) con i Paesi Romeni e Venezia*, in G. Arbore Popescu (a cura di), *Dall'Adriatico al Mar Nero. Veneziani e romeni, tracciati di storie comuni*, Roma, Edizioni del Cnr, 2003, pp. 71-80.

بالكامل، وقد استسلموا له؛ لأنه كان يطبَّق على الأسر كثيرة العدد، التي تتكون من عشرات الأبناء، ولهذا فلم يكن يضيرهم، على الأقل من الناحية الاقتصادية والعاطفية أيضاً، فَقْد أحد الأطفال، مع أخْذِ نسبة وفيات الأطفال، العالية جداً في ذلك العصر، في الاعتبار. وإضافة إلى ذلك، كان هناك دائماً أمل في أن الطفل سوف يتقلّد يوماً ما منصباً رفيعاً، ومن ثم يجلب الحظ للقرية التي وُلد فيها، وللإخوة وأبناء العمومة الذين ظلوا مسيحيين.

والحقيقة أن أفضل هؤلاء الأطفال كان يتم تعليمه في مدرسة الحريم التي تهدف إلى إعداد كوادر المستقبل وقادته، وهناك يتلقون بصرامة تعلُّم الفنون والعلوم واللغة والآداب العثمانية، وتعاليم الدين الإسلامي، ثم يعملون في خدمة السلطان. ولم يكن اعتناقهم للإسلام يُعدُّ قسرياً، فكما يتبع الأطفال عادة دين آبائهم كان أولئك الأطفال أيضاً، فالعائلة الوحيدة التي يعرفونها هي عائلة السلطان، التي تربيهم على الإسلام. وكانوا عادة عندما تنبت لحاهم يبدأون حياتهم السياسية التي يمكن أن تصل بهم إلى منصب الصدر الأعظم. وبعض هؤلاء لم ينس أهله البعيدين وجلب إليهم الثروة مثل الصدر الأعظم محمد صقوللو، من مواليد قرية صقول التي يدل عليها اسمه، وهي التي أعادت عام 1557 البطريركية الأرثوذكسية في بيجا، وعهدت بها إلى أخيه ماكاريوس. والدليل على أن نظام الدوشيرمة كان ينظر إليه باحترام في البلقان يمكننا أن نذكر مجموعة البوسنيين، الذين رغم اعتناقهم الجماعي للإسلام، طلبوا لجماعتهم أن يستمر تجنيد الفتيان منهم، وتحقق لهم ما طلبوا.

وفي مدرسة القصر الإمبراطوري، حيث تبدأ أفضل العناصر في تعلم إدارة السلطة، كان يمكن لعدد من العبيد الآخرين الذين حصلت عليهم الدولة بطرق، منها على سبيل المثال الهدية، أو الأسر في الحروب، أو منح خلال الغارات على السواحل المتوسطية التي كان الأسطول الإمبراطوري يشنها، أن يلتحقوا بتلك المدرسة. وبعد سقوط القسطنطينية مباشرة وَجَد العديد من الشبان اليونانيين أنفسهم يعملون في خدمة الإمبراطورية الغازية، ثم تناقص عددهم بينما تزايد وجود الصرب والبوسنيين والألبان والكرواتيين بعد الحرب البلقانية. والصدر الأعظم الشهير في هذه الفترة، هو هرسكزاد أحمد باشا، أي ستيفانو كوزاتشي ابن دوق سان سافا، الذي أخذت بلاد الهرسك اسمها من اسمه. أما المدة الأولى من عهد سليمان الأول فاتسمت بوجود الصدر الأعظم وهو من أصل يوناني، وكان من رعايا البندقية. وكان اسمه إبراهيم باشا، وقد وُلد غالباً في براغ، وكانت في ذلك الوقت تابعة للبندقية، وقد تعددت الأساطير حول طفولته ولكنها اتفقت جميعاً على أنه كان عبداً ثم أصبح واحداً من خدم سليمان الأول، عندما كان لا يزال أميراً. وبعد اعتلائه للعرش عام 1520، أصبح إبراهيم هو المقبول لديه، أي المفضل. وقد بنى له السلطان قصراً في ساحة سباق الخيل، حيث يوجد الآن متحف الفن الإسلامي التركي. وفي عام 1523، ولم يتعدَ الثلاثين من العمر، تم تعيينه صدراً أعظم، وفي العام التالي تزوج أخت السلطان. وبعد ذلك تم إرساله إلى مصر لقمع ثورة اندلعت هناك ونجح في ترتيب أمور ذلك الإقليم بامتياز، وفي عام 1526 تم تعيينه «سردار»، أي قائداً عاماً، في الحملة على المجر، التي بلغت ذروتها في

معركة موهاج. وفي العام التالي قمع بعض أعمال الشغب التي اندلعت في الأناضول، وفي 1529 كان لا يزال مع الجيش لغزو بودا ثم تحت أسوار فيينا. وفي عام 1533 أصبح مفوض سليمان الأول في المفاوضات مع هابسبورغ. وفي العام نفسه غادر في حملة على فارس، وفي هذه المرة اضطر لاستدعاء السلطان نفسه لمساعدته فلحق به على رأس جيش آخر وغزا بغداد.

وفيما بدأ نجم الصدر الأعظم القوي في الأفول، زادت غطرسته أكثر وأكثر، ويقال إن الأمر وصل به إلى حد أنه أراد عزل السلطان والاستيلاء على السلطة العليا. وأصبح الباشدفتردار، أي وزير المالية، إسكندر شلبي، من ألدّ أعدائه، ورغم أن إبراهيم كان بوسعه أن يحكم عليه بالإعدام فإنه نجح في إبلاغ السلطان بالخطر الذي يمثله رجله المفضَّل على العرش. وساهم في سقوطه أيضاً موت الوالدة باشا، حفصة سلطان، التي كانت تحميه دائماً، وعداوة المحظية القوية خريم، التي كان نجمها آخذاً في الصعود. وفي ليلة 14 مارس من عام 1536، بعد أن دافع عن نفسه وسيفه في يده، تمّ شنقه بأمر من السلطان في غرفته التي يقيم بها في قصر طوب قابو. ومنذ تلك اللحظة عرف باسم «المقتول»، وأصبحت قطرات دمه المتناثرة في المكان الذي أعدم فيه شاهداً يتم إظهاره لكل من يتولى منصب الصدر الأعظم تحذيراً له من أن يطمع في السلطة العليا. وهكذا انتهت أروع مدة من عصر سليمان الأول كله، والتي تميزت ليس فقط بالانتصارات المهمة، ولكن أيضاً بتطور الفنون والعلوم وحياة البلاط الرائعة، لدرجة أننا يمكن أن نطلق عليها عصر النهضة العثمانية عن جدارة.

وكان لإبراهيم دائماً موقف إيجابي تجاه جمهورية البندقية، ربما في الأغلب لأسباب اقتصادية أو للمواءمة السياسية، وليس بسبب وجود صلة قوية مع الوطن الأم الذي انفصل عنه. واستمرت سيرته وبصفة خاصة نهايته المأساوية حية لمدة طويلة، ويُفسِّر هذا سلوك العديد من المرتدين البنادقة حتى نهاية القرن السادس عشر. فعلى الرغم من أنهم وصلوا إلى مناصب بارزة في الإمبراطورية، فإنهم نأوا بأنفسهم عن دعم البندقية، والتي كان رجالها الموثوق بهم من جنسيات أخرى. ولم يحدث هذا إلا عند نهاية الحياة الوظيفية لبعض الشخصيات المرموقة، مثل الأدميرال العظيم حسن بندقلي أو رئيس الآغوات البيض غضنفر، اللَذَين اتخذا بعض المبادرات لمصلحة البندقية.

كانت سنوات وزارة إبراهيم باشا الكبرى مدة مواتية للقادمين من البندقية، والذين قرروا نقل إقامتهم إلى الإمبراطورية. وحاول بعضهم الهرب من حالة عدم الشرعية في أوطانهم التي استبعدتهم من العمل بالسياسة. فيما اختار آخرون وضع مهاراتهم في خدمة الدولة العثمانية، التي ورثت عداءً للبرتغاليين من مصر بعد فتحها، والذين كانوا على أية حال مزعجين لحركة التجارة البندقية.

وقد شهدت هذه المرحلة ارتفاعاً لا يُصدَّق وسقوطاً سريعاً بالقدر نفسه لألفيز جريتي، الابن غير الشرعي لأحد أعضاء الطبقة النبيلة في البندقية أصبح فيما بعد دوجي لها. وخلال سنوات طويلة قضاها أندريا جريتي في القسطنطينية، وعلى الرغم من أنه كان متزوجاً في البندقية، فإنه أقام علاقة غرامية مع امرأة يونانية، تقننت من خلال طقوس تركية

تُعرَف باسم «*kabin*» (عقد زواج محدود المدة يشبه زواج المتعة)، والتي مارسها كثير من الأوروبيين المقيمين لوقتٍ طويل في الإمبراطورية العثمانية كما حدث بعد ذلك بقرون، في حالة الجنود الإيطاليين أثناء الحروب الاستعمارية في إفريقيا. ومن هذه العلاقة أنجب بعض الأبناء، كان المفضل من بينهم ولا شك «ألفيز»، وهو طويل القامة، وسيم، ذو لحية سوداء، يتمتع بفطنة وذكاء وحيوية في الأعمال. وبعد إقامة قصيرة في البندقية قرر ألفيز أن يقيم بصفة دائمة في القسطنطينية، حيث إنه لم يكن هناك أي فرق بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين. وكان معروفاً في تركيا بيوغلو، أي «ابن النبيل»، وليس «ابن الدوجي» كما ادَّعى الكثيرون. وكان البيه حقاً هو اللقب الذي كان معروفاً للمنتمين إلى الأرستقراطية البندقية، بينما كانت كلمة الدوجي تنطق «دوج». وكان يتاجر في الحبوب والأقمشة والتوابل، وكذلك في الأحجار الكريمة وسرعان ما أصبح شديد الثراء. ولم يعتنق الإسلام أبداً، على الرغم من أن سلطته في الباب العالي جعلت هذه الإشاعة تسري في أوروبا كلها. ويشهد على ذلك، على سبيل المثال: شغله منصب الوالي على المجر، الذي كلفه به السلطان عندما لم تكن هذه المملكة قد تحوَّلت إلى إقليم، لكنه حاول أن يبقيه كياناً مستقلاً، على غرار ما حدث في فالاشيا، ومولدافيا وترانسلفانيا التي ظلت إمارات مسيحية، ولا تعتمد على الإمبراطورية العثمانية إلا في السياسة الخارجية. وإضافة إلى ذلك، فإن أنطونيو الأخ الأكبر لألفيز تلقى تعليمه في بادوفا، وفي عام 1530 تم تعيينه أسقفاً على إجر (Eger)، وحل محل والده الذي كان يدير هذه الأبرشية حتى ذلك الحين.

وقد كان ألفيز يهوى أن يحيط نفسه بالفخامة، وكانت أنشطته التجارية تسمح له بأن يصبح أغنى رجل في القسطنطينية. كان لديه العشرات والعشرات من الخيول والجمال والبغال، ومئات من العبيد، والحريم والعديد من الأطفال. وكان قصره في غلاطة، بالقرب من ميدان تقسيم الحالي، ولا يزال هذا الحي يسمى حتى اليوم حي بيوغلو. وكان هو أيضاً مورّد الأحجار الكريمة للسلطان، ولايزال التاج المصنوع في البندقية والمباع للسلطان سليمان الأول شهيراً، وقد صنعته شركة أعمال بندقية-مسلمة. وهناك أشياء أخرى ثمينة طُلبت وصُممت لبيعها في البلاط، ولكن موت جريتي، وكذلك سقوط إبراهيم الذي كان يحميه، وضعا نهاية لهذه المشاريع التجارية الطموحة.

بدأ ألفيز جريتي حياته السياسية في المجر حوالي عام 1528، عندما عُيّن سفيراً ووكيلاً للملك يانوش زابوليا. وفي العام التالي تم تعيينه وزيراً للخزانة ومستشاراً للمملكة المجرية، وفي عام 1530 أصبح حاكماً، وفي عام 1532 تم تعيينه قائداً عاماً للجيش المجري. وعلى هذا النحو تم تسليم مقادير البلاد كلها لتصبح بين يديه، وكانت المفاجأة أيضاً أن السلطان العثماني فوضه كافة الصلاحيات للتوفيق بين فرديناند دا هابسبورغ وزابوليا. ويبدو أن جريتي عند هذه النقطة فكّر أن يخون السلطان، بالاتفاق مع الأول ليضع نفسه على العرش بدلاً من الملك الشرعي، والذي كان يشتبه في وجود مؤامرات غامضة للإطاحة به. فكانت رحلته عام 1534 إلى المجر وترانسلفانيا قاتلة، وقد نجح أعداؤه في إثارة السكان ضده، فألقوا القبض عليه، وتم تسليمه إلى الجلاد، وصادروا ثروته الهائلة

التي أصبحت غنيمة[1].

وقد أثّرت حياة جريتي وسيده إبراهيم باشا في خيال المؤرخين والكتّاب. وكان من بين المعاصرين له في إيطاليا فرانشيسكو ديلا فالي، الذي كان سكرتيراً لألفيز، فأثنى عليه بالمديح وهو يدبج سيرته الذاتية. وفعل الشيء نفسه مع ابن الدوجي، صاحب النزعة الإنسانية، الدلماسي ترانكويللو أندرونيكو، وحاول في كتاباته تبرئته من تهمة الخيانة. وكذلك تغنى باولو جوفو، في أعماله التاريخية المنشورة في فلورنسا في عامي (1550-1552)، بسيرة جريتي، بذكرِ أشياء كثيرة، ومن بينها رأيه بأن إشاعة الردة، التي كانت رائجة في إيطاليا في ذلك الوقت، لا أساس لها من الصحة. أما إبراهيم فكان أقل شهرة في أوروبا، ولكن في عام 1641، نشرت الآنسة دي سكودري في فرنسا، كتاباً عنه بعنوان «**إبراهيم، أو الباشا العظيم**» حكت فيه حكايات أسطورية في تلك الحقبة الزمنية.

وفي هذه السنوات دفع تسامح إبراهيم مع البندقية عدداً من رجال البحرية البندقية للبحث عن عمل في الأسطول العثماني وترسانته. والوثائق ليست واضحة فيما يتعلق بتورط الجمهورية في مثل هذه القرارات. وعلى أي حال يمكن أن يخطر بالبال أنها لو لم تكن مرتاحة لها لعارضتها. ودفع وجود مراكب برتغالية في البحار الشرقية، من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي، إلى التحالف بين الإمبراطورية والجمهورية. وكانت تجارة التوابل بالفعل قد كسدت في مصر في نهاية العصر المملوكي،

(1) G. Nemeth-Papo e A. Papo, *Ludovico Gritti. Un principe-mercante del Rinascimento tra Venezia, i Turchi e la corona d'Ungheria*, Mariano del Friuli (Go), Edizioni della Laguna, 2002.

ولم تعد التوابل تصل إلى مصر كما كانت في السابق، مما سبب خسائر باهظة للتجارة البندقية. ومن ثم، وانطلاقاً من المبدأ الذي كان يردده العثمانيون، أن أعداء الأعداء أصدقاء، يمكن تفسير سياسة العلاقات الحميدة في تلك السنوات. وعلى سبيل المثال وصل إلى القسطنطينية عام 1531، واحد من القراصنة البنادقة المشهورين لتقديم خدماته للسلطان، وهو جوفاني كونتاريني. وكان يلقب بلقب «كاتساديافولي»، أو حتى الريس كمال، على اسم أميرال عثماني شهير. إلا أنه سرعان ما اختفت آثاره، ربما بعد وقت قصير من وصوله إلى العاصمة، في 28 أكتوبر من ذلك العام، على الرغم من أن الإشاعات انتشرت بأنه كان على قيد الحياة، وأنه قد أُعطيَ قيادة إحدى السفن.

ويمكن للسياسة الدولية في تلك المرحلة أن تفيد في شرح الحياة المهنية المميزة لبحار ورحالة آخر من البندقية، هو جيوفاني فرانشيسكو جوستينيان، الذي ولد في البندقية في عام 1492 وهاجر شاباً إلى الشرق. وكان كثير الرحلات. ففي عام 1529 ذهب إلى شمال إفريقيا لممارسة تجارة الرقيق، وقيل إنه قضى بالفعل تسع سنوات في الهند. ثم عرج على فرنسا سعياً لتقديم خدماته لملكها. وبعد أن رفض الملك الفرنسي خدماته أبحر إلى القسطنطينية التي وصل إليها في أكتوبر عام 1531. وكانت نيته أن يعثر على فرصة عمل في البحرية أو في الترسانات المصرية لمحاربة البرتغاليين في البحر الأحمر. وربما كانت البندقية قد أذنت له بذلك بإذنٍ غير رسمي. ومن المشهور عنه أنه اقترح عام 1532 على الصدر الأعظم إبراهيم أن يرسل أسطول دبروفنيك، عن طريق جبل طارق، حتى الهند، ومن ثم

يدور حول قارة إفريقيا، وتم تكليفه ببناء سفينتين مع وعد بأنه سيتم إرساله إلى مصر. وفي يوليو عام 1533 حصل على مهمة مستشار في ترسانة القسطنطينية، وفي عام 1534 كان لا يزال يعمل في بناء خمس سفن لمحاربة البرتغاليين. وكان هذا هو آخر خبر بقي لنا عن أنشطته[1].

ومات ألفيز جريتي وخرج من الساحة عام 1536، وكذلك إبراهيم أيضاً، ويُعدُ من أكثر الأشخاص نفوذاً الذي أصبح عندئذٍ «سيد الجزر والجزائر»، وهو نفسه الأميرال خيرالدين بربروس العدو الشرس للبنادقة. في عام 1537 اندلعت حرب للاستيلاء على الطرق البحرية، وانتهت بعد وقت قصير عام 1540. وفي تلك الأثناء ثار التساؤل حول مصير البنادقة العاملين في الترسانات العثمانية. ومن الأمور ذات المغزى أن الأميرال الذي عهد إليه بالأسطول الجديد في البحر الأحمر، سليمان باشا، كان تحت إمرته في ترسانة السويس، أحد رعايا البندقية والذي بُنِيَت تحت إدارته السفن الحربية. ويمكننا أن نفترض أن يكون هذا الشخص هو جوستيناني، على الرغم من أننا لا نملك وثائق يمكن أن تؤكد ذلك.

وفي تلك السنوات نفسها بدت غريبة الحادثة التي تورط فيها قادة وتورطت فيها سفن بندقية كانت موجودة في مصر عند اندلاع الحرب.

---

(1) M.P. Pedani, *Venetians and Ottomans. From the Suez Canal to Diu (1502-1538)*, in International Turkish Sea Power History Symposium. *The Indian Ocean and the Presence of the Ottoman Navy in the 16th and 17th Centuries*, İstanbul, Naval Printing House, 2009, pp. II/3-9; A. Servantie, *Giovan-Francesco Giustinian. A Venetian Technical Assistance to the Ottoman Fleet*, in Ö. Kumrular (a cura di), *View of Countering the Portuguese in the Indian Ocean (1531-1534), Türkler ve Deniz*, İstanbul, Kitap Yayınevi, 2007, pp. 147-163.

وتم سجن الجميع على الفور في الإسكندرية. وكان قائد القافلة البحرية، أنطونيو بارباريجو، ومعه النبلاء إرمولاو بارباروا وليوناردو لوريدان وماركو وباولو موروزيني قد تم وضعهم على إحدى سفن البحر المتوسط، ومن ذلك الموقع المتميز شاركوا في الحرب. فعلى سبيل المثال، في 10 نوفمبر 1538 كانوا على سفينة الأميرال خيرالدين نفسها أمام فالونا، وبعد عام واحد فقط عقب انتهاء الحرب استطاعوا العودة إلى ديارهم. وعلى خلاف ذلك تم احتجاز مائتي بحار وبعض صغار الضباط في مصر. واحتاجت الحملة الكبيرة التي قادها سليمان باشا ضد المدينة البرتغالية ديو، في الهند، إلى خبراء، وكان البنادقة يُعَدّونَ من أفضل البحارة والعمال المهرة في صناعة السفن في ذلك العصر. ومن ثم أُرسلوا إلى السويس حيث استطاعوا رؤية الحفائر التي كانت تتم في ذلك الوقت لوصل البحرين المتوسط والأحمر كما كان الحال أيام الفراعنة.

وقد ركب سبعون فرداً من البنادقة على سفينة مفردة، وسبعون آخرون على سفينة مماثلة، وتم إرسال خمسة عشر إلى سفينة الكتخدا وثمانية عشر إلى سفينة الإمداد والمؤونة. ووُضع الباقون جميعاً على سفينتين، إحداهما، عُهد بها إلى قبطان بندقي: المعلم ميكيلي. هكذا غادر الأسطول إلى الهند في يونيو عام 1538. وقد ترك أحد الضباط البنادقة روايته التفصيلية عن الحملة ولم يقتصر فيها على وصف العمليات العسكرية فحسب، بل أيضاً الشخصيات التي أثرت في خياله، كما قدَّم معلومات تقنية مثل عصف الرياح وسبرها. ومن ذلك ندرك أن دوره، لم يكن دور البحار البسيط، بل ربما عهدت إليه مسؤولية سفينة، على الأقل جزئياً. وفي صيف عام 1539

عاد الأسطول إلى السويس، حيث حَصَلَ كل من كان فيه من مسلمين ومسيحيين على أجورهم. وعاد البنادقة إلى القاهرة يوم 1 ديسمبر 1539، وفي العام التالي، وبعد أن وضعت الحرب بين الجمهورية والإمبراطورية أوزارها، تمكنوا من العودة إلى ديارهم. وهكذا انتهت مغامرة هؤلاء البحارة الذين وجدوا أنفسهم يحاربون مع الأتراك ضد البرتغاليين في المحيط الهندي، بينما مواطنوهم يحاربون الأتراك أنفسهم في البحر المتوسط.

كان الموسم الكبير للتعاون بين البندقية والإمبراطورية قد انتهى بالفعل. وفي السنوات التالية كان هناك بنادقة آخرون عملوا في خدمة الباب العالي، ولكنهم كانوا من معتنقي الإسلام، وليسوا من المسيحيين[1]. وعلى سبيل المثال، كان الفتى حامل الراية، العلمدار، وقد تم شنقه مع ابن سليمان الأول «مصطفى» عام 1553، وهو من المنتمين إلى عائلة ميكيل. وفي تلك السنوات أيضاً تم اختطاف صبي في البحر كان يعمل كاتباً اسمه أندريا تشليسته. وقد وُلِد في البندقية في منطقة القديسيْن يوحنا وبولس، وركب على متن سفينة من دوبروفنيك. وحمله القرصان الريس تغرد إلى طرابلس حيث تم بيعه عبداً لأحد الجنود. وارتد أندريا عن المسيحية وأصبح مسلماً واتخذ لنفسه اسم حسن. وبعد موت سيده انتقل إلى المعلم تغرد ثم أصبح أحد المفضَّلين لدى المرتد الكالابري العلج علي، الوحيد الذي نجا بسفينته في معركة ليبانتو (1571)، فأعطاه اسم كليش (السيف) ومنصب قبودان باشا، أي كبير القواد. وكان حسن معه في الجزائر ثم

(1) E. Dursteler, *Venetians in Constantinople. Nation, Identity, and Coexistence in the Early Modern Mediterranean*, Baltimore (Md.), The Johns Hopkins University Press, 2006, pp. 112-129.

بدأ صعوده المهني السريع قرصاناً ما قاده إلى أن يصبح كبير الباشوات في الجزائر (1577–1580، 1582–1586، 1587). وفي الوقت نفسه، في نحو عام 1585، تحول الحب الذي حمله العلج علي إلى كراهية؛ لأنه بدأ يخشى المنافسة من صغيره المفضَّل لديه. وبالفعل، بموت العلج علي عام 1588، حل حسن مكانه كبيراً للقادة. كان معروفاً بلقب البندقلي، نسبة إلى «البندقية». وتزوج زهراء، أرملة ملك المغرب، عبد الملك (1576–1578)، وحاول دون جدوى دعم مطالبة ابن زوجته إسماعيل بالعرش المغربي: وكانت هذه هي المدة الوحيدة التي دارت فيها تلك المملكة، وقد ظلت مستقلة عن تأثير القسطنطينية، في فلك الدولة العثمانية. وتوفي حسن يوم 12 يوليو 1591 ودفن في مقابر سيده، ثم صديقه، ثم عدوه، العلج علي[1].

ويمكننا أن نذكر حسن البندقلي، ليس لحياته الشخصية فحسب، وهي تتشابه مع قصص معظم المرتدين الإيطاليين في ذلك الوقت، مثل الكالابري العلج علي أو ابن جنوة جيجالزاد سنان باشا، ولكن؛ لأنه كان هو نفسه سيد ميجويل دي سرفانتس في المدة التي أمضاها عبداً في الجزائر (1575–1580). وقد أعطانا الكاتب الإسباني الكبير صورة حية عن البندقلي وزوجته زهراء في المسرحيات الثلاث المستوحاة من الوقت الذي قضاه في العبودية (**الحياة في الجزائر العاصمة، حمامات الجزائر والسلطانة الكبيرة**). يتذكر سرفانتس قسوة القراصنة، ولكنه يذكر أيضاً احترامه لأولئك الذين يظهرون الشجاعة. وتبقى من حسن

(1) A. Fabris, *Hasan «Il Veneziano» tra Algeri e Costantinopoli*, in Venezi*ani in Levante, Musulmani a Venezia*, suppl. al n. 15 di «Quaderni di Studi Arabi», 1997, pp. 51-66.

بعض الرسائل بتوقيعه مكتوبة باللغة الإيطالية وغيرها باللغة العثمانية موجهة إلى الدوجي. وفي واحدة من هذه الرسائل نجده يطلب منح مخبز لأخته كاميلا التي بقيت في البندقية ومنصب أمين بمجلس الشيوخ لعديله، وقد مُنحت أخته المخبز بسهولة في حين لم يمنح المنصب لعديله في إدارة مجلس الشيوخ؛ لأنه بهذه الطريقة، قد تنتقل أسرار الدولة من جدران القصر الدوكالي إلى جدران قصر طوب قابو. ونجد في مراسلات المبعوثين المقيمين ملاحظات سريعة تصف مهارات حسن وطباعه. عندما أصبح قبودان باشا، على سبيل المثال، ورغم أنه كان يعرف العربية والإيطالية، فإنه لم يكن يعرف من التركية إلا حوالي خمس عشرة كلمة. وكانت مهارته تظهر أكثر باعتباره مسؤولاً وليس بحاراً، ولهذا فقد ظل أكثر وقته في الواقع في القسطنطينية، مع القيام بجولات سريعة قليلة مع الأسطول. وفي السنوات الأخيرة من حياته بدا أنه على وعي بأنه «لكي تكون قبطاناً بحرياً يجب أن تكون حزيناً وتسرق كثيراً» وأن الحظ يمكن أن يتحول عنك فجأة: وأكد أنه مثل «حيوان الحلزون يحمل بيته على رأسه». ومن هذا ندرك أنه كان شخصية مركّبة، وهو ما نستنتجه من التنويهات المقتضبة التي كتبها عنه سرفانتس.

وهناك شخصية أخرى تستحق أن تذكر في هذا الاستعراض الموجز للبنادقة المشهورين في الإمبراطورية العثمانية. إنه الشخص الذي ظل لما يقرب من ثلاثة عقود، من أواخر القرن السادس عشر وحتى أوائل السابع عشر، قابجي باشي أو حاجب السلطان، ورئيس الخصيان البيض في القصر الإمبراطوري. وغضنفر آغا، الذي لا نعرف اسمه المسيحي،

وُلد في كيودجا وانتمى إلى إحدى عائلات المدينة، وهي عائلة ميكيل، وكانت أمه، فرانشيسكينا زورتسي، من الطبقة الأرستقراطية. وبدأ حكايته عام 1559، وهو لا يزال بعد طفلاً، وركب هو وإخوته وأمه سفينة تتجه بهم إلى بودوا (Budua) في ألبانيا التابعة للبندقية (هي اليوم الجبل الأسود)، حيث كان الوالد يعمل مستشاراً لحاكمها، فاختطف القراصنة جميع الركاب واقتادوهم للبيع عبيداً في القسطنطينية. واستطاعت فرانشيسكينا زورتسي افتداء نفسها والابنتين، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً للابنين اللذين كانا قد تم تسليمهما إلى القصر الإمبراطوري. ثم اعتنق الابنان الإسلام واتخذا اسمي جعفر وغضنفر، وتم تسليمهما للعمل في طاقم الخدمة المخصص لأحد أبناء سليمان الأول، وهو سليم الذي اعتلى العرش عام 1566. وبعد أن أصبحا، هما الاثنان، من الأصدقاء الحميمين للأمير قررا أن يصبح كلاهما من الخصيان، حتى يظلا دائماً إلى جواره. ووِفقاً للوقائع العثمانية المدونة لم ينج جعفر من العملية، ولكن وفقاً لوثائق البندقية فربما توفي في عام 1583. ونحو عام 1577 أصبح غضنفر أوضة باشي السلطان وبالتالي قابجي باشي، وهو المنصب الذي شغله حتى وفاته. وبهذه الصفة أصبح واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً في البلاط الإمبراطوري، ولكن نظراً لأصله، ومن أجل حماية نفسه من تهمة محاباته للبندقية، كان نادراً ما يساعدها. وفي هذا الصدد حدث تقارب في السنوات الأخيرة من حياته حين أراد استدعاء بعض أقاربه إلى القسطنطينية، بحثاً عن حلفاء يمكنه الاعتماد عليهم.

وفي نهاية القرن، في الواقع، كان غضنفر في خضم ما سمي لاحقاً -كما

قلنا- باسم «سلطنة الحريم»، أي الفترة التي كانت فيها جماعة الحريم تتدخل مباشرة في إدارة السلطة. وقد كان غضنفر من الشخصيات المحورية في هذه الجماعة، ومن ثم فقد كان بحاجة إلى إنشاء شبكة من التحالفات حول نفسه. ولهذا أجبر شقيقته بياتريتشي، التي زارته في القسطنطينية، على البقاء في العاصمة العثمانية واعتناق الإسلام، حتى يصبح أثر زواجها السابق معدوماً، ثم زوّجها من أحد المقربين إليه، وهو علي آغا، الذي جاء له بمنصب قائد الانكشارية. ثم خطف أحد أبناء بياتريتشي، وهو جاكومو بيانكي، الذي اعتنق الإسلام واتخذ اسم محمد. وفي نحو عام 1595، قبل وفاة مراد الثالث، واستشعاره أنه سوف تقع بعض الاضطرابات، فكر غضنفر أن يودع أمواله في خزانة البندقية لتأمينها، حتى وإن دفعته أسباب الملاءمة السياسية إلى التراجع عن المحاولة. وعلى الرغم من أن غضنفر كان قد حاول الانسحاب من الحياة السياسية في بداية القرن السابع عشر، فإنه كان قد تورط بشدة في الألعاب السياسية التي كانت الحريم تمارسها. وانتهت حياته عندما انتصر تحالف غير متوقع جمع بين السباهية والانكشارية والعلماء على صفية ومناصريها. ففي يوم 3 يناير 1603 استدعى المتمردون السلطان على عتبة البوابة الثالثة من القصر الإمبراطوري وأجبروه على مشاهدة إعدام أخلص المخلصين من تابعيه وخدمه. ومنهم غضنفر رئيس الخصيان البيض، وعثمان رئيس الخصيان السود، اللذان تم قطع رأسيهما، بينما كان محمد الثالث، الجالس على العرش، لا يستطيع أن يحبس دموعه. وهكذا انتهت قصة هذا البندقي العجيبة. وبصفته راعياً للكتاب والفنانين ترك آثاراً في الثقافة

العثمانية في ذلك الوقت وإلى اليوم لا تزال ذكراه في إسطنبول قائمة في المدرسة التي أمر ببنائها والتي يشغلها حالياً متحف الكاريكاتير[1].

أما ابن أخت غضنفر، جاكومو الذي أصبح محمداً، فهو يستحق تنويهاً خاصاً. فلم يكن يهتم كثيراً بالسياسة، ولكنه كان محباً للّهو والمرح، فتقبل بترحاب جم قدره الذي وضعه بين الطبقة العثمانية العليا. وبعد وفاة خاله اقتطع لنفسه مساحة خاصة به. وبعد سنوات، ظهر واحداً من أربعة ندماء للسلطان مراد الرابع. وشارك في هذه الصحبة المرحة بكري مصطفى فائق الشهرة، الذي أصبح فيما بعد واحداً من الشخصيات التقليدية لمسرح خيال الظل التركي، ولكن يقال إن بعض الفروق الدقيقة للشخصية المتناقضة جداً لهذه الشخصية الكرتونية تستمد أصولها من حياة ذلك البندقي المتحول[2].

3. النساء وأسطورة السلطانة البندقية

كان عدد النساء اللواتي غادرن أو أُجبرن على ترك أسرهن وبلادهن للحصول على هوية أخرى أقل بالتأكيد من نسبة الرجال. ويرجع السر في هذا إلى تقاليد المجتمع ونظامه سواء في الغرب أو في الشرق. وفي العصور الوسطى كانت النساء اللواتي ينتقلن من بلاد الإسلام إلى بلاد المسيحية، ومنها بالعكس، في معظمهن من الإماء اللواتي يتم شراؤهن أو خطفهن

(1) M.P. Pedani Fabris, *Veneziani a Costantinopoli alla fine del XVI secolo. Capitolo settimo 283 in Veneziani in Levante, Musulmani a Venezia*, cit., pp. 67-84.

(2) R. Dorigo Ceccato, *Su Bekrī Mustafā, personaggio del teatro delle ombre turco e arabo*, in Veneziani in Levante, *Musulmani a Venezia*, cit., pp. 85-96.

من المدن الساحلية أو في المناطق الحدودية. وقد سبق لنا التحدث عن العبودية في البندقية التي استمرت حتى العصر الحديث، ولكن بينما توجد روايات، وإن كانت نادرة، عن رجال وقعوا في شرك العبودية، فمن الصعب أن نجد أعمالاً مماثلة أبطالها من النساء. لذا يجب البحث عن الروايات التي تحكي قصصهن في الوثائق الأرشيفية. ومن الحكايات الدالة على الحياة المنقطعة والمعاناة الوجدانية، قصة أب مسلم تَعِس جاء من مصر، ووصل إلى البندقية في شهر مارس من عام 1411 في محاولة لتأمين الإفراج عن ابنتيه، بعد أن علم أنهما في بادوفا في يدي نبيل من البندقية. وقد جلس على الأرض في القصر الدوكالي إلى جوار عتبة قاعة المجمع، ثم بدأ يحكي لكل من يمر من أمامه قصته الحزينة، وبعد عدة أيام تعب أعضاء مجلس الشيوخ من سماع شكواه وأنينه، وربما أيضاً خوفاً من أن يمثل هذا عائقاً في المستقبل أمام حركة التجارة، فقرروا إرساله إلى مدينة بادوفا لاستعادة ابنتيه، لكي تعودا معه إلى بلادهم. ورحلة هذا المسلم إلى البندقية، للدفاع عن قضيته، مثلت حالة استثنائية خاصة بالنسبة إلى العصر الذي حدثت فيه. وفي بداية القرن الخامس عشر لم يكن التجار القادمون من بلاد الإسلام قد اعتادوا الوصول إلى المدينة، وهو ما حدث في القرون التالية، رغم أنهم كانوا يستخدمون سفن القوافل التجارية البندقية في رحلاتهم القصيرة، ما بين السواحل الإفريقية وشرق المتوسط، وهو المسار الذي وصلت من خلاله، في غالب الأمر، قصة هاتين الفتاتين وما آل إليه مصيرهما إلى عائلتهما في مصر[1].

---

(1) ASVe, *Senato, Misti*, reg. 48, c. 190; reg. 49, c. 3.

ويمكن العثور على قصص أخرى في سجلات الوقائع أو في المحفوظات. وهناك قصة خاصة شهدت مشاركة امرأة من عائلة كريستوفوري، سليلة المطوَّب ماركو دافيانو، الراهب الكابوتشي الذي دعا في نهاية القرن السابع عشر إلى شن حرب صليبية ضد العثمانيين. وقد تم سبي هذه المرأة خلال غارات على فريولي عام 1499، ووفقاً للتقاليد تم نقلها إلى جناح الحريم في قصر طوب قابو، حيث لفتت نظر السلطان نفسه. وتحكي الأسطورة أنها بعد تسع سنوات نجحت في الهروب وعادت إلى بلدها محملة بالجواهر التي أخذتها من الكنز الإمبراطوري، ولكنها ما إن وصلت إلى بيتها حتى اكتشفت أن زوجها الذي تم اعتباره أرمل، قد تزوج أخرى. وبسبب مدة الأسر، ووجود المجوهرات، أمكن إعطاء هذه القصة قراءة مختلفة عن تلك التي شاعت على المستوى الشعبي. فالفتيات اللواتي يدخلن الحريم الإمبراطوري كجَوارٍ، يُسمح لهن بعد تسع سنوات، إن لم يجدن حظاً مع السلطان، أن يستعدن حريتهن. وفي هذه الحالة يتركن القصر ومعهن هدية من المجوهرات. وفي حالة اختيارهن البقاء للعمل تسع سنوات أخرى، فإنهن يتلقين منزلاً ومعاشاً. وبهذه الطريقة كانت النساء اللواتي يعمرن حرملك السلطان، كنّ عادة في عمر يقل عن ثلاثين عاماً، يجدن طريقة للاستقرار. وقد سمح لهن التعليم الراقي الذي تلقينه، جنباً إلى جنب مع المهر الذي دفع لهن، والصداقات التي عقدنها مع السلطانات، وكل هذا يسمح لهن بالعثور على زوج بسهولة، وغالباً من بين من يعملون حجاباً أو خدماً في القصر الإمبراطوري نفسه، ومن ثم سمح لهن ببناء أسرة. وفي القرن السادس عشر على نحو خاص كانت الطبقة العليا العثمانية تتكون

من هؤلاء الرجال وتلك النسوة. وهكذا فإن سليلة ماركو دافيانو، عندما لم تنجح في لفت نظر السلطان بايزيد الثاني، عملت فقط خادمة في القصر، ثم لم ترغب في البقاء والعمل هناك، فأهديت، كالعادة، حريتها وبعض المجوهرات[1].

وفي الماضي لم تكن عمليات الخطف وأعمال العنف حكراً على الأتراك فقط. فقد كانت السفن الأوروبية في البحر المتوسط تتحول إلى القرصنة في بعض الأحيان، عندما تواتيها الفرصة. وقد ظلت المأساة التي وقعت لميمي، باي جربة، وعائلته يوم 21 أكتوبر 1585 من المآسي الشهيرة. فبعد موت أبيه، رمضان، بيلرباي طرابلس، ترك ميمي شمال إفريقيا البربرية، وانتقل إلى القسطنطينية على متن سفينة وضع عليها أمه ونساءه وممتلكاته كلها. وفي عرض البحر تم اعتراض السفينة المغربية من قبل سفينة بندقية بقيادة جبراييل إيمو، الذي هاجمها وأباد الرجال والنساء واستولى على غنيمة وافرة. وسببت الحادثة رد فعل واسعاً في الباب العالي. ووصل الأمر إلى التهديد بالحرب، ولم يشفع سوى تقديم هدايا ثمينة لكثير من المسؤولين العثمانيين، وحُكم بالإعدام على القبطان البندقي، وتم تنفيذ الحكم علناً في ساحة سان ماركو، ولولا ذلك ما كانت النفوس لتهدأ. وقد كانت هذه واحدة من أخطر حوادث العنف التي وقعت في تلك السنوات، لأن النساء اللواتي كنّ على متن السفينة، كن ينتمين إلى الطبقة العليا للمجتمع العثماني، وقد تعرضن للاغتصاب والذبح دون رحمة[2].

(1) M.P. Pedani Fabris, *I Turchi e il Friuli alla fine del Quattrocento*, in «Memorie Storiche Forogiuliesi», 74, 1994, pp. 203-224.

(2) A. Fabris, *Un caso di pirateria veneziana: la cattura della galea del bey di Gerba (21 ottobre 1584)*, in «Quaderni di Studi Arabi», 8, 1990, pp. 91-112.

هذا وقد دفعت الصلات الوثيقة بين البندقية والإمبراطورية العثمانية، أو أجبرت بعض النساء على تغيير بلادهن ودينهن. ولا يزال حتى اليوم شارع بالبندقية يسمى شارع «التركيات الصغيرات»، ويحيل الاسم وفقاً للتراث الشعبي إلى وجود بيت مخصص لتعليم البنات الجديدات في الدين. وقد حثت القوة التأثيرية لمثل هذا الاسم بعض كتاب الخيال البندقي إلى أن يجعلوا من تلك المنطقة مكاناً تدور فيه أحداث قصص الحب والموت التي لا علاقة لها بالواقع التاريخي أو بالقصص البندقية الحقيقية.

وما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر ذهب كثير من النساء إلى دار كاتيكوميني لتلقي التعميد. وكانت الحروب البندقية العثمانية في ذلك العصر هي التي أدت إلى زيادة كبيرة في عدد المتحولات. وكن من النساء اللواتي سُبينَ من عائلاتهن في المناطق الحدودية أو من استفدن من الأوضاع المتقلبة للهروب من المواقف الصعبة. وفي ذاك الوقت لم يكن هناك حديث صريح عن العبودية، ولكن أحوال الخادمات كانت تنبئ في كثير من الحالات بحالة عبودية حقيقية، وغالباً ما كان يتم شراء الخادمات وبيعهن. وبمجرد دخول «بيا كازا» تصبح لدى هؤلاء النساء فرصة لرفض العودة إلى منازل أسيادهن.

ومن ثم كانت المؤسسة هي التي يجب أن تقرر مصيرهن. وفي جميع الأحوال كان العمل بالخدمة المنزلية خياراً يكاد يتحول إلى إجبار بالنسبة إلى بعضهن، حتى وإن كن قلة، وكان يتم تدبير مهر لتزويجهن، أو تحويلهن إلى راهبات، ولكن القليل جداً منهن كُن يقبلن دخول الدير.

وكن يرفضن ذلك لأسباب ثقافية أكثر منها اقتصادية، حتى وإن كان مهر الرهبنة أقل من المهر المطلوب للزواج. وكان كثير من الأزواج يتم اختيارهم من المتنصرين، الذين يتم تعميدهم في المؤسسة نفسها. وفي حالات قليلة كانت «بيا كازا» تدفع تكلفة تعليم النساء حرفة. وكثيرات منهن كن يصلن إلى الدار ومعهن أطفال صغار، أو في حالة حمل، وغيرهن كن في الأصل مسيحيات ادعين أنهن مسلمات حتى يستفدن من الإقامة والطعام والمساعدة الاقتصادية. وهؤلاء كن إذا اكتُشفن يطردن فوراً. وكثير من علاقات العمل التي تمت عن طريق دار كاتيكوميني انتهت نهاية سيئة. وقد كانت النساء يهربن ويعدن إلى البيت الذي يأويهن إيواء دائماً، للعمل خادمات أو معلمات. ولم يكن بعضهن قادرات على التكيف مع قواعد الانضباط، التي تفرض عليهن قدّاسات وصلوات يومية في دار كاتيكوميني، فاخترن طريق الدعارة، وكانت في تلك المرحلة مهنة مشروعة، بل المهنة الوحيدة التي يمكن ممارستها من قبل النساء اللواتي ليس لديهن موارد أخرى. وأخيراً، كانت هناك أيضاً حالات أولئك اللاتي رغبن في العودة إلى الدين الإسلامي. وكان فندق الأتراك، وهو البيت الذي كان يأوي إليه التجار القادمون من الإمبراطورية العثمانية، وهو فندق يبدو وكأنه شريط صغير من الأرض يبحث فيه المسلمون عن الملجأ والمساعدة. وفي حالة عدم اليقين على الإرادة الحرة للمرأة أن تقرر، وكان تجار الفندق هم الأكثر استعداداً لسماعها تتحدث بلغتهم، ثم يحررون وثيقة تحتوي على شهادتهم[1].

(1) Vanzan, *La Pia Casa dei Catecumeni in Venezia, un tentativo di «devshirme» cristiana?*, cit., pp. 221-255.

وقد تصادفت بداية «سلطنة الحريم» مع صعود زوجة سليم الثاني (1566–1574)، نوربانو، التي حكمت بعد ذلك أيضاً بصفتها الوالدة باشا للابن مراد الثالث. واسمها يعني «السيدة نور»، ومن ثم فهو يشير إلى صورة جمالية لا مثيل لها. كانت صغيرة جداً، عندما اُختطفت في كورفو بواسطة خيرالدين بربروس عام 1537 وأهديت إلى الحريم الإمبراطوري، ومن ثم إلى سليم بن سليمان. وشاعت أساطير مختلفة منذ ذلك الحين حول أصولها. فقال بعضهم إن دوجي البندقية ابتاعها من أبيها نفسه، للوقوف في وجه صعود زوجة سليمان. وقال آخرون إنها كانت ابنة غير شرعية لاثنين من الطبقة الأرستقراطية البندقية: نيكولو فينير وفيولانتي بافو، وولدت في جزيرة باروس واختطفت في كورفو بواسطة الأميرال العثماني الكبير. وتذكر بعض الوثائق البندقية أن اسمها هو تشتشيليا فنير-بافو. وأخيراً شاعت قصة أخرى لمدة من الوقت حتى كتب عنها المبعوث المقيم للبندقية في رسائله، ترى أنها ربما تكون فتاة يونانية من رعايا البندقية اسمها كالي كارتانو. ويبدو من الصعب فصل عقدة خيوط هذه الإشاعات، الواردة كلها في وثائق تلك المرحلة. إنما يمكن مع ذلك الإشارة إلى أن أنباء ولادتها في البندقية بدأت تذيع بعد أن وصل إلى البندقية مبعوث للأمير، قصدها مرتين عام 1559، بعد عام من وفاة خريم والدة سليم.

وقد وصفه أعضاء مجلس الشيوخ بأنه رجل من كورفو، ارتد وأصبح تركياً، سُمعته سيئة ونوعيته رديئة. إلا أنهم لم يردوه على عقبيه، ولم يعدوه محتالاً، وفضلوا استقباله كونه مبعوثاً للأمير؛ لأن الرسائل التي حملها إما

كانت حقيقية وإما جرى تزييفها من قبل شخص خبير في أعمال الكتابة الإدارية لدى العثمانيين. وقد طلب هذا المبعوث، علاوة على توريد أسلحة، معلومات حول الأقارب البنادقة المزعومين للمحظية القوية. وأمام هذه المعضلة، قبول مزاعمه أو رفضها، والتي ربما تخلق فضيحة دولية، فضّل البنادقة الاستفادة من مزاعمه لتعقب الأصول البندقية لنوربانو، وأيضاً لبناء تصور عن هذه الأصول. ولكن الحكاية الأقرب للتصديق هي التي رواها المبعوث المقيم والتي جعلت هذه الوالدة باشا يونانية من كورفو. ومهما كانت الحقيقة، فإن الاعتراف بأصول بندقية لنوربانو كان من شأنه أن يصبح إيجابياً للطرفين، لنوربانو التي يمكنها أن تجد في البندقية حليفاً قوياً، وللبندقية التي كانت ترى في ذلك فتحاً لكافة الطرق السرية للوصول إلى قلب حريم الإمبراطورية. وفي الواقع، يبدو غريباً أنه في الوقت الذي حاول فيه كل البنادقة الذين اعتنقوا الإسلام في الإمبراطورية إخفاء أصولهم، بل وصل بهم الأمر إلى إظهار عداوتهم للجمهورية، تُصر السلطانة في المقابل على الإعلان صراحة عن روابطها بمدينة سان ماركو.

وقد ظلت نوربانو طوال حياتها وفية لهذا التحالف. وقد تزوجها سليم، تماماً كما فعل والده مع خريم، ثم رفعها فوق المحظيات الأخريات، لدرجة أنها كانت هي الوحيدة، كونها زوجته، المسموح لها بالجلوس أثناء تناول السلطان طعامه في جناح الحريم. وقد انتهت مدة حكمه القصيرة عام 1574. وكان ابنه مراد، ضعيفاً محباً للمتع، وصعد إلى العرش فأصبحت والدته هي الوالدة باشا. وخلال هذه المدة بدأت

المشاركة بنشاط في السياسة الدولية، وتبادلت المراسلات أيضاً مع دوق البندقية وكاترينا دي ميديشي، الملكة الأم في فرنسا. وكانت برسالة منها تعين السناجقة والولاة وتلغي تعيين سنجق أو بطريرك أو حاكم محلي. وتوفيت يوم 7 ديسمبر عام 1583، وكان هناك حديث عن دس سم البروبيناتول لها بواسطة صفية، زوجة ابنها، التي خلفتها في إدارة حريم السلطان والسلطة المرتبطة بها. وفي بداية القرن العشرين تعامل أحد المؤرخين مع وثائق مجلس الشيوخ في البندقية بثقة ودون تردد، وهذا المؤرخ هو إميليو سباني (Emilio Spagni)، ثم فعل الشيء نفسه مستشرق شهير، هو إيتوري روسي (Ettore Rossi)، وكلاهما استقى من هذه الوثائق معلومة الأصل البندقي لهذه المحظية. وسار على هديهما آخرون حتى دخل اسم تشتشيليا فينير- بافو إلى قاموس الأعلام الإيطاليين[1].

وكانت اتصالات نوربانو مع المبعوث البندقي المقيم تتم في الغالب عن طريق إحدى جواريها، هي إستير هندالي، وهي إسبانية من خيريز دي لا فرونتيرا بإقليم كاديس. وكان لقبها هو كيرا (في اليونانية: سيدة)، وهو اللقب الذي كانت تنادى به السيدات اليهوديات اللواتي كن يجرين الاتصالات بين حريم الإمبراطورية والعالم الخارجي. وكانت هذه

(1) E. Spagni, *Una sultana veneziana*, in «Nuovo Archivio Veneto», 19, 1900, pp. 241-348; E. Rossi, *La sultana Nûr Bânû (Cecilia Venier-Baffo) moglie di Selim II (1566-1574) e madre di Murâd III (1574-1595)*, in «Oriente Moderno», 33, 11, 1953, pp. 433-441; F. Babinger, *Baffo Cecilia*, in *Dizionario Biografico degli Italiani*, vol. V, Roma, Istituto della Enciclopedia Italiana, 1963, pp. 161-163; S.A. Skilliter, *The Letters of the Venetian «Sultana» Nûr Bânû and Her Kira to Venice*, in A. Gallotta e U. Marazzi (a cura di), *Studia turcologica memoriae Alexii Bombaci dicata*, Napoli, Iuo, 1982, pp. 515-536; B. Arbel, *Nûr Bânû (c. 1530-1583). A Venetian Sultana?*, in «Turcica», 24, 1992, pp. 241-259.

المرأة هي التي تطلب الهدايا نيابة عن السلطانة أو تطلب مشتريات من البندقية، وتقدم في مقابل هذا دعمها غير المباشر للاتصال بالسلطان للحصول على كل ما تتمناه الجمهورية. إذ أرسلت إستير ابنها عدة مرات إلى البندقية، ولجأ إليها كذلك بعض كبار رجال الدولة، مثل جوزيبي ناسي، للمساعدة في تحقيق اتصال مع الدوجي. ومع هذا لم تصل إلى أوج سلطتها إلا بعد موت نوربانو؛ لأن صفية على الرغم من العداوة الشديدة مع حماتها قررت ضمها إلى خدمتها. وكانت إستير هي التي تدخلت بهمة لإقناع السلطان أن يتزوج محظيته عندما عملت على إقناع الصدر الأعظم بضرورة تبني هذا المشروع. وقد ماتت في سبتمبر 1588، ونعاها الكثيرون، واتخذت صفية بعدها في وظيفة كيرا الإيطالية اليهودية إسبيرانزا مالكي.

وقد أظهرت وسيطة الحريم الجديدة على الفور أن جل ما يعنيها هو المال ولا شيء غيره. فعلى سبيل المثال، استغلت منصب جابي الضرائب، الذي نجحت في الحصول عليه، لكي تدخل نقوداً مزيفة إلى الخزانة. وزاد الأعداء من حولها؛ لأنها امرأة؛ ولأنها يهودية. وكانت إسبيرانزا تنتمي إلى التيار المعادي للبندقية، على العكس تماماً من سالفتها. وفي عام 1596 تشاجرت بشراسة في جناح الحريم الإمبراطوري، أمام السلطانة، مع بياتريتشي ميكيل، شقيقة زعيم الخصيان البيض غضنفر، والتي كانت قد عرفت في القسطنطينية باسم إسلامي هو فاطمة خاتون. وكانت بياتريتشي قد استسلمت جزئياً للشروط التي فرضها عليها شقيقها، ولم تظهر تمردها الذي ترجمته إلى نشاط سري مُواتٍ للجمهورية البندقية. ولم تكتف بانضمامها إلى التيار المناصر للبندقية في الحريم، ولكنها أصبحت

عيني وأذني المبعوث البندقي المقيم، داخل الجدران السرية للغاية للقصر الإمبراطوري، الذي لم يكن بمقدور أحد أن يدخله سوى الحريم. وبهذه الطريقة حاولت أيضاً حماية ابنيها اللذين تركتهما في البندقية. ولم تستطع فعل أي شيء للابن الأكبر الذي اختطفه عمه وحمله إلى القسطنطينية، ولكنها طوال سنوات حياتها ظلت تبعث المال للابن الأصغر؛ لكي تؤمن له حياة رغدة. ونجحت في إنشاء مؤسسة خيرية في البندقية وسمتها «المفتشية»، وعهدت بها إلى مديري المستشفيات والملاجئ. وفي تاريخ البندقية كانت هذه هي المؤسسة الوحيدة التي سميت باسم امرأة مسلمة، هي فاطمة خاتون، نظراً للأهمية السياسية التي حظيت بها وبررت هذا الاستثناء.

ومن مفارقات القدر أن موت إسبيرانزا مالكي، المعادية جداً للجمهورية، يعود إلى بندقي مرتد، كان هو أيضاً معادياً لوطنه القديم. ففي نهاية القرن السادس عشر أصبح لكيرا تأثير كبير. وكان حلمها هو إنشاء دولة عبرية، مثل جوزيبي ناسي الذي حاول أن يفعل هذا في قبرص، ولكن أعداءها ظنوا أنها تريد أن تصبح ملكة على اليهود جميعاً. ولذلك كانت سلطتها وثروتها سبب دمارها. فقد وقعت ثورة ضد يهود القسطنطينية يوم 30 مارس عام 1600 وتمكنت مجموعة من الجنود الخيالة بقيادة محمد فرنك بيك أوغلو من قتل إسبيرانزا على سلالم قصر الصدر الأعظم، بينما كانت مقتادة للمثول أمام السلطة العليا الثانية في الدولة. ثم تم نقل جثمانها إلى ساحة ميدان سباق الخيل حيث تم تقطيع أوصالها، ولقي ابنها الأصغر مصيرها نفسه، في حين نجا الابن الأكبر بعد إسراعه

في اعتناق الإسلام. وكان قائد الجنود من نبلاء البندقية، كما يبدو من اسم العائلة، فرنك بيك أوغلو أي ابن السيد فرانكو، وكان اسمه المسيحي هو مارك أنطونيو كويريني. وهو ابن أندريا فينتشنزو، واختطفه الأتراك وهو صبي، على مركب عمه فنشنزو بريولي. وبعد نقله إلى القسطنطينية اعتنق الإسلام وبدأ حياته المهنية بمساعدة غضنفر. وكان أول عمل له كاغد أميني، أي المشرف على إمدادات الورق وأدوات الكتابة، ثم كاتباً في سلاح الانكشارية حتى 1596. وفي عام 1597 ذهب في رحلة حج إلى مكة المكرمة. وربما لم يفعل هذا لفرط إيمانه، وإنما دفعته إلى القيام بهذه الرحلة رغبته في الابتعاد قليلاً عن المدينة. وقد كانت ممارسة إشاعة بين كبار رجال الإمبراطورية: عندما يصبح الوضع خطيراً يسافر المسؤول إلى الحج.

والأمر نفسه أراد فعله بعد ذلك بسنوات السلطان عثمان الثاني، لكنه سقط ضحية لثورة في القصر. ولدى عودته إلى القسطنطينية، وجد كويريني أن ماله وبيته قد نهبا. إلا أن ذلك لم يمنعه، بمساعدة من غضنفر، من أن يصبح جبه جي باشي، أي رئيس تجار السلاح. وفي عام 1599 تمكن من إخماد ثورة جنود السباهية وتجار السلاح، ليثبت نفسه واحداً من أبرز العسكريين، محبوباً ومحترماً من جانب رجاله. ثم احتل بعد ذلك منصب آغا فيلق الفرسان الذي قتل إسبيرانزا مالكي. وأصبح أيضاً رئيس السباهية، وهو أحد أعلى المناصب العسكرية في الدولة، في المرتبة الثانية بعد آغا الانكشارية. ولكن تورطه في قتل كيرا، تسبب في سقوطه. أقسمت له السلطانة صفية على الكراهية الأبدية، ولقي حتفه

بعد سنوات قليلة، في خريف عام 1602، على يد قواته التي انقلبت ضده خلال إحدى الثورات.

كان العصر لا يزال ذلك العصر الذي كان فيه الحريم الإمبراطوري يدير السلطة إدارة مباشرة. وبجانب السلطانة صفية، التي كتبت العديد من الرسائل للجمهورية وعقدت اتصالات مستمرة مع إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا، كانت الكاهيا كادين (المشرفة على جناح الحريم) هي جان فداء خاتون، و(قهرمانة) (ورئيسة الخدم) مثل راضية خاتون، جنباً إلى جنب مع بناتهن وأخواتهن أو حتى دايات (مرضعات) ومصاحبات (صاحبات الطفولة) السلاطين. وقد عاش العديد من هؤلاء النساء خارج جدران طوب قابو، وكانت لهن أسر خاصة بهن، وأزواج وأطفال. وبعض النساء، مثل السلطانات، كن يستطعن استقبال زيارات لهن في القصر، وبعضهن الأخريات كن يذهبن إلى أعمالهن في القصر الإمبراطوري، ولا يجدن غضاضة في الالتقاء بالسلطان، أو حتى في أن يلعبن معه الشطرنج، كما يروي المبعوث المقيم في بعض تقاريره. كانت مناصبهن في كثير من الأحيان مرموقة، كما كن يستطعن أن يستخدمن في بيوتهن خفراء وسكرتارية وخدماً. فراضية خاتون، على سبيل المثال، كان قصرها في بشكتاش والكتخدا (السكرتيرة) الخاصة بها كانت بندقية من قبرص أصبحت أمَة بعد أن وقعت الجزيرة في أيدي الأتراك. لقد كان حشداً من الإناث لا نعرف عنه إلا القليل، ولكن من المؤكد أنه كان منظماً ومعقداً. وبين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين كانت تمر عن طريق الحريم قرارات الحرب والسلام، وكان الوزراء الذين يجلسون

في الديوان لا يستطيعون معرفة ما إذا كان الصوت الذي يستمعون إليه من وراء الستائر الكثيفة، هو صوت السلطان أو إحدى نسائه.

وقد كانت نساء الحرملك هن اللاتي يعيّنّ الصدر الأعظم أو يعزلنه. ولم يكن الرجال في قمة الهرم العثماني بالتالي يستطيعون تجاهل أهمية الحماية النسوية. فعلى سبيل المثال كتبت كوهرخان، ابنة سليم الثاني، العديد من الرسائل لابنها، سنجق كليسا في دلماسيا، وهي رسائل في غاية الأهمية من الناحية السياسية حتى إنها سرقت وتمت ترجمتها إلى الإيطالية من قِبل البنادقة. ولذلك فإن الزواج من سلطانة مهم لإنقاذ حياة المرء إذا تعرض الطرف الذي يرتبط به إلى كوارث. وبالطبع كان عليه أن يتخلى عن الزوجات الأخريات اللواتي يستطيع الرجل المسلم أن يتزوجهن. وتصل السلطانات إلى الغرفة بعد الزواج، وقد تحزّمن بخنجر وعلى أزواجهن للاقتراب من الفراش أن يقتربوا زاحفين على الأرض. ولا تخرج تلك القصة عن كونها أسطورة، مثلها مثل تلك الأسطورة التي لا تسمح للأميرات إلا بإنجاب أطفال إناث فقط، فإذا ولدن ذكوراً يُتركون يموتون نزفاً عقب الولادة مباشرة، بترك الحبل السري مفتوحاً. ويشهد على هذا السعي الحميم لهؤلاء الأمهات للسماح لأبنائهن وأبناء أخوة وأبناء عمومة السلاطين، بتولي بعض المناصب الهامة في الإمبراطورية، مع علمهن بأنهم لا يمكن أن يصلوا إلى أعلى المناصب.

ومع موت إسبيرانزا مالكي انتهت عهود التأثير الكبير للكيرات اليهوديات، ولكن لم تنته «سلطنة الحريم»، التي استمرت بعدها لخمسين عاماً. ولم يختف العنصر الأنثوي من إدارة الحكم، ولكن الوسيطات تغيرن.

ومن أهمهن في السنوات الأولى من القرن يمكن أن نذكر يهودية أخرى، ولكنها حصلت على منصب مختلف، إنها زوجة سليمان أشكنازي، الطبيب الذي أجرى اتصالات بين مبعوث البندقية والصدر الأعظم خلال حرب قبرص. وقد مات، مثقلاً بالديون، في 13 ديسمبر من عام 1583، وبعد موته بستة أيام توجهت نوربانو، وزوجته إلى السلطانة صفية للحصول على معاش. وكان من المؤكد أنها اكتسبت علم الطب من زوجها، وربما كانت أيضاً تتردد على الحريم كونها طبيبة. وفي عام 1603، اعتلى العرش السلطان أحمد الأول، وهو بعد ابن أربعة عشر عاماً، وعلى الرغم من أنه كان قد تم ختانه، وبذلك دخل بالفعل رسمياً إلى مرحلة البلوغ، فإنه ظل تحت وصاية والدته عندما أصيب بالجدري، ولأنها لم تكن تثق في أطباء البلاط عهدت به الوالدة باشا إلى أشكنازي التي تمكنت من علاجه، ولهذا كانت هي المرأة الوحيدة التي حملت لقب «طبيب السلطان». وبعد سنوات قليلة وصل ابنها ناثان، إلى البندقية لشراء أقمشة مذهبة للبلاط، فقدّم نفسه في القصر الدوكالي بوصفه «ابن طبيبة السلطان»، وهي وظيفة مهمة جداً وغير معتادة لهذه الأم.

وقد انتهت «سلطنة الحريم» بموت الوالدة العجوز كوسم عام 1651. وأعقبت ذلك مدة قصيرة سميت «سلطنة الآغوات» للدور الذي لعبه خصيان القصر الإمبراطوري، ثم سلمت الوالدة خديجة طرخان عام 1656 السلطة السيادية إلى الصدر الأعظم الجديد، كوبرولو محمد باشا، ومعه بدأت الدولة في الازدهار مرة أخرى. وخلال «سلطنة الآغوات» كانت خاتون مالكي أسطه هي التي عقدت الاتصالات بين الحريم والعالم

الخارجي، وهي امرأة أخرى يجدر ذكرها للدور الذي لعبته على الساحة السياسية. كان الموسم الكبير للخادمات اليهوديات مع السلطانات قد انتهى، وكانت خاتون مالكي مسلمة، وزوجها شعبان حليف رئيسَ عمال الكافتيريا، وبفضل أهمية زوجته كان يستدعى دائماً لتقديم يد العون، أو الحماية، أو حتى المساهمة في إسقاط بعض الشخصيات الهامة. وشهد التمرد الأخير للانكشارية سقوط كليهما. فقد حكم على الزوج والزوجة بالإعدام جنباً إلى جنب مع العديد غيرهم في تلك اللحظات المحمومة. وكانت الرغبة الأخيرة لشعبان هو ألا يتم شنقه على صاري مضمار الخيل إلى جوار زوجته التي كانت نحساً عليه.

وهكذا انتهت تلك المدة الطويلة من حكم النساء وتدخلهن في إدارة السلطة الإمبراطورية. وكانت قد بدأت تحت رعاية «السلطانة البندقية» نوربانو، وانتهت بمعركة فاز فيها البنادقة في مضيق الدردنيل يوم 26 يونيو عام 1656، وهي الهزيمة التي شبهها العثمانيون بهزيمة ليبانتو. عندئذٍ فقط تم استدعاء كوبرولو محمد ليرأس الوزارة. وبعد مدة وجيزة انفجرت سفينة القيادة في أسطول البندقية، الذي كان يسد المضيق، فحرر هذا الانفجار القسطنطينية والإمبراطورية من حصار قاس. وفي تلك المرة كان وجود البندقية حاسماً في إحداث تغيير جذري في الخط السياسي وفي قمة الدولة العثمانية[1].

(1) *Târih-i Na'îmâ*, a cura di M. İpşirli, 4 voll., Ankara, Türk Tarih Kurumu, 2007, vol. IV, pp. 1606-1607, 1661-1663.

4. الجوسسة

كانت مدينة البندقية تُعد في العصر الحديث مركزاً من مراكز التجسس الدولي. وكانت شبكتها من السفراء والقناصل، المكلفة بالكتابة المنتظمة إلى إداراتها المركزية، تجمع المعلومات السرية حول ما كان يحدث في مختلف قصور الحكم، من باريس إلى لندن، ومن مدريد إلى فيينا، ومن روما إلى القسطنطينية. وكانت القوانين الصارمة تفرض على النبلاء ألا يكون لديهم اتصالات غير رسمية مع ممثلين أجانب، بحيث لا تكون هناك فرصة لرواية ما يقال أو يسمع في قاعات القصر الدوكالي. ومع ذلك كانت السكرتارية والتجار مصدراً هاماً من مصادر المعلومات. وفي تلك الفترة كانت تصل إلى القسطنطينية، قلب الإمبراطورية العثمانية، أخبار من جميع الولايات العثمانية، أي من جميع الدول الإسلامية في البحر المتوسط. ويكفي القيام بدورة في قاعات قصر طوب قابو؛ لكي تعرف ما الذي يحدث على الحدود الإيرانية، أو في مصر، أو في بلاد الشمال الإفريقي، أو حتى في أوروبا. وكثيراً ما كان المرء يدهش من حجم المعلومات التي يعرفها وزير أو موظف حول ما يدور في قصور الحكم المسيحية، حتى وإن كنا لا نعرف الكثير عن الجوسسة العثمانية. لكنها كانت موجودة، سواء كانت تجسساً على رعايا السلطان أو تجاه الدول الأخرى. ويمكن تقسيم أنشطة التجسس هذه إلى أربعة مستويات: في المستوى الأول نجد الأخبار المستقاة من القسطنطينية نفسها، ثم تلك التي ترسل إلى العاصمة من المسؤولين المحليين، وخاصة في المناطق الحدودية. وتأتي المعلومات الأخرى من دول تابعة أو ملزمة باتفاقات،

مثل راجوزا، وأخيراً كانت هناك أيضاً هيئة حقيقية للمخابرات نشطة في التجسس ومكافحة التجسس وتعمل في الدول الأجنبية[1].

وفي أوروبا وتحديداً في عهد مراد الثاني، ومن ثم قبل فتح القسطنطينية، كان هناك حديث عن جواسيس عثمانيين. ولكن عندما تولى محمد الثاني، بدأت بعض الأسماء تذيع وتنتشر. وأولئك الذين يقدمون معلومات عن السياسة الدولية كانوا في معظمهم من الإيطاليين. وكان شيرياكو دي بيتسيكوللي صديقاً لمراد الثاني، وقد انخرط كثيراً في المؤامرات والشؤون الدبلوماسية. أما الفلورنسي بينيديتو داي، التاجر والرحالة، فربما جنده السلطان خلال إقامته في القسطنطينية بين عامي 1460 و1467، رغم عدم وجود دليل على ذلك إلا كراهيته للبندقية، والتي اكتسبها ربما أثناء خدمته مع التاجر البندقي جيرولامو ميكيل. ومرة أخرى، بين عامي 1478 و1480 نُسبت بعض الحرائق في ولاية بافاريا لمبعوثين دفعت لهم القسطنطينية.

وعلى أي حال شهد عصر بايزيد الثاني وصول أكبر عدد من العملاء العثمانيين إلى أوروبا. وقد دفع حبس الأمير جم في رودس أولاً، ثم في فرنسا، وبعدها في روما ونابولي، السلطان إلى محاولة أن يظل على علم بما يحدث في قصور الحكم بأية وسيلة، وإجراء اتصالات مع كل من يستهدف حياة شقيقه. فمثلاً في عام 1486 سافر ضابط برتبة نقيب يدعى

(1) G. Ágoston, *Information, Ideology and Limits of Imperial Power. Ottoman Grand Strategy in the Context of Ottoman-Habsburg Rivalry*, in V.H. Aksan e D. Goffman (a cura di), *The Early Modern Ottomans*, Cambridge, Cambridge University Press, 2007, pp. 75-103.

باراك إلى إيطاليا وفرنسا للحصول على الأخبار، ثم جرى إرسال لوحتين لحاكم مانتوفا فرانشيسكو الثاني جونزاجا عام 1493، إحداهما للأمير نفسه والأخرى للسفير المملوكي الذي انتقل إلى روما، وكان مرتبطاً بمحاولة اغتيال جم التي تورط فيها بلاط جونزاجا. وهذه في واقع الأمر هدية غريبة من السلطان الأتقى والأشد ورعاً من أن يهدر لوحات أبيه. وانتقلت هاتان اللوحتان بعد ذلك إلى حوزة الرسام أندريا مانتينيا، وهما الآن مفقودتان للأسف[1]. وفي تلك الفترة نفسها وصل العديد من المبعوثين العثمانيين إلى البندقية، وكانت محطة هامة في إيطاليا لمن يصل من الشرق. فقد أقام فيها الجاويش قاسم على سبيل المثال عام 1487، وفي عام 1494، وهو في طريقه إلى روما استولى منه جوفاني ديللا روفيري على أربعين ألف دوقية كان من المفروض أن يسلمها إلى البابوية قسطاً سنوياً مقابل حبس الأمير. وفي هذه المناسبة، سرق رفيقه في السفر، جورجيو بوتشاردو بعض الرسائل تتضمن إساءة تسببت في فضيحة كبيرة، لأنها فضحت الاتفاق السري بين البابا والسلطان. وقد كانت العلاقات بين الملكين ودية للغاية بحيث لم يتردد المبعوث في تقديم توصية من بايزيد الثاني إلى قريبه نيكولو أسقف آرل، لتعيينه كردينالاً[2].

وكانت من بين مهام السفراء البحث الدائم عن المعلومات، ففي عام 1463، وقبل وقت قصير من اندلاع الحرب بين البنادقة والعثمانيين، وصل

---

(1) B. Lewis, *Europa barbara e infedele. I musulmani alla scoperta dell'Europa*, Milano, Mondadori, 1983, pp. 120-121; F. Babinger, *Maometto il Conquistatore e il suo tempo*, Torino, Einaudi, 1977, pp. 540-543.

(2) A. Gallotta e G. Bova, *Documenti dell'Archivio di Stato di Venezia concernenti il principe ottomano Gem*, in «Studi Magrebini», 12, 1980, pp. 175-199.

مبعوث إلى البندقية لإجراء محادثات حول الملاحة، وحول الضرائب على الملح، ولكن من المحتمل جداً أن زيارته كانت بهدف معرفة الأوضاع عن كثب. وفي عام 1517 استعلم المترجم علي بيك، وهو على برج أجراس ساحة سان ماركو، ما بين التقام قطعة حلوى وأخرى، ورشفة نبيذ من ملفازايا وأخرى، عن معلومة من أين تؤتى البندقية لاحتلالها وأين تقع فريولي. أما في عام 1567، عشية حرب أخرى، وجّه الجاويش كوباد أسئلة عديدة ومريبة حول جزيرة قبرص. كما تم اعتبار العديد من مبعوثي البيلربايات والسناجق جواسيس، وكذلك رسل آخرين، سواء من السلطان، أو من السلطات المحلية، والذين كانوا يرسلون إلى مدن البندقية وجزرها[1].

ومن الشخصيات التي لفتت انتباه المؤرخين، في مجال التجسس العثماني، اليهودي جوزيبي ناسي وجوفاني ميكويس. وقد كان صديق سليم الثاني هو الذي أوحى إليه بغزو قبرص، كما كان رئيساً لشبكة تجسس عثمانية حقيقية في إيطاليا. وقد أعيد تقييم مشاركة هذا اليهودي في التجسس الدولي لتتقلص إلى حد كبير من قبل أحد المؤرخين الذي عزا مثل هذه المعلومات إلى الخيالات المعادية لليهود. ومع ذلك فإنه بين عامي 1568 و1574 تحدثت المصادر البندقية بكثرة عن أخبار تتعلق بأنشطة تجسس حقيقية أو مزعومة قام بها ناسي وبشهادة عملاء سريين. وكان هناك العديد من الجواسيس العثمانيين في راجوزا، وفي إيطاليا، وفي أوروبا، حتى وإن ساهم جو الحرب في خلق نوع من الوسواس

(1) Pedani, *In nome del Gran Signore*, cit., pp. 111-112, 192-196.

الجماعي في البندقية، حيث تم سجن العديد من الأشخاص بتهمة إفشاء معلومات للعدو[1].

وكان هناك حديث لمدة طويلة عن حريق ترسانة البندقية، الذي وقع يوم 13 سبتمبر عام 1569، عشية حرب قبرص، وأن هناك احتمالاً لأن يكون من تدبير العثمانيين، وخاصة ناسي. وعلى كل الأحوال لا يوجد أي دليل على أن السلطان كان ضالعاً فيما حدث. ففي ذلك الوقت كان من السهل أن يحترق أي مبنى خاصة المباني المبنية من الخشب. وفي ذلك العام نفسه، وتحديداً في 1 أكتوبر وبعدها في 12 نوفمبر احترقت القسطنطينية أيضاً، واحترقت مدينة تانا يوم 27 أكتوبر، وبعد ذلك احترقت الترسانة الإمبراطورية لقاسم باشا يوم 3 يناير من العام التالي. وبعد سنوات قلائل حَكَتْ الوثائق أنه عند منتصف شهر يناير عام 1577 طرد الصدر الأعظم شخصاً من البندقية عرض عليه حرق قصر الدوجي. ومن المستغرب أن القصر بعدها بسنة تقريباً أي في 20 ديسمبر احترق بالفعل[2].

وفي تلك السنوات توصل مجلس العشرة إلى استنتاج مفاده أن المسؤول عن تنظيم التجسس لم يكن ناسي، ولكن الأمين (جامع الضرائب) محمود، شقيق دزدار (قائد قلعة) كاستلنوفو. وقد تم أسره خلال الحرب في الهرسك ثم نقله إلى سجون البندقية. وفي عام 1577 كان الصدر الأعظم قد اهتم بإطلاق سراحه، ولكن دون جدوى. وحول عام 1580 كتب أقاربه التماساً آخر للسلطان. وأخيراً في عام 1586 قتله

(1) P. Preto, *Lo spionaggio turco a Venezia tra mito e realtà*, in G. Motta (a cura di), *I turchi, il Mediterraneo e l'Europa*, Milano, Franco Angeli, 1988, pp. 123-132.

(2) ASVe, *Senato, Dispacci ambasciatori, Costantinopoli*, 16 gennaio 1577.

البنادقة سراً، ودفنوه في ليدو وأخبروا القسطنطينية أنه مات بسبب مرض عضال طويل[1].

ومما يستحق الذكر هنا وبإيجاز وسيلة أخرى تم استخدامها لقرون طويلة في الحرب، وهي: الأسلحة الكيميائية أو الجرثومية. فأثناء حصار كافا في جنوة (الآن فيودوزيا 'Feodosia')، عام 1347، قذف خان التتار جاني بيك ببعض الجثث المصابة بالطاعون داخل أسوار المدينة، وذلك لإضعاف مقاومة المدينة بالمرض. وعلى قدر ما نعرف حتى الآن كان البنادقة على أي حال هم الذين يستخدمون مثل هذه الاستراتيجيات أكثر من المسلمين. فحول عامي (1630-1631)، طلب من طبيب في كانديا تحضير سائل مستخرج من جثث ضحايا الطاعون تلطخ به قبعات وقطع من القماش لتركها على أرض العدو. ولم يتم هذا المشروع أبداً، ولكن الجرعة المميتة تم تجهيزها على أي حال. وكان الأسهل بدلاً من ذلك تسميم الآبار والمياه. فخلال حرب قبرص على سبيل المثال تم إلقاء سموم في بحيرات زارا، وإن كان الأتراك قد احتاطوا جيداً من شرب هذه المياه، والحقيقة أن الخطة نفسها تم تقديمها إلى القائم على قيادة الجيش العثماني[2].

ومع القرنين السابع عشر والثامن عشر تقلصت أنشطة التجسس العثمانية في البندقية. صحيح أن بعض التجار كانوا لا يزالون يمارسون التجسس؛ لكن الفندق قصَر نشاطه على متابعة رعايا السلطان الذين يصلون إلي المدينة. وفي المدة نفسها كان لا يزال بوسع الفرس الإقامة

(1) Pedani, *In nome del Gran Signore*, cit., pp. 168-169.

(2) Preto, *La guerra segreta*, cit., pp. 79-85.

حيث يشاؤون، وكانت هذه هي الخدعة التي يمارسها بعض الجواسيس العثمانيين لكي يتمتعوا بحرية حركة أكبر متجولين في شوارع البندقية وأزقتها. والأمر الذي صدر عام 1662 بتجميع المسلمين كلهم في الفندق ربما صدر لهذا السبب. والحقيقة أنه لوحظ خلال حرب كانديا وجود شخصيات غريبة في البندقية، فظهر فيها في عام 1652، مترجم وانكشاري، ثم انتقلا منها إلى فرنسا. وفي أبريل من 1656 وصل إلى المدينة رجل فارسي اسمه يوسف قادماً من كانديا: وقد أعلن أنه يريد أن يواصل رحلته إلى تانا وبلاد فارس، وذلك لتجنب الأراضي العثمانية. وفي عام 1656 وصل فارسي آخر يدعى سيفي قاصداً توسكانا وجنوة ثم فرنسا، وقد طلب جواز سفر البندقية وحصل عليه مع خطاب توصية لسفير جمهورية البندقية في باريس. وبعد أن انتهى من رحلته أرسل إلى الحكومة البندقية رسالة، مكتوبة برطانة عثمانية، ليشكرها على الحفاوة التي لقيها في العاصمة الفرنسية من ممثل البندقية الذي رافقه شخصياً لزيارة الحدائق الملكية ولترتيب أعماله الخاصة[1].

وفي هذا الوقت كانت هناك اتصالات مكثفة بين البلاط الفرنسي والباب العالي. وفي عام 1658 وصل إلى ليفورنو أحد الرحالة، وكان يجيد اللغة الإيطالية، ويعرف شؤون السياسة الدولية خير معرفة، وكان قادماً من القسطنطينية، وقد اتصل ببعض الفرنسيين. وبعد مدة وجيزة كتب سكرتير البندقية في القسطنطينية جوفاني باتيستا بللارين، قائلاً إن رجلاً تركياً يتحدث الإيطالية تم إرساله للتجسس متنكراً في زي رجل

(1) M.P. Pedani, *A Seventeenth Century Muslim Traveller in Paris*, in «Quaderni di Studi Arabi», 13, 1995, pp. 227-236.

فارسي. وفي عام 1659 وصل شخص من راجوزا إلى ليون ومعه رسائل من الصدر الأعظم، وفي عام 1660 وصل سفير مغربي إلى مرسيليا وباريس. وأخيراً، وصل في عام 1669 إلى باريس سليمان آغا، وهو الذي قيل عنه إنه كان مصدر إلهام لموليير. وبعض هؤلاء كان بالفعل يعمل بالجوسسة لحساب العثمانيين، وتم إرساله إلى أوروبا لمعرفة المزيد عن السياسة الدولية.

كما كان هناك خلال حرب كانديا أتراك أسرى لسنوات في القلاع البندقية في بريشا وفيرونا، وقد سعوا لإقامة اتصالات سرية مع الأقارب والأصدقاء في الأراضي العثمانية. وكان البنادقة يراقبونهم عن كثب، ويصادرون الرسائل التي يمكن أن تقع في أيديهم. وأحد هؤلاء هو خليل بيك من فرانا وزيمونيك، الذي تم اعتقاله عام 1647 مع اثنين من رفاقه، وتم شنقه بأمر من محققي الدولة في 30 نوفمبر عام 1653. وخلال الحرب التالية أيضاً، وكانت حرب المورة، تم استخدام قلاع بريشا في سجن رعايا السلطان. فعلى سبيل المثال، تم احتجاز السنجق محمد «الطاجيكي» عام 1690 [1]. وتؤكد بعض الوثائق أنه تمت في تلك الفترة إعادة تكوين شبكة التجسس العثمانية على أرض سان ماركو. ففي عام 1684، على سبيل المثال، أمر مجلس العشرة باغتيال صالح سراً لاعتباره جاسوساً، وصالح هذا كان من المقيمين لمدة طويلة في المدينة. أما المدة التي تقع بين 1694 و1696، فقد شهدت إرسال سكرتير الجمهورية أنطونيو باولوتشي، الذي كان في القسطنطينية، أسماء عديدة لجواسيس

(1) ASVe, *Inquisitori di Stato*, bb. 229, 230; Pedani (a cura di), *I «documenti turchi» dell'Archivio di Stato di Venezia*, cit., nn. 1509, 1522, 1524.

عثمانيين يعملون في البندقية[1].

وفي القرن الثامن عشر لم يعد لجمهورية البندقية دور رئيس في أوروبا، ومن ثَمّ فقدت أهميتها في عيون العثمانيين أيضاً. وأصبح نادراً العثور على أخبار جواسيس أتراك في البندقية. كما كانت هناك عواصم أخرى هي التي تحوك خيوط السياسة الدولية بدلاً منها. وعلى أي حال فإن اهتمام البنادقة برعايا السلطان ظل على وتيرته. وعلى سبيل المثال، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، منح لعدد من الناس جاءوا أيضاً من أمريكا الشمالية ومن مملكة شيلي، حق عمل رحلة إلى ترسانة البندقية أرسنال، لكن حق الدخول إليها تم رفضه لتركي عثماني، اسمه محمد التيراني، والذي تقدم بطلب لزيارتها يوم 9 يوليو عام 1777 [2].

(1) P. Preto, *I servizi segreti di Venezia*, Milano, il Saggiatore, 1994, pp. 107-109.

(2) ASVe, Inquisitori di Stato, b. 919, fasc. «Licenze per visitare l'Arsenale».

الفصل الثامن

مسلمون في البندقية

1. *التجار والفنادق*

كانت الشهادات التي تحدَّثت عن وصول مسلمين إلى البندقية في العصور الوسطى قليلة جداً. حتى التجار المغاربة، ورغم أنهم كانوا يستخدمون قوافل سفن البندقية وجنوة التي تبحر بين الموانئ السورية وموانئ شمال إفريقيا، فإنهم لم يكونوا يتجهون شمالاً، نحو «بلاد الظلام»، التي كانت تأتي منها على أي حال منتجات ذات قيمة. ومن ناحية أخرى، فضّل البنادقة أن يكون لديهم احتكار مثل هذه الحركة التجارية المربحة. ومن ثم فإن رؤية منافسين قادمين من الدول الإسلامية في المدينة لم يكن أمراً مرحباً به، وكذا التجار الإيطاليين. وعلى سبيل المثال لم يتم قبول المقترح المقدم من مجلس الشيوخ بقبول أجانب في البندقية يحملون الصوف والجلود والزعفران والفضة لبيعها[1].

وتغيَّر الوضع عندما بدأت الإمبراطورية العثمانية تتوسع، وخصوصاً عندما غزت، مع بداية القرن السادس عشر، جميع السواحل الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط. وساهمت الميول البراجماتية العثمانية في توسيع

(1) ASVe, *Senato, Misti*, reg. 16, c. 51.

مدى فئات المسلمين المسافرين، وأظهر حكامها انفتاحاً عقلياً تجاه الآخر المختلف، على الأقل إلى حين انطواء المجتمع على نفسه في اتجاه قبول المبادئ الدينية الأكثر تشدداً، ما بين نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن التالي، ولكن هذا لا يعني أن الإمبراطورية رضيت بغزوات الفتح؛ من أجل أن تعيش في سلام مع جيرانها، ولكن لأن الإسلام يعترف لغير المسلمين بحق الوجود في المجتمع رغم بعض القيود، لكون المسيحيين واليهود والنساطرة من «أهل الكتاب»، يحميهم القانون، كما يحدث مع العبيد، الذين هم عناصر معترف بها في الأسرة الواحدة. على عكس ما كان يحدث في أوروبا المسيحية، حيث لم يتم قبول المختلف دينياً، أو السماح له باقتطاع حيز خاص به. إذ لم تمنح أوروبا هذا الحق إلا لليهود فقط، بما أنهم كانوا موجودين بالفعل في زمن المسيح، على الرغم من ملاحقتهم الدائمة بتهمة قتل المسيح. ولهذا كان هناك تعصب عنيف تجاه المسلمين خاصة، أخافهم من التوجه إلى البلاد المسيحية، التي كانت مقسمة فئوياً تقسيماً متحجراً محدداً بالولادة وليس بقدرات الفرد.

لكن البندقية رغم ذلك، وهكذا غيرها من الجمهوريات البحرية الإيطالية، قبلت دائماً وجود التاجر، المسافر بحكم الضرورة، والعارف باللغات وطرق التفكير المختلفة. وهكذا ظهر سوق ريالتو، منذ اتفاقات السلام الأولى بين البندقية والدولة العثمانية، كونه وجهة محتملة للمسلمين. وعلى سبيل المثال تنص الأهيتنامه (كتاب العهد) الموقعة عام 1419 على المعاملة بالمثل لرعايا الدولتين، وكانت الطريق الأقدم للتجار العثمانيين هي أنكونا، تليها فانو وبيزارو على ساحل البحر الأدرياتيكي.

فعبور مسافة قصيرة من الماء الذي يفصل بين إيطاليا والساحل الدلماسي أو الساحل الألباني كان في الواقع أسهل من الإبحار إلى البندقية، ومن هناك يواصل الطريق باتجاه الجنوب، للوصول إلى توسكانا مثلاً، والتي كانت موقعاً هاماً للعثمانيين وخاصة في القرن الخامس عشر، مما جعل بايزيد الثاني يرسل في عام 1483 سفيراً إلى فلورنسا لتعزيز العلاقات التجارية مع تلك المدينة. وقد اتبعت الطرق المؤدية إلى البحر الأدرياتيكي ومن ثم إلى جنوب إيطاليا ووسطها اتجاهات القسطنطينية -أدرنة أو بورصا- غاليبولي. والموانئ التي يبحر منها الرعايا العثمانيون للوصول إلى أنكونا هي موانئ راجوزا، وجانينا، وأرتا، وفالونا. كما كانت أسواق أنشانو وريكاناتي أيضاً أسواقاً معروفة للتجارة حيث أقامت بعض أشهر المعارض في إيطاليا كلها. وقد أدى وجود العديد من اليهود في ماركي وفي فيرارا ومانتوفا إلى تقوية العلاقات التجارية بين المناطق الإيطالية والعثمانية. وفي ظل سلطان القسطنطينية كانت تعيش جماعات عرقية ودينية مختلفة، وتزدهر، أكثر مما كان يحدث في أوروبا. وكان من بين التجار: العثماني واليوناني الأرثوذكسي واليهودي والأرمني والكاثوليكي، وإلى جوارهم العربي المسلم أيضاً، إضافة إلى الأتراك، ويشترك الجميع في كونهم رعايا السلطان.

وكان اليونانيون منذ العصور الوسطى يعيشون في البندقية في المنطقة التي لا تزال مقامة فيها حتى اليوم كنيسة الروم الأرثوذكس سان جورجيو دي جريتشي، بينما اقتطع الأرمن لأنفسهم حيزاً بالقرب من سان ماركو، حيث توجد الآن كنيسة سانتا كروتشي ديللي أرميني، وكان

بمقدور الناس بمختلف خلفياتهم العرقية والدينية التجمع في شوارع البندقية، وكان هناك أيضاً مسيحيون قادمون من ألبانيا يسكنون منطقة ليست بعيدة عن سان ماركو، عند كنيسة سانت دي فيليبي وجاكومو، حيث لا يزال شارع الألبان موجوداً، والاسم نفسه يوجد في كاناريجو، وإن كانت المدرسة التي بنيت لهذه الجالية قد بنيت في سان ماوريتسيو، من ناحية المدينة. وعند اجتياز الشارع الضيق المؤدي إلى الميدان من سان ماوريتسيو إلى سانتو ستيفانو، قبل جسر بيوفان، يكفي أن ترفع بصرك لترَى النقش البارز الوحيد في البندقية الذي يمثل سلطاناً عثمانياً: الفاتح، يتمنطق بالسيف ويعتمر العمامة المميزة التي لا تخطئها العين، أمام مدينة شقودره الألبانية، التي كانت لا تزال تحاول مقاومته.

ومن الأخبار الأولى عن وجود مسلمين من غير العبيد في البندقية ما يعود إلى النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وكان أحدها يتعلق بقبطان سفينة، وفي عام 1486 حُكِمَ على الريس يوسف بالإعدام بتهمة تعنيف صبي في مطعم كابيللو نيرو قرب ساحة سان ماركو (المبنى الذي يقع فيه بنك روما الآن). لكن الحكم لم ينفّذ بصرامة؛ بسبب تظلّم السلطان، وتمت إعادة الجاني إلى بلاده حراً. ومع بداية القرن التالي تعدَّدت الأخبار التي تدور حول التجار والبحارة المسلمين الموجودين في المدينة. وفي عام 1507 تم جلد ثلاث مضيفات محظيات في متجر الأقمشة، لإدانتهن بمصاحبة مسلمين ويهود، وهي ممارسة كانت قوانين البندقية تعاقب عليها. وفي الفترة نفسها وفّر تكوين الجيتو (1516) أيضاً سكناً مريحاً في المدينة لرعايا عثمانيين آخرين. وفي الجيتو القديم، منذ عام 1566،

وُجِدت أيضاً «مدرسة لاستضافة الغرباء» و«اليهود الشرقيين المسافرين» وخاصة اليهود من الرعايا العثمانيين.

ومن بين التجار الأجانب كان «الأتراك» آخر من ظهر في سوق ريالتو. وعلى عكس المجموعات الأخرى، التي كانت لديها ميول قوية للإقامة الدائمة في البندقية، وتكوين أُسر فيها، كان المسلمون يفضِّلون البقاء فيها موسمياً فقط، فيأتون في الربيع ويرحلون في الخريف، أو العكس. وفي البداية بدا أن هؤلاء التجار كانوا يفضِّلون السكن في منطقة القديسين جوفاني وباولو وكاناريجو، ولكنهم بعد منتصف القرن السادس عشر وُجدوا على نحو خاص في سانتا ماريا فورموزا، وسان جاكومو بريالتو، أي على مسافة قريبة من مراسي سفنهم وسوق ريالتو. لقد كانوا يجدون مكاناً للإقامة في المطاعم أو في بيوت خاصة، بما في ذلك بيوت الدعارة. واستقر قليل منهم بشكل دائم في البندقية واتجه عدد أقل لتكوين أسرة، حتى وإن عثرنا في بعض الوثائق القديمة على بعض الحالات، مثل حالة يوسف التركي الذي اعتنق المسيحية عام 1621، مع زوجته وأبنائه، أو حالة شخص عربي الاسم قدم شكوى إلى مكتب الضرائب المختص بالعشور، وكان مالكاً لبعض الحقول في منطقة تريفيزو. وفي العام التالي تم طرد الحاج عثمان، للاشتباه في قيامه بالتجسس، فقد عاش في البندقية لسنوات طويلة دون أن يمارس أية أنشطة تجارية. وأسماء الوفيات في المدينة، التي كان المسؤولون عن الصحة العامة يدونونها بدقة، كانت تضم أسماء مسلمين متقدمين جداً في العمر. فبين عامي 1643 و1764 تجاوزت أعمار ثلاثة عشر ممن توفوا في البندقية سبعين عاماً. منهم

خمسة بحارة كانوا موجودين في سفينة مجلس العشرة السريعة الراسية في حوض سان ماركو، وكانت حالة الخدمة لديهم تبرر وجودهم، لكن الآخرين كانوا من الشخصيات الحرة، ومنهم عثماني وفارسي، يسكنان في سانتا ماريا فورموزا، بينما يسكن الآخرون في فندق الأتراك في سان جاكومو، ودااللوريو. ومن المحتمل أن يكون بعض المسلمين قد اتخذوا من البندقية مكاناً للإقامة الدائمة. ومن الصعب التكهن بأنهم كانوا من التجار المتجولين، مثل يعقوب ميولا من رودس، وعمره تسعة وخمسون عاماً، أو خوجة داوود من باياباززاري، وكان في التسعين من العمر، أو حتى «مورلا نارابيف» وهو فارسي يبلغ من العمر ستة وثمانين عاماً[1].

وفي القرن السادس عشر كانت البندقية مدينة عنيفة، فقد أُحصيت ما بين عامي 1524 و1533 حالات قتل تراوحت ما بين خمس وأربعين وخمسين حالة. لا شيء غريبٌ إذن، في كون رعايا السلطان كانوا أيضاً يتعرضون في بعض الأحيان لأعمال عدائية. ففي 1574، على سبيل المثال، كان الغضب لا يزال حياً بعد الحرب التي انتهت لتوها، وتم الاعتداء على مبعوثين عثمانيين، هما حسن والحاج مصطفى، وذلك في فندق لا كورونا الذي يقع على بعد مسافة قصيرة من القصر الدوكالي. ولحسن الحظ لم يصب أحد بأذى، فلم يسلّم الدبلوماسيان أسلحتهما كما يقتضي القانون، ولهذا استطاعا الدفاع عن نفسيهما بالسيوف والخناجر. وبعيداً عن الحادث نفسه كان من المثير للاهتمام أن المعتدين، وهم من الجنود

(1) G. Lucchetta, *Note intorno a un elenco di turchi morti a Venezia*, in *Veneziani in Levante. Musulmani a Venezia*, suppl. al n. 15 di «Quaderni di Studi Arabi», 1997, pp. 133-146.

البنادقة، عنفوهما بلغتهما نفسها، كما يوضّح المحضر الذي تم تحريره عقب الحادث بواسطة المحققين[1].

وعندما كان يموت مسلم في البندقية، كان زملاؤه عادة ما يحترمون الشعائر الإسلامية وتقاليد الدفن في بلاده: فيتم غسل الجسم، وتعطيره بالبخور والكافور وماء الورد، ولفه في كفن، ثم يوضع على نعش، على الرغم من أن هذا لم يكن من الأعراف السائدة في إيطاليا. ثم يتبعون هذا بالتصدق على الفقراء والأدعية التي تُتلى ترحّماً على روح الفقيد. وأخيراً، إذا كانت شخصية غنية أو مشهورة، يتم عمل موكب حزين بالجندول يرافقه إلى مثواه الأخير، كما حدث مع حسين شلبي، الذي وصل إلى المدينة من أياس، وقُتِل يوم 20 مارس 1575 [2].

وكان لابد من مواجهة مشكلة الدفن التي تتم، عندما يموت مسلم في أرض مسيحية، وهو ما تكرر أيضاً عام 1926، عندما مات السلطان العثماني الأخير محمد السادس، في سان ريمو بإيطاليا. فالمدافن في البندقية، كما في أماكن أخرى، تقع إلى جوار الكنائس داخل النسيج الحضري، وهي ممنوعة على غير الكاثوليك. وتُقدِّم الجنادل الخمسة التي رافقت حسين شلبي إلى مكان الدفن أول إشارة إلى موقع المقابر الإسلامية في البندقية.

(1) M.P. Pedani, *In nome del Gran Signore. Inviati ottomani a Venezia dalla caduta di Costantinopoli alla guerra di Candia*, Venezia, Deputazione Editrice, 1994, p. 62; Ş. Turan, *Venedik'te Türk Ticaret Merkezi*, in «Belleten», 23, 126, aprile 1968, pp. 247-283; M.P. Pedani Fabris (a cura di), *I «documenti turchi» dell'Archivio di Stato di Venezia*, con l'edizione dei regesti di †A. Bombaci, Roma, Ministero per i beni culturali e ambientali, 1994, n. 873.

(2) C. Kafadar, *A Death in Venice (1575). Anatolian Muslim Merchants Trading in the Serenissima*, in Raiyyet Rüsûmu, in «Journal of Turkish Studies», 10, 1986, pp. 191-217.

وفي العديد من سجلات أرشيف مجلس العشرة كانت هناك توصيات ركيكة بدفن بعض الأتراك الذين أعدموا سراً في جزيرة ليدو. ومن هذا نستطيع أن نستقي بهامش ثقة أن المكان المخصص لدفن أموات المسلمين هو الليدو، حيث كان يتم بالفعل دفن اليهود والبروتستانت. فإذا كان قد تم الحفاظ على بعض هذه القبور والشواهد، رغم نقلها بضع مئات من الأمتار عن موقعها الأصلي، فإنه لم يبق أي أثر من المقابر الإسلامية، التي ربما تفرقت في المنطقة التي يقع فيها حالياً مطار نتشيللي. وليس هناك بالتالي، شواهد قبور مكتوبة بالتركية، ولا حتى العمائم الرخامية التي توضع للدلالة على الطبقة الاجتماعية للمتوفى. فقط العمائم الواسعة فوق التماثيل في معسكر المسلمين في مدينة البندقية، والمختلفة اختلافاً كبيراً محسوساً عن الأشخاص الذين يرتدونها، وهي التي يمكنها أن تحيل إلى مثل هذا الاستخدام الأصلي.

ووفقاً لعهود السلام، عندما يموت مسلم في أراضي البندقية، كانت الجمهورية هي المعنية بنقل تركته إلى ورثته، وفي بعض الأحيان كان يُعهد بهذه المسؤولية إلى تجار آخرين يمرون بالبندقية، وفي بعض الحالات كانت الدولة تحتجزها حتى يصل أصحاب الشأن أو من ينوب عنهم من الإمبراطورية. وهكذا، على سبيل المثال، كان قدوم درويش في عام 1611 لتسلّم إرث أخيه الحاج أحمد، الذي قُتِل في طريقه إلى البندقية، وكان أيضاً نائباً عن والدته أم كلثوم بنت مظفر وإخوته الآخرين. كانت الأشياء التي يعثر عليها بين ممتلكات القتلى معظمها من البضائع، ولكن يحدث في بعض الأحيان أن تجد في قوائم المتروكات في هذه المناسبات أواني المطبخ،

والأسلحة، والكتب. فعلى سبيل المثال، تم في عام 1580 تسليم الممتلكات التي كانت لدى المتوفى الحاج حسن، في البندقية إلى حسين عاصم التقاتي، وكان من بينها سيف، وقوس، وجعبة، ومفتاحان صغيران لقفل، وقطعة نقدية ذهبية، وبعض الحجارة الحمراء وسبعة كتب مكتوبة باللغتين التركية والفارسية كانت لدى المتوفى[1].

وقد زاد عدد التجار زيادة ملحوظة خلال القرن السادس عشر. حيث جاء بعضهم من البوسنة وألبانيا، فيما وصل آخرون من القسطنطينية ووسط الأناضول. كان البوسنيون والألبان هم الأكثر عدداً، نظراً لقصر المسافة التي تفصلهم عن أوطانهم. ومن البلقان كان يأتي في الأساس تجار الجلود والحيوانات، ومن الأناضول تجار الأقمشة ووبر الإبل وصوف الموهير. كما كان هناك أيضاً بعض الفرس، وخاصة في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، عندما انفتحت سياسة الشاه على التجارة الدولية. وليس من قبيل المصادفة أنه في عام 1611 كان قنصل البندقية في سوريا جوفاني فرانشيسكو ساجريدو، هو من تم تعيينه بواسطة عباس الأول قنصلاً للفرس في الأسواق العثمانية في حلب وجميع الأراضي الخاضعة للبندقية. بينما كان العرب الذين وصلوا إلى سوق ريالتو قليلي العدد جداً. على سبيل المثال، توفي عام 1729 في البندقية عثمان كرازي، البالغ من العمر أربعين عاماً وكان من وهران. أما في عام 1737، فتوفي حسن الطرابلسي الذي كان قد هرب من بين الأتراك في فندق البندقية بعد أن ظل عبداً لدى العائلة الإمبراطورية. وعلى العكس

(1) ASVe, *Collegio, Esposizioni principi*, reg. 4 bis, cc. 32-32v; Pedani Fabris (a cura di), *I «documenti turchi» dell'Archivio di Stato di Venezia*, cit., nn. 1168, 1170.

كان حدثاً خاصاً ذلك الذي وقع في عام 1534 لبعض التجار التونسيين الذين استقلوا سفن البندقية للسفر إلى مصر. فقد دفع وجود أسطول خيرالدين بربروس البحري ربان السفينة إلى تحويل مقدمة سفنه لتفادي أية مخاطر صوب البحر المفتوح، أي صوب صقلية، ومنها مباشرة إلى البندقية. وكانت هذه الرحلة الأخيرة لما يسمى بـ«القافلة البربرية» التي أوقف تنفيذها اعتباراً من السنة التالية بسبب خطورة البحار، ومن ثَمّ لم يستطع التونسيون الوصول إلى مصر، واضطروا إلى الذهاب إلى البندقية. وهكذا قضوا الشتاء في المدينة، حيث استضافتهم الدولة، واستطاعوا بيع البضائع التي كانت بحوزتهم بسعر جيد، وفي فصل الربيع التالي تمكّنوا من العودة إلى ديارهم بعد أن أنجزوا صفقات جيدة نظراً للفروق في أسعار البضائع القادمة من شمال إفريقيا بين سوق الإسكندرية وسوق ريالتو[1].

وقد تسببت الزيادة التدريجية في عدد المسلمين إلى نشوء بعض المشكلات. فقد كان البعض لا ينظر إلى وجود غير الكاثوليك في المدينة إلا على أنه مصدر إزعاج، وخاصة في عصر مواجهة حركة الإصلاح، عندما أصبح الشعب يطيع توجيهات الكنيسة بشكل متزايد. ولم يشعر الحكام البنادقة قط بأنهم ملزمون بالطاعة العمياء لأوامر الباباوات، حتى وصلوا مع بداية القرن السابع عشر إلى حالة صراع مشتعل أدت

(1) A. Fabris, *Un caso di pirateria veneziana: la cattura della galea del bey di Gerba (21 ottobre 1584)*, in «Quaderni di Studi Arabi», 8, 1990, pp. 91-112; G. Rota, *Diplomatic Relations between Safavid Persia and the Republic of Venice. An Overview*, in H.C. Güzel, C.C. Oğuz e O. Karatay (a cura di), *The Turks*, 6 voll., Ankara, Yeni Türkiye, 2002, vol. II, pp. 580-587.

من جانب البابوية إلى التحريم، ومن جانب البندقية إلى فكرة التحول الجماعي إلى الطائفة الإنجيلية، وإن ظلت فكرة لم تتحقق. وعلى أية حال كانت النزعة البراجماتية البندقية تنزع دائماً إلى الحذر، وموجهة دائماً إلى عدم زعزعة النفوس متى أمكن ذلك. وإضافة إلى ذلك، أسفرت التدابير ضد البحريين، وسياسة الاضطهاد ضد أي شخص مختلف، والتي اتخذها البابا بولس الرابع حول عامي (1555-1556)، عن مشاعر سخط موجهة إلى ميناء أنكونا من جانب القادمين من الإمبراطورية العثمانية، والذين استقبلهم سوق ريالتو بالترحاب. ودعمت النقاشات داخل الطبقة الحاكمة في الجمهورية حركة التجارة مع المسلمين الذين أصبحوا يتوافدون بأعداد غفيرة. بينما دفعت حرب قبرص، على قِصر مدتها، من كان موجوداً في المدينة إلى الشعور بالتهديد من جانب الشعب البندقي، سواء عندما يغضب من الهزيمة أو يفرح في الانتصارات.

وفي بداية الصراع دفعت بعض الأعمال العدائية ضد البنادقة، في منطقة نيريتفا في ألبانيا وكذا في القسطنطينية، الحكومة البندقية إلى احتجاز التجار القادمين من الإمبراطورية مع بضائعهم. وحتى السفير محمود بيك، المبعوث لدى ملك فرنسا الذي مرّ عبر المدينة، تم وضعه تحت الإقامة الجبرية. وتبع ذلك حبْس المبعوث والتجار البنادقة في العاصمة العثمانية. وفي ربيع عام 1571 لم يتم قبول اقتراح من الصدر الأعظم لتبادل الأشخاص المحتجَزين من الطرفين بالتساوي، وفي ذلك الوقت كان في البندقية سبعون مسلماً وسبعة وتسعون يهودياً، قادمين من الأراضي العثمانية. وفي مايو من ذلك العام عاد الجميع لارتياد سوق ريالتو. ولكن

في أكتوبر اضطرتهم أخبار كارثة أسطولهم في ليبانتو إلى المكوث في منزل باربارو، وهو مقر المبعوث مارك أنطونيو، حيث وضعتهم سلطات الدولة هناك. وسجلت معاهدة السلام الموقعة عام 1573 استئناف التجارة، وأيضاً بداية البحث عن المزيد من الأمن. وطالب التجار أنفسهم بإنشاء دار لأمّتهم، تقليداً للجيتو اليهودي، الذي كان يُنظر إليه بصورةٍ إيجابية وليست سلبية. وكذلك الأمر في فندق الألمان، الذي يقع على بعد خطوات قليلة من ريالتو، حيث كان يظهر كحل للسكن يمكن تقليده، على الرغم من أنهم كانوا هناك يعانون قيوداً على حريتهم.

وفي عام 1575 تلقت حكومة البندقية الطلب، وقررت أن تعيد هيكلة نزل أنجيلو، الواقع على مسافة قصيرة من ريالتو، وهكذا بدأ إنشاء أول فندق للأتراك في البندقية. ويقع المبنى على أطراف المنطقة الحضرية، على مقربة من حي البغايا، ولكنه كان يقع أيضاً بالقرب من السوق. وكانت الحكمة من اختيار هذه المنطقة هو عدم التأثير في مكانة المناطق الحضرية الأخرى. وفي الواقع، كانت تُدرس مقترحات مختلفة لأماكن سكن أخرى، لكن نزل أنجيلو بدا الحل الأفضل ومن ثَمّ تم ترميمه لتلبية احتياجات أولئك الذين كانوا معتادين على الاستحمام والاغتسال أكثر بكثير مما كان يفعله معاصروهم الأوروبيون. ولهذا تم تزويد النزل بخزّانات مياه وحمام، وغرف نوم، ومستودعات ومراحيض، ولم يكن المبنى كبيراً جداً، ولم يكن يوجد فيه سوى أماكن أتراك البوسنة وألبانيا. أما المسلمون الآخرون فواصلوا السكن في مبانٍ مختلفة داخل النسيج الحضري، وخاصة بالقرب من سان ماركو بين سانتا ماريا فورموزا

وسان مارتينو، أو في نواحي ريالتو، وخاصة خلف القناة الكبرى في أبرشية سان جوفاني كريستوسومو. وعهدت إدارة الفندق إلى اليوناني جوفاني ديمتري ليتينو، الذي أيّد التماس التجار عام 1574 [1].

وقد دفعت زيادة أخرى في عدد التجار المسلمين السلطات للتوصل إلى حل جديد أفضل. فلم يعد يكفي مبنى صغير بل كانت هناك حاجة إلى عمارة كاملة؛ لاستيعاب كل أولئك الذين وصلوا من أراضي السلطان. وفي عام 1618 اقترحت شركة مقاولات بناء عمارة كبيرة جديدة. فكانت عمارة قصر بالميري دا بيزارو في سان جوفاني دالوريو. بدا الحل مناسباً، فقد كان مجمّعاً سكنياً يقع على جزيرة منفردة صغيرة، لكنه داخل النسيج الحضري، يمكن غلقه ليلاً بسهولة، كما أنه كان من أملاك الدوجي أنطونيو بريولي (1618–1623)، والذي بدا مرحباً بتأجيره للدولة. ويمكن اعتباره اليوم مثالاً معبراً عما يمكن أن يُسمى «بيت وفندق في البندقية»، أو كما كان يقال ذات يوم «بيت ومرفأ ومستودع»، وهي تسمية البيوت التي كان يقيم فيها التجار من طبقة النبلاء في المدينة، وكان من السهل الوصول إليه عن طريق البحر، مستقلاً عن السياق السكني المجاور، ويتمتع بالكفاية الذاتية تقريباً، كما أنه بعيد نسبياً عن كل من سان ماركو وريالتو، أي عن الأماكن العامة في المدينة بما فيها من لغط، وهو في مكان مناظر للجيتو اليهودي، وفندق الألمان، اللذين كانا يوجدان خلف القناة

---

(1) E. Concina, *Fondaci. Architettura, arte e mercatura tra Levante, Venezia e Alemagna*, Venezia, Marsilio, 1997, pp. 219-246; U. Tucci, *Tra Venezia e mondo turco: i mercanti*, in Venezia e i Turchi, Milano, Electa, 1985, pp. 38-55; E. Burke, *Francesco di Demetrio Litino. The Inquisition and the Fondaco dei Turchi*, in «Thesaurismata», 36, 2006, pp. 79-96.

الكبرى. ومن مفارقات هذا المبنى استضافته في 1437، باسيليوس جون باليولوجوس الثاني، وجاء إلى إيطاليا للذهاب إلى مجلس فلورنسا وطلب المساعدة ضد العثمانيين، وفي عام 1482، استضاف الملكة كاترينا كورنيرو التي عادت إلى وطنها بعد أن تنازلت عن قبرص للجمهورية.

وفي عام 1621 تم افتتاح الفندق الجديد بعد تنفيذ تجديدات واسعة النطاق. ومن الناحية النظرية يمكن للفندق أن يستوعب ما يصل إلى مائتي شخص حتى وإن كان عدد الساكنين، في الواقع، يدور حول سبعين شخصاً. كما كان هناك أيضاً مستودعات وغرف ودورات مياه وحمامات، إضافة إلى مسجد صغير، وهو عبارة عن قاعة صلاة، تمت كتابة آيات قرآنية على حيطانها باللون الأحمر، وكانت لا تزال واضحة المعالم حتى منتصف القرن التاسع عشر. وقد تم تقسيم التجار وفقاً لمنطقة الوفود، وكان البوسنيون والألبان في الغرف المطلة على الشارع المعبّد بالحجارة، بينما كانت نوافذ أهل الأناضول والقسطنطينية تطل على القناة. أما الإيجار فيتم دفعه مقابل الغرفة والخدم والمكان المستغل في المستودعات. وقد منعت نساء البندقية وصبيتها من الدخول إلى المبنى. وكان المبنى يغلق بإحكام أثناء الليل، لذا وجب على سكانه العودة قبل موعد الإغلاق.

وكان في نية السلطات تحويل الفندق إلى مكان لإقامة جميع المسلمين في البندقية، لكن هذا لم يكن ممكنا. فلم يكن سهلاً وضع رعايا الشاه إلى جوار رعايا السلطان، وكان الإيرانيون يرفضون العيش مع أعدائهم التقليديين، ويفعلون كل ما بوسعهم؛ لكي يستمروا في العيش في المناطق

التي كانوا يترددون عليها مثل سانتا ماريا فورموزا وسان جاكومو داللوريو. ووفقاً للمروي في التراث، وإن لم تدعمه الوثائق، كان فندق الفرس موجوداً في سان جوفاني جريزوستومو، إلى جوار ريالتو. ومن المحتمل أن الفندق شغل بعض الأماكن في المجمع الضخم الذي يعود إلى عائلة روتزيني التي كانت مُؤجِّرةً لتجار مختلفي الأصول، وإذا ما كان هناك بالفعل مبنى موجود ومخصص لرعايا الشاه؛ فربما كان مؤسسة خاصة لا تتحكم فيها الحكومة، كما كان الحال بالنسبة إلى الأتراك. وتشهد عدة وثائق تعود إلى القرن السابع عشر، في الواقع، على أن العديد من التجار الفرس كانوا يسكنون في تلك المنطقة. وعند نهاية حرب كانديا، عام 1662 أمر البنادقة بأن يجتمع كل المسلمين الموجودين في المدينة في فندق الأتراك. وفي العام نفسه قرر الإيرانيون الباقون في البندقية ترك ريالتو نهائياً بدلاً من أن يستسلموا لهذا القرار، وهكذا انتهى وجود رعايا الشاه بعد أن استمر نحو قرنين من الزمان.

كانت هناك حكايات منتشرة أيضاً في البندقية تتعلق بوجود فندق للمغاربة، أو العرب، ويقع في كاناريجو. لكن هذه الأخبار مشكوك فيها كثيراً. وربما تم استقاؤها من النقوش التي تصور جملاً أو جمالاً تزين قصراً قريباً من معسكر المغاربة، على الجانب الآخر من القناة. حيث يضم المبنى مستودعاً للتوابل، وكان يسمى في البندقية «فندقاً»، وهو مُنتمٍ إلى عائلة ماستيلِّي التي انقرضت عام 1620. ووفقاً للروايات المتناقلة فإن ثلاثة من أفراد هذه العائلة هم المصوَّرون بأزياء شرقية وعمائم في المعسكر القريب، بينما هناك أخ رابع لهم مصوَّر في تمثال موضوع في ركن ويرتدي

ملابس غربية، ويسمي أهل البلد هذا التمثال «سير أنطونيو ريوبا». وبعد أن عاش هؤلاء طويلاً في المورة انتقلوا إلى البندقية، ومن ثَمّ عُرفوا باسم «المغاربة - المسلمين». وبعيداً عن الأساطير يمكننا أن نلحظ كيف أن ملابس اثنين من التماثيل ليست ملابس تجار، ولكن ملابس رجال قانون، كما يظهر من العمائم الفضفاضة والوشاح المتدلي على الكتف. كما كان أحدهم يحمل صندوقاً مثل الذي يستخدمه الدراويش في التسول. والشخصية الثالثة كانت ترتدي زياً بندقياً وليس تركياً، وعمامة وهمية. أما عن حقيقة هذه الشخصيات الموجودة في معسكر المغاربة بالبندقية، فهو أمر لم يتم الكشف عنه بعد.

وبعد عام 1621 سُمح للمسلمين بالبقاء خارج الفندق ليلاً، ولكن بعد الحصول على تصريح خاص. كان هذا يحدث، على سبيل المثال، خلال طقوس ذبح الحيوانات الخاصة بالجالية كلها. فقد كان على المسؤول عن ذلك أن يتوجه إلى أحد المسلخين في المدينة، والموجَوْدين في سان جوبي وليدو، وكان يستحيل عليه العودة قبل حلول الليل. وفي مرات أخرى، كان مطلوباً استصدار تصاريح خاصة للسفر إلى البر. وكان هناك في البداية تقيّدٌ بالقوانين بصرامة معقولة، ولكن سرعان ما بدأ تجاهلها. وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر ساهمت حربان طويلتان في تقليص الوجود العثماني، ولكن دون أن تنجحا في إنهائه كلياً. وحتى أثناء الحرب حضر التجار إلى الفندق. وقد كان هذا ما حدث في حرب قبرص، فالحركة التجارية لم تنقطع تماماً، وواصلت المدينة استقبالها للناس القادمين من الإمبراطورية العثمانية.

أما المعلومات التي لدينا عن حياة التجار الأتراك اليومية في البندقية فهي شحيحة. وهناك أخبار تظهر هنا أو هناك فجأة، مثلما حدث في الدوقية أثناء الاحتفال بتنصيب الدوجي الجديد، عندما ألقيت على الجماهير عملات معدنية فأصابت إحداها عين أحد الأتراك الحاضرين. ونعرف أن كثيرين في بداية القرن الثامن عشر سكنوا بمنازل خاصة إلى جوار جسر شارع ليون بسان جوفاني نوفو، أو في مطاعم، مثل الخمسة عشر الذين منعوا عام 1621 من استقبال رعايا السلطان[1]. وفي القرن الثامن عشر أيضاً أدى التراخي في العادات بالتجار المسلمين إلى الإحساس بالحرية في التجوال بالمدينة حتى في ساعات الليل دون طلب تصريح أو تمديده. وهناك أخبار عن أتراك هجروا ارتداء القفطان التقليدي وارتدوا سترات فرسان ذلك العصر، واختلطوا بالجمهور، وتحدَّثوا بلغة إيطالية جيدة لكنها لم تخفِ أصولهم.

وتشهد الوثائق على أن بعض هؤلاء اعتاد على البقاء في المسالخ حتى مرور ساعتين بعد المغرب، والانتقال إلى البر، بل وأنهم قاموا بارتياد المسارح. وأكدت السلطات في البندقية أكثر من مرة ضرورة حمل تصاريح تسمح بهذا السلوك، ولكن تتبّع سيْر هذه الأوامر يكشف عن أنه قليلاً ما كان يتم احترامها. وعلى سبيل المثال في أكتوبر عام 1759، وفي عز الليل، استأجر تركي يجيد التحدث بلهجة أهل البندقية جندولاً أبحر به في البحيرة عدة مرات، وكان الغرض المسجل رسمياً هو الصيد، بينما من المحتمل أن يكون قد ارتكب بعض الفضائح في ثغر الليدو

(1) ASVe, *Cinque Savi alla Mercanzia*, II s., bb. 186-187, 966.

وفي جوديكا وسانت اندريا وسانتا مارتا، وأخيراً أيضاً في مدخل القناة الكبرى من جهة البر. وعلى العكس، ففي عام 1780 انتقم النبيل تومازو ساندي الغاضب من إعراض الراقصة ستيللا تشيلليني عنه، بزعم أنها ارتكبت الفاحشة مع أحد الأتراك، وقد أصبح الحكم بالإبعاد جاهزاً بالفعل عندما نجحت الراقصة في إثبات براءتها. والمهم أن القصة تنقل إلينا وجود مسلمين في البندقية واختلاطهم بجمهرة الناس وأن هذا لم يكن أمراً مستحيلاً أو استثناء[1].

وبين عامي 1760 و1770، بدأ المبنى الذي يستضيف الأتراك في البندقية يحتاج إلى أعمال ترميم جذرية. وتم تكليف المعماري الشهير برناردينو ماكاروتزي بالاهتمام بهذ الأمر، ولكن قصة مدينة سان ماركو ذات الألف عام كانت قد بدأت تقلب صفحة النهاية، وعلى الرغم من بعض الإصلاحات فإن الفندق أصبح متداعياً على نحو متزايد، وأخيراً توقف المشروع كله عام 1797، وتحديداً مع وصول قوات نابوليون، وقد جمد انتقالها إلى الحماية النمساوية لمدة معينة الوضع، وفي عام 1799 تم تأكيد أن أولئك الذين يعيشون في الفندق كان عليهم أن يدفعوا الإيجار، وكانوا في ذلك الوقت تسعة تجار فقط، لكن بعضهم غادر بالفعل دون دفع ما عليه من مستحقات. لهذا قررت الحكومة الجديدة أن أي مسلم لن يستطيع العودة إلى دياره دون تقديم إيصال بالدفع. في الوقت نفسه طالب العثمانيون أن يُمنح لهم حق التقاضي في النزاعات حسب قانون بلادهم.

(1) ASVe, *Inquisitori di Stato*, b. 627, fasc. «Romano Giov. Battista»; P. Molmenti, *La storia di Venezia nella vita privata*, 3 voll., Bergamo, Istituto Italiano d'Arti Grafiche, 1927, vol. III, p. 400.

وفي حكم نابوليون التالي من عام 1806 حتى عام 1814، تحرر نبلاء البندقية من وكالة الأوقاف التي كان الفندق يتبعها. ولذلك ففي عام 1830 أصبحت عائلة مانين، التي كانت قد ورثت أملاك بيزارو القديمة ومن ثَمّ مبنى الفندق، حرة في بيع العقار لأعلى مزايد، وقد اشتراه أنطونيو بوزيتو بتيتش الذي كان ينوي استغلال جزء منه مستودعاً للتبغ وجزء آخر لتفكيكه من أجل بيع الرخام والطوب، كما جرت العادة في ذلك الحين. وإن كثيراً من مباني البندقية القديمة تعرضت لمثل هذا المصير، مثل كنيسة دي سيرفي، أو القصر الجميل المتهدم الذي يعود إلى القرن الثالث عشر، والذي كان موجوداً في المكان الذي أصبح اليوم فندق باوير (Bauer) الحديث[1].

وبعد سنوات عديدة من الإهمال والهجر أصبح الفندق في حالة يرثى لها حتى نمت بين سلالم الطابق الأول شجرة كرز. ولكن كان لا يزال مواطن تركي يعيش فيه وهو: سعد الله إدريسي، وهو رجل في حوالي الخمسين عاماً، قصير القامة، قوي البنية، اشتهرت عنه عيناه السوداوان المتألقتان. وقد رفض حتى آخر لحظة ترك المبنى، مدافعاً عن حق الأمة التركية في العيش في هذا المكان. وقد رُفع الأمر إلى السلطان، وتوجه إلى السفارة التركية في فيينا، وقدم الالتماسات للحكومة ورفع قضايا في المحاكم. وكان يقول: «لقد كان الفندق ينتمي من قبل إلى دي بيزارو، ثم بعض الوقت إلى دوق فيرارا، وقليلاً إلى بريولي، ثم قليلاً إلى بيزارو، ثم قليلاً إلى مانين. ولكن القديس مرقس هو الذي أعطى البيت للأتراك،

(1) ASVe, *Governo, Atti importanti*, 1799, IX, 317; Governo, *la dominazione austriaca*, b. 11, n. 948.

وكان هو الذي يجب أن أقيم في الفندق». وبعد أن صوب مسدسين على مفوض الشرطة المسؤول عن طرده من المبنى، اختفى فجأة ذات يوم. وقال لبعض معارفه إنه راحل؛ لأنه لم يكن يستطيع تحمل هذا الظلم الفادح. ولم تعد تظهر في البندقية أية أخبار عنه، ولكن مقاومته العنيدة لم تمر بلا جدوى؛ فخلال السنوات التي قضاها يحارب كل شيء وكل الناس، أصبح هناك تحول في عقلية المواطنين: فقد بدأ السكان يحتجون على تدمير البيوت القديمة والعريقة وتحويلها إلى مواد بناء منخفضة التكلفة. وهكذا تعذّر تفكيك الفندق واضطر بيتيش أن يبيعه إلى البلدية التي رممته وحولته إلى متحف وطني وظل هكذا حتى اليوم[1].

2. السماسرة

أكّدت وثيقة تعود إلى عام 1719 أن المراكب العثمانية التي تصل إلى البندقية كان لها مرسى مخصص لها، وهكذا المراكب الدلماسية أو غيرها، والتي اعتادت على أن ترسو بالقرب من سان ماركو. لكن الأتراك، مع ذلك، كانوا يستطيعون إلقاء مراسيهم بعيداً عن الشاطئ بين الترسانة وسان زكريا، بحيث يضطرون إلى أخذ قوارب تنقلهم إلى رصيف الميناء. وعلى وجه الخصوص، كانت المنطقة التي تستخدم منذ القرن السادس عشر والسابع عشر، هي تلك التي تقع أمام سانتو سبولكرو، وهو ما يفسر تفضيل التجار الأتراك السكن في المنطقة المجاورة في سانتا

(1) A. Sagredo e F. Berchet, *Il fondaco dei turchi*, Milano, Giuseppe Civelli, 1860, pp. 28-32.

ماريا فورموزا أو سان مارتينو. لذلك، وفي عام 1583 على سبيل المثال، استطاعت الفتاة كاترينا طرابونا من مالطا أن تؤكد أنها قد أُختطفت في البندقية هي وأمها وابنة خالها البالغة من العمر أحد عشر عاماً، وذلك من قِبل بحارة سفينة عثمانية صعدن إليها لشراء مجوهرات، وكانت راسية فيما وصفته بأنه «حي التجار التركي». وفي الواقع لم يوجد حي حقيقي للأتراك في مدينة البندقية، ولكن يمكن أن يكون ذلك يشير إلى مناطق يرتادها التجار والبحارة كثيراً. وبعد عام 1621 كان لابد من تفريغ البضائع على الفور ونقلها إلى فندق الأتراك، على غرار البضائع التي كانت تأتي من ألمانيا فيتم تخزينها فوراً في فندق الألمان، واستهدف هذا الإجراء منع عمليات التهريب، وكذلك كان يجب تسليم الأسلحة إلى قباطنة السفن أو حراس الفندق.

أما مفاوضات البيع والشراء فكانت تتم في سوق ريالتو، ولا يتم خروج البضاعة من المستودعات إلا بعد الاتفاق النهائي. وكانت حالة الألمان مختلفة، فقد تقرر لهم أن تتم مبادلاتهم التجارية داخل الفندق. كان الأمر يتعلق كما هي العادة بالشراء والبيع، حتى وإن كانت تستخدم أحياناً مؤسسة المقايضة، التي كانت تحظرها القوانين البندقية في حالات أخرى، وهكذا فإن عمليات المبادلة كانت في جميع الأحوال يتم تسجيلها في سجلات الوسطاء، وهو الأمر الذي يحدث أيضاً من خلال المدفوعات التي تتم بالعملة الحرة، وكانت هناك شركات تجارية مكونة من المسيحيين والمسلمين، على الرغم من أن القانون كان يمنع هذا على الجانبين كليهما. ففي البندقية حظرت هذه الشركات عام 1492، وعام 1601 أيضاً، مما يؤكد

أن الممارسة كانت لا تزال موجودة في الواقع. وفي عام 1636، على سبيل المثال، اشترى كل من بيترو بيفيلاكوا وحسن شلبي معاً السفينة «تريه لوني»، بينما تم في عام 1600 في القسطنطينية تكوين شركة ساهم فيها الإخوة أغاتسي وآغا الانكشارية علي، زوج بياتريتشي ميكيل، والتي هي فاطمة خاتون، وعديل غضنفر.

ولم يقتصر حضور المفاوضات على الوسطاء، بل حضرها أيضاً مترجم الدولة، لتجنب أن يقع الرعايا العثمانيون ضحية خدعة يمكن أن تنشأ عنها بعد ذلك منازعات. وتأسس هذا بموجب قانون 15 سبتمبر 1534 الذي أعطى للترجمان أيضاً الحق في ثلث المبلغ الذي يتقاضاه الوسيط. وأول من حصل على تكليف بهذه المهمة كان جيرولامو تشيفران، وهو من رعايا البندقية لكنه وُلد في مودوني. وقد قضى أربعة عشر عاماً سجيناً لدى الأتراك، وكان يعرف اللغة اليونانية والتركية، وحتى عام 1515 كان يعمل مترجماً لدى المبعوثين العثمانيين الذين يستقبلهم قصر الحكم. وإضافة إلى ترجمته الرسائل التي تصل من الباب العالي فقد عمل وسيطاً عند حضور سفراء السلطان، أو الرسل أصحاب المهام المحددة، وكان تشيفران هو المسؤول الأول عن المبادلات التجارية التي تتم في البندقية.

وعندما مات جيرولامو عام 1550 حلّ محله ميكيل ممبريه، الذي كان يعرف التركية والفارسية وقليلاً من العربية، وشغل المنصب ما يقرب من نصف قرن. وكان من رعايا البندقية ولكنه ولد في قبرص عام 1509. ووفقاً لما يؤكده هو بنفسه فإنه كان من أصل شركسي، على الرغم من اسمه الأخير، مثله في ذلك مثل ممبريك، على سبيل المثال، وهو اسم اثنين

من وكلاء كيرا إستير في البندقية في نهاية القرن، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن أصوله يهودية، ويؤكد ذلك أيضاً اسم الأب، دافيد، وأسماء أقارب آخرين له ينتمون إلى عائلة إيمانويل وميلانو وفياندرا. وقد رحل ممبريه إلى بلاد فارس بين عامي 1539 و1542 لحساب الجمهورية محاولاً تكوين جبهة معادية للعثمانيين. وبعد رحلة عودة جريئة على إحدى السفن البرتغالية التي كانت تتجول في موانئ الشاطئ الإفريقي، استقر في مدينة البندقية، وأصبح المترجم الرسمي للجمهورية. وقد عاش أولاً في كنيسة سان بيترو، ثم في كنيسة سان سيفيرو، على بعد خطوتين من سان ماركو، وتزوج امرأة اسمها جوليا، لكنه لم ينجب. وبصفته ترجماناً كان هو الذي اكتشف أن حسن الذي حامت حوله الشبهات كونه مبعوثاً للأمير سليم في عام 1559، لم يكن في الواقع إلا محتالاً.

وقد مارس حفيد فيليب إيمانويل أيضاً مهنة المترجم، لكن العلاقة مع عمه كانت صعبة إلى درجة أنه حاول قتله. ولهذا السبب كتب ممبريه أربعاً وثلاثين وصية مختلفة خلال حياته، من بينها سبع في سنة 1594 وحدها. ومات في العام التالي، واستُعيض عنه في منصب المترجم الرسمي للبندقية بمساعديه، أندريا نيجروني وجياكومو دي نوريس. وكان هذا الأخير من نبلاء قبرص-البندقية، وقد وُلد عام 1570 في نيقوسيا قبل الفتح العثماني للجزيرة. وتم أسره مع مرضعته، ورباه الأتراك. وتعقّبه أقاربه الذين كانوا يقيمون في البندقية، واستعادوه عندما أصبح عمره يقرب من ثمانية عشر عاماً، وفي لحظة وصوله إلى البندقية كان لا يتحدث إلا التركية، وتوجّب عليه تعلم الإيطالية.

وقد تأكد حضور المترجمين في العمليات التجارية البندقية عدة مرات خلال القرن السادس عشر. ففي عام 1588، على سبيل المثال، صدر مرسوم قانون ينصّ على أن جميع السماسرة ينبغي أن يسجلوا في سجلاتهم الرسمية المعاملات التجارية التي شاركوا فيها، ولكن إذا كان أحد الطرفين عثمانياً، طلب منه أيضاً توقيع ترجمان، للمصادقة على عدم ارتكاب جرائم احتيال في العملية. ولأن ممبريه كان في ذلك الحين في حوالي الثمانين من عمره، فقد صدرت له الأوامر بأن يستعين بمساعد كان عليه أن يدفع له راتبه بنفسه. وقدّمت التماسات مختلفة في محاولة لإلغاء وجوب الحصول على هذه الشهادة، وما يتصل بها من دفع رسوم من التجار، الذين أكدوا معرفتهم باللغة الإيطالية، وأنهم لا يحتاجون إلى مترجم، وكذلك من جانب المجموعات الوطنية، مثل الأرمن الذين اقترحوا تعيين ترجمان منهم للقيام بهذه المهمة في عام 1582. وحتى السماسرة كرهوا هذا التدخل المتعسف ورأوه غير شرعي. ففي عام 1587 قدم جوليو توركواتو عريضة في هذا الشأن، معتبراً أن ممبريه من فرط جشعه، أَثرى بشكل غير قانوني من عمل الآخرين، وأنه بدلاً من التحقق من أن العثمانيين لم يخدعوا، كان كثيراً ما يتظاهر بعدم ملاحظته سلوك بعض السماسرة الذين انعدم الوازع لديهم وصاروا يراوغون التجار. وقد وقعت محاولة أخرى لإلغاء الرسوم على المعاملات التجارية قبل وقت قصير من وفاة ممبريه، وتحديداً عام 1594، وقام بها نحو ثلاثين من السماسرة البنادقة ممن لهم صلة بصفقات

التجار من رعايا السلطان[1].

وكانت الزيادة في عدد التجار العثمانيين الموجودين في البندقية، ومن ثم الصفقات التجارية التي شاركوا فيها، قد أدت إلى ارتفاع عدد الوسطاء الذين لجأ إليهم هؤلاء التجار. وشهد مطلع القرن الخامس عشر وجود وسطاء في سوق ريالتو، من البنادقة والأجانب على حد سواء، بعضهم من البارعين أبناء العائلات، وآخرون حقراء لا يخافون الله ولا وطن لهم، كما يصفهم قانون صدر بتاريخ 22 يناير 1435. والحقيقة أنه تقرر، في ذلك التاريخ، ألا يمارس هذه المهنة سوى البنادقة فحسب، ويجب أن يكونوا من أهل البلد الأصليين، أو متزوجين من نساء البندقية، أو أن يثبتوا أنهم أقاموا في المدينة ما لا يقل عن عشر سنوات مع عائلاتهم. ولم يكن يستطيع العمل بالسمسرة من الأجانب سوى العاملين في تجارة الحبوب والأحجار الكريمة وتغيير العملات. وفي 26 يونيو 1497 منح مجلس العشرة الإذن بإنشاء رابطة للسماسرة، مؤكداً أن البنادقة والخاضعين للبندقية هم فقط الذين يمكن أن يعملوا بالسمسرة.

وبعد سنوات قليلة، لوحظ وجود عدد لا حصر له من الناس، وخاصة الغرباء، يمارسون المهنة فوضع المجلس بتاريخ 19 سبتمبر 1503 سقفاً للعدد الأقصى لمن يمكنهم الوساطة في العمليات التجارية، التي تجري بسوق ريالتو، وقدره مائة فرد، مع استثناء العمليات التي تجري

---

(1) ASVe, *Notarile, Testamenti, cedulae*, regg. 30-31; Notarile, *Testamenti, nuncupativi*, reg. 25; Notarile, *Testamenti*, reg. 1250/III, cc. 57-59v; E.N. Rothman, *Between Venice and Istanbul. Trans-Imperial Subjects and Cultural Mediation in the Early Modern Mediterranean*, tesi di dottorato, University of Michigan, 2006, pp. 348-356.

في فندق الألمان التي تم اعتبارها «غير عادية». لكن الاحتجاجات من جانب الذين تعرَّضوا لخطر فقدان وظائفهم أجبرت المجلس الأعلى على تعديل هذا القرار، ووافق على أنه من كان حتى ذلك الوقت يمارس المهنة فليواصل عمله، وحدد عدد الوسطاء في المستقبل بخمسين فرداً فقط. وفي عام 1520 قرر مجلس حكماء السوق، المسؤول عن الأعمال التجارية، أن اليهود لا يمكن أن يدخلوا ضمن هذه الفئة، ومن الواضح أن هذا كان يحدث، وفي السنوات التالية زاد عدد الوسطاء مرة أخرى حتى وصل إلى أقصى حد له عند مئتين وعشرين عام 1727 [1].

هكذا أُجريت المعاملات التي تتعلق بالأتراك في اختصاص الوسطاء من أصحاب المهارات «العادية» الذين يمكنهم أن يعملوا مع أشخاص من خلفيات مختلفة، على الرغم مما كان يحدث في بعض الأحيان كأن تظهر الحاجة إلى مهارات لغوية معينة أو أنواع محددة من البضائع تستلزم اللجوء إلى متخصصين، وقد تخصص بعض من هؤلاء أساساً في التعامل مع التجار المسلمين. أما عندما يزيد حجم الصفقات فقد كان الأمر يتطلب اللجوء إلى أشخاص آخرين يطلق عليهم «غير عاديين مع الأتراك فقط»، وهم مؤهلون للتعامل حصرياً مع رعايا السلطان فحسب. وهؤلاء كان اختيارهم يتم لمهاراتهم اللغوية بشكل رئيس. وكانوا في كثير من الأحيان من الذين تحولوا عن الدين ليجدوا مكاناً لهم، ولم يكونوا يستخدمون المترجمين دائماً، ولكنهم على أي حال، وبعد عام 1537، كان لابد أن يراجعوا العقود لدى المترجم قبل أن تصبح

(1) ASVe, *Consoli dei mercanti*, b. 58, fasc. «Sanseri».

نافذة، بعد أن يدفعوا له الثلث المنصوص عليه قانوناً. ونحن لا نعرف النسب التي كان يزيد بها عدد التجار المسلمين الذين ترددوا على سوق ريالتو، ومع ذلك، فإن الاختلاف في عدد السماسرة الذين يعتنون بأعمالهم يمكن أن يكون مؤشراً يؤخذ بعين الاعتبار. وفي عام 1587، كان الوسطاء المخصصون للأتراك، ما بين العاديين وغير العاديين بين خمسة عشر وعشرين وسيطاً، وزادوا ثلاثة وثلاثين وسيطاً عام 1631م، وفي عامي (1674–1675) انخفض عددهم إلى خمسة وعشرين، ووصلوا عام 1751 إلى أحد عشر، ثم إلى خمسة عام 1768، ومن ثم وصلوا إلى الذروة في النصف الأول من القرن السابع عشر[1].

ومنذ القرن الخامس عشر كان الوسطاء يتحملون مسؤولية التأكد من دفع ضريبة التجارة للدولة البندقية، وكانت تسمى ضريبة السمسرة. كما كان عليهم أن يُسجِّلوا في دفاترهم جميع عمليات المبادلات التي يتوجب على البائع والمشتري والشهود تسجيلها، وبعد ذلك عليهم أن يصادقوا عليها. فإذا كان أحد الطرفين لا يعرف القراءة والكتابة، كان عليه أن يمهر تسجيل الاتفاق المبرم بخاتمه. هذا ولم يكن بوسع وسطاء البندقية استضافة التجار الأتراك. وإضافة إلى ذلك، كان عليهم بعد إنشاء الفندق، أن يتأكدوا من عودتهم إليه قبل غروب الشمس.

وهكذا لم يكن هناك أحد في انتظار التجار الذين كانوا يصلون إلى البندقية من الإمبراطورية العثمانية، لا قنصل ولا وكيل رسمي يرعى

(1) G. Vercellin, *Mercanti turchi a Venezia alla fine del '500*, in «Il Veltro», 2-4, 1979, pp. 243-276; Id., *Mercanti turchi e sensali a Venezia*, in «Studi Veneziani», n.s., 4, 1980, pp. 45-78.

مصالحهم، مثلما كان يحدث مع التجار البنادقة الذين كانوا يتوجهون إلى حلب، أو الإسكندرية، أو أزمير، أو القسطنطينية. ومع ذلك وُجدت في بعض مدن الدولة البندقية شهادات على وجود قناصل بها. وأولاها ترجع إلى عام 1598، عندما طالب سكان جزيرة سانتا مورا (اليوم ليوكاده)، الذين كانوا يذهبون كثيراً للتجارة في كورفو القريبة، أن يعتمد مجلس الشيوخ ممثّلاً لهم في جزيرة البندقية. وبعد مدة وجيزة عُيّن مسؤولون آخرون للمهمّة نفسها في زانتي وتشيفالونيا وناوبليا.

وفي كورفو توقف نشاط القنصلية عام 1721، في حين لم تستمر القنصليات الأخرى كثيراً، باستثناء قنصلية زانتي، والتي استمرت في الوجود حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، عندما أصبح قنصل هذه الجزيرة مسؤولاً عن جميع الرعايا العثمانيين بمن في ذلك المغاربة، الذين كانوا يسافرون في جميع أنحاء أراضي الجمهورية البندقية. وفي سبليت وحدها، عيّنت الجمهورية دانيال رودريجيز مؤسسَ هذا المرفأ، قنصلاً لليهود القادمين من الشرق واليهود الغربيين أيضاً، وكذلك يهود الدولة العثمانية، وقد سعت البندقية تدريجياً إلى تحويل شخصية القنصل «قنصل الرعايا العثمانيين» إلى شخصية رسمية، مكلَّفة بمتابعة التجارة وسداد الرسوم والضرائب؛ ومن أجل هذا الغرض أقيمت المسابقات العامة لتعيين القناصل، حتى وإن كان من حق التجار رفض الفائزين الذين لا يروقون لهم.

وكانت النزاعات التي نشأت بين التجار وسلطات البندقية حول تعيين هؤلاء القناصل هي التي أدت، في النصف الأول من القرن الثامن

عشر، بالحكومة العثمانية إلى اتخاذ إجراءات بشأن هذه المسألة. وفي عام 1745 أخبر الريس أفندي، وهو رئيس قلم كتاب الإمبراطورية، المبعوثَ المقيم للبندقية بضرورة تعيين نائب القنصل الجديد في زانتي، وهو قرار صدر وفقاً لعرف سائد في ذلك الوقت يسمى «البيرات»، ويعني رخصة التعيين. وعلى عكس النتائج التي توصل إليها الدارسون حتى يومنا هذا، لم يؤسس الباب العالي لتعيين القناصل الأول في عام 1802، في موجة «تغريب» جهاز الدولة كله، ولكن قبلها بوقت طويل[1].

وفي غالب الأحوال كان التجار العثمانيون يتصرفون في البندقية بوصفهم جماعة وطنية حقيقية يمكنها انتخاب ممثليها للتعامل مع السلطات القضائية في البلاد التي تستضيفهم أو حماية المصالح المشتركة. على سبيل المثال، اعتمد خمسة من المسلمين في عام 1586، كونهم ممثلين للطائفة كلها التي تعيش في الفندق، إعلان جولسون، وهي نفسها دوروتيا دا بادوا؛ لاختيار دين الأم والتحول للمسيحية. أما في عام 1628، فقد استُدعِيَ ستة وأربعون تاجراً (ستة بأسماء يونانية، والباقي بأسماء إسلامية) إلى الفندق الموثق باجانوتسي لتعيين «عامل» (نوع من الوكيل القنصلي) من شأنه حماية مصالحهم. وحدثت حالة خاصة في عام 1654، أي في عز حرب كانديا، عندما كوّن تجار الجلود العثمانيون، وكانوا في هذه الحالة، من المسيحيين والمسلمين واليهود، جبهة مشتركة لحماية مصالحهم. وقبل سنوات قليلة كانت طائفة دباغي الجلود قد شكّلت ما

(1) M.P. Pedani, *Venetian Consuls for Ottoman Subjects, in 9th International Capitolo ottavo 285 Congress of Economic and Social History of Turkey*, Ankara, Türk Tarih Kurumu, 2005, pp. 213-219.

يشبه الكارتيل للحفاظ على انخفاض أسعار الجلود غير المصنَّعة. وتمكَّن التجار العثمانيون في نهاية المطاف، بمقاطعة سوق ريالتو، والتهديد بالانتقال الجماعي إلى أماكن أخرى، من الحصول على قانون لمصلحتهم، بل وعلى حساب الحرفيين من أهل المدينة.

وفي عام 1670، وبعد انتهاء الحرب، والاستئناف الكامل لحركة التجارة، قدّمت مجموعة من التجار التماساً لإصدار قواعد جديدة لأعمالهم التي توقفت رسمياً منذ ما يقرب من ثلاثة عقود. وبعد ذلك بعامين قدموا أنفسهم بصفتهم مجموعة وطنية لمجلس حكماء السوق الخمسة، ومعهم ممثلهم القانوني لحماية أنفسهم ضد بعض الضرائب التي أعدوها مجحفة، على الرغم من أنه بعد سنتين رفض من كان منهم في البندقية القرار الذي اُتخذ من قِبل أسلافهم، ورفضوا الاستمرار في دفع أجر المحامي.

وفي عام 1701 طالب التجار القادمون من البوسنة بوضع قواعد واضحة لعملياتهم التجارية. وأخيراً، في عام 1795 عين الأربعون تاجراً الموجودون في فندق الأتراك المواطن البندقي أغوستينو ماركيوري شاحناً رسمياً لهم. ومن هذا يتضح أن التجار المسلمين الذين جاءوا إلى المدينة لم يظهروا أبداً بلا رعاية، وخاصة في القرن الثامن عشر، وكانوا قادرين على حماية مصالحهم من خلال تعيين وكلاء وممثلين قانونيين، وكان بوسع من عاد منهم إلى بلاده أن يروي الأخبار والمعلومات لمن كان عليه أن يقطع الطريق نفسه، أما من بقي في البندقية فقد كان بوسعه أن يرشد القادمين الجدد إلى العادات والقوانين المحلية، وحتى في نهاية القرن الثامن عشر

كان من يُسمون باسم «مخضرمي الفندق» يُعدُّون من قبل السلطات البندقية محاورين متميزين، في الحالات التي تتعلق بالجالية التركية في البندقية بأكملها[1].

3. الملاحة والقراصنة

شهد القرن السادس عشر زيادة تدريجية في وجود التجار العثمانيين في البندقية، وشهد في الوقت ذاته تغييراً في الطرق والوسائل المستخدمة للوصول إلى المدينة. ونحو منتصف القرن بدأ القراصنة في البحر الأدرياتيكي يزيدون ويصبحون أكثر تهديداً بهجماتهم المباغتة، مما طور جزئياً وسائل النقل في المنطقة تطويراً ثورياً. كان العثمانيون قد وصلوا إلى هذه الشواطئ في وقت مبكر من القرن الخامس عشر، عندما استولوا على ألبانيا وصربيا والبوسنة والهرسك. وفي 1480 بدأ غزو مدينة أوترانتو ببوليا من ميناء فالونا، على الساحل الألباني. وقد كانت الإيرادات المحلية تُسلَّم آنذاك إلى كبير القادة كديك أحمد باشا، بدلاً من الطريقة التقليدية بتسليمها لسنجق غاليبولي، وذلك شهادة على الأهمية التي يكنّها السلطان إلى البحر الأدرياتيكي.

وفي معاهدات السلام المبرمة مع محمد الثاني وبايزيد الثاني حصل البنادقة على الموافقة على شرطين يمنعان القراصنة العثمانيين من التوغل

(1) ASVe, *Senato, Terra*, filza 609; Parte presa nell'*Eccellentissimo Consiglio de Pregadi. 1632. 28 gennaro in materia de cuori, cordovani, moltoline & ogni altra sorta de pellami*, Venezia 1633; M.P. Pedani, *Turchi in Canal Grande*, in R. Mamoli Zorzi (a cura di), *Oriente e Occidente sul Canal Grande*, in «Annali di Ca' Foscari», 46, 2, 2007, pp. 39-54.

فيما أعدوه خليجاً لهم. وفي المقابل أصبح للسفن التجارية التي يملكها رعايا السلطان الحق في حرية التنقل هناك. لكن هذا لم يمنع القراصنة المسلمين من مهاجمة السواحل الإيطالية التي لا تنتمي إلى الجمهورية، كما حدث، على سبيل المثال، عام 1479 في جروتاماري، وفي مونتمارشانو، وفي مارزوكا، وفي موندولفو عام 1485 وفي سينيجاليا عام 1488 [1].

ومن وجهة نظر الشريعة الإسلامية لم يكن هناك اعتراض بشأن السيادة البندقية على البحر الأدرياتيكي. فالبحر ليس «دار الحرب» وليس «دار الإسلام»، ولكن يمكن الحصول عليه سلمياً بواسطة حاكم؛ بالاستيلاء على سواحله. وعلى العكس يرى فقهاء القانون الأوروبيون، المتأثرون بشكل بالغ بالقانون الروماني، أن الماء يُمثِّل المصلحة العام، ولذا فمن المستحيل إقامة حكم على أمواج البحر. ومع ذلك، فلم تقبل البندقية هذا النهي القديم، والذي كانت له قيمة في أجزاء كثيرة من إيطاليا وأوروبا، وإنما قبلت فقط القوانين والتقاليد الخاصة بها، وأكدت بقوة على مدى قرون حقها في أن تكون سيدة البحر الأدرياتيكي وحدها.

---

(1) M.P. Pedani, *Ottoman Merchants in the Adriatic. Trade and Smuggling*, in «Acta Histriae», 16, 1-2, 2008, pp. 155-172; Id., *Gli ottomani in Adriatico tra pirateria e commercio*, in G. Nemeth e A. Papo (a cura di), *I Turchi, gli Asburgo e l'Adriatico*, Duino Aurisina (Ts), Assoc. Pier Paolo Vergerio, 2007, pp. 57-64; M.P. Pedani, *Beyond the Frontier. The Ottoman- Venetian Border in the Adriatic Context from the Sixteenth to the Eighteenth Centuries*, in A. Bues (a cura di), *Zones of Fracture in Modern Europe, Baltic Countries-Balkans-Northen Italy. Zone di frattura in epoca moderna. Il Baltico, i Balcani e l'Italia settentrionale*, Wiesbaden, Harrassowitz, 2005, pp. 45-60; M.P. Pedani, *The Ottoman Empire and the Gulf of Venice (15th-16th c.)*, in T. Baykara (a cura di), *CIÉPO XIV. Sempozyumu Bildirileri*, Ankara, Türk Tarih Kurumu, 2004, pp. 585-600.

واكتشف العثمانيون مع تقدمهم في البلقان، أهمية البحر الأدرياتيكي. ففي البداية كانت مدينة راجوزا تمثل محطة الميناء الرئيسة التي تنتهي عندها كل الطرق القادمة من آسيا، ومن هنا يمكن للتجار أن يبحروا إلى أنكونا والموانئ الإيطالية الأخرى. وكانت البندقية قد احتلت هذه المدينة عام 1204، ولكنها استقلت بالفعل عام 1358، في حين واصلت البندقية غزوها لدلماسيا، والذي لم ينته إلا عام 1420. واختارت راجوزا في البداية الحماية المجرية، واحتفظت بها حتى معركة موهاج عام 1526، عندما دانت للسلطان سلطة سن القوانين لتلك المملكة أيضاً، لكنها بدأت تدفع الجزية عام 1442 للعثمانيين حتى تنجو من هجومهم عليها. وهكذا اتفقت الجمهورية الصغيرة والإمبراطورية الكبيرة على المستوى التجاري، حتى أصبحت راجوزا الميناء الرئيس على البحر الأدرياتيكي للتجار العثمانيين، الذين بدأوا يُعدونها «أرضاً محلية» تقريباً، أي أنها جزء من الإمبراطورية وإن لم تكن مدمجة فيها.

أما من كان يأتي من داخل البلقان أو الأناضول فقد كان يسافر براً في الجزء الأول من الرحلة حتى يصل إلى راجوزا، أو إلى موانئ ألبانيا أو اليونان، ثم يركب السفن إلى البندقية. وأما السفن المستخدَمة فهي إما بندقية أو من راجوزا، ولكن هناك شهادات متعددة عن استخدام سفن عثمانية أيضاً. وعلى سبيل المثال طلب القبطان الريس إبراهيم في البندقية عام 1546، إدخال ثلاثة من المجرمين الذين كانوا على متن السفينة معه إلى السجن، وتحقق له ذلك، فظلوا في السجن إلى أن رحل. أما في عام 1615 فقد أمر الدوجي بأن تدفع السفن القادمة من ميلو وناسو وكانديا، والتي

كانت في القسطنطينية، وتريد بعد ذلك أن تبحر إلى البندقية، الرسوم الجمركية المستحقة للجمهورية إلى القنصل البندقي في غاليبولي.

وقد أخبرت حكايات متعلقة بما يسمى بـ«حطام الزجاج»، وهي السفينة التي اكتشفها الآثاريون في قاع البحر أمام مالاموكو، على بعد بضعة كيلومترات من البندقية، وكانت سفينة عثمانية، طبقاً لما يثبته عملٌ فني يدويٌّ فوقه هلال عثر عليه على متنها. أنه ليس هناك يقين حول تاريخ غرق السفينة، ولكن يمكننا أن نلاحظ أن حسن، بيلرباي البوسنة، كتب عام 1593 رسالة إلى الدوجي منددا بحادث مؤسف وقع في تلك المنطقة: على إثر عاصفة غرقت سفينة حيدر ورفاقه، ولكن ضحالة مياه البحر هناك سمحت لفلاحي مالاموكو بنهبها بسهولة. ومن ثم طلب حسن الاقتصاص منهم، وعلى الأقل إعادة الأموال التي كانت على متنها وسرقوها[1].

ومع زيادة التجارة في البحر الأدرياتيكي زادت أيضاً أنشطة القراصنة من الجانبين، سواء من جانب المسلمين أو من جانب المسيحيين. فقد هاجم القراصنة المسلمون مثلاً إقليم بوليا عام 1506 وسواحل البندقية عام 1533، وأوترانتو عام 1536، وبوليا مرة أخرى في (1553-1554) وأبروتسو عام 1566. ثم بدأ بعد ذلك بناء أبراج مراقبة على طول السواحل الإيطالية لرصد من يصلون عن طريق البحر، وكانت هذه الأبراج تدق ناقوس الخطر إذا اكتشفت هجوماً من القراصنة، بحيث يمكن وضع السكان

(1) M.P. Pedani (a cura di), *Inventory of the «Lettere e Scritture Turchesche» in the Venetian State Archives*, basato sul materiale raccolto da A. Bombaci †, Leiden-Boston (Mass.), Brill, 2001, n. 526.

والماشية فوراً في مأمن داخل القلاع والحصون.

وأول خبر عن أنشطة القراصنة الأوسكوك يعود إلى منتصف القرن: في 1557، احتج السلطان لأول مرة عليهم لدى الدوجي بسبب هجماتهم على السفن وتجارها. وكانت الأوسكوك من رعايا وموظفي هابسبورغ، على نحو غير رسمي. كانوا يسكنون بلدة سينيا العصية على الغزو، وتقع على الساحل الشمالي الغربي من البحر الأدرياتيكي ويحميها البحر برياح سريعة وسلسلة من الجزر والخلجان والمياه الضحلة، وبراً من خلال الطريق الحلزوني المتسلق والذي يتسم بوجود وادٍ عميق بمثابة عنق زجاجة. كان لأنشطتهم غرض مزدوج: إعاقة تجارة العثمانيين في المنطقة وزيادة التناقضات بين البندقية والباب العالي. وكان ينبغي للجمهورية باعتبارها سيدة البحر الأدرياتيكي أن تسيطر على أمنه، وعندما لم يحدث ذلك، كان لابد أن تتحمل هي المسؤولية عن ذلك أمام السلطان. ولسنوات عديدة ساد الشك في القسطنطينية في وجود مؤامرات سرية بين البندقية والأوسكوك، ولذا طالب العثمانيون البندقيةَ برد أية مغارم تكون الأوسكوك قد تسببت فيها، وفي البداية كان العثمانيون يحترمون السلطة القانونية للبندقية على مياه البحر الأدرياتيكي فاعتادوا طلب الدعم من قوات البحرية البندقية في حالة وجود صعوبات، كما حدث على سبيل المثال في عام 1531، عندما كتب العثمانيون إلى الدوجي للدفاع من البحر عن العمال الذين قاموا ببناء القلعة في سالونا بالقرب من كليسا. ومرة أخرى في عام 1575 امتدح محمد، ناظر قلعة نيريتفا، حماية البنادقة، وطلب أن تقوم سفينة أو سفينتان من لدنهم بتركيب واقٍ لمصب ذلك النهر.

وفي تلك الفترة نفسها ساهم التقارب بين المصالح المتبادلة في ازدهار الميناء البندقي في سبالاتو، حيث كانت الطرق إليه تتحكم فيها السلطات العثمانية وتحميها، وكان اليهودي دانيال رودريجيز هو الذي دعم بقوة فكرة إنشائه، وقد واصل السلطان الحفاظ على علاقات ممتازة مع راجوزا، لمصلحة شبكة تهريب مربحة على حساب البنادقة. وشمالاً ازدهر ميناء تريسته، حيث كان القراصنة الأوسكوك من سينيا يبيعون ما نهبوه في غاراتهم، وحيث كانت تصل المعادن المستخرجة من مناجم جبال الألب بواسطة آل هابسبورغ.

وفي أول الأمر كان الأوسكوك يهاجمون سفن العثمانيين، تحت زعم أنهم من الكفار، وهكذا فإن التجار من رعايا السلطان شرعوا في تحميل بضاعتهم على سفن البندقية وراجوزا، بغية الحماية. وعندئذٍ راح الأوسكوك يهاجمون تلك السفن أيضاً، بحيث لم يعد أحد في النهاية، مسلماً كان أو مسيحياً، بمنأى عن هجماتهم. اكتفى السلطان في البداية بالمطالبة بالتعويض من البندقية، وحتى عن طريق إرسال سفراء أو رسل. ففي 1583، على سبيل المثال، طلب حسن الإفراج عن القاضي والشخصيات الهامة الأخرى الذين خطفهم الأوسكوك. وفي عام 1588 أشرف الصدر الأعظم على استرداد بضائع تاجر البلاط سيد عبدي. وفي عام 1589 جاء المبعوث بالي مع خمسة من التجار يحتجون على نهب سفينتهم. وبعد عدة هجمات استهدفت البضائع والأشخاص، الذين كانوا في بعض الحالات من الشخصيات الهامة في البلاط، وصل الأمر بالسلطان إلى التهديد بإرسال سفنه الحربية إلى البحر الأدرياتيكي لحماية رعاياه.

ولعله من الطبيعي أن تتم حراسة منطقة كليسا بواسطة دوريات من السفن العثمانية، وفي يونيو عام 1596 تم إرسال الأسطول نفسه إلى الخليج، على الرغم من رفض البندقية مساعدته. ومع ذلك فقد استمرت مغامرات عصابات الأوسكوك وتفاقمت خطورتها على نحو متزايد. ويشار إلى أن هؤلاء القراصنة اختطفوا في عام 1613 سفينة كريستوفورو فينير وبعد أن قطعوا رأسه، التهموا قلبه وغمسوا الخبز في دمه. وفي عام 1599، وأخيراً، اعترف العثمانيون أن الأوسكوك من رعايا هابسبورغ وكان لابد من حرب بين البندقية وفيينا، تسمى حرب جراديسكا (1615–1618)، لوضع حد لأنشطتهم[1].

وردّاً على القرصنة المسيحية، عمد العثمانيون الساكنون على طول السواحل إلى أنشطة قرصنة خاصة بهم، بدعم من قِبل السلطات المحلية في البداية. وكان أول من وصل إلى الأدرياتيكي هم المغاربة، ونقلوا إليه طريقة الحرب في عرض البحر المفتوح. ففي عام 1577 على سبيل المثال وصلت بعض مراكبهم حتى كيوجا، في بحيرة البندقية. أما قواعدهم، فكانت بعيدة ولذا كان لابد لإرسالياتهم أن تكون منظمة تنظيماً جيداً. وكانت نقاط الدعم لسفنهم موجودة بشكل أساسي في أراضي الدولة العثمانية في ألبانيا واليونان. وهكذا فإنهم علّموا بالتدريج الأهالي، الذين بدأوا في تسليح أنفسهم لشن غارات، ربما باستخدام ملابس المغاربة كأنهم يلقون باللوم على معلميهم السابقين، ولم يكونوا بحاجة إلى السفن الكبيرة: تكفيهم قوارب صغيرة سريعة يمكن إخفاؤها بسهولة في الزوايا

(1) I. Bostan, *Adriyatik'te Korsanlık. Osmanlılar, Uskoklar, Venedikler. 1575-1620*, Istanbul, Timaş, 2009, pp. 77-96.

وبين جزر السواحل. كانت المناطق التي يأتي منها هؤلاء القراصنة هي أولتسيني، ودراس، والمورة.

وكان احتمال وقوع هجمات على طول الساحل الإيطالي هو الذي دفع بعض نبلاء بلاط ألفونسو ديستي الثاني إلى تنظيم ما يسمى بـ«خدعة جورو 'Goro'» بسهولة عام 1584، وفي صباح أحد الأيام، بعد ليلة سارة في ميزولا، تجمع خمسون من السيدات والسادة على الشاطئ لمشاهدة حفل صيد، وعندئذٍ سمعوا نيران المدفعية القادمة من القلعة القريبة ورأوا قارباً محملاً بالقراصنة. وبعد معركة كبيرة وهمية، في ظل خوف الحاضرين، تم إلقاء القبض على المغيرين وإنزالهم إلى البر. ثم اكتشفوا أن تحت الملابس التركية يوجد بعض رجال الحاشية الذين نظموا المزحة لتسلية الرفاق الذين كانوا على علم بها لإخافة السيدات الغافلات اللاتي كن معهم[1].

كان القراصنة العثمانيون معتادين على مهاجمة السفن البندقية خصوصاً، وتركزت أنشطتهم على نحو خاص ما بين نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر. وآنذاك كان الدوجي يضطر إلى اللجوء إلى السلطان لكفّ هذا الإزعاج. وعندئذٍ كانت تصدر أوامر الباب العالي للسلطات المحلية بمكافحة هذه الظاهرة وإشعال النار في المراكب المستخدمة في الغارات في حرائق كبيرة. ولكن المسؤولين وحراس القلاع كانوا في بعض الأحيان من المتواطئين مع القراصنة. وفي حدود عام 1593 جهَّز دزدار نيريتفا قارباً لسرقة السفن التي تمر بالقرب من مصب هذا النهر. وما بين (1596–1597) انضم حسن دزدار سانتا ماورا إلى القراصنة

(1) G. Ricci, *Ossessione turca. In una retrovia cristiana dell'Europa moderna*, Bologna, Il Mulino, pp. 71-72.

اليونانيين والجزائريين لنهب زانتي. وفي عام 1605، كان قراصنة البحر الأدرياتيكي يحظون بحماية رجال القلعة في كل من فالونا ودراس، وفي حوالي عام 1612 كرّس محمد سنجق كارلي إيلي بألبانيا، وسنجق دوكاجن الذي يحمل الاسم نفسه، كل حياتهما للقرصنة.

وقد اعتبر الباب العالي هذا النشاط من رعايا الجزائر وتونس ضد المسيحيين قانونياً؛ لأنه ينفّذ في إطار القواعد والاتفاقات الدولية، ويندرج ضمن حرب السباق التي كان يمارسها في ذلك الحين فرسان مالطا وفرسان سانتو ستيفانو. ولذا لم يعدُ القراصنة المغاربة قراصنة يحميهم السند القانوني، رغم أن القانون الأوروبي يُعدهم قراصنة، أو بمعنى آخر «شرق-متوسطي 'Levend'»، أي جنوداً عثمانيين غير نظاميين يعملون سنوياً على ممارسة الجهاد على الحدود نيابة عن السلطان الذي لم يكن يريد أو لا يستطيع أن يرسل قواته النظامية لتنفيذ حملته السنوية المنتظرة ضد الكفار.

كما لم يكن المقاتلون المسلمون يحتاجون إلى «تفويض رد اعتداء» مثل الأوروبيين؛ لأن أنشطتهم تقع ضمن الأنشطة التي تُعدّ شرعية بموجب الشريعة الدينية وقانون الدولة. وعلى العكس من ذلك، كان أولئك الذين يقومون بتجهيز القوارب الصغيرة لمهاجمة المسيحيين القادمين من الساحل اليوناني أو الساحل الألباني يُعدون من القراصنة، الذين يجب مطاردتهم ومحاكمتهم، وفقاً لمعاهدات السلام بين البندقية والباب العالي التي كانت تنص على إقرار السلام بين البحريتين. وبإبرام هذه الاتفاقيات التزم البنادقة بإعادة الأسرى أو العبيد العثمانيين الذين يلجأون إلى أراضيهم،

في حين قَبِلَ العثمانيون عدم المساس بالسفن التي ترفع العلم البندقي[1].

هكذا مست القرصنة في الأدرياتيكي بشكل كبير العثمانيين الذين كانوا يأتون إلى البندقية. ولكنها لم تكن إلا خطراً واحداً من الأخطار التي يمكن مواجهتها في تجارة المسافات الطويلة. فأحياناً كانت السلع هي التي تتم الإغارة عليها في حين أن الرجال يمكن أن ينجوا، كما حدث لشخص اسمه مورفيت (مروءة) ورفيقيه في عام 1587. فقد كانت هناك العواصف أو الأعاصير التي كانت في مرات أخرى تغرق السفن. وكان هناك أيضاً القباطنة المسيحيون الذين قتلوا أو استعبدوا تجاراً مسافرين معهم، كما حدث ذلك أيضاً عام 1602 مع ثمانية من البوسنيين، وكانت معهم سلع قيمتها ستة عشر ألف دوقية.

وفي عام 1577 تم قتل خوجة علي من أنقرة والحاج محمد بواسطة القراصنة، وسافر ورثتهم، محمد، ويوسف خليل أوغلو والحاج بري مصطفى أوغلو، إلى البندقية لاستعادة أملاكهما. فوفقاً لاتفاقيات السلام البندقية -العثمانية فإن من يتوفى في أرض سان ماركو، أو ما يتم جمعه على طول الساحل بعد غرق سفينة، لا بد من إعادته إلى أصحابه الشرعيين أو ورثتهم. وفي كثير من الأحيان كان التجار المسلمون الموجودون بالفعل في البندقية هم الذين يتولون نقل ما تتم استعادته إلى أصحاب الحق الشرعيين فيه، أو يشهدون بتسليم هذه الممتلكات لأصحابها، وعلى سبيل المثال، تلقى ورثة الخوجة علي من أنقرة والحاج محمد المستحق لهم في وجود خمسة تجار قادمين من إسكيشهر، وأدرنة، وتوكات وأياس، الذين وَقعوا بأيديهم

(1) S. Bono, *Corsari nel Mediterraneo. Cristiani e musulmani fra guerra, schiavitù e commercio*, Milano, Mondadori, 1993, pp. 16-41.

الوثيقة التي تثبت التسليم.

وقد دفعت المخاطر التي يمكن أن يصادفها المسلمون بعضهم إلى أن يبرم وثائق تأمين مع البنادقة أنفسهم، وعلى سبيل المثال، قبل عام 1605 بقليل قام محمد، قبل سفره من القاهرة، بعمل وثيقة تأمين لدى القنصل البندقي بالقاهرة، جوفاني دا موستو، ضد كل المخاطر. وبعد أن اختطفه القراصنة ثم لحسن حظه تم تحريره منهم، عاد إلى القاهرة ليطالب بالتعويض عن الضرر. وحدث الشيء نفسه حوالي عام 1620 لتجار آخرين أبرموا وثيقة تأمين في سبليت قبل السفر، وذلك مع شركة بندقية. وفي هذه الحالة كان من الضروري طلب تدخل السلطات العثمانية للحصول على المستحقات المقررة.

وقد مثَّل النصف الثاني من القرن السابع عشر لحظة من التوتر، ولكنه لم يمثل انقطاعاً كاملاً للوجود العثماني في البندقية. وعندما تعافت الشركات تماماً في القرن الثامن عشر، كان الوضع قد تغير تماماً، فلم تعد الجمهورية البندقية هي الشريك المميز الذي يمكن العثور عنده على المنتجات والسلع الراقية الفاخرة، وأصبحت المراكب الفرنسية والبريطانية والهولندية هي التي تبحر الآن إلى إمبراطورية السلاطين. واستمرت مع ذلك أنشطة القراصنة في البحر الأدرياتيكي والبحر الأبيض المتوسط. واعتاد سكان أولتسيني الاختفاء تحت أعلام المناطق البربرية لارتكاب أعمال مخلة بالقانون. وقد أصبحت بلاد المغرب مستقلة تقريباً عن الباب العالي، ورغم ذلك، على الأقل رسمياً، كانت لا تزال تعترف له بالسيادة مع تقديم هدايا في الغالب رمزية. وبالفعل في عام 1710 احتج المبعوث المقيم

للبندقية ألفيز موتشنجو لدى السلطان على المساعدة المقدمة للقراصنة من قِبل سلطات دراس وفلورا وأولتسيني. وفي عام 1719 أمرت القسطنطينية بتدمير السفن والقوارب التي يستخدمها أولتسيني في غاراتهم. وصدرت أوامر إمبراطورية أخرى أعوام 1723 و1726 و1747، تفرض على شعب أولتسيني عدم استخدام أعلام المغرب العربي.

وفي الواقع، من بين الرعايا العثمانيين، كان بحارة أولتسيني هم الوحيدون الذين يوفرون وسائل نقل إلى البندقية، وكانت سفنهم لا تزال تجد مراسي مميزة في حوض سان ماركو. وجاءت أكبر مجموعة من التجار من شكودرا في ألبانيا. وكانوا فور أن يصلوا إلى المدينة ينزلون مع بضائعهم إلى الحجر الصحي للخضوع للتفتيش، فلا يمثلون أمام الجمارك، ثم ينتقلون من الحجر إلى الفندق. وعلى العكس من ذلك، يظل القباطنة والبحارة في سفنهم، ولا يشترط أن يتقدموا للتفتيش الصحي؛ لأنهم من الناحية النظرية، لن يهبطوا على اليابسة. ومع ذلك كانت السلطات القضائية في البندقية تضطر في بعض الأحيان إلى متابعة هذه الطواقم خاصة في حالة حدوث حالات من أعمال العنف الخطيرة، مثل تلك التي حدثت في عام 1720، وفي عام 1722 على سفينة بابا روسا القادمة من أولتسيني. فقد قتل البحارة رجلين، الأول هو إبراهيم من فالونا، الذي كانت له علاقات جيدة مع القسطنطينية، وفي هذه الحالة أمرت السلطات العثمانية، بعد أن أبلغها أقارب القتيل بما حدث، بألا يوجد أحد من أولتسيني بعد ذلك في الموانئ البندقية. ولكن بعد ذلك بعامين، عادت السفينة نفسها مرة أخرى إلى المدينة، وبعد عمل عنيف

آخر تجدد الأمر نفسه، بين عامي 1728 و1731، إذ حاولت سفينة أخرى من أولتسيني التسلل إلى البندقية بعد رفعها علم سان ماركو الذي سرقته من نائب قنصل البندقية في شكودرا. ومن جديد تدخل السلطان لإعادة السفينة وتم تفريغ حمولتها في سبليت. على الأقل في هذه الحالة تدخلت السلطات العثمانية لمنع بعض رعاياها من ممارسة التجارة في البندقية، ولكن هذا لم يحدث لأسباب دينية أو ثقافية، ولكن لوقائع تتعلق بالنظام العام[1].

4. البضائع والتهريب

كان التجار المسلمون الذين جاءوا إلى البندقية عن طريق البحر يحملون معهم الحرير الخام والقطن والشمع والأقمشة ووبر الجمال والصوف والموهير والجلود. وكانت منطقة البلقان أيضاً من الموردين الرئيسيين للحيوانات التي تُستخدم في الغذاء ويتم إرسالها على حد سواء إلى القسطنطينية أو المناطق الداخلية من البندقية. وفي أوقات المجاعات تم العثور على اتفاقيات مع السلطان لتصدير الحبوب، وجاء معظمها من البحر الأسود. وفي سوق ريالتو كانت تباع أقمشة غالية نوعاً ما، مثل الأقشمة المنسوجة خصيصاً وفقاً للذوق العثماني، جنباً إلى جنب مع السلع الكمالية مثل النظارات، والكتب، والأواني الزجاجية والحلي والمجوهرات.

---

(1) M.P. Pedani, *Between Diplomacy and Trade. Ottoman Merchants in Venice*, in S. Faroqhi e G. Veinstein (a cura di), *Merchants in the Ottoman Empire*, Paris - Louvain - Dudley (Mass.), Peeters, 2008, pp. 3-21.

وكان لابد من دفع رسوم جمركية على الواردات والصادرات، وعلى جميع عمليات المبادلات التجارية. كما كان هناك نص على النسبة التي يحصل عليها الوسيط الذي ينهي الصفقة، وكانت هذه النسبة في حالة التجار الإيرانيين والأتراك تُقتسَم مع المترجمين. ولم يكن ممكناً استخدام نظام المقايضة التي يفضلها التجار المسلمون، فكان لا بد من ترجمة كل شيء إلى نقود، وتسجيل عملية البيع. وتُدفع الرسوم الجمركية إلى البندقية، ولكن في كثير من الأحيان كان يمكن أيضاً أن تُدفع في أحد الموانئ التابعة للبندقية، إذا توقفت فيه السفن قبل أن تصل إلى المدينة. أما أولئك الذين كانوا يغادرون مباشرة عن طريق البحر من القسطنطينية فكانوا غالباً ما يدفعون لقنصل البندقية في غاليبولي. وفي زانتي، كان القنصل المعين «للرعايا العثمانيين» هو المكلف بتحصيل المبلغ المستحق من رعايا السلطان، سواء من اليونانيين أو الأتراك.

وخلال الأزمنة التي لم يكن يعيَّن فيها هذا القنصل، كانت مالية الدولة تتأثر بشدة؛ نظراً لكثرة التهرب في تلك المدة. وفي تلك الأماكن كان من السهل شحن البضائع دون الإفصاح عنها أو العثور على اسم شخص من البندقية تكتب البضائع باسمه، فتتمتع بما يتمتع به المواطن البندقي من إعفاءات جمركية. وعلى سبيل المثال، في زانتي عام 1697 لم ترسل إلى البندقية سوى إحدى وأربعين بالة من الحرير يملكها عثمانيون، بينما في الأشهر الستة الأولى من عام 1700، وعندما تم تعيين قنصل جديد، وصل العدد إلى أربعمائة وثلاثين بالة وصلت إلى الوجهة نفسها. أما في حوالي عام 1600، فقد أكد المبعوث المقيم كابيللو أن نحو الربع مما تمّ شحنه في

القسطنطينية وصل إلى البندقية دون دفع الرسوم الجمركية[1].

ومن بين أولئك الذين حاولوا ونجحوا في غالب المحاولات تحاشي دفع المستحقات للجمارك البندقية، كان هناك جمعٌ من التجار الذين قدّموا أنفسهم بصفتهم مرافقي السفراء أو المبعوثين الآخرين. فقد كان الدبلوماسيون في ذلك الزمان أيضاً يستطيعون استيراد وتصدير ما يريدون بنظام المناطق الحرة. واستغل الكثيرون هذه التسهيلات بحملهم الكثير من البضائع، لبيعها وشراء بضائع غيرها، ولكنهم كانوا أيضاً يستثمرون الأموال التي يعطيها البنادقة لهم فوراً في المنتجات الثمينة. وحتى نهاية القرن السادس عشر كان الإعفاء يمس الدبلوماسيين وتابعيهم، ولكن في العشرينيات من ذلك القرن بدأ بعض هؤلاء يبالغ في استغلال الرخصة. ففي عام 1523 وصل حسن إلى المدينة بثلاث سفن، وفي عام 1525 أدخل مبعوث آخر إلى المدينة بنظام السوق الحرة سفينتين محملتين بالبضائع وغادرها على متن سفينة؛ لأن السفينتين اللتين قَدِمتا معه لم تكفيا لحمل كل ما اشتراه.

وقد تعلم المترجم الإمبراطوري مبكراً من أساتذة مماثلين. ففي عام 1529 طلب استعادة مبلغ 25 دوقية دفعها في المرة السابقة التي وصل فيها إلى البندقية، في عام 1526، رسوماً جمركية على بعض النظارات وساعة وبعض مشغولات الزجاج المورانو. أما في الرحلة التالية التي قام بها عام 1533 فقد أدخل إلى المدينة بنظام الإعفاء ملابس مذهبة وحريرية قيمتها اثنتا عشرة دوقية. وأمام مثل هذا السلوك قرر البنادقة عندئذٍ أن يكونوا

(1) Pedani, *Venetian Consuls for Ottoman Subjects*, cit., pp. 213-219.

أكثر حزماً في فرض ضرائب على التجار الذين يأتون رفقة المبعوث. وكان رجال جمارك الدولة يقومون بعمل تفتيش صارم على مالكي البضائع التي تصل والتي تغادر مع البعثات الدبلوماسية. وكان ما تم شراؤه بأمر من السلطان فقط هو ما يخضع لنظام المنطقة الحرة، علاوة على ممتلكات المبعوث.

وفي غالب الأحوال، وخاصة في مناسبات ختان الأمراء وحفلات زواج الأميرات، كان البلاط الإمبراطوري يبحث في البندقية عن الأقمشة الثمينة والذهب المشغول أو غير المشغول أو أصناف أخرى فاخرة. وكان البنادقة في أغلب الأحوال، يفضلون إهداء المبعوث المقيم أموالاً لتعويضه عن الخسائر مساوية لما يمكن أن يكون قد وعده به التجار المرافقون له، بدلاً من تقديم إعفاءات جمركية لهم. وبهذه الطريقة يصبح ممثل السلطان راضياً، وتكون القواعد القانونية مراعاة[1].

وبين البندقية والبلاد العثمانية كانت هناك طريقتان للتهريب. الطريقة الأولى تتعلق بالتهرب الضريبي والتهرب من الرسوم الجمركية، والطريقة الثانية التجارة في البضائع المحظورة في أي من البلدين. وليس من السهل التعرف على حالات من هذا النوع، لأنها لا تظهر في الوثائق إلا عندما تعلم بها السلطات. ولكن توجد قوائم تحتوي على سلع كان تصديرها محظوراً. وعلى سبيل المثال لم يكن من الممكن تصدير مسحوق البارود والرصاص والغزل وأصناف مختلفة من الجلود والقمح والنحاس وقماش القلوع، والأسلحة، وشمع النحل، والخيول، والقار، والشحوم.

(1) Id., *In nome del Gran Signore*, cit., pp. 85-86.

وبعد أقل من عشر سنوات أضيف أيضاً نترات البوتاسيوم والكبريت، والصلب والقطن. وأثناء المجاعات تم إيقاف صادرات الحبوب بصفة خاصة، والتي يمكن تحميلها على السفن التي بها وثائق الإمبراطورية فقط، وغالباً ما دفع فيها المبعوثون المقيمون البنادقة ثمناً باهظاً. وفي عام 1703 وعام 1739 أكد السلطان أن البضائع الممنوعة كانت الخيول والأسلحة وكرات الرصاص فحسب[1].

ومن ثم فإن البضائع المسموح بها أو الممنوعة لم تكن هي نفسها دائماً، ولكن في البلدين كليهما شملت الممنوعات دائماً الأسلحة والخامات ذات الاستخدام الحربي. وعلى أية حال، ولأن الإنتاج في الدولة البندقية كان أفضل نوعية من الإنتاج العثماني، فقد جاءت الصادرات غير القانونية في اتجاه الإمبراطورية وليس العكس. ففي 1554 أكد دانييلي بارباريجو القنصل في مصر، أن اليهود على وجه خاص هم الذين تخصصوا في جلب الأسلحة القاطعة من الصناعات البندقية إلى هذا البلد، بينما تحدث المبعوث المقيم مارينو كافالي في عام 1560 عن شبكة تهريب مزدهرة للأسلحة النارية قادمة من بريشيا، ومتجهة إلى القسطنطينية.

وفي عام 1563 كان المبعوث العثماني في البندقية هو الذى شكا من أن البنادقة كانوا يرسلون أسلحة إلى شمال إفريقيا، بغضّ النظر عن أمنهم

(1) ASVe, *Bailo a Costantinopoli*, b. 258, reg. 359, cc. 55-58; b. 253, reg. 345, cc. 11-12; G. Ágoston, *Merces prohibitae. The Anglo-Ottoman Trade in War Materials and the Dependence Theory*, in The Ottomans *and the Sea*, in «Oriente Moderno», n.s., 20, 2001, 177-192; S. Faroqhi, *The Venetian Presence in the Ottoman Empire (1600-1630)*, in «The Journal of European Economic History», 15, 2, 1986, pp. 345-384; F. Dursteler, *Commerce and Coexistence. Veneto-Ottoman Trade in the Early Modern Era*, in «Turcica», 34, 2002, pp. 105-133.

وأمن الآخرين. وقبل ذلك في عام 1551 صودرت من الريس سنان حمولة من الأسلحة، ولكن لأن مالك السفينة والبضاعة كان محمد باشا القوي، فقد تقرر إعادة المبلغ المدفوع في المشتريات غير المسموح بها. وفي عام 1587، كتب بيلرباي البوسنة، فرهاد، إلى الدوجي حتى يسمح لوكيله بشراء الذخيرة من البندقية. وكان الحظر المفروض على صادرات الأسلحة من البندقية يرجع إلى أن الدولة العثمانية كانت تُعد عدواً محتملاً وليس لأنها دولة إسلامية. وفي الواقع، لم تكن هناك مشكلات في إرسال أسلحة لأعداء السلطان المقيمين في بلاد فارس في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وكذلك في القرن السابع عشر. ففي عام 1616، على سبيل المثال، سُمح لسعيد جعفر شريف بنقل 3 دست من سلاح المطرد وأربعة دروع للحاكم المغولي الذي كان مقيماً في الهند[1].

ومن بين السلع التي لا يمكن أن تُصدّر من الإمبراطورية العثمانية، إضافة إلى الأسلحة البيضاء والنارية، كانت هناك الخيول أيضاً، والتي كانت تُعد أيضاً من المواد المستخدَمة في الحرب. فتلك الحيوانات العربية الشهيرة، كانت في الواقع، رشيقة وسريعة وتوفر ميزة مؤكدة لأولئك الذين يقاتلون في المناخات الحارة، حيث كانت الخيول الأوروبية الكبيرة والثقيلة تعجز عن التكيف معها. وكان السلاطين أحياناً يهدونها إلى بعض الشخصيات الهامة التي كانوا يريدون تكريمها. وقد تلقى بعض السفراء جواداً منها، لكنهم عندما أرادوا نقله بعدَ ذلك إلى أوروبا، كان عليهم الحصول على جواز سفر له، وإلا منعهم موظفو الجمارك العثمانيون

(1) ASVe, *Senato, Mar*, reg. 77, c. 136.

من المرور. وكان يتم تهريب هذه الخيول العربية أحياناً إلى أوروبا، ولكن كان هناك حرص على ألا تمر بالقسطنطينية. أما الطريق المفضل لتهريبها فكان يمر بالبصرة- بغداد، ثم إلى الساحل السوري، حيث يمكن العثور على سفينة توافق على نقلها وتكون مجهزة لذلك.

وفي العصور الأقدم كانت البندقية تمنع تصدير الأشرعة والمراسي والحبال، وغيرها من المواد المفيدة للبحرية. ولكن هذا الحظر توقف فجأة. وكان لدى العثمانيين ترسانات كبيرة وكميات هائلة من الأخشاب قادمة من غابات البحر الأسود على نحو خاص. ولذا لم يكن يوجد سبب لمنع تصدير الأخشاب وغيرها من المواد المتاحة بسهولة في أراضيهم. واستمرت الصادرات غير المشروعة على مر القرون، ومرة أخرى في القرن الثامن عشر، وعلى الرغم من انخفاض حركة المرور والتراخي الأخلاقي، كان من الممكن العثور من بين المسلمين في البندقية على من يمارس التهريب. لكن البضائع المستوردة أو المصدَّرة اختلفت عما كانت عليه من قبل. وعلى سبيل المثال، تم القبض على مهرب تبغ مسلم في البندقية عام 1746: تم اكتشافه عن طريق المصادفة ليلاً وكان مسلحاً، خارج الفندق، وقد كان من الناحية النظرية على الأقل، لا يمكنه أن يبتعد عنه. وفي عام 1771، تم القبض على أربعة أتراك عند جزيرة سان سيكوندو كانت على قاربهم حمولة من السلعة نفسها، من طرف الحراس الذين أطلقوا النار لإيقافهم.

كان التبغ قد دخل إلى أوروبا منذ القرن السادس عشر، وفي عام 1605 تم إدخاله إلى الإمبراطورية العثمانية، حيث حاول السلطان محمد الرابع

منع استخدامه بلا جدوى. ولم تفد أحكام الإعدام والقوانين القاسية سوى في زيادة استهلاك التبغ عن طريق الاستنشاق على حساب التبغ المستخدم في التدخين. وبعد وفاة محمد الرابع انتشر تعاطي التبغ على نطاق واسع حتى انتشرت في أوروبا مقولة «يدخن مثل رجل تركي» للتعبير عن الشراهة في التدخين. وتم إنشاء مزارع كبيرة وخاصة في منطقة البحر الأسود، وأصبح المزارعون العثمانيون خبراء حقيقيين في هذا المجال، فكانت الأصناف التركية، أو الشرقية، لها نكهة عطرية مميزة، وكانت من الأنواع الأولى التي استُخدمت في صناعة السجائر، وحتى الآن يحظر تصدير بذورها من تركيا، حيث تعد من الأصول الثمينة الخاصة بتلك الأرض.

وضعت معاهدة سلام باساروفجا منذ 1718 نهاية لولاية البندقية على الخليج. وفي عام 1719 حصلت تريسته وفيومي على خاصية الميناء الحر، ثم أنكونا عام 1732 وهي مدينة تتبع الدولة البابوية. ثم انخفض اهتمام الحكومة المركزية العثمانية بتجارة البحر الأدرياتيكي، وبدأ السلطان يفقد اهتمامه برعاياه الذين ينتقلون إلى البندقية إلا في الحالات الخطرة التي من المحتمل أن يكون لها تأثير في المستوى الدولي. وتسببت أعمال القتل التي وقعت على السفينة بوبا روسا وما تلاها من مراسيم قانونية إمبراطورية، والتي منعت سفن أولتسيني من الوصول إلى البندقية، في انهيار النقل البحري في الأدرياتيكي، دون أن تهتم القسطنطينية كثيراً بهذه الأزمة: في ذلك الوقت اضطر ملاك السفن من أولتسيني والذين حُرموا من دعم الدولة إلى بيع سفنهم لمنافسيهم الدلامتة. وتم استعمال كثير من الحيل في

ذلك الوقت للالتفاف على مراسيم الإمبراطورية. ففي عام 1721 استخدم الريس يعقوب بحارة مسيحيين وأعلاماً أجنبية، ووصل به الأمر إلى البيع الوهمي لحصته في السفينة لرعايا عثمانيين مسيحيين، على أمل أن يرسو في البندقية. وتم إجهاض محاولته في مهدها. وقد وجد الحل بعد بضع سنوات، وتحديداً عام 1728، من جانب الريس يحيى، الذي اتفق مع قنصل هابسبورغ في دراس على تقليص مدة الحجْر الصحي قبل أن يصل إلى ميناء تريسته. ومنذ تلك اللحظة وما بعدها، عاد سوق أولتسيني للازدهار، وبدأت السلع العثمانية تصل بوفرة إلى المرفأ الأدرياتيكي الجديد، ومنه تمضي في طريقها مهربة إلى الأراضي البندقية، وإلى مدينة البندقية نفسها.

ويمكن العثور على مزيد من الأدلة على تحلل الباب العالي نسبياً من الاهتمام بالتجارة في البحر الأدرياتيكي في الشكاوى المقدمة من الصدر الأعظم الوزير إلى المبعوث البندقي المقيم في عام 1770. فقد اتهم خليل باشا الجمهورية بأنها سمحت بالدخول إلى خليجها، من خلال قنوات داخلية غامضة، للأسطول الروسي القادم من بحر البلطيق والمتجه إلى البحر الأبيض المتوسط. وكان على الباب العالي أن يواجه خصوماً جدداً أشداء، ولكن أسطورة البندقية ومؤامراتها السياسية كانت لا تزال حية في أروقة السلطة في القسطنطينية[1].

(1) Pedani, *Gli ottomani in Adriatico tra pirateria e commercio*, cit., pp. 57-64.

الفصل التاسع

معرفة الآخر

1. البندقية «Venezia»

فينيسيا هي المدينة الأوروبية الوحيدة التي لها اسم باللغة العربية، وهو البندقية. والاسم مشتق من بندقي، أي من فينيسيا، وجمعها بندقيون وبناديق وبنادقة وبنادقيون وبنادقون، ولها اسم يعود إلى القرن الثامن عشر مستخدم في المغرب العربي، هو البلنسيان. وجذر الكلمة ربما كان مشتقاً من اليونانية «أونتيكوس 'uenetikós'» وهو الاسم الذي كان البيزنطيون يسمون به سكان البحيرة. وهناك أصل آخر للكلمة، رغم زيفه الواضح، تم طرحه ذات مرة، وهو أن الاسم جاء من البندق، الذي كانت تسمى به طلقات النار، والذي تخصصت البندقية في بيعه للمصريين. وهي مفارقة تاريخية؛ لأنه حتى القرن الرابع عشر كانت كلمة بندق تعني فقط: البندق، الكرة، أو بشكل عام، أي شيء على شكل مستدير، في حين لم تكن طلقات الرصاص معروفة بعد.

وفي هذا الصدد من المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه في الأوقات الأقدم من ذلك كانت البندقية تسمى أيضاً «أوليفولو» من أصل كلمة «زيتونة» وهو شكل جزرها الرئيسة، والذي لاحظه البحارة الأوائل الذين دخلوا

إلى ثغر ميناء سان نيكولو. ولعدة قرون كان أسقف البندقية يسمى أسقف أوليفولو، أو أسقف القلعة، حيث كان هذا المكان هو الذي شيد فيه أول حصن للمدينة، والذي شيدت فيه الكنيسة الرئيسة المكرسة للقديس بطرس، وكان برج أجراسها يعمل فناراً للسفن. ولا يزال هناك حتى اليوم أسقف للقلعة، على الرغم من منح هذا اللقب لتكريم بعض الشخصيات من «الكوريا الرومانية» ليس لها أية علاقة بأبرشية البندقية، التي تحولت منذ عام 1451، إلى بطريركية.

إن الكلمات غالباً ما تتخذ معاني مختلفة، ويكفي نطقها نطقاً مغايراً خفيفاً حتى يتحور معناها. البُندوق / البندُوق يعني الولد اللقيط أو النذل أو الحقير. وهي كلمة مشتقة من البنداق، أي العبد الشاب. وفي هذه النقطة لا يسعنا إلا أن نذكر شهرة البندقية في تجارة الرقيق والأخشاب، حتى من قبل عام ألف، في حوض البحر المتوسط، وأن أولى اتصالاتها مع المشارقة المسلمين اعتمدت على هذه المبادلات، رغم أن الصادرات التي كانت تخرج من البندقية في القرون التالية تغيرت واستُبدلت بها الأقمشة من كل نوع. ففي عام 1284، ولمواجهة استخدام الفيورين الخاص بمدينة فلورنسا، منافستها الشرسة في التجارة، صاغ البنادقة الدوقية الذهبية، ووُضعت عليها صورة القديس الإنجيلي. ونجحت العملة نجاحاً باهراً، لاستقرارها ووزنها وقدرها، وأصبحت واحدة من العملات الرئيسة في كامل بلدان البحر الأبيض المتوسط. وهكذا حملت صفة البندقي أيضاً معنى الدوقية، ولكنها أصبحت تشير كذلك إلى قطعة من قماش الكتان الرقيق الناعم.

وأقدم ما وصل إلينا من أخبار البندقية في مؤلف عربي نجده في كتاب «**الأعلاق النفيسة**» لابن رسته، ما بين عامي 903 و913 ويصف فيه رحلة قام بها هارون بن يحيى، وهو أسير مسلم لدى المسيحيين، وقد نقلوه عبداً إلى القسطنطينية، وبعدها إلى إيطاليا. حيث يقول: «وتخرج من هذه القرية [بلاطيس، سلبيت] فتسير وسطهم [اللومبارد] مقدار شهر في غياض وأشجار، وربما يلقاك تلال فيها منهم أصناف حلول حتى تنتهي إلى قرية تدعى البندقيس. وهم نزول [اللومبارد] في صحراء ملساء، ليس لهم قرى ولا مدائن، إنما بيوتهم من خشب منحوت صفائح، وهم على دين النصرانية. فتسير في وسطهم عشرين يوماً تنزل عليهم وترتحل من عندهم، وتمتار من طعامهم وتتزود منه حتى توافي مدينة الرومية، وهي مدينة يدبر أمرها ملك يقال له الباب»[1].

وفي نهاية القرن العاشر يصف كاتب آخر، هو ابن حوقل (توفي 976–977)، في كتابه «**صورة الأرض**»، رغم أنه لا يتحدث صراحة عن البندقية، يصف البحر الأدرياتيكي باعتباره جزءاً من البحر الأبيض المتوسط، ويسميه جون البنادقين، أي خليج البندقية. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه قبل القرن الحادي عشر، عندما كانت الوثائق البندقية لا تزال تذكر هذا البحر باسمه اللاتيني، أدرياسنس (*Adriacens*)، فإن هذا الكاتب العربي يربطه بالنفوذ الذي كان يمارسه عليه سكان البحيرة. وقد بدأ البنادقة، في الواقع، في استخدام كلمة الخليج فقط إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر، للإشارة أساساً للمنطقة الواقعة بين أكويليا وبولا. ومع مرور

(1) M. Nallino, *Venezia in antichi scrittori arabi*, in «Annali della Facoltà di Lingue e Letterature Straniere di Ca' Foscari», 2, 1963, p. 111.

السنين، اتسع هذا الحيز المائي حتى وصل إلى خط وهمي وضع إلى الجنوب قليلاً: ففي البداية كان يضم بولا وأنكونا، ولكن في وقت لاحق انضمت لوكا أوترانتو وفالونا وأيضاً سانتا ماريا دي ليوكا وجزيرة كورفو، ومع ذلك فقد كانت المصادر العربية هي أول من ربط البحر الأدرياتيكي باسم البندقية.

وفي حوالي عام 1154 أنهى الجغرافي العربي بربري الأصل «الإدريسي» عمله الكبير المسمى بـ«**كتاب روجر**». وقد درس هذا المؤلف، وهو من مواليد المغرب، في قرطبة، ولكنه ذهب بعد ذلك إلى صقلية، التي كانت آنذاك تحت حكم روجر الثاني دالتافيلا (1130–1154)، وهو الحاكم الذي أهدى إليه عمله. ذكر الإدريسي الأدرياتيكي وسماه خليج (قناة) البندقية وبحر البنادقة. كما أنه وفر أيضاً بعض المعلومات عن المدينة نفسها[1]، إذ يقول:

«من سيرفية (تشرفيا) حتى ربنة (رافينا) وهي متوسطة بلاد البنادقة، خمسة وعشرون ميلاً. وهي دار مملكة البنادقيين ولهم مائة مركب.. ومن ربنة إلى قمالقة (كوماكيو)، وهي مدينة كبيرة خصيبة، على نحر البحر، خمسون ميلاً.. ومنها إلى فنرو [البندقية][2] أربعة وأربعون ميلاً. وهي دار

(1) Edrisi, *L'Italia descritta nel «Libro di Re Ruggero»*, a cura di M. Amari e C. Schiapparelli, Roma, Salviucci, 1883, pp. 81-82, 136 (testo arabo, pp. 28-29, 112, su cui mi sono basata per identificare i toponimi).

(2) حول المشكلات التي تطرحها هذه التسمية المكتوبة بطرق متباينة في المخطوطات المختلفة راجع: Nallino, Venezia in antichi scrittori arabi, cit., pp. 117-118.
وعلاوة على ما يقوله هذا المؤلف يمكن أن نضيف أنه في حالة أن الكلمة تعني «الفنار» يمكن أن تشير إلى المدينة التي بها برج أجراس سان ماركو، والذي كان ارتفاعه عام 1150 ستين متراً، وكان يستخدم فعلاً لإرشاد السفن إلى الطريق، ويضاء ليلاً بمشاعل ويلمع في النهار بفضل القبة المذهبة التي تعكس أشعة الشمس.

مملكة البنادقيين ويسكنها ملكهم، وهو صاحب أجناد وأسطول. وهذه المدينة يحيط بها البحر من كل جهة.. ومنها إلى أطربلة (تراجولو، بالقرب من يزولو الحالية) ثلاثة وعشرون ميلاً.. وأطربلة مدينة كبيرة عامرة جداً. ولهم مراكب غزوانية كثيرة ولها قرى ومزارع ونهر صغير ويشربون منه.. ومن أطربلة إلى مدينة بونص (كاورل) ثمانية عشر ميلاً. وهي مدينة كبيرة عامرة بها بيع وشراء وديوان وجبايات ولهم مراكب كثيرة يسافر فيها.. ومنها إلى كرادس (جرادو) ثمانية وثلاثون ميلاً. وهي مدينة كبيرة بها بشر كثير وجمع غزير ولهم مراكب كثيرة واردة وصادرة. [...]»

«وأما جزائر البنادقة فهي ست، ثلاث في صف وثلاث في صف يتلوها. وجميعها عامرة وهي متوسطة بلاد البنادقيين. وبها عرفت البلاد والبحر [...] ومن مدينة سيرفية (تشيرفيا) إلى ربنة [رافينا] خمسة عشر ميلاً. وكان اسم رافينا القديم هو بوغالة. وهي متوسطة بلاد البنادقيين، ومن أكبر مدنها.. ومن ربنة إلى قمالقة (كوماكيو)، وهي مدينة عامرة بها مراكب كثيرة، خمسون ميلاً. وأهلها يهابهم الجيران ويحترمونهم.. ومن قمالقة إلى بروندولو ثمانية عشر ميلاً.. ومنها إلى بادوا [البندقية]، المدينة التي يقيم فيها واحد من ملوك البندقية، خمسة أميال. وهي مدينة كبيرة بها مراكب وترسانة.. ومنها إلى تريتيس (كاورل)، وهي مدينة جميلة لها قنوات وجنود شجعان، ثلاثون ميلاً.. ومنها إلى كرادس (جرادو)، التي يحلو للبنادقة الإقامة فيها، عشرون ميلاً. وهي مدينة عامرة ولها سفن وعتاد».

يتّضح من هذه الأوصاف أن «الإدريسي» ليس لديه فكرة واضحة

عما كان عليه الوضع في البندقية في وقته. لقد استخدم المصادر القديمة التي تعكس حالة شبه الجزيرة الإيطالية في عصر كان مقر الإكسرخسية البيزنطية (مركز الحكم البيزنطي في إيطاليا) في رافينا، ولم تكن البندقية إلا إقليماً بيزنطياً. كما أن المسافات بين الأماكن ليست دقيقة جداً وتشير إلى معرفة قليلة بالأماكن. ثم إن هناك العديد من المشكلات في تسمية الأماكن، وكذلك في عدد الجزر التي تتكون منها البندقية، التي يرى بعض المتخصصين أن المدينة تنقسم إلى ستة أقسام، بينما لم يتم إقرار هذا التقسيم الإداري إلا في عام 1171، أي بعد بضعة عقود من تأليف هذا العمل.

كان اهتمام الكتّاب العرب القدامى بأوروبا منصبّاً على الناحية الجغرافية. وكان العالم مقسماً إلى أقاليم (مناخية) يتم وصفها بدقة. بل إن بعض الجغرافيين، مثل ابن رسته، ذهب إلى الحديث عن اثنتي عشرة جزيرة تتألف منها بريطانيا، وبعدها ينتهي العالم المعمور، ولا أحد يعرف ما وراءه. وبالطبع كان أولئك الذين يعيشون في الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط أكثر اهتماماً بالبندقية من أولئك الذين يعيشون بعيداً غربها. وعلى سبيل المثال، يتحدث الزهري، وهو مؤلف من القرن الثاني عشر، ربما من الأندلس، على نطاق واسع عن سكان غنوة (جنوة) وبيغا (بيزا)، في حين يذكر عن البندقية اسمها فقط.

وطبقاً لكلامه كانت جنوة من كبريات المدن في أرض الروم والإفرنج، ويتحدر سكانها من قبيلة عربية اعتنقت المسيحية. وهم لهذا لا يشبهون على الإطلاق شعوب الروم الأخرى؛ فشعرهم أسود ومجعد وأنوفهم معقوفة.

ووفقاً لهذا المؤلف، كانت المدينة الأهم من جنوة هي بيزا، التي يعبرها نهر كبير وجسر بثمانية أقواس يمكن غلقه لمنع سفن المسلمين من دخول المدينة، واشتهر سكانها بأنهم محاربون أشداء وبحارة ماهرون وصانعو سيوف مهرة. وفيما يتعلق بالبنادقة قال الزهري: إن مدينتهم كانت بين القسطنطينية والشام، أي بين العاصمة البيزنطية وبحر الشام الذي يمتد وفقاً للبعض حتى يضم البحر الأدرياتيكي. ويقول أيضاً: إن البنادقة كان لديهم مجوسهم (شيوخ السحر)، وكانوا يشكلون خطراً على مصر في عهد الملك الأفضل. وربما تنطبق هذه الشخصية على الحاكم الأيوبي الذي حكم بين 1193 و1195، أو على الأرجح على وزير قوي في الخلافة الفاطمية كان الحاكم الفعلي للبلاد حتى وفاته في عام 1121. وفي الواقع، حاربت البندقية في مايو 1123، مدفوعة من قبل الصليبيين، في أول معركة بحرية ضد مصر ودمرت أسطول المسلمين كله، إلا سفينة واحدة[1].

ولم يهتم المؤرخون العرب قدر اهتمام الجغرافيين بالمناطق الأوروبية؛ ولهذا يصعب أن تعثر في كتبهم على معلومات حول البندقية، ومعظم المصادر التي يتم الرجوع إليها كانت البحارة والتجار والعبيد، وهؤلاء الناس كانوا يعرفون اللغات والمواقع وأسماء الأماكن والأزياء، ولكن لم يكن بوسعهم تقديم تقارير دقيقة عن الأحداث الماضية في بلدانهم. من بين كتّاب الأعمال التاريخية يمكن أن نذكر أولاً أبا الفداء، وهو أمير أيوبي عالم توفي عام 1331. وحتى يمكنه العثور على معلومات حول البندقية،

(1) Zuhrī, *Kitāb al-Dju'rāfiya. Mappamonde du calife al-Ma'mūn reproduite par Fazārī (IIIe-IVe s.) rééditée et commentée par Zuhrī (VIe-XIIe s.) par M. Hadj-Sadok*, in «Bulletin d'Études Orientales», 21, 1968, pp. 179-180, 229-230, 269.

لجأ إلى مؤلِّف أقدم ضاع مصنّفه وهو ابن سعيد، من المغرب. وبناء على هذا المصدر، أصبح أبو الفداء الآن أول كاتب عربي يتحدث عن سوق ريالتو.

«وبندقية شرقي بلاد الأنبردية على طرف الخليج المعروف بجون البندقية وعمارتها في البحر وتخترقها المراكب وأكثرها يتردد بين الدور ومركب الإنسان على باب داره، وليس لهم مكان يتمشون فيه إلا الساباط الذي فيه سوق الصرف صنعوه لراحتهم إذا اشتهوا التمشي وملكهم من أنفسهم ويقال له الدوك [...] أو في نهر من أنهار أرضه الذهب المائل إلى الخضرة وعنده الأخشاب الكبيرة العظيمة. وعلى شط بحر البندقية جبل النسكفونية فيه الأخشاب والسناقر والرجال الشجعان الذين يغلبون بهم في البحر أهل الجنوة، ولهم جزائر صغار. ومن أعمال البندقية جزائر النقربنت [...] وكثيراً ما يكمن بين تلك الجزائر شواني الحرامية. وفي شمالي جزائر نقربنت وشرقيها مملكة استيب»[1].

وكان المؤلفون الآخرون أقل اهتماماً بالمعرفة. ومنهم على سبيل المثال نذكر المقريزي، الذي عاش في العصر المملوكي، عندما كان التجار يترددون بنشاط على سوقيْ الإسكندرية والقاهرة، حتى وإن كان بوقائع مغايرة. والذي لم يطرح حتى مسألة نوع جماعة الفرنجة الذين وصلوا على متن سفينة ذكر أنها وصلت إلى ذلك الميناء عام 1304، بعد عامين من إقرار العلاقات التجارية التي كانت قد انقطعت لمدة طويلة بين القاهرة والبندقية، ودفعت هذه السفينة أربعين ألف دينار

(1) Nallino, *Venezia in antichi scrittori arabi*, cit., p. 113.

رسوماً جمركية[1].

وقد اهتم بعض الوزراء بالدول الأجنبية ولكنهم اقتصروا على الدول التي كانت توجد معها علاقات دبلوماسية أو تجارية. وكان لابد أن تعطي دفاتر كتاب القصر معلومات صحيحة حول كيفية معالجة الرسائل المرسلة إلى الحكام الأجانب، وما إذا كانت هناك نماذج محددة لاستخدامها مع كل حاكم على حدة. ففي زمن لم يوجد فيه من وسائل الاتصال غير البشر والورق، كان من المهم التأكد من أن الرسائل أصلية، خاصة إذا كانت صادرة من رئيس دولة أو موجهة إلى رئيس دولة؛ ولذا فإن كتبة القصور، وهم متواصلون فيما بينهم، قد وضعوا نظماً للرقابة قائمة على الصياغات والجمل المستخدمة، وهذا يعني أن تلقي بريد لا يحترم البروتوكول المتفق عليه معناه وجود شبهة في أنه وهمي.

ومن هنا اكتسبت أدلة قلم الكتبة أهميتها، وكذلك الدفاتر التي كانت تتضمن القوالب والنماذج الخاصة بالرسائل. ففضلاً عن الاستخدام العملي، تم توسيع بعض أعمال الكتاب (السكرتارية) بوضع معلومات تاريخية وجغرافية ومعلومات متعلقة بالعادات والتقاليد المختلفة، من أجل خلق نوع من الموسوعات وتوسيع الآفاق الثقافية لدى الزملاء الموجهة إليهم هذه الكتيبات التعليمية. ويعود أبرز مؤلفات هذا النوع إلى العصر المملوكي. وكان أحد أشهر الكتاب هو «العمري»، الذي عاش في دمشق، وعمل لحساب بلاط السلاطين، وتوفي في عام 1348.

(1) Taki-Eddin-Ahmed Makrizi, *Histoire des sultans Mamlouks de l'Egypte*, a cura di E.M. Quatremère, 2 voll., Paris, Oriental Translation Fund of Great Britain and Ireland, 1845, vol. II, parte IV, p. 233.

وكتب «**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**»، ووصلت إليه أخبار الدول الأوروبية عن طريق كل من الكتب القديمة والتجار والرحالة. وهكذا وصف مدينة البندقية، مشيراً إلى بعض المصادر ومنها ما يعود إلى العصر البيزنطي[1] حيث يقول:

«(ويشمل الإقليم الخامس) إقليم قرنطاره: ويتصل بها ساحل البنادقة، وهم على شط الخليج الخارج من البحر الشامي. آخذاً من الجنوب إلى الشمال. وقاعدتهم هي مدينة ربنة، وهي كرسي ملكهم على ضفة نهر يأتي إليها. ثمراتها أكثر من زروعها. وتنتهي بلادهم عند كراديس، لأنها على نهاية الخليج البندقي، وهي مدينة متحضرة كبيرة القطر. وبلاد البنادقة عامرة بالأحناء والعمال والرجالة المحاربة، والتجار المكتسبة، وبها القرى ومغارس الأشجار، ومزارع الأذراع. وأهلها أهل يسار، ومال ملء يمين ويسار، والبخل غالب عليهم غال عليهم بالإمساك لأيديهم. لا يعرف لهم كريم، ولا يذب عن أهل ولا حريم، مع ظهور النعمة عليهم، وكثرة تجولهم في الآفاق، وتغربهم في الأقطار».

وبعد ذلك بقليل يواصل العمري معلوماته التي مده بها الجنوي دومينيكينو دوريا. وكان يعيش بين نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر. وكان عبداً في فارس أعتقه الأمير بهادر المعزي،

(1) C. Schiapparelli, *Notizie d'Italia estratte dall'opera di Šihāb addīn 'al 'Umarī intitolata masalik 'al-'abṣār fī mamālik 'al-'amṣār*, in «Atti R. Accademia dei Lincei», s. IV, vol. VI, 1888, p. 308; per le due citazioni seguenti: M. Amari, *'Al 'Umari, Condizioni degli stati cristiani dell'Occidente secondo una relazione di Domenichino Doria da Genova. Testo arabo con versione italiana e note*, in «Memorie della R. Accademia dei Lincei», s. 3, vol. XI, 1883, pp. 80, 96-97, e Nallino, *Venezia in antichi scrittori arabi*, cit., pp. 113-114.

فأصبح من عتقائه ومترجم بلاطه، واتخذ لنفسه اسماً تركياً هو بلبان (صقر مهاجر).

«أما البنادقة فلا ملك لهم، وإنما حكمهم (كمون)، وهو الاتفاق على رجل يحكمونه عليهم باتفاق رأيهم عليه. ويسمى البنادقة فينسين. ورايتهم صورة آدمي بوجه يُزعَم أنه صورة مرقص، أحد الحواريين، والرجل الذي يحكم عليهم يكون من أحد بيوت معروفة لديهم. وعساكرهم ليست من صليبة أنفسهم، وهم مجموعة من أخلاط الأجناس، تستخدم في أوقات الحاجة بالدراهم. والبنادقة من أكثر الفرنج مالاً وأوسعهم حالاً، وبلادهم ضيقة. وبها دار ضرب فضة جليل المقدار، تنشأ منه سحبه، وتصب على كل الأقطار: وهي دراهم متساوية الأوزان، على أحد الوجهين صورة شخص وعلى الآخر صورة شخصين».

وجنباً إلى جنب مع العمري تقف شخصية «القلقشندي» مؤلف كتاب آخر شهير لطائفة الكتبة، له عنوان شعري هو **«صبح الأعشى في صناعة الإنشا»**، والذي أتم تأليفه ما بين عامي (1411–1412). لمدة طويلة الآن، كان للبندقية اتصالات مع مصر: وتعود الامتيازات الأولى التي منحها السلطان للسماح للتجار البنادقة بالمتاجرة بحرية في أرضه إلى بداية القرن الثالث عشر، عندما كانت الأسرة الأيوبية لا تزال تحكم. ولهذا لم يبدُ غريباً أن يصف هذا المؤلف كيف يجب مخاطبة الدوجي البندقي على نحو صحيح، وأي ألقاب ينبغي استخدامها في مخاطبته. وإضافة إلى ذلك، ولمزيد من الإيضاح ولبيان النموذج الذي ينبغي استخدامه من جانب البنادقة عندما يخاطبون حاكم مصر يورد القلقشندي أيضاً ترجمة

عربية لخطاب مكتوب من الدوجي ميكيل ستينو (1400– 1413) إلى السلطان فرج (1398–1412م). ومن الجوانب التي بدت غريبة للمؤلف اللقب الذي يتخذه حاكم البندقية، حتى إنه شعر بأنه مضطر لشرح أن كلمة «دوك» (دوجي) لا تحمل المعنى نفسه لكلمة «ملك»، وبالتالي فإن الرسائل الموجهة إلى الدوجي لابد أن تصاغ على نحو مختلف قليلاً عن الصياغة المستخدمة للحكام الذين يتمتعون بالصفة الملكية(1).

فإذا تصفحنا بتركيز الأدبيات العربية في القرون الوسطى نجد مؤلِّفين آخرين يذكرون البندقية، مثل ياقوت (توفي عام 1229)، والنويري (توفي عام 1332)، وابن الوردي (توفي عام 1446). وقد جاء وصفهم مختصراً للغاية ولم يقدم تفاصيل مثيرة للاهتمام عن المدينة. أما ما ذكر كثيراً عن البندقية فكان عن الدوقية الذهبية التي ظلت لقرون عديدة هي العملة المتداولة في التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط كله، وخارجه أيضاً. حتى الرحالة الشهير ابن بطوطة في رحلته من المغرب إلى الصين والذي يمكن أن نطلق عليه بحق «ماركو بولو» العرب، ذكر عملة الدوقية كثيراً، رغم أنه لم يأت على ذكر البندقية نفسها(2).

ومع الغزو العثماني للعالم العربي بدأت مدة طويلة من السبات الذي لم يخرج منه العالم العربي إلا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. كان العصر الذهبي قد انتهى بالفعل عندما قادت الجيوش العربية غزو

(1) F. Gabrieli, *L'Islam nella storia*, Bari, Dedalo, 1966, pp. 97-115; M. Amari, *De' titoli che usava la cancelleria de' Sultani di Egitto nel XIV secolo scrivendo ai reggitori di alcuni Stati italiani*, in «Reale Accademia dei Lincei», s. 3, vol. XII, 1884-1885, pp. 507-534.

(2) Ibn Battūta, *I viaggi*, a cura di C.M. Tesso, Torino, Einaudi, 2006, pp. 389-390.

الحصون البيزنطية والساسانية الواحد بعد الآخر، فاستولت على أراضي الإمبراطوريتين، وعلى عاداتهما أيضاً. وأصبح المماليك الذين يحكمون القاهرة يحكمونها مستقلين، وفي الوقت نفسه شكلوا جزءاً من مكونات المجتمع المصري، وتحول السلطان العثماني تدريجياً إلى الخليفة الذي يحمي جميع المسلمين. ومن ثم أصبحت القسطنطينية محور السياسة الدولية يرجع إليها حتى في مجال الفن. وهكذا كان على كل من يريد الحصول على اعتراف الإمبراطورية الجديدة وتقديرها أن يكتب بلغتها الرسمية. فيما ظلت اللغة العربية لغة الدين ولغة بعض الولايات العثمانية. ولكي نتعرف على الفكر الإسلامي حول البندقية في العصر الحديث يجب أن ننتقل إلى الكتّاب والمؤرخين الذين كتبوا باللغة العثمانية.

2. البندقية عند الكتّاب العثمانيين

في الخامس عشر من يونيو عام 1596 كتب المبعوث البندقي المقيم، في العاصمة العثمانية برْقية تفيد أن الوزير الرابع جيجالزاد سنان باشا قد أعرب عن عزمه الاستيلاء على مدينة البندقية، واصفاً إياها بأنها «جارية لطيفة». وعلى العكس من ذلك وصف الصدر الأعظم قرة ديف مراد باشا في 5 فبراير 1651، البنادقة بأنهم «سلالة من الصيادين وصناع الزجاج». وفصَلَ ما يقرب من قرن من الزمان بين هاتين العبارتين اللتين تظهران كلتاهما قدراً كبيراً من الصور النمطية وقدراً ضئيلاً من المعرفة المباشرة. وقد تعلقت صلات العثمانيين بالبنادقة أساساً بحياة البحر، وفي الواقع لا تزال هناك الكثير من الكلمات التركية في الملاحة البحرية

مستمدة من اللغة الإيطالية عبر البندقية. وبالنسبة إلى رعايا السلطان كان سكان البحيرات مرتبطين غالباً بنشاط الصيد، مع كل ما هو سلبي مرتبط بهذه المهنة بالنسبة إلى قوم جاءوا من السهوب والبراري الآسيوية ويفضلون اللحوم على الأسماك، حتى إن معظم أسماء الأسماك في التركية مشتقة من اليونانية. وتفضّل عادات الأكل في القسطنطينية تناول أسماك المياه العذبة، ولكن كان ذلك يرجع فقط إلى عامل التكلفة.

ومن ناحية أخرى كان البنادقة بصفة عامة يرون في الإمبراطورية العثمانية خطراً داهماً أو سوقاً غنية يمكنهم أن يسوّقوا فيها منتجاتهم ويحققوا من خلالها أرباحاً جيدة، وفي جميع الأحوال مثلت لهم واقعاً لا يمكن تجاهله. وعلى العكس من ذلك، كان بوسع العثمانيين الاستغناء عن الجمهورية الصغيرة، الواقعة في الطرف الشمالي من البحر الأدرياتيكي، ونسيان وجودها. وغالباً ما كانت الإمبراطورية تلجأ إلى البندقية عندما كان بلاط القصر يطلب سلعة نادرة أو ثمينة فحسب، كما لو كان منزل المبعوث المقيم بمثابة بازار لابد أن يحتوي على كل أنواع السلع، وهو ما شكا منه بإحباط الممثل المقيم أغوستينو ناني عام 1601 أمام طلب القصر بعض ألعاب العرائس الورقية التي تصنعها الراهبات، لأبناء السلطان وقزمه. «ومن ثم فهم يظنون هنا أن بيت المبعوث البندقي المقيم به محل مفتوح يحتوي على جميع أنواع السلع»[1].

كما عكست الأعمال الأدبية أيضاً هذه الطريقة في التفكير. فلا يذكر تورسون بيك، في كتابه عن حياة محمد الثاني، البندقية صراحة، بينما

---

(1) ASVe, *Senato, Dispacci Costantinopoli*, f. 54, n. 7, 7 ottobre 1601.

كان يتحدث ليس فقط عن الاستيلاء على القسطنطينية، حيث كانت سفن البندقية تخوض الحرب، ولكنه تحدث أيضاً عن الاستيلاء على بعض الأماكن التي تملكها الدولة البحرية، مثل نيغروبونتي، وأليسيو، وشكودرا الألبانية، التي وقعت خلال حرب (1463–1479). ولم يكن البنادقة بالنسبة إليه سوى جماعة من «الكفار» مهزومة من جيوش باديشاه المجيدة. إنهم أمام نيغروبونتي يخدشون بالأظفار وجوه العار السوداء ويصبغون شراعهم باللون الأسود لون مصيرهم الذي أصبح بالفعل أسود. محبطون ومهزومون كانوا يوجهون سفنهم في الاتجاه المعاكس للوجهة التي يرغبون ثم يختفون.

أما حول شكودرا فكانت الأرض ممتدة وفيرة المحصول مأهولة بالسكان مزدهرة الأحوال، وهي جزء من ممتلكات فرنجة «الكابوريا العرجاء»[1]. ونظراً إلى الميل العثماني إلى الجناس أعطوا البنادقة لقب «الكابوريا العرجاء» والإنجليز «عديمي الدين» والفرنسيين «عديمي الروح» والمجريين «المنحوسين» والروس «الموكوسين» والألمان «عديمي الرحمة».

وفي بداية القرن التالي وصف الجغرافي والبحار الريس بيري في كتابه عن موانئ البحر الأبيض المتوسط، وهو «**كتاب البحرية**»، الذي أنجزه عام (1520–1521) ووسعه عام (1525–1526)، ووصف فيه بقدر كبير من التفصيل البحر الأدرياتيكي بسواحله، وخلجانه وموانيه. وهو يقول عن البندقية إنها توجد في طرف خليج البنادقة على بحيرة، وإنه للدخول إليها

(1) Per entrambe le citazioni, Tursun Bey, *Târîh-i ebü'l-feth*, İstanbul, Baha Matbaasi, 1977, pp. 148, 177 (trad it. *La conquista di Costantinopoli*, a cura di L. Berardi, Milano, Mondadori, 2007, pp. 206, 243).

لابد للمراكب أن يصعد إليها في بارنسو مرشد خبير بغواطس البحر وضحالته، بمقتضى القانون في المدينة. وكان يتم الرسو أمام رصيف الميناء المواجه لبرج أجراس سان ماركو، وهي النقطة المرجعية بالنسبة إلى أولئك الذين يأتون من البحر. ويرى المؤلف أن دخول البحيرة يتم من خلال أربعة مداخل، وهو تأكيد كان دقيقاً آنذاك؛ لأن واحداً من هذه المداخل تم غلقه في القرن التاسع عشر. كما أنه يروي على نحو صحيح كيف يتم توفير مياه الشرب في المدينة التي يتم حملها في قوارب من الأنهار الداخلية وتباع في الشوارع، وقد مثلت إمدادات المياه دائماً مشكلة بالنسبة إلى البندقية، حيث لم يكن هناك سوى مصدر واحد للمياه العذبة، وكان هذا المصدر موجوداً داخل محيط ترسانة البحرية مختلطاً بمياه البحر. فكان يتم جمع مياه الأمطار في خزانات، ويتم تناول ماء نهر سيله الذي يتم حمله على قوارب بنيت خصيصاً لهذا الغرض.

وقد كان وصف الريس بيري دقيقاً لدرجة أثارت شكاً في أنه ذهب إلى البندقية فعلاً، ربما أثناء رحلات قام بها عمه الريس كمال، وكان من القراصنة المشهورين وبعد ذلك من أكبر قادة البحرية العثمانية. بدت له البحيرة «دائرة من البحر المليء بالبيوت، بيوت على البحر وأخرى على البر». وهو ما يؤكد أن المدينة «تم بناؤها بغرس الأعمدة في المناطق الضحلة»، في إشارة واضحة إلى الغابة الغارقة التي بناها البنادقة القدماء لرفع قواعد البيوت في المنطقة التي يختلط فيها البر بالبحر. ويقول أيضاً إن راعي المدينة هو سان ماركو وإن أهلها يعملون بالتجارة. ويبدو غريباً نوعاً ما الادعاء بأنه يتم الاحتكام للنرد لتحديد خليفة الحاكم، وربما

نشأ عنده هذا الخلط بسبب نظام انتخاب الدوجي المعقد والذي نص على تناوب التصويت واللجوء للقرعة لمنع الغش. وهناك عدة نسخ مع الرسوم التوضيحية لـ«**كتاب البحرية**». النسخ الأول نفذه الريس بيري نفسه عام (1520–1521) وعام (1525–1526)، ولكن في القرون التالية، وخصوصاً في زمن محمد الرابع (1648–1687)، لم يقتصر الأمر على نسخ النصوص والصور، وإنما بدأ إغناء العمل إلى حد جعله كتاباً جديداً، ولكنه ظل قائماً على هيكل الكتاب القديم.

وفي الرسومات الأقدم يتم التعرّف على مدينة البندقية، بعيداً عن التعليقات المكتوبة تحتها، بفضل عموديْ ماركو وتودارو، اللذين لا يزالان قائمين في ساحة سان ماركو. كما يمكن أن نكتشف برج الأجراس والترسانة، ولكن اتساع القناة الكبرى، المساوية لقناة سان جوديكا، لا يبدو دقيقاً بالقدر نفسه. وفي طبعات القرن السابع عشر، مثل النسخة التي صنعها سيد نوح والمحفوظة في بولونيا، اتخذت المدينة شكلها النموذجي الذي يشبه السمكة، على الرغم من أن القناة الكبرى لا تزال على اتساع الشوارع المائية الأخرى نفسها تقريباً[1].

(1) Pîrî Reis, *Kitab-ı Bahriye*, 4 voll., İstanbul, The Historical Research Foundation, 1988, vol. II, pp. 891-905; A. Bausani, *L'Italia nel Kitab-ï Bahriyye di Piri Reis*, a cura di L. Capezzone, Venezia, Università degli studi Ca' Foscari, 1990, pp. 19-20; A. Afetinan, *Life and Works of Pirî Reis. The Oldest Map of America*, Ankara, Turkish Historical Society, 1987; Pîrî Reis haritası, Ankara, Türk Tarih Kurumu, 1999; M.P. Pedani, *Immagini Ottomane di Venezia*, in «Venezia viva», 31, 2, 2004, pp. 10-15; D. Loupis, *Ottoman Adaptations of Early Italian Isolaria*, in «Journal of the International Map Collectors' Society», *Capitolo nono 287 80*, primavera 2000, pp. 15-23; G. Curatola (a cura di), *Eredità dell'Islam. Arte islamica in Italia*, Cinisello Balsamo (Mi), Silvana Editoriale, 1993, p. 409.

أما المؤلِّف الذي ذهب بالتأكيد -وفق وصفه- إلى البندقية، فهو الشاعر «ميسيحي» (1556 - بعد 1598)، وهو أرمني لكنه كان يكتب باللغة العثمانية. ومن المؤسف أنه لم يبق في عمله أي أثر لإقامته في المدينة. وكان كاتب سيرته، في واقع الأمر، واسمه عاشق شلبي، هو الذي روى عن هذا الفنان، وحكى أنه وصل إلى المدينة للتجارة، وفتن بجمال البندقية في وقت قصير، حتى إنفق كل الأموال التي كانت بحوزته، وحتى يستعيد المال الذي يكفيه لكي يعود إلى بلده اضطر إلى العمل معلماً يدرّس التركية والفارسية. وقد راودت الفكرة نفسها آخرين كانوا يعانون الحاجة نفسها، ففي عام 1517، على سبيل المثال، كان يمكن العثور على معلم يدرّس العربية بين محال التجار[1].

ثم يأتي مصطفى كاتب شلبي (1608-1657)، المعروف أيضاً باسم حاجي خليفة، وربما كان المؤلف الذي وصف البندقية بمزيد من التفصيل، كما روى تاريخها في عمل حول الحروب البحرية التي خاضها العثمانيون: هذه المدينة لها ثلاثة أو أربعة مداخل على البحر. وعلى الرغم من عدم حمايتها بالجدران والأبراج، فإن إحاطتها تماماً بالمياه تجعلها محفوظة وآمنة. وتوجد بين البيوت طرق وشوارع يستطيع الناس أن يعبروها بالمراكب للوصول من بيت إلى آخر. وفوق هذه المياه هناك حوالي أربعمائة جسر، سواء من الحجر أو من الخشب. ويطلق على

(1) C. Kafadar, *A Death in Venice (1575). Anatolian Muslim Merchants Trading in the Serenissima*, in Raiyyet Rüsûmu, «Journal of Turkish Studies», 10, 1986, p. 212; G. Ortalli, *Scuole e maestri tra Medioevo e Rinascimento. Il caso veneziano*, Bologna, Il Mulino, 1996, p. 50.

أوسع الشوارع اسم القنال وهو يقسم المدينة إلى جزأين، بينهما جسر رائع. ويبلغ عدد القوارب التي تتحرك فيها باستمرار نحو ثمانية آلاف قارب بعضها مزيّن بستائر، وهذه القوارب يطلق على الواحد منها اسم الجندول[1].

ولم تستند معرفة مصطفى شلبي إلى أطلس الخرائط للفلمنكي جيراردوس ميركاتور فحسب، كما يقول صراحة، ولكنها استندت أيضاً إلى حكايات الرحالة والتجار. وأورد عن البندقية تفصيلات دقيقة: فهو يتحدث عن المنصات القديمة وعن أن حكم الدوجي بدأ عام 757 بعد ميلاد المسيح، وأن البعض يعود بتأسيس المدينة إلى عام 421، وهو ما تقول به الأساطير البندقية. ويقول إن في عصره كان يعيش فيها ثلاثمائة ألف شخص، وإن المجتمع البندقي يُقسّم إلى نبلاء، وهم من يحكمون، ومواطنين، ويتولون المناصب الإدارية ويشتغلون بالحرف والتجارة. كما أنه يستشهد أيضاً بأعمدة ماركو وتودارو الموجودة في الساحة، حيث تنفذ أحكام الإعدام، ويصف كنائس المدينة، وأربعاً وستين أبرشية (التي كانت في الواقع أربعاً وسبعين) وأخيراً يعيّن رمز المدينة، الأسد المجنح، دليل شجاعة شعبها.

كما أظهر مصطفى كاتب شلبي اهتماماً كبيراً بأوروبا. فقد ترجم

(1) Kâtib Çelebi, *Tuhfetü'l-kibâr fi esfâri'l-bihâr*, a cura di I. Bostan, Ankara, Başbakanlık Denizcelik Müsteşarlığı, 2008, pp. 65-67; Muştafa b. 'Abd Allah Kâtip Çelebi, *The History of the Maritime Wars of the Turks*, trad. ingl. di J. Mitchell, London, Oriental Translation Fund, 1831 (reprint New York, Johnson, 1968), pp. 8-10; G. Bellingeri, *Voci del Seicento ottomano*, in R. Simonato (a cura di), *Marco d'Aviano e il suo tempo*, Pordenone, Edizioni Concordia Sette, 1993, pp. 59-95.

مع رجل اعتنق الإسلام، وعُرف باسم سايح محمد الإخلاصي، بعض النصوص اللاتينية إلى اللغة العثمانية: «**تاريخ وقائع الأحداث في الشرق**»، وقد نشر في فرانكفورت عام 1587، وسجّل الأحداث لجان كاريون، الذي نُشر في باريس في عام 1548، وترجم أيضاً تحت عنوان «**تاريخ الإفرنج**». أما كتابه «**تقويم التواريخ**» وهو تسجيل متسلسل للأحداث يبدأ من آدم وحتى عام 1648، فتُرجم إلى الإيطالية من قِبل المترجم البندقي جيان رينالدو كارلي ونشر في البندقية عام 1697 تحت عنوان «كرونولوجيا التاريخ» «*Cronologia historica*»[1].

ومن الكتّاب العثمانيين الآخرين الكاتب نعيمة (1655–1716)، الذي غالباً ما يُعد أول مؤرخ رسمي للدولة العثمانية على الرغم من أن وظيفة مسجل الوقائع هذه لم تبتدع إلا بعد موته. ويخصص هذا الكاتب بضعة أسطر لوصف الحكومة البندقية وكيفية انتخاب الدوجي، على الرغم من أن أفكاره حول هذا الموضوع لا تظهر واضحة أو خالية من التحيز. فقد كتب ما يلي:

«الاستخدام الخاطئ للدولة البندقية هو أن الحاكم لا يستمد سلطته من الدم ولكنه يصل إلى الدوقية التي تعادل المملكة بالتناوب. وهناك أربعون سيداً من النخبة لا ينفّذون أمراً دون اتفاق فيما بينهم. فإذا اختلف واحد منهم يعقدون مجلساً ويكررون التصويت، ويتجادلون ويقترحون

(1) Hazi Halifé Mustafà, *Cronologia historica scritta in lingua turca, persiana & araba, tradotta nell'idioma italiano da Gio: Rinaldo Carli nobile Justinopolitano e dragomanno della Serenissima Repubblica di Venezia, consacrata all'Illustrissimo & eccellentissimo sig. Gio: Battista Donado, senatore e savio grande*, Venetia, Andrea Paoletti, 1697.

حتى الاقتناع. ولهذا السبب يتقدم الجزء الأكبر من العمل بطريقة بطيئة. لكنهم في كثير من الأحيان يتفقون جميعاً على الخبائث، وخصوصاً عندما يجتمعون في مجلس الدولة. وبعض هؤلاء الحكام كانوا قد أصبحوا من المبعوثين المقيمين في حلب أو أزمير وأخيراً لدى الباب العالي، عندما حل عليهم الدور. وهم يسافرون للتعرف على أحوال البلاد وجمع الأخبار عنها. ويتم تغيير هؤلاء المبعوثين المقيمين كل ثلاث سنوات، فالقانون يمنعهم من البقاء في مناصبهم لمدة أطول. وعندما يصبح المبعوث المقيم خبيراً في مجال التجارة والرحلات التجارية، عندئذٍ يتلقى منصب جنرال ويشبه إلى حد ما منصب البيلرباي. ثم عندما يموت دوجي، وهو خنزير [= محظوظاً مثل خنزير]، يصبح الجنرال دوجي»[1].

يحيل الكاتب في هذا المقطع إلى طريقة تعيين الدوجي المعقدة، على الرغم من أن فكرة تعيينه مبعوثاً مقيماً قبل أن يصل إلى أعلى منصب في الدولة البندقية، لا أصل لها في القانون البندقي، وهذا الاعتقاد يمكن أن يعتمد على حقيقة أن عمل المبعوث المقيم عادة ما يعهد به إلى شخص كبير السن والمقام، كونه من الوظائف الأعلى أجرة في الدولة البندقية لأن من يُعيَّن في منصب السفير في فرنسا أو إنجلترا كان يتعرض لخطر هدم عائلته بسبب النفقات التي كان عليه أن يتحملها، ومن ثم يتحوّل العديد من المبعوثين المقيمين إلى دوجي على الرغم من أن المنصبين المرموقين غير متعالقين. ثم يذكر نعيمة مجلساً يتكون من أربعين شخصاً: ما يسمى بمجلس الأربعين الذي كان موجوداً بالفعل في البندقية، وكان

(1) *Târih-i Na'îmâ*, a cura di M. İpşirli, 4 voll., Ankara, Türk Tarih Kurumu, 2007, vol. II, p. 909.

في الأصل يتولى الأدوار الهامة جداً.

ولكن هذا المجلس في القرن السابع عشر، عندما ألّف هذا الكاتب عمله، كان يحتفظ فقط بسلطات المحكمة. وكانت هناك هيئات أخرى تدير الدولة فعلياً مثل مجلس العشرة ومجلس الشيوخ. كان المجلس الأكبر في ذلك العصر قد فقد جزءاً من صلاحياته ولم يعد حاسماً في مشاركته كما كان في العصور الوسطى، عندما كان مجلس الأربعين في الواقع من الهيئات الحاكمة، يُستخدم لاستقبال السفراء الأجانب وإعداد مشروعات القوانين ثم يتم التصويت عليها من قِبل مجلس المدينة الأعلى. وأخيراً، فيما يتعلق بلقب «الخنزير» الذي أطلق على الدوجي علينا أن نتذكر أنه يمكن أن يكون له معنى سلبي بحت، ولكن قد تكون له أيضاً دلالة بلاغية، للإشارة إلى شخص يحظى بإعجاب معين.

وبحلول القرن الثامن عشر، وبعد ذلك في القرن التاسع عشر بوجه خاص، لم تعد البندقية شريكاً أساسياً للباب العالي. اختفت الجمهورية قبل غزو نابوليون عام 1797، وأصبحت هناك دول أخرى تهيمن على الساحة السياسية الدولية والأوروبية. وعملت الإمبراطورية العثمانية على وضع برنامج للإصلاح، من أجل أن تتكيف إدارتها وقوانينها مع المستجدات التي وصلت من الغرب. وبدأت مدينة الدوجي المنحلة تتحول إلى قبلة الشعراء الرومانسيين المفضّلة. قصورها الشامخة في خراب وآثارها الشهود الصامتة على عظمة الماضي، وفتنة سحرها الغامض. ولكن الاهتمام بالبندقية لم يعد اهتمام رجال السياسة بل اهتمام الفنان

والشاعر[1]. كما قال في بداية القرن العشرين، الشاعر تركي سزائي في مقطوعة بعنوان البندقية:

«سرّ بشرة سمراء، عيون عسلية ناعسة
البندقية، مرح البندقية، شَعر البندقية الكستنائي![2]

وفي السنوات الأخيرة، كشف بعض الكتاب الأتراك عن العديد من الروابط التي ربطت يوماً ما عاصمة مضيق البوسفور بالبحيرات البندقية. كما يظهر من جديد الآن اهتمام متزايد بالأحداث التاريخية القديمة والمشتركة. ففي عام 1999 نشر نديم كورسل رواية **«رسم الدنيا»**، يتخيل فيها الحوادث التي مر بها مؤرخ فن وهو كامل عثمان الذي عثر في البندقية على الحب والموت. تشير الدقة في المسارات الموصوفة إلى أن المؤلف نفسه قد ذرع مع بطله شوارع المدينة وميادينها، بحثاً عن أثر لجنتيلي بيلليني وهو رسام سافر إلى القسطنطينية لرسم الفاتح. ولدى اقترابه من سان ماركو تداعت صور القناة الكبرى إلى ذهنه. فمنذ وصوله، خطفته البندقية واستولت على روحه، في محاولة لخنقه تحت لوحتها المكونة من الشوارع الضيقة والجسور والقنوات، التي تسلمه إلى جمالها الفاتن[3].

(1) M. And, *La scena italiana in Turchia. La Turchia sulla scena italiana*, Ankara, Istituto Italiano di Cultura, 2004, p. 94.

(2) «Venezia dalle ciglia misteriosamente truccate di kajal, dagli occhi a mandorla nocciola, allegra Venezia, Venezia dai capelli castano-dorati», Sezai (Ali Mümtaz Arolat), *Venedik*, in «Şâir Nedim», 4, 6, febbraio 1919, p. 63; O. Karakartal, *Türk Kültüründe İtalyanlar, Siyaset, kültür ilişkileri ve Türk edebiyatında İtalyan imajı üzerine bir inceleme*, İstanbul, Eren, 2002, p. 108.

(3) N. Gürsel, *Resimli Dünya*, İstanbul, Can, 1999 (trad. fr. *Les turbans de Venise*, Paris, Éditions du Seuil, 2001, pp. 25-26).

وفي الآونة الأخيرة تخيّل أورهان باموك، في رواية «**القلعة البيضاء**»، شخصين، رجلاً من البندقية متحمساً في علم الفلك والرياضيات وعالم فلك من تركيا، متشابهين كأنهما توأمان. نحن في زمن محمد الرابع والبطلان يتبادلان في البداية نظرات الريبة والشك، ثم يعملان معاً، ويفترقان في نهاية المطاف إلى استعارة مثالية عما يمكن أن يسمى بالصلات بين سيدة الأدرياتيكي والباب العثماني[1].

3. فكرة «التركي» في البندقية

حتى قبل عام ألف كان للبنادقة اتصالات مع العرب، وكانوا يسمون في المصادر اللاتينية بأحد اسمين: (*saraceni*)، أو (*Agareni*). الاسم الأول «السراسنة» مستمد من (*šārqīyun*) العربية «شرقيون»، ولكن الآخر من أصل عامي كان يستخدم في الوقت ذاته، ويعود إلى هاجر زوج إبراهيم. وقد أدى هذا إلى ظهور ما كان يُعد اشتقاقاً صحيحاً للاسم، أي الهاجريين، من حيث إن العرب ينتسبون إلى هاجر، من خلال ابنها إسماعيل، وليس للزوجة الثانية سارة، التي ولدت إسحاق. ومع وصول الشعوب التركية واعتناقهم الإسلام اضطرب الوضع في الشرق الأوسط اضطراباً شديداً. فقد خدم القادمون الجدد الخلفاء العرب في المجال الحربي حتى استولوا هم أنفسهم على السلطة، وليبدأوا سلسلة من السلطنات مثل السلاجقة والعثمانيين، أو إمارات أصغر أو كيانات لها اسم تركي وهي البكويات.

(1) O. Pamuk, *Il castello bianco*, Torino, Einaudi, 2006.

وقد كانت مدينة البندقية على وجه الخصوص على اتصال مع تلك الكيانات التي تشكلت على شاطئ الأناضول في البحر الأبيض المتوسط. فحيثما وجدت في وثائق البندقية من القرنين الثالث عشر أو الرابع عشر، ما يشير إلى شيء بكلمة «التركي»، وجب على المرء أن يسأل دائماً عن الكيان المرجعي للدولة صاحبة هذه الصفة، وما إذا كانت إمارة من منتيشي، أو آيدين، أو حتى في كرمان أو المملكة العثمانية الأولى. ولكن البنادقة استخدموا كلمة أخرى في ذلك الوقت للإشارة إلى مثل هذه الجماعات العرقية. وربما يحيلُ الأمر إلى التيوكري وهو الاسم الذي يشير إلى الأتراك في القديم، وهم الطرواديون القدامى الذين أعدوهم ورثتهم وسلالتهم. وقبل الفتح العثماني للقسطنطينية كان البنادقة يسمون السلطان العثماني ماغنوس تويركوز لعدم الخلط مع السلطان، وهو الاسم الذي كان يطلق على حاكم مصر. وفقط في عام 1479 جاءت تسمية محمد الثاني بلقب «السيد» أو «السيد الأكبر» ترجمة لكلمتين وردتا بين الألقاب الإمبراطورية في الوثائق الصادرة باليونانية من كتبة الدولة العثمانية.

ومع القرن السادس عشر أصبحت كلمة «تركي» في البندقية مرادفاً للمسلم، لأنه مع فتح مصر عام 1517، أصبح العثمانيون سادة على جزء كبير من العالم الإسلامي ليصبح لفظ «التركي» إشارة إلى المؤمن بالله باعتبارها اسمَ نوع. ويفسر هذا التعريف مصطلحات فارسية تركية موجودة في الوثائق القديمة، وإلا فلن يكون لها معنى. وفي هذا الوقت سَمى البنادقة أتباعَ الصفويين، الذين حكموا بلاد فارس باسم

«الصفيانيين»، مثل الشاه الذي كان قد استولى على السلطة من خلال استغلال كاريزما شيخ الطريقة الصوفية، وسمي بالحاكم الصوفي. وفي المدة نفسها كان يطلق على العرب اسم «الموري» بمعنى «السمر»، أو «السمر البيض»، تمييزاً لهم عن السود الأفارقة. وفي حالة الحرب كانت كلمة «تركي» تشير على نحو خاص إلى جميع رعايا الإمبراطورية العثمانية من أي عرق أو دين، وينظر إليهم بغموض كونهم عدواً يجب قتاله. ولهذا كان الحديث في فريولي في نهاية القرن الخامس عشر عن «الغزو التركي» بالرغم من أن الوثائق أثبتت أن العديد من المهاجمين كانوا بالفعل من الفلاحين المسيحيين في البلقان.

أما بالنسبة إلى الفكرة السائدة في البندقية بصفة عامة عن الإسلام والمسلمين، فينبغي قبل كل شيء ملاحظة أنها تغيرت مع الوقت، بتغير الإمبراطورية نفسها. ومن الأخطاء الإشاعة بين المؤرخين الغربيين اعتبار الدولة العثمانية كياناً متجانساً ثابتاً مساوياً لنفسه، ومن ثم قراءة الأوراق البندقية كونها الإنتاج الوحيد الذي يعبِّر عن تطور ذلك الكيان التاريخي، من دون حسبان التغييرات التي يمر بها الكائن الذي يصفونه على مر العصور. وإضافة إلى هذا يجب علينا أيضاً أن نضع في حساباتنا أن الطبقات المختلفة من سكان البندقية تنظر إلى السلطان ورعيته بطريقة مختلفة جداً. وكان موقف النبيل، وهو الخبير في شؤون الدولة من مستوى عال، المعتاد على التعامل مع الملوك والباباوات، في جانب، وموقف التاجر في جانب آخر، إذ لم يتعرف إلا إلى العامة، وعلى الجانب الثالث موقف البحارة المعتادين على زيارة الموانئ المتوسطية، وهناك موقف العامة الذين

لم يتركوا بلدهم قط، وأحياناً لم يغادر بعضهم حتى الحي الذي وُلد فيه.

فإذا انطلقنا من هذه الاعتبارات نستطيع أن نفهم أن تتبع تطور صورة الشرق في البندقية لم يكن سهلاً. ويجب التبسيط في كل الأحوال، في محاولة للتنقل بين هذه المواقف، على الرغم من أنها كانت مختلفة اختلافاً بيناً أحياناً في المدينة نفسها وفي المدة التاريخية ذاتها. وبشكل عام يمكننا القول إن معرفة البنادقة بالعالم الإسلامي في العصور الوسطى، وخاصة في حالة الدولة والتجار والبحارة، كانت معرفة أفضل كثيراً من العديد من الإيطاليين الآخرين. وأسطورة سرقة جثمان القديس مرقس من مصر تثبت أن بونو وروستيكو لم يكونا من الأشخاص الغافلين وهما اللذان كان وجودهما في مصر عن طريق المصادفة، كما تحكي الأسطورة. بل على العكس من ذلك، كانا يعرفان العادات والتقاليد الإسلامية؛ بما يكفي لخداع موظفي الجمارك في الإسكندرية والهروب بالبضائع الثمينة المدفونة تحت لحم الخنزير، والذي يُعد نجساً في الإسلام.

كما كان للبنادقة في القرون التالية أيضاً اتصالات مباشرة مع الدول الإسلامية وأزمنة طويلة من السلام، بدأت بعد عام ألف ميلادية، لأن الأوراق التي ما زالت محفوظة تتحدث عن البضائع أو التجار أو السفن أو اتفاقات السلام فحسب، وليس عن رؤية الآخر آنذاك.

يمكن القول بشكل عام إن البندقية أفلتت من خطاب مسيحي تدعمه كنيسة روما، يرى في المسلمين عدواً للمسيحية وفي نبيهم زنديقاً شريراً، وليس من قبيل المصادفة أن اسم محمد بالإيطالية وينطق «ماهوميتو» لم يتم اشتقاقه من الاسم العربي فحسب، بل أيضاً من

عبارة إيطالية تعني «فِعل الشر». ولعدة قرون، في واقع الأمر، انحرف الأوروبيون عن المعتقدات الإسلامية التي تعتبر يسوع نبياً عظيماً ومريم أمه العذراء، وظنوا أن الإسلام لم يكن سوى هرطقة مسيحية وليس ديناً جديداً. إلى درجة الخلط الذي نشأ بين «العربية السعيدة» وهي المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، وتشير عادة إلى اليمن باسمه الشهير «اليمن السعيد»، وفي هذه المنطقة الممتدة حتى المدن المقدسة الإسلامية ظهر الإسلام، وبين «العرب البترائية» وهي المنطقة العربية الشمالية التي كانت البتراء عاصمة لها وكانت تحت الحكم الروماني، هذا الخلط أدى إلى تصور وجود علاقة بين الإسلام والمسيحية ليست في الأصل ولا في الحقيقة موجودة بتاتاً.

وإذا كان الأباطرة القدامى في بيزنطة قد حاولوا التصدي لتجارة البندقية مع المسلمين لأسباب سياسية، فقد حاول باباوات روما أيضاً فعل ذلك باسم الدين. ولكن كلاهما فشل. لقد تحاشى البنادقة قدر الإمكان التورط في الحروب الصليبية، ما لم تكن هناك مكاسب جيدة في الأفق. وعلاوة على ذلك، في مواجهة الحظر البابوي للمتاجرة مع الشعوب الوثنية، عثروا بسهولة على وسيلة شراء الإعفاءات والاستثناءات بالمال. فلم يحصل وقف حركة التجارة مع الموانئ التي توجد فيها التوابل، حتى لو كانت في البلدان الإسلامية، خشية التدهور الاقتصادي للدولة. ولكن الباباوات تصرفوا في الوقت نفسه بطريقتين. فمن جهة أرسلوا الدعاة لكي يغرسوا بين الجماهير عداء للإسلام، ويحشدوها للمشاركة في الحملات الصليبية، ولكنهم حافظوا من جهة أخرى على إقامة اتصالات

دبلوماسية مباشرة مع الحكام المسلمين وأرسلوا إليهم سفراءهم، كما فعل، على سبيل المثال، البابا بورجيا، الذي طلب مالاً يدفع له حتى يسجن جم شقيق السلطان في سجون روما.

ومع نهاية العصور الوسطى ساهمت نهاية الإمبراطورية البيزنطية والحرب البندقية العثمانية من (1463–1479) في تغيير نظرة البنادقة تجاه المسلمين. فكان سلطان مصر المملوكي من جانب، وهو يعد عادة رئيس دولة فظاً مكلفاً، وعلى الجانب الآخر كان هناك السلطان العثماني وهو أخطر كثيراً وينبغي وضعه في الحسبان يومياً بغية الحفاظ على سوق غنية. وفي الوقت نفسه، بدأ الأدب يتعامل مع العالم الإسلامي باهتمام متزايد. ففي إيطاليا يمكن تقسيم الأعمال المكتوبة حول هذا الموضوع في العصر الحديث إلى أربع فئات: فهناك الكتابات «المعادية» التي تنظر إلى الأتراك على أنهم العدو الأكبر للمسيحية فدعا أصحابها إلى الحملة الصليبية ضدهم. ثم فئة تضم الكتابات «المتصالحة» التي كانت تحاول البحث بعين متسامحة عن نقاط الاتصال وليس الانفصال مع الملل الأخرى؛ إلى جانب فئة الأعمال «المعلوماتية» التي لم تفعل سوى عرض العادات والتقاليد المختلفة؛ وأخيراً فئة «المديح»، التي تمدح الأتراك وسلطانهم[1].

والفئتان الأولى والثانية، أي المعادية والمتصالحة، كان لهما بصفة عامة أتباع قليلون بين رعايا سان ماركو، الذين كانوا في الغالب براجماتيين مهتمين بالمعرفة قبل أن يهجوا أو يمدحوا مجاناً. أما مؤلفو الكتب

(1) M. Soykut, *Image of the «Turk» in Italy. A History of the «Other» inEarly Modern Europe: 1453-1683*, Berlin, Klaus Schwarz, 2001, pp. 3-12.

الأخبارية المختلفة، والتي كتبت فيما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فكانوا في الأصل من منطقة البندقية، مثل جوفاني ماريا أنجوليللو دا فيتشنزا أو جوفاني باتيستا تشيبيللي الشهير باسم إينياتيوس، أو لويجي باسانو دا زارا، أو مارك أنطونيو بيجافيتا دا فيتشنزا، أو جوفاني باتيستا راموزيو، أو أنطونيو مانوتسيو أو فرانشيسكو سانسوفينو. وتدين بعض معرفتهم لتجارب مأساوية مباشرة، مثل لويجي باسانو، الذي كان عبداً للأتراك، وأورد معلومات دقيقة عن الزينة الحميمة للنساء العثمانيات، أو أنجوليللو، الذي كان خازن محمد الثاني بين عامي 1468 و1483 ثم عاد لاحقاً إلى فيتشنزا لممارسة مهنة كاتب العدل. وثمة آخرون كانوا من رجال عصر النهضة المهتمين بالعثور على الأخبار، مثل راموزيو أو المستكشفين مثل بيجافيتا، الذي سافر بين فيينا والقسطنطينية ما بين عامي 1567 و1568م[1].

لقد كان هناك نوع مميز من الأعمال الأدبية، ازدهر في البيئة السياسية بالبندقية، وهو «التقرير»، أي عرض الأعمال التي قام بها سفير، أو قائم بعمل أو مسؤول عن الرعاية أو قنصل، أينما كانت الجهة الموفد إليها، فقد كان يجب على كل هؤلاء طبقاً للقانون أن يقدموا تقريراً عن مهامهم، وذلك اعتباراً من القرن الثالث عشر. وفي القرن الخامس عشر تقرر أن مثل هذه التقارير يجب تقديمها مكتوبة، ثم بعدها مباشرة طُلب من المعنيين أن يكونوا على دراية بعادات الشعوب البعيدة وتقاليدها. وبعد

(1) M. Pigafetta, *Itinerario da Vienna a Costantinopoli*, a cura di D. Perocco, Padova, Il Poligrafo, 2008; Itinerario di Marc'Antonio Pi*gafetta gentil'huomo vicentino*, a cura di M. Petrizzelli, Vicenza, Biblioteca Civica Bertoliana, 2008.

ذلك تحوَّلت هذه التقارير إلى جنس أدبي ولم يتردد بعض المؤلفين، إرضاءً للجمهور المتعطش للأخبار، في كتابة تقريرين، أحدهما فني سياسي لتقديمه إلى مجلس الشيوخ، والآخر ملون حافل بالتفاصيل لتوزيعه على الأصدقاء. وحتى الأمناء أو شبان النبلاء الذين يرافقون السفراء أو غيرهم من المسؤولين فإنهم وضعوا في بعض الأحيان تقارير مشابهة، بل وألفوا كتباً كاملة رووا فيها تجاربهم، على الرغم من أن القانون لا يشترط ذلك الالتزام إلا إذا كانوا هم أنفسهم في مهمة رسمية.

ونُشِرَ كثير من هذه المصادر، بعد تداولها في إيطاليا، بعد ذلك في القرن التاسع عشر على أساس المخطوطات التي وُجد معظمها في مكتبات تورينو وفلورنسا. ومنعت استحالة الوصول إلى الوثائق المحفوظة في أرشيف الدولة الدارسين من نشر جميع التقارير الموجودة حتى الآن. وظلت مخطوطات عديدة مجهولة، تجمع عليها الغبار على الرفوف، بل إن السلسلة المتعلقة بالقسطنطينية تشوهت جزئياً، وخاصة الجزء المتعلق بالقرن الثامن عشر. والعديد من المؤرخين الذين جاءوا بعد ذلك، ظناً منهم أنهم قد أصبحوا أمام بانوراما كاملة لكل ما حفظ من هذه الأوراق، لم يُكلفِّوا أنفسهم عناء البحث عن الأوراق الأخرى؛ فاقتصرت أبحاثهم على طبعات القرن التاسع عشر. وحتى بعض أولئك الذين عالجوا في الماضي تطور صورة الأتراك في البندقية وقعوا في هذا الخطأ. فقط في نهاية القرن العشرين وصل إلى المطبعة آخر التقارير الواردة من القسطنطينية، التي كانت لا تزال راقدة مجهولة تقريباً في أرشيف الدولة البندقية، فأعطت أخيراً لمحة كاملة عما كتبه الدبلوماسيون البنادقة حول

إمبراطورية السلاطين[1].

ويعد من الغريب أن نلاحظ أن بعض الإيطاليين كتبوا أيضاً أعمال إشادة هدفها مدح السلطان العثماني. وقد حدث هذا بشكل خاص في مطلع القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وأشهر هذه الأعمال هي «**الأمراء**» لجان ماريو فليلفو، وهي قصيدة باللاتينية كُلِّف بها المؤلف لتقديمها تحية إلى محمد الثاني من تاجر في أنكونا هو عثمان ليللو فردوتشي، والذي كانت له علاقات ودية مع مراد الثاني وابنه. وتوجد قصيدة أخرى بالإيطالية، اكتشفت مؤخراً في مكتبة بلدية تريفيزو، يمكن اعتبارها «**سليمنامة**» حقيقية (قصيدة تكريم لسليم الأول)، على الطريقة العثمانية في تلك السنوات. وللأسف تنقص المخطوطة صفحةُ العنوان والأوراق الأولى ومن ثم لا يمكننا أن نعرف شيئاً عن المؤلف، وربما كان شخصاً من غرب البندقية، على ضوء ما يظهر من خصائص لغوية في القصيدة. وقد تم الانتهاء من العمل قبل وفاة السلطان في 21 سبتمبر 1520. حيث يستخدم الشاعر المجهول بشكل صحيح الكلمات التركية

(1) *Le relazioni degli ambasciatori veneti al Senato*, raccolte, annotate ed edite da E. Alberi, s. 3, vol. I, Firenze, Tipografia all'insegna di Clio, 1840; vol. II, Firenze, Tipografia all'insegna di Clio, 1844, e vol. III, Firenze, Società Editrice Fiorentina, 1855; *Le relazioni degli ambasciatori veneti al Senato durante il secolo decimosesto, Appendice*, a cura di E. Alberi, Firenze, a spese dell'editore, 1863; *Le relazioni degli stati europei lette al Senato dagli ambasciatori veneziani nel secolo decimosettimo*, raccolte e annotate da N. Barozzi e G. Berchet, *Turchia*, Venezia, P. Naratovich, 1871; Relazioni degli ambasciatori veneti al Senato, XIII: *Costantinopoli (1590-1793)*, a cura di L. Firpo, Torino, Bottega d'Erasmo, 1984; Relazioni di ambasciatori veneti al Senato, a cura di M.P. Pedani Fabris, vol. XIV: *Relazioni inedite. Costantinopoli (1508-1789)*, Padova, Bottega d'Erasmo-Aldo Ausilio Editore, 1996.

ومعلومات دقيقة جداً حول بعض غزوات السلطان، مثل حملة فارس، التي بلغت ذروتها في معركة جالديران 1514، والجزء الأول من الحملة على مصر، التي انتهت عام 1517. وقد يؤدي هذا إلى افتراض مشاركة أنجوليللو، الذي فقدنا أثره بعد عودته إلى الوطن ولعدة سنوات وعلى وجه التحديد بين 1507 و1517، عندما عاد إلى فيتشنزا: وقد أشار البعض، دون تقديم أدلة ملموسة، إلى مهمة سرية له في بلاد فارس أمرته بها الحكومة البندقية[1].

وفي منتصف القرن السادس عشر، والانفتاح على السوق العثمانية، وعلى الرغم من حرب قصيرة، كان لبعض رجال الأعمال البنادقة لحظات سعيدة غامروا فيها بصفقات تجارية في المشرق. وما بين (1537-1538) دفع باجانينو وأليساندرو باجانيني لأول مرة إلى المطبعة، في البندقية، بالنص العربي للقرآن الكريم، وهو المشروع الذي لم يحاول أحد تنفيذه من قبل، حيث سادت الفكرة في العالم الإسلامي أن هذا الكتاب هو كلمة الله المقدسة، ويجب أن يظل مخطوطاً فقط، ولا يمكن طبعه. وقد فشل المشروع بسبب الأخطاء الطباعية التي تضمنتها النسخة ما يمثل

(1) E. Lippi, *1517. L'ottava al serivizio del Sultano*, in «Quaderni Veneti», 34, 2001, pp. 49-88; Id., *Born to Rule the World. An Italian Poet Celebrates the Deeds of the Sultan Selim I*, in «Tarih İncelemeleri Dergisi», 19, 1, 2004, pp. 87-92; Id., *«Per dominar il mondo nato». Vita e gesta di Selim I Sultano (prima parte)*, in «Quaderni Veneti», 40, dicembre 2004, pp. 19-106; Id., *«Per dominar il mondo nato». Vita e gesta di Selim I Sultano (seconda parte)*, in «Quaderni Veneti», 42, dicembre 2005, pp. 37-118; Id., *«Per dominar il mondo nato». Vita e gesta di Selim I Sultano (terza parte)*, in «Quaderni Veneti», 43, giugno 2006, pp. 35-91; Id., *«Per dominar il mondo nato». Vita e gesta di Selim I Sultano (quarta parte)*, in «Quaderni Veneti», 45, giugno 2008, pp. 7-61.

بالنسبة إلى المسلم المتدين إهانة دينية شديدة. فتم تدمير العمل ليس بسبب الحظر البابوي، كما قيل بعد ذلك، ولكن؛ لأنه لن يكون مربحاً من الناحية الاقتصادية. واليوم لا توجد إلا نسخة واحدة، في مكتبة دير سان فرانشيسكو ديللا فينيا بالبندقية، شاهدة على خيال رجل أعمال بندقي من الماضي.

وقد كان الحظ أفضل بالنسبة إلى أول ترجمة إيطالية لمعاني القرآن الكريم، وقد نشرت في البندقية عام 1547 بواسطة أندريا أريفابيني تحت عنوان: **«مصحف محمد ويتضمَن أيضاً فقهه وسننه وعاداته وشريعته»**. وقد أعيدت ترجمته من العربية إلى الإيطالية. وحقق هذا المشروع نجاحاً تجارياً كبيراً. وتُرجم إلى الألمانية بواسطة سالومون شفايجر نورمبرج، ونشر في أعوام 1616، 1623 و1659. وأخيراً تُرجمَ إلى الهولندية بطبعة مجهولة عام 1641. وفي الواقع لم يكن الخبر الجديد حقيقياً كما زعم الناشر، فهي نسخة إيطالية من مختصر قديم جداً للقرآن الكريم، تمت ترجمتها بناءً على رغبة بطرس المبجل رئيس دير كلوني، وانتهت الترجمة عام 1143 بواسطة روبرتو دي كيتون وإرمانو دالماتا وبيترو توليدو وبيترو دي بواتييه. وبعد أن تم تداولها لعدة قرون على صورة مخطوطة تم طبعها باللغة اللاتينية بعد اختراع المطبعة من تحرير ثيودور بوشمان الشهير باسم بيبلياندر (Bibliander) في ثلاث طبعات متتالية، خرجت كلها في بازل عام 1543، ثم أعيد نشرها في زيوريخ عام 1550 بمقدمة كتبها مارتن لوثر. ولم يفعل أريفابيني سوى ترجمة هذا النص من اللاتينية إلى الإيطالية، دون أن يقول

ذلك لقرائه المتعطشين[1].

ومع ذلك لا نعرف النجاح التجاري للمشروعات الأخرى التي تهدف إلى تصدير المنتجات الثقافية البندقية إلى العالم العثماني. وفي هذه الفترة نفسها، على سبيل المثال، نشر رجل الأعمال مارك أنطونيو جوستينياني بعض المعاجم الموجهة إلى أولئك الذين يريدون تعلم الأساسيات الأولى للغة التركية، جنباً إلى جنب مع خريطة للعالم على شكل قلب ومعها أسطورة عثمانية طويلة، ربما كانت من إعداد بعض المترجمين البنادقة ومنهم ميكيل ممبريه. ولكن الخريطة ترجع إلى عبد مسلم، هو الحاج أحمد من تونس، وقد تمت مكافأته على جهده هذا بحصوله على حريته. وإذا كان المعجم قد مر بالبندقية دون أن يلاحظه أحد تقريباً فإن العمل الثاني لجوستينياني، الذي هدف إلى توفير المعلومات الجغرافية، ومن ثم يحتمل أنها كانت معلومات استراتيجية، أدى إلى إثارة ريبة مجلس العشرة الذي سارع إلى مصادرة كل ما هو مطبوع، بل حتى التجهيزات الطباعية تم إيداعها في مكان حصين، وهي اليوم معروضة في مكتبة مارتشانا (سان ماركو)[2].

---

(1) A. Nuovo, *Il Corano arabo ritrovato (Venezia, P. e A. Paganini, tra l'agosto 1537 e l'agosto 1538)*, in «La Bibliofila», 89, 1987, pp. 237-270; M. Borrmans, *Observations à propos de la première édition imprimée du Coran à Venise*, in «Quaderni di Studi Arabi», 8, 1990, pp. 3-12; Id., *Présentation de la première édition imprimée du Coran à Venise*, in «Quaderni di Studi Arabi», 9, 1991, pp. 93-126; A. Malvezzi, *L'islamismo e la cultura europea*, Firenze, Sansoni, 1956, pp. 89-91.

(2) A. Fabris, *Note sul mappamondo cordiforme di Hacı Ahmed di Tunisi*, in «Quaderni di Studi Arabi», 7, 1989, pp. 3-17; Id., The *Ottoman Mappamundi of Hajji Ahmed of Tunis*, in «Arab Historical Review for Ottoman Studies», 7-8, 1993, =

وبعد مدة طويلة من السيادة البحرية العثمانية بدأت بمعركة بروزة (1538)، سجلت هزيمة أسطول السلطان في ليبانتو (1571) لحظة تاريخية فارقة في العلاقة بين الشرق والغرب. وقد عم أوروبا شعور بالارتياح الجماعي كونه العدو الذي لا يُقهر، والذي تم ترويضه الآن. ولكن في الواقع فإن الأمر لم يكن إلا ناراً في الهشيم؛ لأن الأسطول العثماني سرعان ما أعيد بناؤه، والجزيرة البندقية التي شُنت الحرب من أجلها، دخلت ضمن ديار الإسلام، وقد شاركت البندقية أيضاً في احتفالات النصر، فشيدت مصلى صغيراً مخصصاً لعذراء روزاريو الوردية، في كنيسة القديسيْن جيوفاني وباولو، حيث نقلت بعدها بسنوات قليلة، رفات بطل فاماجوستا، وهو ماركو أنطونيو براجادين[1].

وبين القرنين السادس عشر والسابع عشر، جعل الإصلاح المضاد الوضع في إيطاليا وإسبانيا أقل استقراراً على نحو متزايد ضد أولئك الذين لا يتماشون مع المذهب الكاثوليكي السائد، وربما كانت مدينة

= pp. 31-37; Id., *Artisanat et culture: recherches sur la production venitienne et la marche ottoman au XVIe siècle*, in «Arab Historical Review for Ottoman Studies», 3-4, dicembre 1991, pp. 51-60; Id., *Il babuin, over alfabetto in lettera araba*, in «Lingua Nostra», 51, 2-3, 1990, pp. 40-41; B. Arbel, *Maps of the World for Ottoman Princes? Further Evidence and Questions Concerning «The Mappamondo of Hajji Ahmed»*, in «Imago Mundi», 54, 2002, pp. 19-29; E. Concina (a cura di), *Venezia e Istanbul. Incontri, confronti e scambi*, Udine, Forum, 2006, pp. 73-75; J. Balagna, *L'imprimerie arabe en occident (XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles)*, Paris, Maisonneuve & Larose, 1984, pp. 18-24; A.M. Piemontese, *Venezia e la diffusione dell'alfabeto arabo nell'Italia del Cinquecento*, in «Quaderni di Studi Arabi», 5-6, 1987-1988, pp. 641-660; G. Vercellin, *Venezia e l'origine della stampa in caratteri arabi*, Padova, Il Poligrafo, 2001, pp. 103-106.

(1) F. Lucchetta, *Fama di Marcantonio Bragadin presso i turchi e sue reliquie*, in «Ateneo Veneto», 5, 2, 2006, pp. 127-156.

البندقية الأقل تأثراً بين الدول الأخرى بهذه الظاهرة، لكنها مع ذلك لم تستطع الإفلات من جو الشك تجاه المختلفين في الدين والعادات، والذي بدأ ينتشر في أوروبا. ومع ذلك، ففي النصف الأول من القرن السابع عشر اندلعت عدة حروب ومواجهات مع دول الغرب، أجبرت البندقية على مراجعة وجهة نظرها تجاه المسلمين. وقد دفع الخلاف مع البابوية، الذي بلغ ذروته مع التحريم الذي صدر 1606 إلى اعتبار العديد من البنادقة وبعض الكاثوليك، وخاصة اليسوعيين، خطراً يفوق خطر العثمانيين. وقال الراهب باولو ساربي، وهو منظر ولاهوتي الجمهورية البندقية إن الأتراك كانوا أكثر موالاة من الإسبان وأتباع البابا. كما أشار ليوناردو دونا، الذي كان دوجي بين عامي 1606 و1612، إلى التسامح والحرية المطلقة اللذين سادا في إمبراطوريتهم، في حين أشاد نيكولو كونتاريني، وكان هو أيضاً دوجي بين عامي 1630 و1631، بالتنظيم المثالي للدولة العثمانية[1].

وحتى في تقارير السفراء والمبعوثين المقيمين الخاصة بتلك الفترة لا يوجد أي أثر للشعور بالمرارة تجاه المسلمين، على الرغم من أنها تعترف بالاختلاف، وفي عام 1612 تحدَّث سيموني كونتاريني، في التقرير المكتوب بعد عودته من القسطنطينية حيث كان المبعوث المقيم هناك، عن طقوس زائفة، فحظر الخمر بالنسبة إليه ليس إلا وسيلة لزيادة قيمة الجنود، والاغتسال الكثير ما هو إلا وسيلة لزيادة خصوبة النساء. وفي عام 1624 قدم الترجمان جيوفاني باتيستا سالفاجو، المبعوث في مهمة رسمية إلى

(1) P. Preto, *Venezia e i turchi*, Firenze, Sansoni, 1975, pp. 314-325.

الجزائر وتونس، شهادته الخاصة، وذكر فيها أن القراصنة البربر هم النظير الإسلامي لفرسان مالطا. وبعد مدة وجيزة، في عام 1627، أشاد المبعوث المقيم جورجو جوستينياني بمهارة النبي محمد في إنشاء إمبراطورية. وفي عام 1634 لاحظ خلفه جوفاني كابيللو أن الدين والقانون يختلطان في المحاكم الإسلامية، وكيف أن المسلمين يؤمنون بالمسيح نبياً. وفي كتاب **«وصف الحريم»** الذي ألفه أُتّفيانو بون عام 1609، تلبيةً لرغبات أولئك الذين يريدون معرفة الجوانب السرية في البلاط العثماني، شُبِّهَ فيه الحريم الإمبراطوري بدير في البندقية للطبقة الأرستقراطية، وقال إن النساء اللواتي عشن هناك كن صغيرات فكن بحكم طبيعتهن عرضة للأسوأ. وكذلك كان المجتمع ذكورياً كارهاً للنساء، حتى إنه كان يمكن تبرئة الرجال من تهمة الكفر بالله ولم يكن ذلك ممكناً بالنسبة إلى النساء[1].

وقد شهد النصف الثاني من القرن السابع عشر تعاقب حربين من الحروب الطويلة بين جمهورية البندقية والإمبراطورية العثمانية. وحدث خلال هذه المدة تغيير ضخم في منظور البندقية للأتراك. فالقيام بحرب مكلفة مثل حرب كانديا، التي واجهت صعوبات لا حصر لها، كان يستلزم تعبئة الرأي العام لإقناعه بضرورة الحرب. كذلك اهتم رجال الدين بالحرب، ليس عن طريق كلمات الوعظ والدعوة الدينية فحسب، ولكن من خلال الأفعال أيضاً، مثل الراهب الكابوتشي جاكومو دا كادور

---

(1) *Relazioni degli ambasciatori veneti al Senato*, cit., vol. XIII, pp. 424, 510, 520-521, 696; G.B. Salvago, *«Africa ovvero Barbarìa». Relazione al doge di Venezia sulle Reggenze di Algeri e Tunisi (1625)*, a cura di A. Sacerdoti, Padova, Cedam, 1937, pp. 37, 53, 64-65, 69, 71; *Relazioni degli ambasciatori veneti al Senato*, cit., vol. XIV, pp. 541-543.

الذي صمم غواصةً لمهاجمة سفن العدو من تحت الأمواج وعرضَها عام 1646 على الجمهورية، وكان اسم الغواصة جاياندرا أو «الرمح البحري للعذراء مريم الطاهرة»، وتم بناؤها على نفقة أحد الأفراد، وأبحرت حتى تشيفالونيا، وهاجمت وأسرت سفينتين تركيتين، ثم شُرخت على نحو سيئ ولم تستطع مواصلة الإبحار، وأُعيد تقديم المشروع عام 1669 بواسطة شقيق الراهب، ولكن هذه المرة دون جدوى[1].

وفي المدة ما بين نهاية حرب كانديا عام 1669 وبداية حرب المورة عام 1684 نفهم من تقارير سفراء البندقية تغيُّرَ منظور الأرستقراطية البندقية. فقد بدا الإسلام الآن ديناً «فاسداً»، وتم تعريف الحكومة العثمانية بأنها حكومة «وحشية» و«مستبدة»، كما قال جاكومو كويريني عام 1676. فحتى الامتناع عن النبيذ بدا كونه عاملاً فحسب يؤدي إلى مزيد من النهم في الغذاء، في حين لم يعد حريم الإمبراطورية يشبه الراهبات الأرستقراطيات في البندقية، وإنما شياطين فاسقة ماجنة. وهكذا لم تكن الصلاة خمس مرات، بالنسبة إلى بيترو تشيفران عام 1682، دليلاً على التقوى وإنما هي اختراع من الدولة لكي تشغل الناس عن السياسة[2].

ولم يسلم من هذه الأفكار المسبقة إلا تقرير كتبه عام 1682 جيوفاني باتيستا دونا الذي كان المبعوث المقيم الوحيد الذي حاول بعد تعيينه مباشرة أن يتعلم على الأقل شوارد اللغة التي أرسل إليها. وكان هو

(1) P. Arturo da Carmignano di Brenta, *L'opera dei cappuccini durante la guerra di Candia (1645-1669)*, in «Ateneo Veneto», n.s., 8, 1-2, gennaiodicembre 1970, pp. 3-32.

(2) *Relazioni degli ambasciatori veneti al Senato*, cit., vol. XIII, pp. 914, 919, 922, 925, 1050.

الذي أعاد تنظيم مدرسة لتعليم اللغة التركية والعثمانية لمترجمي المستقبل الذين سيعملون في خدمة جمهورية البندقية، وأنشأ دائرة من العلماء الشبان المهتمين بالدراسات التركية، نذكر من بينهم أنطونيو بينيتي الذي ترك وصفاً شاملاً للبعثة. وقد حاول دُونا بكتابه «**أدب الأتراك**»، الذي نُشر في البندقية عام 1688، استعادة التراث الثقافي العثماني، وإعادة النظر إلى هذا الشعب بطريقة متوازنة ومن دون مرارة. وهكذا بدأ لقاء سعيداً بعالم أسيئت معرفته، وهو اللقاء الذي اكتسب زخماً بعد ذلك من خلال الأفكار التنويرية[1].

وفي تلك السنوات نفسها، وتحديداً في بادوفا، أظهر الأسقف جريجوريو بارباريجو اهتمامه باللغتين التركية والعربية، ولكن هدفه كان تدريب المبشرين الجدد وتزويدهم بمعرفة اللغات والعادات لدى الناس الذين قد يمارسون معهم ذات يوم مهامهم التبشيرية. وكانت المدرستان، مدرسة البندقية ومدرسة بادوفا، لمدة من الزمن متنافستين. وعلى سبيل المثال، في مدينة البندقية نشر الناشر بوليتي «**المجموعة النادرة في الأمثال التركية**»، التي جمعها وترجمها الشبان الذين أحضرهم دونا معه إلى القسطنطينية، وفي الوقت نفسه نشرت مطبعة المدرسة الدينية في بادوفا كتاب «**الأمثال المفيدة والفاضلة في العربية والفارسية والتركية**»، ومعظمها كان شعراً مصحوباً بشروح لاتينية وإيطالية، و«**الأمثال التركية**»

(1) A. Benetti, *Viaggi a Costantinopoli di Gio. Battista Donado senator veneto spedito bailo alla Porta Ottomana l'anno 1680*, Venetia, Poletti, 1688; G.B. Donado, *Della letteratura de' Turchi*, Venetia, Poletti, 1688; Preto, *Venezia e i turchi*, cit., pp. 340-351.

مع شروح باللاتينية والإيطالية، أعدهما المعلم تيموتيو أنيلليني[1].

لكن اندلاع حرب المورة الثانية وضع حداً لمثل هذه التجارب. ثم جاءت هزيمة الجيش العثماني عام 1683 على أسوار فيينا لتمثل لحظة تاريخية أخرى فارقة في العلاقات بين الشرق والغرب. فقد تمت هزيمة العدو الدائم أخيراً، ليس في عرض البحر، ولكن أيضاً على أرضه، في معركة ضارية. وبدأت أوروبا كلها تتنفس الصعداء. وقد سمحت مدة الحرب الطويلة التي دامت ثلاثين عاماً للأوروبيين بالتغلب من الناحية العسكرية على الإمبراطورية العثمانية، التي ضعفت في الواقع بعد نصف قرن من الصراعات الصغيرة والمشاكل الداخلية. وفي عام 1698، وهو العام الذي سبق انتهاء الحرب، نشرت مطبعة المدرسة الدينية في بادوفا أول طبعة كاملة من القرآن الكريم باللغة العربية، جنباً إلى جنب مع الترجمة اللاتينية مصححة ومذيلة بالشروح التي اعتمدت على مفسرين عرب، من عمل راهب من لوكا هو لودوفيكو ماراتشي من جماعة رجال كنيسة أم الإله. وكمقدمة لهذا نشرت المدرسة كتاباً آخر بعنوان «**أسباب رفض القرآن**» أدان فيه المؤلف الإسلام بشدة، بطقوسه ومعتقداته. ولم يوافق ماراتشي الإسلام إلا في جانب واحد فقط، وهو أن نساءه معتدلات لا يظهرن في الشوارع إلا بالحجاب. وقبْلها بوقت قصير كان رجل الدين هذا، والذي شغل منصب قس الاعتراف للبابا، قد اشتبك مع بعض

(1) M.P. Pedani, *Intorno alla questione della traduzione del Corano*, in L. Billanovich e P. Gios (a cura di), *Gregorio Barbarigo, patrizio veneto, vescovo e cardinale nella tarda Controriforma (1625-1697)*, 6 voll., Padova, Istituto per la Storia Ecclesiastica Padovana, 1999, vol. III/1, pp. 353-365.

السيدات من المجتمع الروماني الراقي أصررن على الخروج إلى الشوارع عاريات الأكتاف والأعناق مجاراة للموضة التي كانت قد وصلت لتوّها من فرنسا. ولكي يدعم حملته الدينية كان قد كتب أيضاً كتيّباً، نشره مجهول، عن غرور الإناث، حافلاً بالعداء للنساء بمثل الضراوة التي ضمّنها كتابه «**أسباب رفض القرآن**» ضد المسلمين[1].

ومع نهاية القرن السابع عشر، كان التركي قد أصبح هو «الآخر» بامتياز، ولم يعد يخيف، وبالتالي أمكن للكنيسة تشجيع دراسة القرآن الكريم ونشره. وبعدها بوقت قصير نشر أنطوان جالان الترجمة الفرنسية لـ«**ألف ليلة وليلة**». واختفت من المخيلة الجماعية فكرة الحروب الصليبية والحروب المقدسة، وحل محلها العالم السحري الذي يسكنه الخلفاء وجواريهم، والبحارة مثل سندباد، والجان مثل مصباح علاء الدين. وبدأت تنتشر كذلك في الفن والأدب بالبندقية موضوعات شرقية. وفي القرن الثامن عشر حققت لوحات «الأتراك» التي خرجت من مَرسم الإخوة جواردي نجاحاً كبيراً. وهي أربعون لوحة ترجع إلى أعوام (1742-1743)، رسمت بتكليف من الماريشال ماتياس فون شوليمبورج الذي أراد بها تخليد نجاحاته في الحرب ضد العثمانيين. ولم تكن صوراً مأخوذة من الواقع الحي، لكنها مستنسخات من أعمال مؤلفين آخرين، مثل جان باتيست فان مور الذي ذهب إلى القسطنطينية بالفعل عام 1699،

(1) M.P. Pedani, *Ludovico Marracci. La vita e l'opera*, in G. Zatti (a cura di), *Il Corano. Traduzioni, traduttori e lettori in Italia*, Milano, Itl, 2000, pp. 9-30; M.P. Pedani, *Ludovico Marracci e la conoscenza dell'Islam in Italia*, in «Campus Maior. Rivista di Studi Camaioresi», 2004, pp. 6-23.

رفقة السفير الفرنسي شارل دي فريول، واستمر لسنوات يرسم لوحات من هذا النوع راقت لمن يهتمون بالشرق.

وهكذا أحيت فرشاة الإخوة جواردي رقص الدراويش، والمحظية اليونانية في حريم السلطان، وموكب السلطان أو استقبال السفير. لقد كانت لوحات صغيرة، صممت لتحفيز الحلم بالبلدان البعيدة، إلا أنها ركنت إلى الحس التسجيلي الذي كان قد حقق بعض النجاح في القرن السابق. يشهد على ذلك الكتاب الجميل من القرن السابع عشر الذي يضم منمنمات محفوظة في متحف كورير بمدينة البندقية، وقد تم تأليف هذا العمل إرضاء لرغبة رجل من البندقية حرص على أن ينقل إلى بلده دليلاً ملموساً على رحلته إلى القسطنطينية، كما يفعل السياح في العصر الحديث عندما يلتقطون الصور أو يشترون بعض البطاقات البريدية المصورة.

وإلى منتصف القرن الثامن عشر يعود العمل الأدبي «الخطابات التعريفية بالأشياء التركية التي تتعلق بالدين والحكومة المدنية والاقتصادية والعسكرية والسياسية» للمؤلف بيترو بوزينيللو. وعلى الرغم من أنه ظل لمدة طويلة غير منشور (ظهرت الطبعة الأولى منه عام 1960)، فإن هذا العمل انتشر على نطاق واسع كما يتضح من عدد المخطوطات التي تحتويه، والمتفرقة في الأرشيفات والمكتبات. والكتاب حافل بالروح النقدية ويخلو من أية أحكام مسبقة، حتى تلك التي تستغل الصورة الذهنية عن الآخر، المختلف، لإدانة العادات الأوروبية الفاسدة، كما فعل الكتاب الآخرون، بدءاً من مونتسكيو و**رسائله الفارسية** (1721). وهناك

كتاب أساسي لدراسة الاهتمامات العثمانية في القرن الثامن عشر بمدينة البندقية، هو كتاب **«الأدب التركي»** للراهب جوفاني باتيستا توديريني الذي خرج من المطابع في عام 1787. وهو عبارة عن تجميع للمعلومات عن العلوم والتعليم، والمعاهد والمكتبات والكتب التي كتبت في تركيا، وهو عملٌ أصلي خالٍ من الأفكار السياسية المسبقة، وأثار على الفور ضجة بين المفكرين البنادقة والإيطاليين[1].

ومع بوزينيللو وكذلك على نحو خاص مع توديريني ظهرت صورة التركي المدني المحب للأدب والعلوم. لكن صورة العالم البعيد، الغرائبي البديع، كانت لا تزال قائمة، وكالعادة عرفت البندقية كيف تستفيد اقتصادياً من علاقتها بالشرق. وتحت أروقة قصور العدل في ساحة سان ماركو، بدأت تُفتح مقاهٍ تقدم القهوة بنكهة القرفة، ذلك المشروب الشرقي الأسود الذي ذكر كارلو جولدوني في مسرحيته **«العروس الفارسية»** وصفته الصحيحة. وخلال أيام الكرنفال الصاخبة كان من الممكن رؤية رجل تركي يمشي على الحبل المشدود بين برج الأجراس والساحة، كما نرى اليوم هبوط ملاك أو حمامة صغيرة من المكان نفسه. وفي الوقت ذاته، كان بمقدور الرحالة الزائرين للمدينة التجوال بين المحال التجارية دون وجود منازل، على شاكلة السوق الشرقي النمطي، ويشمون عبق الشرق الغرائبي ويعيشون أجواءه التي طال الحلم بها.

(1) G.B. Toderini, *Letteratura turchesca*, Venezia, Giacomo Storti, 1787; Preto, *Venezia e i turchi*, cit., pp. 525-533.

التسلسل الزمني للأحداث

750م	أول توثيق للاتصالات بين البندقية والبلدان الإسلامية في شمال إفريقيا.
813–820	تقريباً. الدوجي أنييللو بارتشيتباتسيو يؤكد أمر باسيليوس ليو الخامس الأرميني تحريم التجارة مع المسلمين.
828	نقل جسد ماري مرقس من الإسكندرية إلى البندقية.
841،	فصل الربيع. أرسلت البندقية، بناء على طلب من البيزنطيين، أسطولها ضد المسلمين، فلقي الهزيمة بالقرب من تارانتو.
842	اشتباكان جديدان في كوارنارو بالقرب من سوساك ينتهيان بهزيمة البندقية.
864–875	تقريباً. يرسل الدوجي الأسطول لإنقاذ الحملة على المسلمين بقيادة لودوفيكو الثاني، وانتصرت البندقية في مياه البحر الأيوني.
970	تقريباً. باسيلوس يهدد بحرق السفن البندقية إذا استمرت في تجارتها مع المسلمين.
970–976	تقريباً. الدوجي بيترو كانديانو الرابع يسمح للسفينة التجارية بالذهاب إلى المهدية عاصمة إفريقية.

1003-1002 أسطول البندقية يساعد البيزنطيين المحاصرين في باري من طرف المسلمين، مما يؤدي إلى مفاجأة كلا الجانبين.

1008-991 الدوجي بيترو أورسيولو الثاني يرسل البعثات الدبلوماسية إلى الأمراء المسلمين.

1100 البنادقة يلتزمون بمساعدة جوفريدو دي بوليوني لمدة شهرين. ثم يساعدون بالدوين للاستيلاء على حيفا.

1110 اشتباك أسطول البندقية مع فاطميي مصر، أثناء الغزو الصليبي لفلسطين.

1125-1122 البنادقة، بقيادة الدوجي دومينيكو ميكيل يساعدون فارموندو، القائم بعمل بالدوين، ويحررون يافا من الحصار ويدمرون الأسطول القادم من مصر.

1204 تحويل الحملة الصليبية الرابعة التي غادرت البندقية، من الأراضي المقدسة إلى القسطنطينية.

1208-1207 معاهدة سلام وتجارة مع سلطان حلب.

1208-1206 تقريباً. معاهدات سلام وتجارة مع السلطان الأيوبي لمصر.

1220 معاهدة سلام وتجارة مع سلاجقة الروم.

1225 معاهدة سلام وتجارة مع سلطان حلب وأمير اللاذقية والسيد صهيون.

1229 معاهدة سلام وتجارة مع السيد صهيون.

1229 معاهدة سلام وتجارة مع سلطان حلب.

1231 معاهدة سلام وتجارة مع الحفصيين بتونس.

1238 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان الأيوبي لمصر.

1244 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان الأيوبي لمصر.

1251 معاهدة سلام وتجارة مع الحفصيين بتونس.

1254 معاهدة سلام وتجارة مع سلطان حلب.

1254 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان المصري.

1261 أول استخدام للأسد رمزاً للدولة البندقية.

1271 معاهدة سلام وتجارة مع الحفصيين بتونس.

1288 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان المصري.

1295–1324 مملكة الأمير عثمان، مؤسس الدولة العثمانية.

1302 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان المصري.

1305 معاهدة سلام وتجارة مع الحفصيين بتونس.

1306 معاهدة سلام وتجارة مع أولجايتو الملك الإيلخاني على إيران.

1317 معاهدة سلام وتجارة مع الحفصيين بتونس.

1320 معاهدة سلام وتجارة مع أبي سعيد بهادور الملك الإيلخاني على إيران.

1324–1362 مملكة الأمير العثماني أورهان.

1331 اتفاق سلام وتجارة بين دوق كانديا وأمير منتشا.

1332 معاهدة سلام وتجارة مع خان أوزبك التتار في القرم.

1337 اتفاق سلام وتجارة بين دوق كانديا وأمير آيدين.

1337 اتفاق سلام وتجارة بين دوق كانديا وأمير منتشا.

1340 معاهدة سلام وتجارة مع خان التتار جاني بيك في القرم.

1342 معاهدة سلام وتجارة مع خان التتار جاني بيك في القرم.

1344 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان المصري.

1347 معاهدة سلام وتجارة مع خان التتار جاني بيك في القرم.

1348 هدنة بين العصبة المقدسة (قبرص والبندقية ورودس) وأمير آيدين.

1353 اتفاق سلام وتجارة بين دوق كانديا وأمير آيدين.

1355 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان المصري.

1356 معاهدة سلام وتجارة دائمة، مع حاكم طرابلس وجربة.

1356 اتفاق السلام والتجارة الدائم، مع أمير التتار قريم (سولجاتي، وتعرف الآن سام ستاري قريم في شبه جزيرة القرم) التابع لخان القرم.

1357 إرسال سفير لالتماس التوصل إلى اتفاق مع حاكم مراكش.

1358 إرسال سفير لالتماس التوصل إلى اتفاق مع حاكم طرابلس الغرب.

1358 اتفاق سلام وتجارة بين دوق كانديا وأمير منتشا.

1358 معاهدة مع خان بيرديبيك التتار في القرم.

1358 معاهدة سلام وتجارة دائمة مع الأمير التتري لقيريم (سولجاتي) التابع لخان القرم.

1360 إرسال سفيرين لمراد الأول لتهنئته بفتح أدرنة.

1361 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان المصري.

1362–1389 تقريباً. مملكة الأمير العثماني مراد الأول.

1370 اتفاق سلام وتجارة مع شيخ أويس من الأسرة الجلائرية، حاكم العراق وغرب إيران.

1372 معاهدة سلام وتجارة مع شيخ أويس.

1375 اتفاق سلام وتجارة بين دوق كانديا وأمير منتشا.

1384 أول سفير عثماني يصل إلى البندقية.

1389–1402 مملكة السلطان العثماني بايزيد الأول.

1390 معاهدة سلام مع بايزيد الأول.

1392 معاهدة سلام وتجارة مع الحفصيين بتونس.

1396 البنادقة يقتصرون على توفير الدعم اللوجستي للمشاركين في حملة نيكوبولس ضد العثمانيين.

1400 معاهدة سلام وتجارة مع ملك غرناطة.

1402 هزيمة بايزيد الأول في أنقرة على يد تيمورلنك. والدولة العثمانية على وشك أن تختفي.

1403 اتفاق البندقية وجنوة ورودس وبيزنطة مع الأمير العثماني سليمان شلبي.

1403 اتفاق سلام وتجارة بين دوق كانديا وأمير منتشا.

1407 اتفاق سلام وتجارة بين دوق كانديا وأمير منتشا.

1408 اتفاق مع الأمير العثماني سليمان شلبي.

1411 اتفاق مع الأمير العثماني موسى.

1413–1421 مملكة السلطان العثماني محمد الأول.

1414 معاهدة سلام وتجارة دائمة مع أمير منتشا.

1415 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان المصري.

1416-1419 الحرب الأولى بين البندقية والعثمانيين.

1416، 29 مايو. أسطول البندقية يدمر الأسطول العثماني، بقيادة جالس بيك، بالقرب من غاليبولي.

1419 اتفاق مع السلطان محمد الأول.

1421-1444، 1446-1451 مملكة السلطان العثماني مراد الثاني.

1422 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان المصري.

1423-1430 الحرب بين العثمانيين والبندقية على سالونيك.

1427 معاهدة سلام وتجارة مع الحفصيين بتونس.

1430 معاهدة مع السلطان مراد الثاني.

1438 معاهدة سلام وتجارة مع الحفصيين بتونس.

1442 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان المصري.

1444-1446، 1451-1480 مملكة السلطان العثماني محمد الثاني (محمد الفاتح).

1446 معاهدة مع السلطان محمد الثاني، بعد تبادل الملك مع مراد الثاني.

1451 معاهدة مع محمد الثاني.

1453، 29 مايو. الفتح العثماني للقسطنطينية. وسفن البندقية تنجح في كسر الحصار والفرار. وبعد فترة وجيزة يتم قتل المبعوث الدائم للبندقية جيرولامو مينوتو بأمر من السلطان.

1454 معاهدة مع أمير كرمان.

1454 معاهدة مع السلطان محمد الثاني.

1456 معاهدة سلام وتجارة مع الحفصيين بتونس.

1463–1479 حرب بين البندقية والعثمانيين.

1470 الفتح العثماني لنيغروبونتي.

1469–1478 التوغل العثماني في فريولي.

1479 معاهدة سلام مع السلطان محمد الثاني.

1480–1512 مملكة السلطان العثماني بايزيد الثاني.

1482 معاهدة سلام مع السلطان بايزيد الثاني.

1499–1502 حرب بين البندقية والعثمانيين.

1499 التوغل العثماني في فريولي. هزيمة البندقية في مياه زونكيو.

1502 معاهدة سلام مع السلطان بايزيد الثاني.

1507 معاهدة سلام موقعة في البندقية من السفير المملوكي تغري بردي، ربما لم تعتمد أبداً من جانب سلطان مصر.

1508 معاهدة سلام مع أمير باديس في المغرب.

1509 البنادقة يأخذون بعين الاعتبار إمكانية طلب المساعدة من السلطان العثماني في الحرب ضد عصبة كمبراي.

1512–1520 مملكة السلطان العثماني سليم الأول.

1512 معاهدة سلام وتجارة مع السلطان المصري.

1513 معاهدة سلام مع السلطان سليم الأول.

1517 الغزو العثماني لمصر.

1517 معاهدة مع السلطان سليم الأول، تؤكد الامتيازات الممنوحة بالفعل من المماليك المهزومين إلى البندقية.

1518 القرصان خيرالدين بربروس يسلم الجزائر إلى السلطان العثماني.

1520–1566 مملكة السلطان العثماني سليمان الأول (سليمان القانوني).

1521 معاهدة سلام مع السلطان سليمان الأول.

1523–1538 حكم الدوجي أندريا جريتي، والد ألفيز.

1528 خيرالدين بربروس يصبح أمير الأسطول العثماني بلقب «سيد الجزر».

1534 وفاة ألفيز جريتي الشهير باسم بايوغلو (ابن النبيل).

1536 وفاة الصدر الأعظم إبراهيم باشا، اليوناني المولود في بارجا التابعة للبندقية.

1537–1540 الحرب بين البندقية والعثمانيين.

1538، 28 سبتمبر هزيمة أسطول العصبة المقدسة في بريفيزا، وانتصار خيرالدين بربروس.

1540 معاهدة سلام مع السلطان سليمان الأول.

1544 الأدميرال خيرالدين يترك الخدمة.

1566–1574 مملكة السلطان العثماني سليم الثاني.

1566–1651 «سلطنة الحريم».

1567 معاهدة سلام مع السلطان سليم الثاني.

1570–1573 الحرب بين العثمانيين والبندقية على قبرص.

1571، 7 أكتوبر. نصر ليبانتو (وقع بالفعل قبالة سواحل جزر كوتسولاري).

1573 معاهدة مع السلطان سليم الثاني.

1574–1595 مملكة السلطان العثماني مراد الثالث.

1574–1583 أصبحت نور بانو والدة.

1575 معاهدة سلام مع السلطان مراد الثالث.

1575 إنشاء أول فندق للأتراك في البندقية.

1595–1603 مملكة السلطان العثماني محمد الثالث.

1595 معاهدة مع السلطان محمد الثالث.

1595–1603 أصبحت صفية، ذات الأصل الألباني، والدة.

1603 مقتل رئيس الخصيان البيض للمقاومة في القصر الإمبراطوري غضنفر آغا.

1603–1617 مملكة السلطان العثماني أحمد الأول.

1603–1605 أصبحت هندان، ذات الأصل البوسني، والدة.

1604 معاهدة سلام مع السلطان أحمد الأول.

1617–1618، 1622–1623 مملكة السلطان العثماني مصطفى الأول.

1618–1622 مملكة السلطان العثماني عثمان الثاني.

1619 معاهدة سلام مع السلطان عثمان الثاني.

1621 إنشاء ثاني فندق للأتراك في البندقية.

1623–1640 مملكة السلطان العثماني مراد الرابع.

1623–1651 أصبحت كوسم الوالدة باشا مع ابنيها مراد الرابع وإبراهيم الأول، وكذلك مع الحفيد محمد الرابع، ابن إبراهيم الأول وتورهان.

1625 معاهدة مع السلطان مراد الرابع.

1640–1648 مملكة السلطان العثماني إبراهيم الأول.

1641 معاهدة سلام مع السلطان إبراهيم الأول.

1645–1669 الحرب بين العثمانيين والبندقية على كريت (حرب كانديا).

1648–1687 مملكة السلطان العثماني محمد الرابع.

1651 مقتل الوالدة كوسم؛ وتولي تورهان السلطة.

1651–1656 «سلطنة الآغوات».

1654، 13 مايو. الحملة الأولى لأسطول البندقية على مضيق الدردنيل.

1655، 21 يونيو. الحملة الثانية على مضيق الدردنيل بقيادة لاتزارو موتشينيجو.

1656، 26 يونيو. أسطول البندقية بقيادة لورنزو مارتشيللو يقضي على الأسطول العثماني.

1656، 15 سبتمبر. تعهد الوالدة تورهان بمنصب الصدر الأعظم إلى الكوبرولو محمد باشا.

1657، 16 يوليو. أسطول البندقية يلقى هزيمة من قِبل العثمانيين.

1661 يموت الصدر الأعظم الكوبرولو محمد باشا ويخلفه ابنه الكوبرولو زادة فاضل أحمد باشا.

1661 على إثر القانون الذي يفرض على جميع المسلمين أن يقيموا في الفندق، يترك تجار فارس مدينة البندقية.

1667 يصل الصدر الأعظم إلى كانديا لتوجيه العمليات الحربية.

1669، 5 سبتمبر. استسلام قلعة كانديا.

1670 معاهدة سلام مع السلطان محمد الرابع.

1676، 19 أكتوبر. يصبح قرة مصطفى باشا من ميرزفون الألبانية الصدر الأعظم.

1684–1699 حرب المورة، المسماة بالعصبة المقدسة أو الحرب الكبرى: الإمبراطورية، والبندقية وبولندا وروسيا ضد العثمانيين.

1687–1691 مملكة السلطان العثماني سليمان الثاني.

1691–1695 مملكة السلطان العثماني أحمد الثاني.

1695–1703 مملكة السلطان العثماني مصطفى الثاني.

1699 معاهدة سلام كارلوفيتش مع السلطان العثماني مصطفى الثاني.

1701 معاهدة سلام مع السلطان العثماني مصطفى الثاني.

1703–1730 مملكة السلطان العثماني أحمد الثالث.

1706 معاهدة سلام مع السلطان العثماني أحمد الثالث.

1714–1718 الحرب بين البندقية والعثمانيين.

1718 معاهدة سلام باساروفجا مع السلطان العثماني أحمد الثالث؛ نهاية المملكة البندقية في المورة.

1730–1754 مملكة السلطان العثماني محمود الأول.

1733 السلام الدائم مع الإمبراطورية العثمانية.

1754–1757 مملكة السلطان العثماني عثمان الثالث.

1758–1774 مملكة السلطان العثماني مصطفى الثالث.

1763 معاهدة سلام مع باي تونس.

1763 معاهدة سلام مع داي الجزائر.

1765 معاهدة سلام مع سلطان المغرب.

1768 معاهدة سلام مع داي الجزائر.

1774–1789 مملكة السلطان العثماني عبدالمجيد الأول.

1778 الحملة البندقية المنتصرة في مياه طرابلس.

1784–1792 الحرب بين البندقية وتونس.

1784–1786 أدميرال البندقية أنجيلو إيمو يقصف موانئ صفاقس وحلق الوادي وبنزرت.

1789–1807 مملكة السلطان العثماني سليم الثالث.

1792 معاهدة سلام مع باي تونس.

1795، يونيو–أكتوبر. حالة حرب بين البندقية والمغرب.

1795 بنود إضافية على معاهدة السلام مع سلطان المغرب.

1796، 10 أكتوبر. داي الجزائر يعلن الحرب على البندقية.

1797، 12 مايو. سقوط جمهورية البندقية.

ببليوغرافيا

مصادر غير منشورة لدى أرشيف دولة البندقية

مبعوث مقيم في القسطنطينية.

الحكماء الخمسة في السوق.

المجمع، معارض الأمراء.

المجمع، سكريتي.

قناصل التجار.

مفتشو الدولة.

موثقو كانديا.

وصايا توثيقية.

الحجر الإجرامي.

سيكريتا، وثائق إيران.

مجلس الشيوخ، رسائل السفراء، القسطنطينية.

مجلس الشيوخ، مار.

مجلس الشيوخ، ميستي.

مجلس الشيوخ، سيكريتي مجلس الشيوخ، تيرا.

مصادر منشورة

M. Amari, *I diplomi arabi del R. Archivio fiorentino*, Firenze, Le Monnier, 1863-1867.

— *'Al 'Umari, Condizioni degli stati cristiani dell'Occidente secondo una relazione di Domenichino Doria da Genova. Testo arabo con versione italiana e note*, in «Memorie della R. Accademia dei Lincei», s. III, vol. XI, 1883, pp. 67-103.

A. Benetti, *Viaggi a Costantinopoli di Gio. Battista Donado senator veneto spedito bailo alla Porta Ottomana l'anno 1680*, Venetia, Poletti,1688 .

M. Cavalli, *Informatione dell'offitio dell'ambasciatore*, a cura di T. Bertelé, Firenze-Roma, Olschki, 1935.

R. Cessi, *Documenti relativi alla storia di Venezia anteriori al Mille*, Padova, Gregoriana, 1942.

A. Dandolo, *Andreae Danduli ducis Venetiarum Chronica per extensum descripta: aa. 46-1280 d.C.*, a cura di E. Pastorello, *Rerum Italicarum Scriptores*, t. I, parte III, fasc. 1, Bologna, Zanichelli, 1938.

Diplomatarium veneto-levantinum, a cura di G.M. Thomas e R. Predelli,2 voll., Venetiis, Deputazione, 1880-1899.

I «documenti turchi» dell'Archivio di Stato di Venezia, a cura di M.P. Pedani Fabris, con l'edizione dei regesti di †A. Bombaci, Roma, Ministero per i beni culturali e ambientali, 1994.

Edrisi, *L'Italia descritta nel «Libro di Re Ruggero»*, a cura di M. Amari e C. Schiapparelli, Roma, Salviucci, 1883.

A. Gallotta e G. Bova, *Documenti dell'Archivio di Stato di Venezia concernenti il principe ottomano Gem*, in «Studi Magrebini», 12, 1980, pp. 175-199.

F. Girardi (a cura di), *Venezia e il regno di Tunisi. Gli accordi diplomatici conclusi fra il 1231 e il 1456*, Roma, Viella, 2006.

Hazi Halifé Mustafà, *Cronologia historica scritta in lingua turca, persiana*

& araba, tradotta nell'idioma italiano da Gio: Rinaldo Carli nobile Justinopolitano e dragomanno della Serenissima Repubblica di Venezia, consacrata all'Illustrissimo & eccellentissimo sig. Gio: Battista Donado, senatore e savio grande, Venetia, Andrea Paoletti, 1697.

Ibn Battūta. *I viaggi*, a cura di C.M. Tesso, Torino, Einaudi, 2006.

ibn Khaldūn. *The Muqaddimah. An Introduction to History*, trad. ingl. di F. Rosenthal, a cura di N.J. Dawood, Princeton (N.J.). Princeton University Press, 1967.

Inventory of the «Lettere e Scritture Turchesche» in the Venetian State Archives, a cura di M.P. Pedani, basato sul materiale raccolto da A. Bombaci †, Leiden-Boston (Mass.), Brill, 2010.

Itinerario di Marc'Antonio Pigafetta gentil'huomo vicentino, a cura di M. Petrizzelli, Vicenza, Biblioteca Civica Bertoliana, 2008.

L. de Mas Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Âge. Introduction historique; Documents; Supplément*, 3 voll., Paris, Henri Plon, J. Baur et Détaille, 1866-1872.

— *Privilèges commerciaux accordés à la république de Venise par les princes de Crimée et les empereurs mongols du Kiptchak*, in «Bibliothèque de l'École des chartes», 29, 1868, pp. 580-595.

Kâtib Çelebi, *Tuhfetü'l-kibâr fî esfâri'l-bihâr*, a cura di I. Bostan, Ankara, Başbakanlık Denizcelik Müsteşarlığı, 2008.

M. Membré, *Relazione di Persia (1542)*, a cura di G.R. Cardona, Napoli, Iuo, 1969.

Muş ţ afa b. 'Abd Allah Kâtip Çelebi, *The History of the Maritime Wars of the Turks*, a cura di J. Mitchell, London, Oriental Translation Fund, 1831 (rist. New York, 1968).

al-Qalqašandī, *Şubḥ al-a'šā fī şinā 'at al-inšā*, a cura di Muḥammad 'Abd al-Rasūl Ibrāhīm, 14 voll., Cairo, 1331-1338 [1913-1920].

K. Parker (a cura di), *Early Modern Tales of Orient. A Critical Anthology*, London - New York, Routledge, 1999.

Pîrî Reis, *Kitab-ı Bahriye*, 4 voll., İstanbul. The Historical Research Foundation, 1988.

M. Pozza (a cura di), *I trattati con Aleppo. 1207-1254*, Venezia, Il Cardo, 1990.

Relaciones de don Juan de Persia, prologo e note di N.A. Cortéz, Madrid, Graficas Ultra, 1946.

Le relazioni degli ambasciatori veneti al Senato, raccolte, annotate ed edite da E. Alberi, serie 3, vol. I, Firenze, Tipografia all'insegna di Clio,1840 ; vol. II, Firenze, Tipografia all'insegna di Clio, 1844; vol. III, Firenze, Società Editrice Fiorentina, 1855.

Relazioni degli ambasciatori veneti al Senato. XIII: *Costantinopoli (1590-1793)*, a cura di L. Firpo, Torino, Bottega d'Erasmo, 1984.

Relazioni di ambasciatori veneti al Senato, a cura di M.P. Pedani-Fabris. vol. XIV: *Relazioni inedite. Costantinopoli (1508-1789)*, Padova, Bottega d'Erasmo - Aldo Ausilio Editore, 1996.

Le relazioni degli ambasciatori veneti al Senato durante il secolo decimosesto, Appendice, a cura di E. Alberi, Firenze, a spese dell'editore, 1863.

Le relazioni degli stati europei lette al Senato dagli ambasciatori veneziani nel secolo decimosettimo, raccolte e annotate da N. Barozzi e G. Berchet, *Turchia*, Venezia. P. Naratovich, 1871.

G.B. Salvago, *«Africa ovvero Barbarìa». Relazione al doge di Venezia sulle Reggenze di Algeri e Tunisi (1625)*, a cura di A. Sacerdoti, Padova, Cedam, 1937.

M. Sanudo, *I diarii*, 58 voll., Venezia, Deputazione Editrice, 1879-1903.

C. Schiapparelli, *Notizie d'Italia estratte dall'opera di Šihāb addīn 'al'Umarī intitolata masalik 'al-'abṣār fī mamālik 'al-'amṣār*, in «Atti R. Accademia dei Lincei», s. IV, 4, 1888, pp. 304-316.

T. Spandugino, *Delle historie et origine de Principi de Turchi, ordine della Corte, loro rito et costumi*, in *Documents inédits relatifs à l'histoire de la Grèce au Moyen Âge*, a cura di K.N. Sathas, 9 voll., Paris, Maisonneuve, 1980-1990, pp. 134-261.

Taki-Eddin-Ahmed Makrizi, *Histoire des sultans Mamlouks de l'Egypte*, a cura di E.M. Quatremère, 2 voll., Paris, Oriental Translation Fund of Great Britain and Ireland, 1845.

Târih-i Na'îmâ, a cura di M. İpşirli, 4 voll., Ankara, Türk Tarih Kurumu, 2007.

The Three Brothers or the Travels and Adventures of Sir Anthony, Sir Robert and Sir Thomas Sherley in Persia, Russia, Turkey, Spain, London, Hurst, Robinson & Co., 1825.

Tursun Bey, *Târîh-i ebü'l-feth*, İstanbul, Baha Matbaasi, 1977; trad. it. *La conquista di Costantinopoli*, a cura di L. Berardi, Milano, Mondadori, 2007.

I viaggi in Persia degli ambasciatori veneti Barbaro e Contarini, a cura di L. Lockhart, R. Morozzo della Rocca e M.F. Tiepolo, Roma, Istituto Poligrafico dello Stato, 1973.

G. Zaganelli (a cura di), *Crociate, testi storici e poetici*, Milano, Mondadori, 2004.

Zuhrī, *Kitāb al-Dju'rāfiya. Mappamonde du calife al-Ma'mūn reproduite par Fazārī (IIIe-IVe s.) rééditée et commentée par Zuhrī (VIe-XIIe s.) par M. Hadj-Sadok*, in «Bulletin d'Études Orientales», 21, 1968, pp. 1-312.

أعمال لها طابع عام

G. Cappelletti, *Storia della Repubblica di Venezia*, 13 voll., Venezia, Antonelli,1803-1876 .

A. Da Mosto, *I dogi di Venezia nella vita pubblica e privata*, Firenze, Giunti Martello, 1983.

P. Molmenti, *La storia di Venezia nella vita privata*, 3 voll., Bergamo, Istituto Italiano d'Arti Grafiche, 1927.

M.P. Pedani, *Breve storia dell'Impero Ottomano*, Roma, Aracne, 2006.

P. Preto, *Venezia e i turchi*, Firenze, Sansoni, 1975.

D. Quataert, *L'Impero Ottomano (1700-1922)*, Roma, Salerno, 2008.

G. Ravegnani, *Bisanzio e Venezia*, Bologna, Il Mulino, 2006.

S. Runciman, *Storia delle Crociate*, Torino, Einaudi, 1966.

J. Schacht, *Introduzione al diritto musulmano*, Torino, Fondazione Giovanni Agnelli, 1995.

M.F. Viallon, *Venise et la Porte Ottomane (1453-1566). Un siècle de relations vénéto-ottomanes de la prise de Constantinople à la mort de Soliman*, Paris, Economica, 1995.

المراجع

الفصل الأول

G. Aldrighetti e M. De Biasi, *Il gonfalone di San Marco. Analisi storicoaraldica dello stemma, gonfalone, sigillo e bandiera della Città di Venezia*, Venezia, Filippi, 1998.

A.M. Chugg, *The Lost Tomb of Alexander the Great*, London, Periplus Publishing, 2004.

D. Howard, *Venice and the East. The Impact of the Islamic World on Venetian Architecture 1100-1500*, New Haven (Conn.) - London, Yale University Press, 2000.

W. Leaf e S. Purcell, *Heraldic Symbols, Islamic Insignia and Western Heraldry*, London, Victoria and Albert Museum, 1986.

L.A. Mayer, *Saracenic Heraldry*, Oxford, Clarendon Press, 1933.

M. Meinecke, *Zur Mamlukischen Heraldik*, in «Mitteilungen des Deuschen Archäologischen Instituts, Abteilung Kairo», 28, 2, 1972, pp. 213-287.

M.P. Pedani, *Bahrî Mamlûk. Venetian Commercial Agreements*, in H.C.

Güzel, C.C. Oğuz e O. Karatay (a cura di), *The Turks*, 6 voll., Ankara, Yeni Türkiye, 2002, vol. II, pp. 298-305.

— *Mamluk Lions and Venetian Lions 1260-1261*, in «Electronic Journal for Oriental Studies», 7, 21, 2004, pp. 1-17.

— *Convergenze mediterranee. La rotta del leone*, in E. Cingano, A. Ghersetti e L. Milano (a cura di), *Animali tra zoologia, mito e letteratura nella cultura classica e orientale*, Padova, Sargon, 2005, pp. 365-372.

— *Il leone di san Marco o san Marco in forma di leone?*, in «Archivio Veneto», s. V, 166, 2006, pp. 185-190.

A. Rizzi, *I leoni di San Marco. Il simbolo della Repubblica Veneta nella scultura e nella pittura*, 2 voll., Venezia, Arsenale, 2001.

S. Tramontin, *Origini e sviluppi della leggenda marciana*, in F. Tonon (a cura di), *Le origini della Chiesa di Venezia*, Venezia, Studium Cattolico Veneziano, 1987, pp. 167-186.

G. Vianello, *Marco Evangelista. L'enigma delle reliquie*, Napoli, M. D'Auria, 2006.

الفصل الثاني

F. Bauden, *The Mamluk Documents of the Venetian State Archives. Handlist*. in «Quaderni di Studi Arabi», 20-21, 2002-2003, pp. 147-156.

— *L'achat d'esclaves et la rédemption des captifs à Alexandrie d'après deux documents arabes d'époque mamelouke conservés aux Archives de l'État à Venise (ASVe)*, in «Mélanges de l'Université Saint-Joseph»,2005 ,68 , pp. 269-328.

S. Bono, *Schiavi musulmani nell'Italia moderna. Galeotti, vu' cumprà, domestici*, Napoli, Esi, 1999.

R. Cessi, *Politica, economia, religione*, in *Storia di Venezia*. II: *Dalle Origini del Ducato alla Quarta Crociata*, Venezia, Centro internazionale delle Arti e del Costume, 1958, pp. 67-476.

F. Corner, *Notizie storiche delle chiese e monasteri di Venezia e Torcello*, Bologna, Arnaldo Forni, 1990.

L. Duchesne, *Le Liber Pontificalis: texte, introduction et commentaire*, t. I, Paris, De Boccard, 1981.

I. Fees, *Ricchezza e potenza nella Venezia medioevale: la famiglia Ziani*, Roma, Il Veltro, 2005.

G. Jehel, *L'Italie et le Maghreb au Moyen Âge. Conflits et échanges du VIIe au XVe siècle*, Paris, Puf, 2001, pp. 105-107.

G. Hanotaux, *Les Vénitiens ont-ils trahi la Chrétienté en 1202?*, in «Revue Historique», 5, 1877, pp. 74-102.

B. Lewis, *Gli assassini. Una setta radicale islamica, i primi terroristi della storia*, Milano, Mondadori, 1992.

M. Lombard, *Arsenaux et Bois de Marine dans la Méditerranée musulmane (VIIe-XIe siècles)*, in M. Mollat (a cura di), *Le Navire et l'Économie Maritime du Moyen-Âge au XVIIIe siècle principalement en Méditerranée*, Paris, Sevpen, 1958, pp. 53-99.

W. Maleczek, *Innocenzo III e la quarta crociata. Da forte ispiratore a spettatore senza potere*, in G. Ortalli, G. Ravegnani e P. Schreiner (a cura di), *Quarta Crociata. Venezia, Bisanzio, Impero Latino*, Venezia, Istituto Veneto, 2006, pp. 389-422.

G. Musca, *L'emirato di Bari*, Bari, Dedalo, 1978.

M. Nallino, *Il mondo arabo a Venezia fino alle Crociate*, in *La Venezia del Mille*, Firenze, Sansoni, 1965, pp. 163-181.

Osmân Agha de Temechvar, Prisonnier des infidèles. Un soldat ottoman dans l'Empire des Habsbourg, trad. fr. di F. Hitzel, Arles, Sindbad Actes Sud, 1998.

L.G. Paludet, *Ricognizione delle reliquie di san Nicolò*, Vicenza, Lief, 1994.

M.P. Pedani, *In nome del Gran Signore. Inviati ottomani a Venezia dalla caduta di Costantinopoli alla guerra di Candia*, Venezia, Deputazione Editrice, 1994.

X. de Planhol, *L'Islam et la mer. La mosquée et le matelot VIIe-XXe siècle*, Paris, Perrin, 2000.

S. Romanin, *Storia documentata di Venezia*, 10 voll., III ed. Venezia, Filippi, 1973.

F. Semi, *Gli «Ospizi» di Venezia*, Venezia, Helvetia, 1983.

J. Sumption, *Monaci, santuari, pellegrini. La religione nel Medioevo*, Roma, Editori Riuniti, 1981.

A. Unali, *Ceuta 1415. Alle origini dell'espansione europea in Africa*, Roma, Bulzoni, 2000.

D. Valèrien, *Bougie, port Maghrébin, 1067-1510*, Rome, École Française de Rome, 2006.

A. Zanelli, *Le schiave orientali a Firenze nei secoli XIV e XV*, Bologna, Arnaldo Forni, 1976.

الفصل الثالث

Ahmed Refik Altınay, *Kadınlar saltanatı*, 4 voll., II ed. İstanbul, Türkiye Ekonomik ve Toplumsal Tarih Vakfı, 2002.

F. Babinger, *Maometto il Conquistatore e il suo tempo*, Torino, Einaudi, 1977.

G. Berchet, *La Repubblica di Venezia e la Persia*, Torino, Paravia, 1865.

— *La Repubblica di Venezia e la Persia, nuovi documenti e regesti*, in «Raccolta Veneta. Collezione di documenti relativi alla storia, all'archeologia, alla numismatica», s. I, t. I, 1866, pp. 5-62.

A. Bettagno (a cura di), *Guardi. Quadri turcheschi*, Milano, Electa, 1993.

N. Capponi, *Lepanto 1571. La Lega Santa contro l'Impero Ottomano*, Milano, il Saggiatore, 2008.

N. Di Cosmo, *Circostanze e limiti dell'espansione veneziana in Oriente nel Trecento*, in S. Winter (a cura di), *Venezia, l'altro, l'altrove*, Roma-Vene-

zia, Edizioni di Storia e Letteratura, 2006.

A. Fabris, *From Adrianople to Constantinople. Venetian-Ottoman Diplomatic Missions, 1360-1453*, in «Mediterranean Historical Review», 7,2 , dicembre 1992, pp. 154-200.

M.P. Pedani, *Bahrî Mamlûk. Venetian Commercial Agreements*, in H.C.

Güzel, C.C. Oguz e O. Karatay (a cura di), *The Turks*, 6 voll., Ankara, Yeni Türkiye, 2002, vol. II, pp. 298-305.

M.P. Pedani Fabris, *La dimora della pace. Considerazioni sulle capitolazioni tra i paesi islamici e l'Europa*, Venezia, Cafoscarina, 1996.

L. Pubblici, *Venezia e il mar d'Azov. Alcune considerazioni sulla Tana nel XIV secolo*, in «Archivio Storico Italiano», 163, 3, 2005, pp. 435-484.

G. Renier Michiel, *Origine delle feste veneziane*, III ed. Venezia, Filippi, 1994.

G. Ricci, *I turchi alle porte*, Bologna, Il Mulino 2008.

G.M. Thomas (a cura di), *Handelsvertrag zwischen der Republik Venedig und dem Königreich Granada vom Jahre 1400*, in «Abhandlungen der K. Bayer. Akademie der Wiss.», cl. I, vol. XVII, fasc. 3, 1885, pp. 609-638.

Ş. Turan, *Türkiye-İtalya İlişkileri*. I: *Selçuklar'dan Bizans'ın Sona Erişine*, Ankara, T.C. Kültür Bakanlığı, 2000.

E. Zachariadou, *Trade and Crusade. Venetian Crete and the Emirates of Menteshe and Aydin (1300-1415)*, Venice, Istituto Ellenico, 1983.

الفصل الرابع

T. Bertelé, *Il palazzo degli ambasciatori di Venezia e le sue antiche memorie*, Bologna, Apollo, 1932.

E.R. Dursteler, *The Bailo in Constantinople. Crisis and Career in Venice's Early Modern Diplomatic Corps*, in «Mediterranean Historical Review», 2 ,16, dicembre 2001, pp. 1-30.

A. Fabris, *Artisanat et culture: recherches sur la production venitienne et la marche ottoman au XVIe siècle*, in «Arab Historical Review for Ottoman Studies», 3-4, dicembre 1991, pp. 51-60.

R. Mantran, *La vita quotidiana a Costantinopoli ai tempi di Solimano il Magnifico*, Milano, Rizzoli, 1985.

G. Necipoğlu, *Architecture, Cerimonial and Power. The Topkapı Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries*, Cambridge (Mass.) - London, The Mit Press, 1991.

G. Obeling e G. Martin Smith, *The Food Culture of the Ottoman Palace*, İstanbul, Republic of Turkey, Ministry of Culture, 2001.

A. Pannuti, *La comunità italiana di Istanbul nel XX secolo. Ambiente e persone*, İstanbul, Isis, 2006.

M.P. Pedani, *Le prime «sottoscrizioni a coda» dei tesorieri nell'impero ottomano*, in «Quaderni di Studi Arabi», 8, 1990, pp. 215-228.

— *The Oath of a Venetian Consul in Egypt (1284)*, in «Quaderni di Studi Arabi», 14, 1996, pp. 215-222.

— *Safiye's Household and Venetian Diplomacy*, in «Turcica», 32, 2000, pp. 9-32.

— *Appunti sul consolato veneto in Marocco nella seconda metà del XVIII secolo*, in «Quaderni di Studi Arabi», 19, 2001, pp. 87-100.

— *Il cerimoniale di corte ottomano. Il ricevimento degli ambasciatori stranieri (secoli XVI-XVIII)*, in E. Concina (a cura di), *Venezia e Istanbul. Incontri, confronti e scambi*, Udine, Forum, 2006, pp. 23-29.

— *Le compagnie delle arti e la liturgia civica ottomana*, in M.P. Pedani e I.-A. Pop (a cura di), *Dinamiche di sociabilità nel mondo euromediterraneo.*

Gruppi, associazioni, arti, confraternite e compagnie, Venezia-Bucarest, Istituto Romeno di Cultura e Ricerca Umanistica di Venezia, 2006, pp. 77-87.

— *Consoli veneziani nei porti del Mediterraneo in età moderna*, in R. Can-

cila (a cura di), *Mediterraneo in armi (secc. XV-XVIII)*, Palermo, Associazione Mediterranea, 2007, pp. 175-205.

J. Raby, *La Serenissima e la Sublime Porta. Le arti nell'arte della diplomazia1543-1600))*, in *Venezia e l'Islam. 828-1797*, Venezia, Marsilio,2007 .

Recueil de cent Etampes representant different nations du Levant. Paris, chez L. Cars, 1714.

H. Reindl-Kiel, *The Chickens of Paradise. Official Meals in the Mid-Seventeenth Century Ottoman Palace*, in S. Faroqhi e C.K. Neumann (a cura di), *The Illuminated Table, the Prosperous House*, Würzburg, Ergon Verlag, 2003, pp. 59-88.

الفصل الخامس

G. Akyılmaz, *Osmanlı Diplomasi Tarihi ve Teşkilatı*, Konya, s.e., 2000.

B. Arı, *Early Ottoman Diplomacy. Ad Hoc Period*, in A.N. Yurdusev (a cura di), *Ottoman Diplomacy. Conventional or Unconventional?*, Houndsmill, Basingstoke, Palgrave Macmillan, 2004, pp. 36-65.

A. Ashtor, *Levant Trade in the Later Middle Ages*, Princeton (N.J.), Princeton University Press, 1983.

G. Benzoni, *Venezia e la Persia*, in *Storie di viaggiatori italiani. L'Oriente*, Milano, Electa, 1985, pp. 70-87.

G. Berchet, *Relazioni dei consolati di Alessandria e di Soria*, Torino, Paravia, 1866.

M. Bergamo, *I tappeti dei dogi*, in *Arazzi e tappeti dei dogi nella basilica di San Marco*, Venezia, Marsilio, 1999, pp. 63-75.

M.D. Birnbaum, *The Long Journey of Gracia Mendes*, Budapest –New York, Central European University Press, 2003.

A. Boscaro, *Giapponesi a Venezia nel 1585*, in *Venezia e l'Oriente*, Firenze, Olschki, 1987, pp. 409-429.

G. Cappovin, *Tripoli e Venezia nel secolo XVIII*, Verbania, Airoldi, 1942.

F. Cardini, *Le ambasciate dell'Asia in Italia*, in *Storie di viaggiatori italiani. L'Oriente*, Milano, Electa, 1985, pp. 166-181.

A. di Leone Leoni, *The Hebrew Portuguese Nations in Antwerp and London at the Time of Charles V and Henry VIII. New Documents and Interpretations*. Jersey City (N.J.), Ktav, 2005.

B. Doumerc, *Venise et l'émirat hafside de Tunis (1231-1535)*, Paris, L'Harmattan, 1999.

B. Lewis, *Europa barbara e infedele. I musulmani alla scoperta dell'Europa*, Milano, Mondadori, 1983.

F. Lucchetta, *Il medico e filosofo bellunese Andrea Alpago (†1522) traduttore di Avicenna*, Padova, Antenore, 1964.

— *L'«affare Zen» in Levante nel primo Cinquecento*, in «Studi Veneziani», 1968 ,10, pp. 109-219.

F. Lucchetta e G. Lucchetta, *Un medico veneto in Siria nel Cinquecento: Cornelio Bianchi*, in «Quaderni di Studi Arabi», 4, 1986, pp. 1-56.

G. Lucchetta, *I viaggiatori veneti nel Medioevo e nell'età moderna*, in *Viaggiatori veneti alla scoperta dell'Egitto*, Venezia, Arsenale, 1985, pp. 43-68.

G. Musca, *Carlo Magno e Hārūn al-Rashīd*, Bari, Dedalo, 1996.

M.P. Pedani, *La prima ambasceria cinese a Venezia (1652)*, in «AN», 2, 4, 1994, p. 38.

— *Ottoman Diplomats in the West. The Sultan's Ambassadors to the Republic of Venice*. in «Tarih incelemeleri dergisi», 11, 1996, pp. 187-202.

— *Ottoman Envoys to Venice (1384-1644)*, in «Arab Historical Review for Ottoman Studies», 13-14, ottobre 1996, pp. 111-115.

— *Venezia e la Cina*, in «AN», 4, 2-3, 1996, pp. 10-11.

— *Ottoman Fetihnames. The Imperial Letters Announcing a Victory*, in

«Tarih incelemeleri dergisi», 13, 1998, pp. 181-192.

— *Das «Triplex Confinium». Diplomatische Probleme nach dem Karlowitz Frieden*, in «Croatica Christiana Periodica», 48, 2001, pp. 115-120.

— *Dalla frontiera al confine*, Roma, Herder, 2002.

— *Venetian Consuls in Egypt and Syria in the Ottoman Age*, in «Mediterranean World», 18, 2006, pp. 7-21.

G. Rota, *Diplomatic Relations between Safavid Persia and the Republic of Venice. An Overview*, in H.C. Güzel, C.C. Oğuz e O. Karatay (a cura di), *The Turks*, Ankara, Yeni Türkiye, 2002, vol. II, pp. 580-587.

H. Tuncer e H. Tuncer, *Osmanlı diplomasisi ve Sefaretnameler*, Ankara, Ümit Yayıncılık, 1997.

Venezia e l'Islam. 828-1797, Venezia, Marsilio, 2007.

J. Wansbrough, *A Mamaluk Ambassador to Venice in 913-1508*, in «Bulletin of the School of Oriental and African Studies», 26, 3, 1963, pp. 503-530.

L.B. Zekiyan, *Xoğa Safar ambasciatore di Shâh 'Abbâs a Venezia*, in «Oriente Moderno», 58, 7-8, 1978, pp. 357-367.

الفصل السادس

A. Ağır, *Whether Balkapanı Han had Witnessed the Continuity of Commerce in the Old Venetian Quarter of Istanbul*, in *7 Centuries of Ottoman Architecture «A Supra-National Heritage»*, İstanbul, Yem, 1999, pp.95-102 .

B. Arbel, *Trading Nations. Jews and Venetians in the Early Modern Eastern Mediterranean*, Leiden - New York - Köln, Brill, 1995.

A. Chong, *Gentile Bellini in Istanbul. Myths and Misunderstandings*, in C. Campbell e A. Chong (a cura di), *Bellini and the East*, London, National Gallery Company, 2005, pp. 98-129.

C. Coco, *La lussuria del viver turchesco*, Venezia, Centro Internazionale della Grafica, 1990.

C. Coco e F. Manzonetto, *Baili veneziani alla Sublime Porta. Storia e caratteristiche dell'ambasciata veneta a Costantinopoli*, Venezia, Comune di Venezia, 1985.

E. Concina, *Fondaci. Architettura, arte e mercatura tra Levante, Venezia e Alemagna*, Venezia, Marsilio, 1997.

L. De Zanche, *I vettori dei dispacci diplomatici veneziani da e per Costantinopoli*, in «Archivio per la storia postale, comunicazioni e società»,2 .1 , agosto 1999, pp. 19-43.

— *Tra Costantinopoli e Venezia. Dispacci di Stato e lettere di mercanti dal Basso Medioevo alla caduta della Serenissima*, Prato, Istituto di Studi Storici Postali, 2000.

A. Fabris, *Il dottor Girolamo Fasaneo, «alias» Receb*, in «Archivio Veneto», s. V, 23, 1989, pp. 105-118.

S. Yerasimos e J.-L. Bacqué-Grammond, *La Résidence du Baile de Venise à Balıkpazarı. Essai de localisation*, in «Anatolia Moderna. Yeni Anadolu 1996 ,6 ,«, pp. 1-11.

M. Lesure, *Michel Černović «explorateur secretus» à Constantinople (1556-1563)*, in «Turcica», 15, 1983, pp. 127-154.

F. Lucchetta, *L'ultimo progetto di una scuola orientalistica a Venezia nel Settecento*, in «Quaderni di Studi Arabi», 3, 1985, pp. 1-43.

— *Il medico del bailaggio di Costantinopoli. Fra terapie e politica (secc. XV-XVI)*, in *Veneziani in Levante. Musulmani a Venezia*, suppl. al n.15 di «Quaderni di Studi Arabi», 1997, pp. 5-50.

— *Lo studio delle lingue orientali nella scuola per dragomanni di Venezia alla fine del XVII secolo*, in «Quaderni di Studi Arabi», 5-6, 1987-1988, pp. 479-498.

— *La scuola dei «giovani di lingua» veneti nei secoli XVI e XVII*, in «Quaderni di Studi Arabi», 7, 1989, pp. 19-40.

— *Sulla ritrattistica veneziana in Oriente*, in «Quaderni di Studi Arabi»,,8 1990, pp. 113-122.

— *Sui dragomanni di Venezia*, in «Quaderni di Studi Arabi», 11, 1993, pp. 215-222.

I. Palumbo Fossati Casa, *L'école Venitienne des «Giovani di Lingua»*, in F. Hitzel (a cura di), *Istanbul et les langues orientales*, Paris, L'Harmattan, 1997, pp. 109-122.

M.P. Pedani, *Simbologia ottomana nell'opera di Gentile Bellini*, in «Atti dell'Istituto Veneto di Scienze, Lettere ed Arti», Classe di Scienze Morali, Lettere ed Arti, 155, 1, maggio 1997, pp. 1-29.

— *The Portrait of Mehmed II. Gentile Bellini, the Making of an Imperial Image*, in *Turkish Art*, Genève, s.e., 1999, pp. 555-558.

— *Un appunto d'archivio su Nakkaş Sinan*, in «Thesaurismata», 31, 2001, 131-136.

— *Balas Rubies for the King of England (1413-1415)*, in «Electronic Journal of Oriental Studies», 5, 7, 2002, pp. 1-13.

— *Venetian Consuls in Egypt and Syria in the Ottoman Age*, in «Mediterranean World», 18, 2006, pp. 7-21.

P. Preto, *La guerra segreta. Spionaggio, sabotaggi, attentati*, in *Venezia e la difesa del Levante. Da Lepanto a Candia 1570-1670*, Venezia, Arsenale, 1986, pp. 79-85.

— *Un infortunio professionale di Melchiorre Guilandino, direttore dell'Orto Botanico di Padova*, in «Quaderni per la Storia dell'Università di Padova», 22-23, 1989-1990, pp. 233-236.

J. Raby, *Mehmed the Conqueror's Greek Scriptorium*, in «Dumbarton Oaks Papers», 37, 1983, pp. 15-62.

G. Ricci, *Ossessione turca. In una retrovia cristiana dell'Europa moderna*, Bologna, Il Mulino, 2002.

J.M. Rogers, *Mehmed the Conqueror. Between East and West*, in C. Campbell e A. Chong (a cura di), *Bellini and the East*, London, National Gallery Company, 2005, pp. 80-97.

E.N. Rothman, *Between Venice and Istanbul. Trans-Imperial Subjects and*

Cultural Mediation in the Early Modern Mediterranean, tesi di dottorato, University of Michigan, 2006.

C. Schmidt Arcangeli, *La pittura «orientalista» a Venezia dal XV al XVII secolo*, in *Venezia e l'Islam. 828-1797*, Venezia, Marsilio, 2007, pp. 139-161.

G. Trebbi, *Il segretario veneziano*, in «Archivio Storico Italiano», 144,527 1986, pp. 35-73.

Vedute di Venezia ed Istanbul attraverso i secoli, İstanbul, Istituto Italiano di Cultura, 1995.

N. Warner, *The True Description of Cairo. A Sixteenth-Century Venetian View*, 2 voll., London, The Arcadian Library - Oxford University Press, 2006.

A. Zannini, *Burocrazia e burocrati a Venezia in età moderna. I cittadini originari*, Venezia, Istituto Veneto, 1993.

الفصل السابع

G. Ágoston, *Information, Ideology and Limits of Imperial Power. Ottoman Grand Strategy in the Context of Ottoman-Habsburg Rivalry*, in V.H. Aksan e D. Goffman (a cura di), *The Early Modern Ottomans*, Cambridge, Cambridge University Press, 2007, pp. 75-103.

B. Arbel, *Nûr Bânû (c. 1530-1583). A Venetian Sultana?*, in «Turcica»,,24 1992, pp. 241-259.

F. Babinger, *Dâvûd-Celebi. Un pretendente al trono ottomano morto a Sacile*, in «Ce fastu?», 33-35, 1-6, 1957-1959, pp. 11-22.

— *Baffo Cecilia*, in *Dizionario Biografico degli Italiani*, vol. V, Roma, Istituto della Enciclopedia Italiana, 1963, pp. 161-163.

S. Bono, *Un altro Mediterraneo. Una storia comune fra scontri e integrazioni*, Roma, Salerno, 2008.

R. Dorigo Ceccato, *Su Bekrī Mustafā, personaggio del teatro delle ombre*

turco e arabo. in *Veneziani in Levante. Musulmani a Venezia*, suppl. al n. 15 di «Quaderni di Studi Arabi», 1997, pp. 85-96.

E. Dursteler, *Venetians in Constantinople. Nation, Identity, and Coexistence in the Early Modern Mediterranean*, Baltimore (Md.), The Johns Hopkins University Press, 2006.

A. Fabris, *Un caso di pirateria veneziana. La cattura della galea del bey di Gerba (21 ottobre 1584)*, in «Quaderni di Studi Arabi», 8, 1990, pp. 91-112.

— *Hasan «Il Veneziano» tra Algeri e Costantinopoli*, in *Veneziani in Levante, Musulmani a Venezia*, suppl. al n. 15 di «Quaderni di Studi Arabi», 1997, pp. 51-66.

C. Luca, *Appunti sui rapporti del «Sultano» Jahja (c. 1585-1648) con i Paesi Romeni e Venezia*, in G. Arbore Popescu (a cura di), *Dall'Adriatico al Mar Nero. Veneziani e romeni, tracciati di storie comuni*, Roma, Edizioni del Cnr, 2003, pp. 71-80.

G. Nemeth-Papo e A. Papo, *Ludovico Gritti. Un principe-mercante del Rinascimento tra Venezia, i Turchi e la corona d'Ungheria*, Mariano del Friuli (Go), Edizioni della Laguna, 2002.

M.P. Pedani, *A Seventeenth Century Muslim Traveller in Paris*, in «Quaderni di Studi Arabi», 13, 1995, pp. 227-236.

— *Venetians and Ottomans. From the Suez Canal to Diu (1502-1538)*, in *International Turkish Sea Power History Symposium. The Indian Ocean and the Presence of the Ottoman Navy in the 16th and 17th Centuries*, İstanbul, Naval Printing House, 2009, pp. II/3-9.

M.P. Pedani Fabris, *I Turchi e il Friuli alla fine del Quattrocento*, in «Memorie Storiche Forogiuliesi», 74, 1994, pp. 203-224.

— *Veneziani a Costantinopoli alla fine del XVI secolo*, in *Veneziani in Levante. Musulmani a Venezia*, suppl. al n. 15 di «Quaderni di Studi Arabi», 1997, pp. 67-84.

P. Preto, *Lo spionaggio turco a Venezia tra mito e realtà*. in G. Motta (a cura di), *I turchi, il Mediterraneo e l'Europa*, Milano, Franco Angeli,1988 ,

pp. 123-132.

— *I servizi segreti di Venezia*, Milano, il Saggiatore, 1994, pp. 107-109.

E. Rossi, *La sultana Nûr Bânû (Cecilia Venier-Baffo) moglie di Selim II 1566-1574)) e madre di Murâd III (1574-1595)*, in «Oriente Moderno», 1953 ,11 ,33, p. 433-441.

E.N. Rothman, *Becoming Venetian. Conversion and Transformation in the Seventeenth Century Mediterranean*, in «Mediterranean Historical Review», 21, 1, giugno 2006, pp. 39-75.

A. Servantie, *Giovan-Francesco Giustinian. A Venetian Technical Assistance to the Ottoman Fleet*, in Ö. Kumrular (a cura di), *View of Countering the Portuguese in the Indian Ocean (1531-1534), Türkler ve Deniz*, İstanbul, Kitap Yayınevi, 2007, pp. 147-163.

S.A. Skilliter, *The Letters of the Venetian «Sultana» Nûr Bânû and Her Kira to Venice*, in A. Gallotta e U. Marazzi (a cura di), *Studia turcologica memoriae Alexii Bombaci dicata*, Napoli, Iuo, 1982, pp. 515-536.

E. Spagni, *Una sultana veneziana*, in «Nuovo Archivio Veneto», 19, 1900, pp. 241-348.

A. Vanzan, *La Pia Casa dei Catecumeni in Venezia, un tentativo di «devshirme » cristiana?*, in A. Destro (a cura di), *Donne e microcosmi culturali*, Bologna, Pàtron, 1997.

W. Zele, *In laudem Iacobi Mamaluchi, ovvero vita di Jacopo da Malnisio detto il Mamelucco*, in «Studi Veneziani», 26, 1993, pp. 255-281.

الفصل الثامن

G. Ágoston, *Merces prohibitae. The Anglo-Ottoman Trade in War Materials and the Dependence Theory*, in *The Ottomans and the Sea*, «Oriente Moderno», n.s., 20, 2001, pp. 177-192.

S. Bono, *Corsari nel Mediterraneo. Cristiani e musulmani fra guerra, schiavitù e commercio*, Milano, Mondadori, 1993.

İ. Bostan, *Adriyatik'te Korsanlık. Osmanlılar, Uskoklar, Venedikler. 1575-1620*, İstanbul, Timaş, 2009, pp. 77-96.

E. Burke, *Francesco di Demetrio Litino, the Inquisition and the Fondaco dei Turchi*, in «Thesaurismata», 36, 2006, pp. 79-96.

E. Dursteler, *Commerce and Coexistence. Veneto-Ottoman Trade in the Early Modern Era*, in «Turcica», 34, 2002, pp. 105-133.

S. Faroqhi, *The Venetian Presence in the Ottoman Empire (1600-1630)*, in «The Journal of European Economic History», 15, 2, 1986, pp.345-384 .

C. Kafadar, *A Death in Venice (1575). Anatolian Muslim Merchants Trading in the Serenissima*, in *Raiyyet Rüsûmu*, «Journal of Turkish Studies»,,10 1986, pp. 191-217.

G. Lucchetta, *Note intorno a un elenco di turchi morti a Venezia*, in *Veneziani in Levante. Musulmani a Venezia*, suppl. al n. 15 di «Quaderni di Studi Arabi», 1997, pp. 133-146.

M.P. Pedani, *The Ottoman Empire and the Gulf of Venice (15th-16th c.)*, in T. Baykara (a cura di), *CIÉPO XIV. Sempozyumu Bildirileri*, Ankara, Türk Tarih Kurumu, 2004, pp. 585-600.

— *Beyond the Frontier. The Ottoman-Venetian Border in the Adriatic Context from the Sixteenth to the Eighteenth Centuries*, in A. Bues (a cura di), *Zones of Fracture in Modern Europe, Baltic Countries-Balkans-Northen Italy, Zone di frattura in epoca moderna. Il Baltico, i Balcani e l'Italia settentrionale*, Wiesbaden, Harrassowitz, 2005, pp.45-60 .

— *Venetian Consuls for Ottoman Subjects*, in *9th International Congress of Economic and Social History of Turkey*, Ankara, Türk Tarih Kurumu, 2005, pp. 213-219.

— *Gli ottomani in Adriatico tra pirateria e commercio*, in G. Nemeth e A. Papo (a cura di), *I Turchi, gli Asburgo e l'Adriatico*, Duino Aurisina (Ts), Assoc. Pier Paolo Vergerio, 2007, pp. 57-64.

— *Turchi in Canal Grande*, in R. Mamoli Zorzi (a cura di), *Oriente e Occidente sul Canal Grande*, «Annali di Ca' Foscari», 46, 2, 2007, pp. 39-54.

— *Between Diplomacy and Trade. Ottoman Merchants in Venice*, in S. Fa-

roqhi e G. Veinstein (a cura di), *Merchants in the Ottoman Empire*, Paris - Louvain - Dudley (Mass.), Peeters, 2008, pp. 3-21.

— *Ottoman Merchants in the Adriatic. Trade and Smuggling*, in «Acta Histriae», 16, 1-2, 2008, pp. 155-172.

A. Sagredo e F. Berchet, *Il fondaco dei turchi*, Milano, Giuseppe Civelli, 1860.

Ş. Turan, *Venedik'te Türk Ticaret Merkezi*, in «Belleten», 23, 126, aprile 1968, pp. 247-283.

U. Tucci, *Tra Venezia e mondo turco: i mercanti*, in *Venezia e i Turchi*, Milano, Electa, 1985.

G. Vercellin, *Mercanti turchi a Venezia alla fine del '500*, in «Il Veltro»,,2-4 1979, pp. 243-276.

— *Mercanti turchi e sensali a Venezia*, in «Studi Veneziani», n.s., 4, 1980, pp. 45-78.

الفصل التاسع

A. Afetinan, *Life and Works of Pirî Reis. The Oldest Map of America*, Ankara, Turkish Historical Society, 1987.

M. Amari, *De' titoli che usava la cancelleria de' Sultani di Egitto nel XIV secolo scrivendo ai reggitori di alcuni Stati italiani*, in «Reale Accademia dei Lincei», s. 3, 12, 1884-1885, pp. 507-534.

M. And, *La scena italiana in Turchia. La Turchia sulla scena italiana*, Ankara, Istituto Italiano di Cultura, 2004.

B. Arbel, *Maps of the World for Ottoman Princes? Further Evidence and Questions Concerning «The Mappamondo of Hajji Ahmed»*, in «Imago Mundi», 54, 2002, pp. 19-29.

P. Arturo da Carmignano di Brenta, *L'opera dei cappuccini durante la guerra di Candia (1645-1669)*, in «Ateneo Veneto», n.s., 8, 1-2, gennaiodicembre1970 , pp. 3-32.

J. Balagna, *L'imprimerie arabe en occident (XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles)*, Paris, Maisonneuve & Larose, 1984, pp. 18-24.

A. Bausani, *L'Italia nel Kitab-ï Bahriyye di Piri Reis*, a cura di L. Capezzone, Venezia, Università degli Studi Ca' Foscari, 1990.

G. Bellingeri, *Voci del Seicento ottomano*, in R. Simonato (a cura di), *Marco d'Aviano e il suo tempo*, Pordenone, Edizioni Concordia Sette,1993 , pp. 59-95.

M. Borrmans, *Observations à propos de la première édition imprimée du Coran à Venise*, in «Quaderni di Studi Arabi», 8, 1990, pp. 3-12.

— *Présentation de la première édition imprimée du Coran à Venise*, in «Quaderni di Studi Arabi», 9, 1991, pp. 93-126.

E. Concina (a cura di), *Venezia e Istanbul. Incontri, confronti e scambi*, Udine, Forum, 2006.

G. Curatola (a cura di), *Eredità dell'Islam. Arte islamica in Italia*, Cinisello Balsamo (Mi), Silvana Editoriale, 1993.

G.B. Donado, *Della letteratura de' Turchi*, Venetia, Poletti, 1688.

A. Fabris, *Note sul mappamondo cordiforme di Hacı Ahmed di Tunisi*, in «Quaderni di Studi Arabi», 7, 1989, pp. 3-17.

— *Il babuin, over alfabetto in lettera araba*, in «Lingua Nostra», 51, 2-3, 1990, pp. 40-41.

— *The Ottoman Mappamundi of Hajji Ahmed of Tunis*, in «Arab Historical Review for Ottoman Studies», 7-8, 1993, pp. 31-37.

F. Gabrieli, *L'Islam nella storia*, Bari, Dedalo, 1966, pp. 97-115.

N. Gürsel, *Resimli Dünya*, İstanbul, Can, 1999; trad. fr. *Les turbans de Venise*, Paris, Éditions du Seuil, 2001.

O. Karakartal, *Türk Kültüründe İtalyanlar, Siyaset, kültür ilişkileri ve Türk edebiyatında İtalyan imajı üzerine bir inceleme*, İstanbul, Eren,2002 .

E. Lippi, *1517. L'ottava al serivizio del Sultano*, in «Quaderni Veneti»,,34 2001, pp. 49-88.

— *Born to Rule the World. An Italian Poet Celebrates the Deeds of the Sultan Selim I*, in «Tarih İncelemeleri Dergisi», 19, 1, 2004, pp. 87-92.

— *«Per dominar il mondo nato». Vita e gesta di Selim I Sultano (prima parte)*, in «Quaderni Veneti», 40, dicembre 2004, pp. 19-106.

— *«Per dominar il mondo nato». Vita e gesta di Selim I Sultano (seconda parte)*, in «Quaderni Veneti», 42, dicembre 2005, pp. 37-118.

— *«Per dominar il mondo nato». Vita e gesta di Selim I Sultano (terza parte)*, in «Quaderni Veneti», 43, giugno 2006, pp. 35-91.

— *«Per dominar il mondo nato». Vita e gesta di Selim I Sultano (quarta parte)*, in «Quaderni Veneti», 45, giugno 2008, pp. 7-61.

D. Loupis, *Ottoman Adaptations of Early Italian Isolaria*, in «Journal of the International Map Collectors' Society», 80, primavera 2000, pp.15-23 .

F. Lucchetta, *Fama di Marcantonio Bragadin presso i turchi e sue reliquie*, in «Ateneo Veneto», 5, 2, 2006, pp. 127-156.

A. Malvezzi, *L'islamismo e la cultura europea*, Firenze, Sansoni, 1956.

M. Nallino, *Venezia in antichi scrittori arabi*, in «Annali della Facoltà di Lingue e Letterature Straniere di Ca' Foscari», 2, 1963, pp. 111-120.

A. Nuovo, *Il Corano arabo ritrovato (Venezia, P. e A. Paganini, tra l'agosto 1537 e l'agosto 1538)*, in «La Bibliofila», 89, 1987, pp. 237-270.

G. Ortalli, *Scuole e maestri tra Medioevo e Rinascimento. Il caso veneziano*, Bologna, Il Mulino, 1996.

O. Pamuk, *Il castello bianco*, Torino, Einaudi, 2006.

M.P. Pedani, *Intorno alla questione della traduzione del Corano*, in L. Billanovich e P. Gios (a cura di), *Gregorio Barbarigo, patrizio veneto, vescovo e cardinale nella tarda Controriforma (1625-1697)*, 6 voll., Padova, Istituto per la Storia Ecclesiastica Padovana, 1999, vol. III/1, pp. 353-365.

— *Ludovico Marracci. La vita e l'opera*, in *Il Corano. Traduzioni, traduttori e lettori in Italia*, a cura di G. Zatti, Milano, Itl, 2000, pp. 9-30.

— *Immagini Ottomane di Venezia*, in «Venezia viva», 31, 2, 2004, pp.10-15 .

— *Ludovico Marracci e la conoscenza dell'Islam in Italia*, in «Campus Maior. Rivista di Studi Camaioresi», 2004, pp. 6-23.

A.M. Piemontese, *Venezia e la diffusione dell'alfabeto arabo nell'Italia del Cinquecento*, in «Quaderni di Studi Arabi», 5-6, 1987-1988, pp.641-660 .

M. Pigafetta, *Itinerario da Vienna a Costantinopoli*, a cura di D. Perocco, Padova, Il Poligrafo, 2008. *Pîrî Reis haritası*, Ankara, Türk Tarih Kurumu, 1999.

Sezai (Ali Mümtaz Arolat), *Venedik*, in «Şâir Nedim», 4, 6, febbraio 1919, p. 63.

M. Soykut, *Image of the «Turk» in Italy. A History of the «Other» in Early Modern Europe: 1453-1683*, Berlin, Klaus Schwarz, 2001.

G.B. Toderini, *Letteratura turchesca*, Venezia, Giacomo Storti, 1787.

G. Vercellin, *Venezia e l'origine della stampa in caratteri arabi*, Padova, Il Poligrafo, 2001.

فهرس الأعلام

نبذة عن المترجم

المترجم حسين محمود عميدٌ جامعيٌ وأستاذ الأدب الإيطالي بالجامعات المصرية والإيطالية. حائز جوائز عدّة. فضلاً عن تعاونه مع الصحف والمجلات العربية، له مؤلفات بالإيطالية مثل «شعر الميادين»، وترجمات إلى اللغة الإيطالية لروايات وأشعار ومؤلفات مصرية. ترجم للأدباء ستيفانو بينّي، وفيتوريني، وتابوكي، وداريو فو، كما راجع كتباً كثيرة تُرجمت من الإيطالية إلى العربية، وقدّم لأخرى، مثل «الديكاميرون» و«بندول فوكو» و«الكيلومتر الذهبي».

البندقية بوابة الشرق

الكتاب لوحة تفصيلية للعلاقات بين الشرق والغرب في فترة تاريخية محدَّدة، تتضمَّن الشواهد التاريخية والوثائق والفنون، بأسلوب سلس. كما يوفّر أسساً متينة لتأصيل العلاقات المزدهرة دوماً بين جانبي العالم، من خلال عرض توثيقي مفصّل للصلات بين المدينة العائمة، البندقية، والدولة العثمانية، عارضاً التطورات التي أدّت إلى قيام جمهورية البندقية والعوامل التي ازدهرت في ظلها الدولة العثمانية. ومن خلال السرد الزمني لتطور العلاقات بين البندقية والدول الإسلامية، تذهب المؤلفة إلى أن الدولة العثمانية، في الفترة التاريخية التي يغطيها الكتاب، كانت الممثل الأبرز للعالم الإسلامي. كما تعالج هذه العلاقة في العصور الوسطى وهي التي شهدت انتشار الإسلام وازدهار البندقية. يوضّح الكتاب الكثيرمن التأثيرات الشرقية في ثروة البنادقة الفنية، ويحيط بأوجه العلاقة كافة بين الشرق والغرب، حتى الطريف منها، على الصعد التجارية والسياسية، وعلى الصعد الإنسانية أيضاً، وبعضها يتناول دور المرأة وحكايات الجواسيس وغيرذلك من معلومات تؤسس لقراءة في التاريخ الإنساني جديدة وفريدة.

السعر 95 درهماً







